

الأدب الإسلامي والأموي

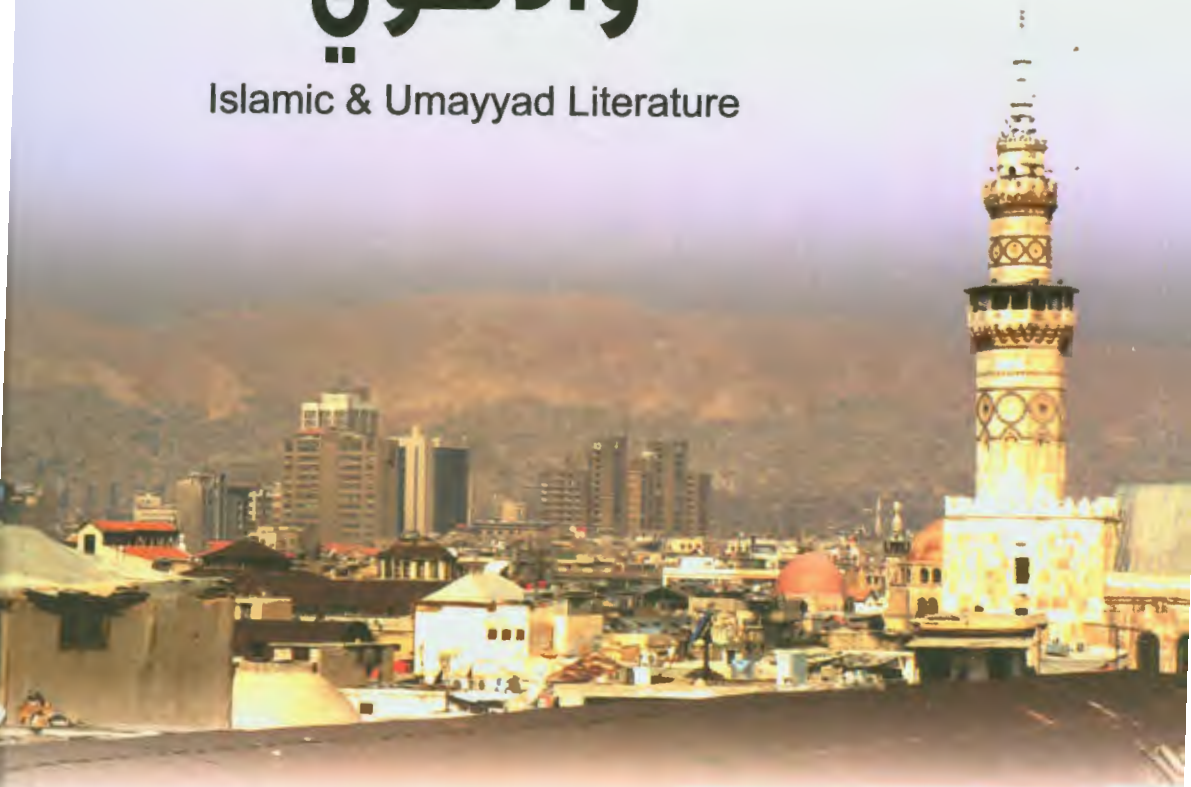
Islamic & Umayyad Literature

الدكتور
سامي يوسف أبو زيد



الأدب الإسلامي والأموي

Islamic & Umayyad Literature



Yaman



9 789957 069063

دار
المسيرة

للنشر والنوزيع والطباعة

شركة جمال أحمد محمد حيف وإخوانه

www.massira.jo



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأدب الإسلامي والأموي

Islamic & Umayyad Literature

رقم التصنيف : 810.92

المؤلف ومن هو في حكمه : سامي يوسف أبو زيد

عنوان الكتاب : الأدب الاسلامي والاموي

رقم الايداع : 2011/10/3836

الواصفات : الادب العربي / العصر الاسلامي

بيانات النشر : عمان - دار المسيرة للنشر والتوزيع

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

حقوق الطبع محفوظة للنشر

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار المسيرة للنشر والتوزيع عمان - الأردن
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على اشرطة
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Copyright © All rights reserved

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data
base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher

الطبعة الأولى 2012م - 1433هـ



عنوان الدار

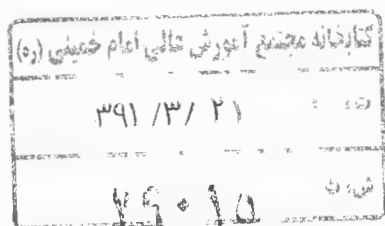
الرئيسي : عمان - العبدلي - مقابل البنك العربي هاتف : 962 6 5627049 فاكس : 962 6 5627059
الفرع : عمان - ساحة المسجد الحسيني - سوق البتراء هاتف : 962 6 4640950 فاكس : 962 6 4617640
صندوق بريد 7218 عمان - 11118 الأردن

E-mail: Info@massira.jo . Website: www.massira.jo

الأدب الإسلامي والأموي

Islamic & Umayyad Literature

الدكتور
سامي يوسف أبو زيد



الفهرس

11	المقدمة
----	---------

الباب الأول

الأدب الإسلامي

17	الفصل الأول: عصر صدر الإسلام
19	المبحث الأول: الإسلام وأثره في الحياة العقلية والاجتماعية
24	المبحث الثاني: موقف الإسلام من الشعر
30	المبحث الثالث: القرآن الكريم
36	المبحث الرابع: الحديث الشريف
39	الفصل الثاني: الشعراء المخضرمون (أ)
41	تمهيد
45	المبحث الأول: حسان بن ثابت
52	المبحث الثاني: لامية حسان بن ثابت
60	المبحث الثالث: قصيدة "عدمنا خيلنا"
67	الفصل الثالث: الشعراء المخضرمون (ب)
69	المبحث الأول: كعب بن زهير
80	المبحث الثاني: الخطيئة
93	المبحث الثالث: الخنساء
97	الفصل الرابع: النثر في صدر الإسلام
99	المبحث الأول: الخطابة الإسلامية

112	المبحث الثاني: الكتابة في صدر الإسلام.....
-----	--

الباب الثاني

الأدب الأموي

119	الفصل الأول: الحياة السياسية، والاجتماعية، والعقلية والثقافية.....
121	المبحث الأول: الحياة السياسية.....
125	المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية.....
127	المبحث الثالث: الحياة العقلية والثقافية.....
129	الفصل الثاني: الشعر الأموي: بيئاته والمؤثرات العامة فيه.....
131	المبحث الأول: بيئات الشعر الأموي.....
135	المبحث الثاني: عودة العصبية القبلية.....
137	المبحث الثالث: الموالي والثقافة الأجنبية.....
143	المبحث الرابع: المجالس الأدبية.....
148	المبحث الخامس: الأسواق.....
151	المبحث السادس: الاهتمام برواية الشعر ونقده.....
155	الفصل الثالث: الشعر السياسي.....
157	المبحث الأول: الأحزاب السياسية.....
161	المبحث الثاني: شعراء الزبيريين.....
166	المبحث الثالث: شعراء الخوارج.....
175	المبحث الرابع: شعراء الشيعة.....
186	المبحث الخامس: شعراء بني أمية.....
191	الفصل الرابع: فن النقائض.....
193	تمهيد.....
195	المبحث الأول: عوامل نشأة النقائض.....

198	المبحث الثاني: نقائص جرير والأخطل
201	المبحث الثالث: نقائص جرير والفرزدق
207	الفصل الخامس: شعراء النقائص
209	المبحث الأول: الأخطل
220	المبحث الثاني: الفرزدق
231	المبحث الثالث: جرير
241	المبحث الرابع: موازنة بين الأخطل والفرزدق وجرير
253	الفصل السادس: شعر الغزل
255	تمهيد
257	المبحث الأول: الغزل الحضري
259	المبحث الثاني: عمر بن أبي ربيعة
268	المبحث الثالث: من غزل عمر بن أبي ربيعة: قصيدة أمن آل نعيم
276	المبحث الرابع: الغزل العذري
280	المبحث الخامس: جميل بن معمر
284	المبحث السادس: من غزل جميل بن معمر: قصيدة في انتظار بُشينة
291	الفصل السابع: ألوان أخرى من الشعر
293	المبحث الأول: الحنين إلى الأهل والوطن
302	المبحث الثاني: شعر الطبيعة
305	المبحث الثالث: الخمريات
308	المبحث الرابع: الأراجيز
311	الفصل الثامن: الخطابة الأموية
313	تمهيد
314	المبحث الأول: خطب البيعة والخلافة

316	المبحث الثاني: الخطب السياسية
318	المبحث الثالث: الخطب الدينية: (الوعظ والقصص)
322	المبحث الرابع: خطب الوفود
324	المبحث الخامس: أعلام الخطباء
324	زياد ابن أبيه
329	الحجاج بن يوسف
333	أبو حمزة الشاري
335	المبحث السادس: سمات الخطابة في العصر الأموي
337	الفصل التاسع: الكتابة في العصر الأموي
339	المبحث الأول: الكتابة الفنية: عبد الحميد الكاتب
346	المبحث الثاني: الرسائل السياسية
350	المبحث الثالث: الرسائل الإخوانية (الشخصية)
353	المبحث الرابع: الرسائل الوعظية
355	ملحق (1): نصوص من الشعر الإسلامي والأموي
357	مرثية أبي ذؤيب الهذلي
361	مرثية متمم بن نويرة اليربوعي
364	ملحمة الفرزدق
370	ملحمة ذي الرمة
376	قصيدة للعرجي
381	قصيدة لجرير
388	قصيدة لليلى الأخيلية
399	ملحق (2): نصوص من النثر الأموي
401	خطبة لمعاوية بن أبي سفيان في وفود العرب
402	خطبة يزيد بن معاوية بعد موت أبيه

403	خطبة لعبد الملك بن مروان في أهل مكة
404	خطبة عمر بن عبد العزيز
405	رسالة عبد الملك بن مروان إلى الحجاج
410	رسالة عبد الله بن الزبير إلى عبد الله بن عباس
412	رسالة الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز
413	رسالة غيلان الدمشقي إلى بعض إخوانه
416	رسالة عبد الحميد بن يحيى في الطاعة
427	المصادر والمراجع

المقدمة

الحمد لله الذي أنطقنا بروائع البيان، والصلاة والسلام على النبي الأمين محمد ﷺ أفصح العرب لساناً وأشرفهم بياناً.

وبعد، فهذا الكتاب الموسوم بـ « الأدب الإسلامي والأموي » هو حصيلة محاضرات على طلبة قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب بجامعة الإسراء الخاصة، خلال عقد من الزمن (2001-2010م)، يرصد مسار الأدب في عصر صدر الاسلام والدولة الأموية الممتد من عهد النبوة إلى نهاية العهد الأموي.

وخلال رحلة التدريس هذه تجمعت لديّ مادة غزيرة حول الأدب الإسلامي، والأموي، وقد أعدت النظر فيها حين أخذت طريقها إلى النشر، فهي لم تُعدّ ملكاً للطالب الجامعي وحده، وإنما أصبحت ملكاً للقارئ العام والمتخصص معاً، فأعدت كتابتها وأضفت إليها المزيد من المادة العلمية، ومن النصوص بالقدر الذي يحتمله الكتاب المطبوع.

وزّعت الكتاب على قسمين: أولهما عهد صدر الإسلام، وثانيهما العهد الأموي، ويتناول كل منهما موضوعات شتى في تاريخ الأدب، وأعلامه في الشعر والنثر، فضلاً عن تحليل نماذج من النصوص الأدبية تحليلاً فنياً.

وزعت أولهما على أربعة فصول، وقد جاء الفصل الأول تمهيداً لهذه الدراسة، فتحدثت عن الإسلام وأثره في الحياة العقلية والاجتماعية، وبيّنت موقف الإسلام من الشعر، من خلال الحديث عن القرآن الكريم والحديث الشريف، وتحدثت في الفصلين الثاني والثالث عن الشعراء المخضرمين من أمثال حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، والخطيب، والخنساء، ودار الفصل الرابع حول الخطابة والكتابة الإسلامية.

وأما القسم الثاني فقد وزعته على تسعة فصول على النحو التالي:

الفصل الأول: وقد خصصته للحديث عن الحياة السياسية، فالاجتماعية، فالعقلية والثقافية في العصر الأموي.

الفصل الثاني: وقد خصصته للحديث عن بيئات الشعر الأموي والمؤثرات العامة فيه، وهي: عودة العصبية القبلية، والموالي والثقافة الأجنبية، والمجالس الأدبية، والأسواق، والاهتمام برواية الشعر ونقده.

الفصل الثالث: وقد خصصته للحديث عن الشعر السياسي بوصفه نتاجاً لشعراء الأحزاب السياسية من زبيرية، وخوارج، وشيعة، فضلاً عن الدولة الأموية التي استقطبت عدداً من الشعراء، بمن فيهم شعراء الأحزاب الأخرى.

الفصلان الرابع والخامس: وقد خصصتهما للحديث عن فن النقائض الذي ازدهر في هذا العصر ووجد بيئة حاضنة له في العراق، فتناولت عوامل نشأته، وأعلامه، والموازنة بينهم، ونقائض جرير والأخطل، ونقائض جرير والفرزدق، وحللت نماذج من أشعارهم.

الفصل السادس: وقد أفردته لدراسة شعر الغزل، بفروعه الثلاثة: التقليدي، والحضري، والعذري. وترجمة أبرز أعلامه وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر، وحللت أنموذجين من أشعارهما.

الفصل السابع: وهو دراسة لألوان أخرى من الشعر هي: الحنين إلى الأهل والوطن، وشعر الطبيعة، والخمرات، والأراجيز.

الفصلان الثامن والتاسع: وقد خصصتهما للحديث عن النشر الأموي بآفاقه التي تبلورت في الخطابة، والكتابة الفنية، والرسائل بمختلف أنواعها من سياسية وإخوانية ووعظية.

وأنتهت الكتاب بملحقين اثنين، أفردت أولهما بنصوص شعرية من الشعر الإسلامي والأموي، وأفردت ثانيهما بنصوص نثرية من الأدب الأموي.

أما الأهداف التي نودُّ أن يحققها هذا الكتاب فهي:

1. تذوق الأدب الرفيع، والاستمتاع به، وإصدار أحكام صحيحة عليه، بعد تحليله إلى عناصره واستعراض ما فيه من أفكار وتجارب، ومن صور وأخيلة، ومن عبارات منتقاة، لتكون أحكامهم وليدة الدراسة الواعية والذوق المستنير.
2. توضيح العلاقة الوثيقة بين الأدب العربي ومكارم الأخلاق، ذلك أن الأدب العربي أسهم على مرّ العصور في تهذيب النفوس وغرس الأخلاق الفاضلة في الناس.

3. دراسة أعلام الشعر في هذا العصر دراسة نقدية تاريخية، تُرسم فيها شخصياتهم الأدبية، ويتضح من خلالها أثرهم في تطور الشعر العربي وتجديده.
 4. حث الطلبة على حفظ أكبر قدر من هذه النصوص ؛ لأنها تُعين الطالب في مواطن القول والكتابة، وتغرس فيه حب الأدب واللغة العربية، فإذا أحبهما فقد أحبّ ضمناً القرآن الكريم والإسلام وتاريخ السلف، وهذا من أنبل أهداف الدراسة الأدبية.
 5. توظيف هذه الدراسة لتخريج جيل قادر على استخدام اللغة العربية، والإفادة من مهارات اللغة المتنوعة التي تركز على النصوص الأدبية.
- إن أبناءنا الطلبة الذين كُتب من أجلهم هذا الكتاب يعيشون أجمل سنوات العمر التي تتفتح فيها النفوس للقيم النبيلة والمثل العليا، وتحلم بعالم من الصفاء والنور.
- نسأل الله - العلي القدير - أن ينفعهم بهذا الجهد المتواضع؛ ليعيدوا بالعزائم المؤمنة سيرة السلف الصالح، وأن يهديهم سواء السبيل.
- وأخيراً، فإنني لأرجو أن أكون قد وفّقت في هذه الدراسة، وهي جد متواضعة قابلة للتطوير والتجديد، وليست نهاية المطاف، فما أخذتُ كتب كتاباً إلا وتمنى أن يعيد النظر فيه، ذلك أننا بشر نخطئ ونصيب.
- بقي عليّ في الختام أن أتوجه بالشكر الجزيل لدار المسيرة التي لها يد في نشر هذا الكتاب وإبرازه، ثم شكري الخاص لكل من ساعدني على تحمل عناء البحث وصعوباته، وأخص بالذكر القائمين على مكتبة جامعة الإسراء الخاصة.
- فإلى الزملاء الأعزاء وإلى طلبتي الأحبة في مختلف الجامعات... أهدي هذه الدراسات التي يضمها هذا الكتاب... وأرجو أن ينتفع بها القارئ...
- وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

المؤلف

الباب الأول

الأدب الإسلامي

عصر صدر الإسلام

المبحث الأول: الإسلام وآثره في الحياة العقلية والاجتماعية

المبحث الثاني: موقف الإسلام من الشعر

المبحث الثالث: القرآن الكريم

المبحث الرابع: الحديث الشريف

الفصل الأول

عصر صدر الإسلام

المبحث الأول

الإسلام وأثره في الحياة العقلية والاجتماعية

يُعدّ عصر صدر الإسلام من أعظم العصور في تاريخ الإسلام، ففيه بزغ فجر الإسلام وظهرت الدعوة الإسلامية التي نقلت البشر بعامة والعرب بخاصة من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الحق واليقين، ومن العبودية والرق والطغيان إلى الحرية والأمن والمساواة.

ويبدأ هذا العصر من بعثة الرسول ﷺ، وينتهي بانتهاء عهد الخلفاء الراشدين: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضوان الله عليهم، وقيام الدولة الأموية سنة 41هـ. وفقد صدع النبي ﷺ بالرسالة وهو بمكة في شهر رمضان سنة 13 قبل الهجرة - 610م، وعمره أربعون سنة، ودعا قريشاً والعرب والناس كافة إلى الإسلام.

الإسلام هو دين الله الذي يُعد آخر الديانات السماوية، وترد هذه الكلمة لغةً بمعنى الخضوع والانقياد في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ [الزمر: 54]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66] ثم أصبحت تطلق أصلاً على الدين الخفيف في مثل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، وعلى هذا جاء الإسلام مُكَملاً لجميع الشرائع التي سبقته، بوصفه آخرها وأكملها؛ فهو دين ودولة ومعاملات بين الناس، لكونه يقوم على جانبين مهمين: جانب عقدي وجانب عملي. فالجانب العقدي يثوم على الإيمان بوحداية الله، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبقضاء الله وقدره، وتعدّ هذه الأركان أصول العقيدة الإسلامية.

وأما الجانب العملي فيقوم على خمسة أركان يلتزم بها المسلم اعتقاداً وعملاً، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

فالصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن مكتوبة على المؤمنين، وقد بين الرسول ﷺ كيفيتها، وأوقاتها، وورد التكليف بها في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: 103]، والصوم هو صوم شهر رمضان امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، والحج مرة في العمر لكل مستطيع، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]، وهو في أشهر معلومات، وقد بين الرسول ﷺ كيفيته وما يقترن به من عبادة، والزكاة وهي ما يؤخذ من الغني ويرد على الفقير من مال ومحصول، وتأتي مقرونة بالصلاة في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 277].

ويرسم الإسلام مبادئ الحياة الفضلى للمسلمين في سلوكهم وأخلاقهم لينالوا رضا ربهم ومحبه، يقول الله ﷻ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]، وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: 14]، وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا آصَاكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ (٧) ولا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصَوَاتِ لَصَوْتُ الْحَبِيرِ (٩)﴾ [لقمان: 17-19]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يُسَاءَ مِنْ نِسَاءِهِمْ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 11-12].

وفي المقابل حرم الإسلام الفواحش، في قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33]، ومنها الخمر والقمار بوصفها رجساً من عمل الشيطان، وحرم قتل

النفس إلا بالحق، وحرّم الزّنا وتوعّد مرتكبه بالعقوبة المشدّدة، وذلك من منطلق الدعوة إلى الخير والنهي عن المنكر، في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [آل عمران: 104].

أثر الإسلام في الحياة العقلية

كان للإسلام أثر في الحياة العقلية، فدعاهم إلى التأمل في ملكوت السماوات والأرض، يقول جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوهِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: 190-191]، ومن هذا المنطلق دعا إلى نبذ الأوهام الفاسدة التي تضعف من شأن العقل، ونهى عن اتباع الآباء في غير حق، وقضى على الوثنية الجاهلية بما تنطوي عليه من كهانة وسحر وشعوذة.

ودعا الإسلام إلى التفكير السليم، والإيمان بما يؤدي إليه العقل، وسخر من أولئك الذين لا يستخدمون عقولهم، فشبّههم بالأنعام التي لا تعقل، وجعلهم صُماً وبكماً وعمياناً عن الحق، فقال ﷺ: ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ﴾ [الأعراف: 179].

وحث الإسلام على المعرفة بما وهب الإنسان من فضيلة العقل ودعاه إلى البحث والتفتيش في هذا الكون، ليفيد مما هو فيه ويكتشفه لمنفعته، يقول جلّ شأنه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِ رَبِّهِ وَلِتَسُبِّحُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجمالية: 12-13].

أثر الإسلام في الحياة الاجتماعية

أثر الإسلام في الحياة الاجتماعية، فقد كان العرب في الجاهلية يعيشون في قبائل وعشائر، وكان لهم عصبية قبلية يتفاخرون بها وتثور بينهم المنازعات من أجلها، فلما جاء الإسلام دعا إلى نبذ هذه العصبية وأحل محلها مفهوم الأمة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92] ويقول تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وجعل التقوى مقياساً لقيمة الإنسان في الحياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿[الحجرات: 13]﴾، ويقول الرسول ﷺ في خطبة حجة الوداع: «أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»⁽¹⁾.

وبذلك أصبحت المساواة بين العرب وغير العرب؛ فالجميع عباد الله، وهم إخوان في الإسلام، ودعا الإسلام إلى نبذ الفرقة والاعتصام بمجبل الله في قوله ﷺ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، وذكرهم بنعمته عليه فقال جلّ ذكره: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: 103].

ودعا الإسلام إلى العدالة الاجتماعية، ففرض الزكاة، وهي حق للمستحقين من الفقراء في أموال الأغنياء، وعني بالإتفاق في سبيل الله، فكان الصحابة قدوة في ذلك، فقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر»⁽²⁾، وسار على ذلك عثمان بن عفان ؓ إذ جهّز جيش العسرة في غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين وأتم الألف بخمسين فرساً⁽³⁾، وحمل عبد الرحمن بن عوف ماله في سبيل الله تحمل القمح والدقيق والطعام⁽⁴⁾.

ورفع الإسلام مكانة المرأة، فأصبحت تتصرف في مالها، وتسعى في الأرض، يقول جلّ ذكره: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: 32]، وكانت المرأة في الجاهلية لا تراث ففرض الإسلام للام وللزوجة حقاً وجعل للبنت نصيباً وأوجب أن يؤخذ رأيها في الزواج دون إكراه لها، وجعل المهر حقاً لها، ودعا إلى معاملتها بالمعروف من خلال علاقة زوجية مثالية تقوم على المودة والمحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21]، وأوجب لها حقوقاً حين وقوع شقاق أو طلاق بينها وبين الزوج، بالتحكيم أولاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾

(1) البيان والتبيين، 33/2.

(2) الاستيعاب، ص 342.

(3) م.ن، ص 488.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 50/1.

[النساء: 35]، فإذا فصمت العلاقة بين الزوجين لإحسان بمعروف، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْتَبِّدَآ زَوْجَ مَكَاتِ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا﴾ [النساء: 20]، ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 21].

المبحث الثاني

موقف الإسلام من الشعر

كان الشعر في زمن الجاهلية في خدمة القبيلة، وأما في فجر الإسلام فقد صار في خدمة الدعوة الإسلامية، إلا أنه تعرّض لفترة من الركود في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وذلك للأسباب الآتية:

1. بُهر العرب ببلاغة القرآن الكريم وملأت نفوسهم عقيدة الإسلام وآدابه، يقول ابن خلدون: «انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه...»⁽¹⁾.

وفي أثناء ذلك شغلوا بالفتوحات فصرفهم كل ذلك عن قول الشعر إلا قليلاً، وقد لاحظ ابن سلام ذلك فقال: «جاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مُدَوَّن ولا كتاب مكتوب، وألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير»⁽²⁾.

ويرى شوقي ضيف أن الشعر في صدر الإسلام ظل مزدهراً، وليس بصحيح أنه توقف أو ضَعُف، وحجته في ذلك ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة، ومن أسماء ناظميه، فضلاً عن ضياع كثير من هذا الشعر⁽³⁾.

2. سقوط منزلة الشعراء لتكسبهم وخضوعهم في سبيل العطاء للممدوحين، وبذلك علا شأن الخطابة وانخفض شأن الشعر وخصوصاً بعد أن صارت الخطابة هي الوسيلة الطيّعة المرنة لنشر دعوة الإسلام.

وقد هاجم القرآن الكريم الشعر الصادر عن شعراء المشركين أو من دار في فلكهم في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾^(٢٢١) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٢﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا

(1) مقدمة ابن خلدون، ص 427.

(2) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص 22.

(3) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 44.

يَفْعَلُونَ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿٣٤﴾ [الشعراء: 224-227]، وتعود هذه المهاجمة لأن أولئك الشعراء كانوا يؤذون الله ورسوله بشعرهم، وهو الشعر الذي قال فيه الرسول الكريم: «لأن يمتلى جوف أحدكم قبحاً خير له من أن يمتلى شعراً»⁽¹⁾.

3. إن نفرأ من الشعراء الذين ظلوا على الشرك من أمثال عبد الله بن الزُبَيْرِ وأبي سفيان ابن الحارث⁽²⁾ هجوا رسول الله ﷺ فأمر النبي ﷺ بترك رواية شعرهم.
4. حارب الإسلام العصبيات وحرم الخمر، وقاوم الهجاء القبلي المقذع، والغزل الفاحش، ولم يشجع رحلات اللهو والقنص، وكل هذه الأمور كانت وقوداً جزلاً لشعلة الشعر، فلما قاومها الإسلام اقتضت أغراض شعر المخضرمين على مناقضة شعراء المشركين وعلى مدح رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومع هذا فقد كان النبي ﷺ يعجب بالشعر الجيد المنطوي على مثل عليا، ويقول حين يستمع إليه: «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة»⁽³⁾، وكان ينخص حسان بن ثابت وغيره على نظمه ويثيبهم.

فلما قدم عليه وفد من عرب بني تميم -بعد فتح مكة- ومعهم من شعرائهم الزبرقان ابن بدر والأقرع بن حابس، ومن خطبائهم عطارذ بن حاجب، ثم راحوا ينادونه من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا نفاخرك، ونشاعرك، فلإن مدحنا زين وذمنا شين، فرماهم الرسول ﷺ بمخطبيه ثابت بن قيس وشاعره حسان بن ثابت، فساجل ثابت عطارداً وردّ عليه، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرامُ فلا حيُّ يعادلنا منّا الملوكُ وفينا يُقسَمُ الرُّبُعُ

ونحن نطعمُ عند القحطِ مطعمنا من الشواءِ إذا لم يُؤنسِ القزعُ⁽⁴⁾

فلما فرغ الزبرقان بن بدر، أمر رسول الله ﷺ حساناً بالردّ، فارتجل حسان قصيدته:

إنّ الدّوائِبَ من فِهرٍ وإخوتهم قد بينوا سُنَّةَ للناسِ تُتَّبَعُ

(1) ابن رشيقي، العمدة، 12/1.

(2) أسلم هذان الشاعران بعد فتح مكة.

(3) م. ن. 9/1.

(4) القزع: السحاب.

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضرؤا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياهم نفعوا

فلما فرغ حسان من قصيدته، قال الأقرع بن حابس أحد رجال الوفد: والله إن هذا الرجل -يعني محمداً ﷺ- لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله، فأسلموا⁽¹⁾، وبذلك توجه الشعر نحو خدمة الدعوة الإسلامية، ولم يعد يجهر بالسوء، أو يخوض في ما حرم الله، مستمداً معانيه من روح الإسلام ومبادئه السمحة.

وفي المقابل حارب الإسلام الشعراء الذين أوغلوا في إيذاء المسلمين، فقد تخلّص النبي ﷺ من كعب بن الأشرف اليهودي لأنه شَبَّ بنساء الرسول ﷺ ونساء المسلمين، إذ أرسل إليه رهطاً من الأنصار على رأسه محمد بن سلمة فقتلوه⁽²⁾، وكذلك أهدر دماء شعراء قريش الذين أوغلوا في هجائه.

ووقف بعض الشعراء مع قريش، في بكاء قتلها ومحرضين لها على قتال المسلمين والأخذ بثاراتها، فقد رثى أمية بن أبي الصلت قتلى بدر⁽³⁾، وأشاد الأسود بن يعفر بانتصارها في يوم أحد⁽⁴⁾، وكان شعراء المدينة يقفون بالمرصاد للمشركين، فهذا كعب بن مالك يهذد دوساً وثقيفاً بعد انتصار المسلمين في خيبر، إذ يقول:

قضيّنا من تهامة كلّ وترٍ وخيبرٍ ثم أحجمنا السيوف

نخبرها ولو نطق لقالَتْ قواطعهنّ: دوساً أو ثقيفا

وأيا كان الأمر، فقد نزه الله رسوله عن تعاطي الشعر، فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾؛ فكان لا ينشد الشعر تاماً وإنما ينشد صدره أو عجزه، من ذلك بيت العباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين غيئه والأقرع؟

(1) انظر: الأغاني، 4/ 14-17، وانظر: تاريخ الطبري، 2/ 378.

(2) طبقات فحول الشعراء، ص 238.

(3) م.ن، ص 221.

(4) م.ن، ص 123.

فعندما أنشده الرسول الله:

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْيَ الْعَبِيدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنِيهِ
فَقَالَ النَّاسُ: بَيْنَ عَيْنِيهِ وَالْأَقْرَعِ، فَأَعَادَهَا النَّبِيُّ: بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنِيهِ وَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ
الْوِزْنُ⁽¹⁾.

وقد مضى الخلفاء الراشدون على ذلك، فكانت حروب الردة في عهد أبي بكر
الصديق (13هـ/634م)، وقد خلّفت أشعاراً كثيرة، إذ احتجّ المرتدون بأن خضوعهم كان
لرسول الله ﷺ طوعاً أو كرهاً، أما وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى فلم تعد تلك الطاعة أو
الخضوع واجباً عليهم، وفي ذلك يقول الحطيئة:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا، فَيَا لِعِبَادِ اللَّهِ، مَا لِأَبِي بَكْرٍ
أَيُورِثُهَا بِكَرَاءً، إِذَا مَاتَ، بَعْدَهُ؟ وَتِلْكَ لِعَمْرِ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظُّهْرِ
وَيَرِدُ الشُّعْرَاءُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مِزَاعِمِ الْمُرْتَدِّينَ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِ أَوْسَ بْنِ بُجَيْرٍ الطَّائِي فِي
مَوْقِعَةِ بُزَاخَةَ:

وَلَيْتَ أَبَا بَكْرٍ يَرَى مِنْ سَيُوفِنَا وَمَا تَحْتَلِي مِنْ أَذْرُعٍ وَرِقَابٍ
أَلَمْ تُرَ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرَهُ يَصُبُّ عَلَى الْكُفَّارِ سَوْطَ عَذَابٍ
وَامْتَدَّتْ رِقَابَةُ عَمْرِو اللَّهِ ﷺ عَلَى الشُّعْرِ إِلَى الْمَدْحِ خَافَةَ أَنْ يَنْزِلِقَ الشَّاعِرُ إِلَى الْكُذْبِ،
فَيَمْدَحُ النَّاسَ بِغَيْرِ مَا فِيهِمْ، وَمِنْ ذَلِكَ مَوْقِفُهُ أَيْضاً مِنَ الْحَطِيئَةِ حِينَ مَدَحَ أَبَا مُوسَى
الْأَشْعَرِيَّ وَقَدْ جَمَعَ جَيْشاً لِلْغَزْوِ بِقَصِيدَةٍ مِنْهَا:

وَجَحْفَلِ كِبْهِيمَ اللَّيْلِ مُتَجِّعٍ أَرْضَ الْعَدُوِّ يَبُوسٍ بَعْدَ إِنْعَامٍ⁽²⁾
جَمَعْتَ مِنْ عَامِرٍ فِيهِ وَمِنْ جُشْمٍ وَمِنْ تَمِيمٍ وَمِنْ سَامٍ وَمِنْ حَامٍ
فَوَصَلَهُ أَبُو مُوسَى، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌو يُلُومُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى: إِنِّي
اشْتَرَيْتُ عِرْضِي مِنْهُ بِهَا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌو: إِنْ كَانَ هَذَا هَكَذَا، وَإِنَّمَا فِدَيْتَ عِرْضَكَ مِنْ لِسَانِهِ
وَلَمْ تَعْطِهِ لِلْمَدْحِ وَالْفَخْرِ، فَقَدْ أَحْسَنْتَ⁽³⁾.

(1) الرافعي، تاريخ ادب العرب، 324/2.

(2) الجحفل: الجيش الكثير، ولا يكون كذلك حتى يكون فيه خيل.

(3) الأغاني، 2/ 175 و 176.

وكانوا ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه، فقد حبس عمر رضي الله عنه النجاشي الشاعر لهجائه بني العجلان رهط ابن مُقبل بقوله:

وما سُمِّي العجلانُ إلا بقولهم خذ القعبَ واحلبْ أيها العبد واعجل

وحبسَ الخطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر وهذذه بقطع لسانه لولا أنه فزع إليه، فالتقاء في قاع بئر، ولم يلبث أن عفا عنه حين استشفعه بعياله الذين فقدوا كاسبهم ولم يعد لديهم ماء ولا شجر.

وكذلك حبس عثمان رضي الله عنه ضابئ بن الحارث البرجمي حين هجا بعض بني نهشل ورمى أمهم بالكلب، واستعدوه عليه، وقال له: لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حي لأحسبته نزل فيك قرآن، وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك.

إلا أن الخلفاء وعمر بن الخطاب على وجه الخصوص كانوا يُرددون الشعر الجيد، متأثرين برأي الرسول صلى الله عليه وسلم في أن أحسن الشعر ما وافق الحق، قال ابن رشيقي: وكان أبو بكر رضي الله عنه يُقدِّم النابغة ويقول: هو أحسنهم شعراً، وأعذبهم بحراً، وأبعدهم قعراً⁽¹⁾، وكان عمر رضي الله عنه يتذوق الشعر فكان، معجباً بشعر زهير وينقده ومَن على شاكلته مَن يتوخون الحق والصدق، فقد روى الجاحظ عن العائشي قوله: ولقد أنشدوا عمر شعراً لزهير - وكان لشعره مقدماً - فلما انتهوا إلى قوله:

وإنَّ الحقَّ مقطعه ثلاثٌ يمينٌ أو نفاًز أو جِـلاء

ردده متعجباً من علمه بالحقوق وتفصيله بينها⁽²⁾. ولعل هذه القسمة هي التي جعلته يقول: «لو أدركت زهيراً لوليتهُ القضاء لمعرفته»⁽³⁾.

وقال للوفد الذين قدموا عليه من غطفان: من الذي يقول:

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك ريةً وليس وراء الله للمرء مذهبٌ

قالوا: نابغة بني ذبيان، قال: هو أشعر شعرائكم.

وأعجب عثمان بن عفان بشعر زهير لما فيه من الصدق، روى صاحب الأغاني عن أبي زياد الكلابي: أنشد عثمان بن عفان قول زهير:

(1) العمدة، 1/ 78.

(2) البيان والتبيين، 1/ 240 و 241.

(3) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 342.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم فقال: أحسن زهير وصدق⁽¹⁾.

وكذلك كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، يُقدم امرأ القيس على الشعراء، ويقول: هو أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة⁽²⁾.

(1) الأغاني، 9/ 312.

(2) العمدة، 1/ 77.

المبحث الثالث

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله ومعجزة محمد ﷺ تحدى به الإنس والجن، فكان الرسول ﷺ يتلوه فيروع سامعيه، سواء أكانوا من أنصاره أم من أعدائه، فقد روي أن الوليد بن المغيرة وهو من أشد خصومه سمعه يتلو بعض آي الذكر الحكيم، فتوجه إلى نفر من قريش يقول لهم: «والله لقد سمعتُ من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه»⁽¹⁾. فالوليد أحسن بفطرته، أن ما يتلوه محمد ﷺ كلامٌ مغاير لكلام الإنس والجن، وأنه ليس شعراً موزوناً مما كان يدور على السنة الشعراء، وليس سجعاً مقفى كالذي كان يردده الكهنة حيناً والخطباء حيناً آخر.

فالقرآن إذاً هو كتاب الله الذي أعجز ببيانه وبلاغته العرب وهم أهل الفصاحة والبيان، يقول جلّ ذكره: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: 88]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]، ونزل القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة مُنْجَماً حسب الحوادث، وقد تساءل المشركون عن سبب نزوله على دُفْعَات فاجابهم الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: 32].

ومجموع سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة منها ثلاث وتسعون مكية وإحدى وعشرون مدنية، فمكيه أكثر من مدنيّه لأن إقناع المشركين بالعقيدة تطلّب المزيد من الوعيد والإنذار، ومن الإقناع والحجّة.

وتدور السور المكية حول توحيد الله تعالى، وإثبات وحدانيته بأدلة من آياته ومخلوقاته وتعظيم أمر التوحيد والترغيب فيه بالجنة وتهويل أمر الشرك وإنذار المشركين بعذاب جهنّم.

(1) انظر: صفوة التفاسير، 3/ 479.

أما السور المدنية ففيها تشريعات سياسية وقضائية واجتماعية وحربية تكفل سعادة الفرد والمجتمع، وفيها أيضاً آداب ترسم طرق الأخلاق الكريمة وتأمّر بكل معروف وتنهى عن كل منكر، ثم إنها توضح فروض العبادات والمعاملات.

والسور المكية قصيرة الآيات، أسلوبها يثير العواطف والعقول معاً، وهي حادة اللهجة، فيها تهويل وتكرار وجدل وإقناع، وأما السور المدنية فطويلة الآيات هادئة اللهجة عذبة الألفاظ، فيها وضوح يناسب التعليم ودقة تناسب التشريع. ومن الخصائص العامة لأسلوب القرآن الكريم:

1. التكرار؛ وذلك لتثبيت المعنى في الأذهان والتأثير في النفوس، على نحو ما يتضح في سورة القمر وسورة الرحمن وسورة المرسلات.
2. الالتفات؛ وهو الانتقال من ضمير إلى ضمير، كالانتقال من صيغة الغائب إلى المخاطب أو المتكلم في مثل قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ﴾ (١٧) ﴿وَعَرِضْوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ (١٨) [الكهف: 47-48]، فقد تكلم عن المشركين بضمير الغائب في قوله ﴿وَحَشَرْنَهُمْ﴾ وبضمير المخاطب في قوله: ﴿جِئْتُمُونَا﴾ وتكلم جل وعلا عن نفسه فقال: ﴿وَحَشَرْنَهُمْ﴾ بضمير المتكلم ثم قال: ﴿وَعَرِضْوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ بضمير الغائب.
3. الإيجاز؛ ولذلك اجتمعت فيه تشريعات وعقائد وعلوم ما لم تتسع له مجلدات التفسير والفقه والعقيدة.
4. ضرب الأمثال؛ وهي في معظمها أمثال محسوسة، وذلك لتثبيت الأمور المعنوية وتوضيحها في الأذهان.

أثر القرآن في اللغة والأدب

كان للقرآن الكريم أثر كبير في اللغة والأدب أما أثره في اللغة فيتجلى واضحاً في ما يأتي:

1. جمع القرآن العرب على لهجة قريش، التي أخذت تنتشر وتسود بفضل تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ومن ثم اختفت اللهجات الأخرى التي استخدمتها القبائل العربية، واحتفظت قريش بأجل ما في هذه اللهجات في لغة مشتركة لمكانتها الدينية من جهة، ومكانتها التجارية من جهة أخرى، وهي اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم، فكانت لها السيادة في الإسلام، واقتصرت من قبل على شعراء الجاهلية وخطبائها.

وقد اندجعت سائر اللهجات في لهجة قريش، ولم تعد تتميز عنها سواء في التصريف أو في الإعراب، وإن وُجد اختلاف في بعض الألفاظ، من حيث دلالاتها، من ذلك كلمة أنطى في لهجة حمير بمعنى أعطى عند قريش، والكتع في الحميرية هو الذئب في لغة قريش، وسامدون حميرية وهي في لهجة قريش، ودخلت في اللغة طائفة من الألفاظ الأعجمية في الكلام، وأصبحت معربة، ومن ذلك: سُندس وإستبرق والديباج والرقيم وأوَاه وغير ذلك.

وفي المقابل اندثرت ألفاظ ولم يعد لها استعمال، ومن ذلك: عم صباحاً، وعم مساءً، و«ضرورة» للذي لم يحجَّ ولم يتزوج، فقال ﷺ: لا ضرورة في الإسلام، وكانت هذه الألفاظ تدور في الشعر الجاهلي، في مثل قول النابغة:

لو أنها عرضت لأشمطَ راهبٍ عَبَدَ الإله ضرورةً مُتَعَبِدٍ
لرنا لبهجتها وحُسْنِ حديثها ولحالَهُ رُشْداً وإن لم يرشُد⁽¹⁾

وقد صان الله ﷻ كتابه الكريم وتعهَّد بحفظه في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٧٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٧٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْدُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٧٦﴾ [طه: 124-126].

وبذلك ذاعت اللغة العربية الفصيحة وانتشرت في مختلف البلدان الإسلامية المفتوحة، وأخذت تنافس اللغات الشائعة فيها، بوصفها اللغة الرسمية للدولة الإسلامية الناشئة.

2. جدَّد القرآن الكريم كثيراً من الألفاظ ونقل مدلولاتها إلى معانٍ إسلامية مثل: الإيمان والكفر والنفاق، والصلاة والصيام والزكاة والركوع والسجود والوضوء والتميم، والمسألة كما يرى الدكتور شوقي ضيف «لم تكن مسألة ألفاظ فحسب، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد، له مضمونه الذي لم يكن العرب يعرفونه»⁽²⁾.

وقد نشأت علوم كثيرة في ظل القرآن الكريم، كعلم التوحيد والتفسير، وعلم القراءات، وعلم أسباب النزول، وعلم النحو، وعلوم البلاغة، وعلم الفقه وأصوله، وغير ذلك من العلوم التي عرض لها السيوطي في كتابه «الإتقان في علوم القرآن».

(1) ديوان النابغة، ص 41.

(2) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 32.

3. هذب القرآن الأساليب والألفاظ، وذلك بكثرة تلاوته ودراسة أحكامه ومعانيه، فهذب اللغة من الألفاظ الحوشية والغريبة، واستبدل بها الألفاظ العذبة السائغة، وعدل عن تعقيد الألفاظ وتداخلها، وأبطل سجع الكهان، وتنوعت أساليبه بحسب المخاطبين، فتوعد المشركين وأنباهم بما ينتظرهم يوم يُبعثون، فقال جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71].

ويخاطب الله جلّ وعلا نبيه الكريم، بأسلوب فيه ملاطفة ولين وإيناس ورحمة في سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: 1-11].

فإنك تجد البلاغة القرآنية في أجلى مظاهرها، إذ توضع الجزالة في موضعها، والركة والعذوبة في موضعهما، بحيث ترسم الآية في سورة الزمر صورة مُزرية للكفار وهم يُساقون إلى جنهم، وقد فتحت لهم أبوابها غير مأسوف عليهم، فإذا خرجنا إلى أجواء الضحى وجدنا جواً من الهدوء والطمأنينة والنعمة، تنزل برداً وسلاماً على الرسول ﷺ من لدن ربّ العزة والجلال.

وأما أثره في الأدب فيتضح في ما يأتي:

1. أقام القرآن الكريم عمود الأدب، فاستمد الشعراء والخطباء والكتاب من أساليبه وطرائقه في التعبير، ومناهجه في سوق الأدلة، وصوغ الحجج، واحتذوا حذوه في أعمالهم الأدبية، واقتبسوا كثيراً من آياته المحكمات، وأصبح معجمهم اللغوي والأدبي الذي يعودون إليه في مختلف العصور والبلدان.

يقول الجاحظ: «وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع أي من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والركة وسلس الموقع»⁽¹⁾.

وكذلك الرسائل التي كان يبعث بها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون والعمال، إلى الملوك والقبائل والزعماء، تأثرت كثيراً بالآيات القرآنية سواء في ألفاظها أو في معانيها، وأصبحت تنافس غيرها من فنون، مما مهّد ليروز الكتابة الديوانية من بعد.

(1) البيان والتبيين، 1/ 118.

2. شيوخ كثير من الفاظ القرآن الكريم وكنياته وتشبيهاته في الشعر الإسلامي لم يكن للشعر الجاهلي عهد بها كالجنة والنار والصراط والميزان والبعث والنشور وأسماء الله الحسنى، على نحو ما نرى في شعر المخضرمين في صدر الإسلام كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وغيرهما: من ذلك قول معن بن أوس:

فما زلتُ في ليني له وتعطُفي عليه كما تحنو على الولد الأمُّ
وخفض له مني الجناح تألفاً لتدنيه مني القرابة والرحم

نظر فيه إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24] وتأثر به، واقتبس منه هذه الاستعارة الجميلة.

3. هجر كثير من القيم والمعاني الجاهلية، كالظلم واستقواء القوي على الضعيف، في مثل قول زهير:

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وقول معاوية بن مالك:

إذا نزل السحاب بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غَضابا
والأمثلة في ذلك كثيرة، نخلص منها إلى أن أهل الجاهلية من العرب، وبخاصة البدو كانوا يرون الظلم وسيلة لانتزاع الحقوق، دون تحقير الظالم وإنما يُعيرون المظلوم لضعفه.

ومنها الدعوة إلى العصبية والأخذ بالثأر، والمجون في الغزل، ومع ذلك فقد كان للعرب صفات حميدة كالصدق والوفاء والجود والحلم والعفة، ومن ثم فقد بعث الله محمداً ﷺ ليجتث القيم الجاهلية الفاسدة، وليتمم مكارم الأخلاق التي بقيت فيهم، ومن ثم أخذ الشعراء في ظل الإسلام يلتمسون المعاني الإسلامية ويلتزمون الصدق والإخلاص فيها، فهذا الخطيئة الذي عُرف بتكالبه على المال وكان لحوماً في طلبه نراه يزهد في جمعه، ويعدّ السعادة في تقوى الله، فنسمعه يقول:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد دُخراً وعند الله للأتقى مزيد

وخلاصة القول، فإن الإسلام أثر في الحياة الأدبية للعرب، واستطاع أن ينقل العرب من أدبهم القديم إلى أدب جديد، حين ثلي القرآن الكريم عليهم، فتدبروا بلاغته واهتدوا ببيانه وأسلوبه ومعانيه، وأصبح مصدر ثقافتهم الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية.

المبحث الرابع

الحديث الشريف

الحديث الشريف (أو السنة النبوية) هو قول الرسول ﷺ أو فعله أو تقريره، واشتهر جماعة من الصحابة بروايته كأبي هريرة، وعائشة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وابن عباس، وأنس بن مالك رضي الله عنهم.

وإذ دوت بعض الأحاديث في حياة النبي ﷺ، وبخاصة ما اتصل منها ببعض الفروض كالزكاة، ورخص النبي ﷺ في حالات قليلة أن يكتب عنه، فقد استأذنه عبد الله بن عمرو بن العاص أن يكتب ما يسمع من حديث فاذن له⁽¹⁾، وعن رافع بن حديج قال: قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء، أفنكتبها؟ قال: اكتبوا ولا حرج⁽²⁾. إلا أن جمهور الحديث لم يكتب على عهد النبي ﷺ، وذلك حتى لا يختلط بالقرآن، وآية ذلك ما أثر عن النبي ﷺ من أقوال تنهى عن تدوين حديثه من مثل قوله لأصحابه: «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن فمن كتب شيئاً فليمححه⁽³⁾»، ومن ثم ظلّ يتردد على أفواه الرواة حتى دوّن في القرن الأول للهجرة تدويناً تاماً لعهد عمر بن العزيز (99-101هـ)، فكان ابن شهاب الزهري (124هـ) هو أول مدوّن للحديث، ولم يلبث أن ظهر موطأ مالك بن أنس.

وفي العصور العباسية كثرت الأحاديث الموضوعية، لأغراض سياسية، أو مذهبية، أو عصبية، أو شعوبية، أو بقصد الترغيب والترهيب أو للتزلف إلى خليفة أو أمير؛ ولذلك قام نفر من العلماء المخلصين بجمع الحديث، في ستة مجاميع، هي:

1. صحيح البخاري: وقد جمعه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، وبلغت الأحاديث التي اشتمل عليها 7397 حديثاً، وكان يشترط لصحة الحديث أن يكون الإسناد متصلاً برسول الله ﷺ، وأن يكون جميع رواته عدولاً.
2. صحيح مسلم: وقد جمعه الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، وجمع فيه 7275 حديثاً، واشترط شروط البخاري نفسها لصحة الحديث مع خلاف يسير.
3. سنن أبي داود.

(1) انظر: الخطيب البغدادي، تقييد العلم، 74.

(2) م. ن، 72.

(3) م. ن، 29.

4. سُنن النسائي.
5. جامع الترمذي.
6. سُنن ابن ماجه.
7. مُسند الإمام أحمد بن حنبل.

أثر الحديث الشريف في اللغة والأدب

عُرف النبي ﷺ ببلاغته وفصاحته، فقد خصّه الله بمعجزة البيان، واختاره من قريش التي اجتمعت فيها فصاحة العرب وبيانهم، وكان لنشأته في بني سعد أثر في حُسن بيانه، وقد أثر عنه قوله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر».

فأنت تجد في كلامه بلاغةً وسحراً وجلالاً وروعة، في مثل خطبته النبوية الأولى في أهله وعشيرته، حين صدع بأمر ربه في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تمانون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالشر شراً، وإنها للجنة أبداً، أو النار أبداً، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد».

ومن ثمّ كان لبلاغته ﷺ التي تجلّت في أحاديث الشريفة آثار في اللغة والأدب، نوجزها في ما يأتي:

1. إثراء اللغة بألفاظ وتراكيب لم يكن للعرب عهد بها، من ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ، وسمعتة يقول: مات حتف أنفه، وما سمعتها من عربي قبله، يريد مات على فراشه، ومثل ذلك قوله ﷺ: «الآن حمي الوطيس» للدلالة على استعار الحرب وشدتها، وقوله: «كل الصيد في جوف الفرا» للدلالة على نفاسة الشيء أو الشخص.

وانفرد النبي ﷺ عن العرب بألفاظ وعبارات كانوا يسألونه عنها، من ذلك قوله ﷺ: «هدنة على دخن» بمعنى أن الصلح لم يُذهب ما في القلوب من أحقاد، وقوله لأنجشة العبد وهو يحذو الإبل ويطرب في صوته فتسرّع الإبل وتمايل الهوادج بالنساء: «رفقاً بالقوارير»، وقوله ﷺ: «لا تنتطح فيه عنزان» وقوله: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» وقوله: «إياكم وخضراء الدمن»، قالوا: وما ذاك يا رسول الله، فقال: المرأة الحسناء في

- المنبت السوء تشبيهاً لهذه المرأة بما ينبت في الدمن، وقوله ﷺ: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة» وقد أورد الجاحظ طائفة من هذه الأقوال⁽¹⁾.
2. ساعد الحديث الشريف على التخلص من الغريب وحوشي الكلام والمعاظلة بميله إلى الوضوح والسهولة وسلامة الأسلوب والبيان، وقد أثر عن النبي ﷺ أنه كان يكره التشدق وخلابة القول.
3. استمد الأدباء والشعراء من الحديث الشريف في رسائلهم وأشعارهم، فسَمَت معانيهم وارتقت أفكارهم، وغلب عليها النزوع إلى المثل العليا والمبادئ الشريفة، وأضاف إلى أساليبهم رونقاً وطلاوة.
4. ساعد الحديث الشريف على توحيد لهجات العرب وعلى انتشارها، وقد جاءت فيه أحرف غريبة من لهجات القبائل، ذلك أن الرسول ﷺ كان يخاطب بها بعض الوفود، على نحو ما يلقانا في حديثه المشهور الذي أبدل فيه آل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير «ليس من أمبر أمصيام في أمسفر»؛ أي ليس من البر الصيام في السفر، ووضعت في ذلك كتب في الغريب، من أشهرها كتاب غريب الحديث للقسام بن سلام.
5. أدى الحديث الشريف إلى نشأة الكتابة التاريخية، سواء في السيرة النبوية أو في تراجم المحدثين، وإلى ظهور كتب الطبقات في مختلف العلوم، مثل طبقات ابن سعد، وأسد الغابة والإصابة، والاستيعاب، وميزان الاعتدال للذهبي.
6. وكذلك أصبح الحديث محوراً لعلوم دينية وعربية لدراسة الحديث ومصطلحه.
7. تعديل مسار كثير من أغراض الشعر العربي، فدعا إلى نبذ المديح الكاذب والهجاء المقذع والفخر الزائف والغزل الماجن، والدعوة الجاهلية إلى الانتقام والأخذ بالشار وإثارة العصبية، ومن ثم احتذى الشعراء والأدباء البلاغة النبوية فدعوا إلى نشر القيم الإسلامية من صدق ووفاء وعطف ورحمة وحلم وعفة.

(1) البيان والتبيين، 15/2.

الشعراء المخضرمون (أ)

تمهيد

المبحث الأول: حسان بن ثابت

المبحث الثاني: لامية حسان بن ثابت

المبحث الثالث: قصيدة (عدمنا خيلنا)

الفصل الثاني

الشعراء المخضرمون (أ)

تمهيد

الشعراء المخضرمون هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وينقسمون إلى طائفتين متميزتين هما: شعراء القرى (أهل المدن) وبخاصة المدينة ومكة، وشعراء نجد والبوادي (أهل الوب).⁽¹⁾

أما شعراء القرى، فكان أبرزهم شعراء المدينة الذين وقفوا إلى جانب الدعوة الإسلامية يُنافحون عنها، وعن النبي ﷺ منذ هجرته من مكة إلى المدينة ونزوله بها، يتقدمهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكانوا يصدرون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم، فكان عبد الله في هجائه للمشركين يستمد معانيه من القرآن الكريم، في مثل قوله ⁽¹⁾:

شهدتُ بأنَّ وعدَ الله حقٌّ وأن كتابَ الله أصبح هادياً
وعلى شاكلة قول حسان بن ثابت ⁽²⁾:

نبيُّ أتانا بعد يأسٍ وفترةٍ	من الرُّسلِ، والأوثانُ في الأرض تُعبدُ
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً	يلوحُ كما لاح الصَّقيلُ المهنَّدُ
وأنذرنا ناراً، وبشَّرَ جنَّةً	وعلمنا الإسلامَ، فاللهُ نحمدُ
وأنتَ إلهُ الخلقِ ربي وخالقي	بذلك ما عمرتُ في الناس أشهدُ
تعاليتَ ربَّ الناس عن قول من دعا	سواك، إلهاً أنتَ أعلى وأمجَدُ
لك الخلقُ والنعماءُ والأمرُ كُلُّه	فإياك نستهدي وإياك نعبدُ

(1) الاستيعاب، ص 362.

(2) الديوان، 47.

فنحن نرى في نسيج هذا الشعر خيوطاً إسلامية كثيرة، إذ رقت فيه الألفاظ ولانت، ذلك أن الشاعر استمد ألفاظه ومعانيه من القرآن الكريم.

ويلقانا شعراء قريش الذين دخلوا في الإسلام منذ فتح مكة وقد حَسُنَ إسلامهم يتقدمهم عبد الله بن الزُّبَيْرِ، في مثل قوله معتذراً لرسول الله ﷺ⁽¹⁾:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بَوْرٌ⁽²⁾

إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَدَايِ وَمِنْ مَالٍ مِثْلِهِ مَبْثُورٌ⁽³⁾

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجعون عليه، في مثل قول أبي سفيان بن الحارث⁽⁴⁾:

لَقَدْ عَظُمْتَ مُصِيبَتُنَا وَجَلَّتْ عَشِيَّةُ قَيْلٍ: قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ

نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشُّكَّ عَنَّا بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا يَقُولُ

أما شعراء البادية ونجد فهم كثر، يأتي في مقدمتهم عبدة بن الطيب، وسويد بن أبي كاهل الليشكري، والحُصَيْن بن الحمام المري، والنمر بن توبل، والمُخْبِل السعدي، والشَّمَاح، ومعن بن أوس، وأبو ذؤيب الهذلي وغيرهم.

ونحن نحسُّ أثر الإسلام واضحاً في شعر هؤلاء، فلعبدة بن الطيب أبيات يُوصي فيها أبناءه بتقوى الله وبرِّ الوالدين والحذر من التَّمَام، وهي معانٍ إسلامية استمدّها من القرآن الكريم، فيقول⁽⁵⁾:

أَوْصِيكُمْ بِتَقَى الْإِلَهِ فَإِنَّهُ يَعْطِي الرِّغَائِبَ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ

وَبِرٍّ وَالدِّكْمَ وَطَاعَةَ أَمْرِهِ إِنَّ الْأَبْرَّ مِنَ الْبَنِينِ الْأَطْوَعُ

ويلقانا سويد بن أبي كاهل الليشكري بأبياته التي يفخر فيها بما أفاء الله عليه من نعم، فنلمس فيها روحاً إسلامية، إذ يقول:

(1) طبقات فحول الشعراء، ص 202.

(2) رتق الفتق: خاطه ووصل بعضه ببعض. بور: ضالّ هالك.

(3) سنن: طريق. مبثور: هالك ضائع.

(4) الاستيعاب، ص 708.

(5) الفضليات، ص 146.

كُتِبَ الرَّحْمَنُ - وَالْحَمْدُ لَهُ - سَعَةُ الْأَخْلَاقِ فِينَا وَالضَّلَعُ
وإِبَاءٌ لِلدُّنْيَا إِذَا أُعْطِيَ الْكَثُورُ ضَيْمًا فَكَتَغَ
وَبِنَاءٌ لِلْمَعَالِي إِنْ مَّا يَرْفَعُ اللَّهُ وَمِنْ شَاءَ وَضَعُ
نَعَمَ اللَّهُ فِينَا رَبُّهَا وَصَنِّعَ اللَّهُ وَاللَّهُ صَنِّعَ

ويعضي متحدثاً عن شخص اغتابه، فينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: 12]، ويستمد منه، فيقول:
بئسَ ما يجمعُ أن يغتابني مطعمٌ وخمٌ وداءٌ يُدرِّعُ
ويُحييَني إذا لاقيتُـهُ وإذا يخلو له لحمي رنَّعُ
ويلقانا عمرو بن شأس، وكان له ابنٌ من أمة سوداء، وكانت امرأته تؤذيه وتستخفُّ
به فعاتبها بمقطوعته، ومنها بيته المعروف ⁽¹⁾:

أردتِ عراراً بالهوانِ وَمَنْ يُرْدُ عراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
ومعن بن أوس المشهور بعبابه لابن عمه الذي أساء إليه، ومنه:

وذي رحمٍ قَلَمْتُ أَظْفَارَ ضِرْغَنِهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ
فَمَا زِلْتُ فِي لَيْنٍ وَتَعْطُفٍ عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ

ومن أبرز شعراء البادية: لبيد ⁽²⁾ صاحب اللامية المشهورة التي نؤمن بأنه نظمها في
الإسلام، وفيها يقول:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٌ
وكل أناس سوف تدخل بينهم دُوبِيَّةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الْأَنَامِلُ
ويزعم الرواة أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه، فمن قائل هو قوله:
الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى كساني من الإسلام سربالا

ومن قائل، بل هو قوله:

(1) طبقات فحول الشعراء، ص 166.

(2) هو لبيد بن ربيعة، من أصحاب المعلقات، أسلم وهو في الثمانين من عمره، انتقل إلى الكوفة وقضى فيها
أواخر حياته، إلى أن توفي نحو سنة 23 هـ.

ما عاتب المرء الكريم كنفه
والمرء يُصلحه الجليس الصالح
والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته.
والنابغة الجعدي⁽¹⁾ الذي وفد على النبي ﷺ مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده
قصيدة يقول فيها:

بلغنا السماءَ مجدنا وجدودنا وإننا لنبغي فوق ذلك مظهرا
فقال له الرسول الكريم ﷺ: فأين المظهر يا أبا ليلى؟ فأجابه: الجنة، وأعجب الرسول
ﷺ بشعره ومنطقه، فقال له: لا يفضض الله فاك.
وله موعظة مشهورة مطلعها:

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما
والخطيئة صاحب البيت المعروف:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس⁽²⁾
وخلاصة الأمر، لم يخل هذا العصر من أصوات شاعرية عذبة من أمثال حسان بن
ثابت، وكعب بن زهير، والخطيئة، والخنساء، وغيرهم، وفي المقابل هبطت فنون شعرية أخرى
كالمدح الذي يقوم على التكسب والخضوع في سبيل العطاء للممدوحين وحل مكانه مدح
النبي ﷺ وأصحابه. وكذلك سقطت فنون أخرى كالهجاء القبلي المقذع. والغزل الفاحش
ووصف الخمر فقد قاومها الإسلام. وارتقى شعر الدعوة الإسلامية؛ وهو شعر يقوم على
الدفاع عن العقيدة، وبيان شريعة الله، ووصف المعارك الحربية ومدح الأبطال والمجاهدين.

(1) النابغة الجعدي: شاعر مخضرم توفي في خلافة مروان بن الحكم سنة 65هـ.

(2) العرف: المعروف.

المبحث الأول

حسان بن ثابت (54هـ / 674م)

نشأته

هو أبو الوليد حسان بن ثابت المنذر بن حرام الخزرجي، وكانت أمه «الفريرة» خزرجية مثل أبيه، ولد في يثرب نحو عام 60 ق.هـ، في بيت من أعرق بيوت بني النجار، أحوال الرسول ﷺ، ويُعدّ هذا البيت من أظهر بطون الخزرج، وقد هاجرت هذه القبيلة من اليمن إلى الحجاز وأقامت في يثرب مع الأوس، وكان بينهما نزاع نتج عنه خصومات وأيام. وقد اشتهر حسان فيها بشعره القوي الذي سجّل فيه مفاخر قومه ودافع عنهم، في حين كان قيس بن الخطيم في طليعة شعراء الأوس، وإذ شارك قيس بسيفه ولسانه فقد وجد حسان أنه أقدر على الهجاء والشعر.

ويقال إنه عَرَضَ شعره على النابغة بسوق عكاظ، وقَدّم عليه شعره، فاستفزه، وأثارة موجدته⁽¹⁾.

شاعر الملوك

كان حسان قبيل الإسلام يرحل إلى الغساسنة، فيمدحهم وينال الجوائز السنّية والأموال الطائلة، وتعدّ لاميته المشهورة في مدحهم من أجود شعره، ومطلعها⁽²⁾:

أَسَأَلْتُ رَسَمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبُضِيعِ فَحَوْمَلِ
وَيُقَالُ إِنَّهُ مَدَّ رِحْلَاتِهِ إِلَى بِلَاطِ الْمَنَازِرَةِ فِي الْحِيرَةِ، فَمَدَحَ النُّعْمَانَ أَبَا قَابُوسَ، وَلَقِيَ عِنْدَهُ حَظْرَةً.

شاعر الإسلام

دخل حسان في الإسلام إثر هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وأصبح شاعره إذ أخذ ينبري لشعراء قريش الذين آذوا الرسول ﷺ وصحابته بأهاجيهم، فكان يهجوهم هجاء لاذعاً، وكان الرسول ﷺ يحثه على ذلك، ويدعو له بمثل: «اللهم آتِده بروح القدس». ونصب له منبراً في المسجد يستمع إلى بعض هجائه لهم، فقال: «لَهِذَا أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقَعِ

(1) انظر: الأغاني، 9/ 340.

(2) الديوان، ص 179.

النَّبَل» ويروى عنه ﷺ أنه قال: «أمرتُ عبد الله بن رواحة (بهجاء قريش)، فقال وأحسن، وأمرتُ كعب بن مالك، فقال: وأحسن، وأمرتُ حسان بن ثابت، فشفي واستشفى»، فكان يُعَبِّرهم بالمثالب والأنساب، لتكون أهاجيه فيهم أشد وأقسى، ويرى أن الرسول ﷺ قال له: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال حسان: سأسلِّك منهم كما تُسلِّ الشعرة من العجين، فقال له: إيتِ أبا بكر فهو أعلم بالقوم لتقفَ على أنسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك⁽¹⁾. وهو فضلاً عن ذلك كان يتصدى للشعراء اليهود في المدينة من أمثال الربيع بن أبي الحقيق وكعب.

ويرى الدكتور محمد محمد حسين أن دارس شعر حسان في هذا الطور من حياته لا بُدَّ أن يضع في الحسبان أمرين مهمين، خلاصتهما⁽²⁾:

أ. بطء أثر التغيير في الأدب: إذ يحتاج الشاعر إلى وقت كافٍ كي يعيش هذا التغيير، ويعتاده، ويتدرب في أعماق نفسه.

ب. تقدّم سن حسان: فقد ناهز الستين من عمره وقتذاك، والناس في هذه السن المتقدمة إذا لم يفقدوا القدرة على التشكل من جديد فهم على أقل تقدير يصبحون بطيئي الاستجابة ومحدودي القدرة في مسامرة الطارئ والجديد المفاجئ، لذلك يجب أن يكون التغيير الذي طرأ على فن حسان بعد فترة وجيزة من دخوله في الإسلام موضع التقدير والإعجاب.

منزلته

حظي حسان بمنزلة رفيعة عند الرسول ﷺ فكان ينشده شعره في المسجد، ويروى أنه كان يرفع أزواجه إلى أطعمه (حصونه) حين يخرج لحرب أعدائه، وكان يقسم له في الغنائم، وقد أهداه بستاناً، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية، وأم ولده عبد الرحمن. وقد سُمِّي حسان شاعر النبي ﷺ، وشاعر اليُمن كلها في الإسلام، واجمعت العرب على أنه أشعر المدر وهم أهل المدينة ومكة والطائف وأهل قرى البحرين من عبد قيس؛ فقد عاش يزود عن الرسول ﷺ ويرد على شعراء قريش واليهود ومشركي العرب ردّاً عنيفاً، فيه دفاع عن الإسلام وفيه ذوْدٌ عن الرسول ﷺ. ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث

(1) الأغاني، ص/ 137.

(2) انظر الهجاء والهجاءون في الجاهلية، ص 227.

الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إلا أنه أعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً من مثل قوله (1):

حَصَانٌ رَزَانٌ مَائِزٌ بَرِيَّةٌ وَتُصْبِحُ غَرْنَى مِنْ لَحُومِ الْعَوَافِلِ (2)

فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتمُ فلا رَفَعْتُ سَوَاطِي إِلَيَّ أَنَا مِلِي

وكان الخلفاء الراشدون يُجَلِّونَه ويفرضون له في العطاء أسوة بما كان يصنعه الرسول ﷺ معه، مرَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ينشد شعراً في المسجد، فقال له متتهراً: أرغاء كُرْغَاء البعير؟! فأجابه حسان: فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك، فيمضي عمر إكراماً للذكرى الطاهرة على كراهية لصنيع حسان.

ورفع النقاد من منزلته في الشعر، فقال ابن سلام: «هو كثير الشعر جيده» (3)، وقال أبو الفرج فيه: «حسان فحل من فحول الشعراء» (4).

أغراض شعره

أكثر شعر حسان في الهجاء؛ وما تبقى في الفخر بالأنصار، ومدح الغساسنة والنعمان وسادات العرب وأشرفهم، ومدح النبي ﷺ، ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيء من الغزل.

كان حسان قبل الإسلام منصرفاً إلى الذود عن حياض قومه بالمفاخرة، فكان شعره شعر النضال القبلي، تغلب عليه صبغة الفخر، فقد هبَّ في وجه شعراء الأوس ولا سيما قيس بن الخطيم، ويقوم فخره على ذكر الشجاعة والكرم وشرف الأصل والنسب كقوله (5):

لساني وسيفي صارمان كلاهما وَيَلْعُ ما لا يَلْعُ السيفُ مَذُودِي

وإنني لَحُلُوْ تُعْتَرِي مَرَارَةً وإنني لَتَرَاكُ لِمَا لَمْ أَعوْدِ

(1) الديوان، ص 188.

(2) حَصَانٌ: عفيفة. رَزَانٌ: ذات وقار. مُزَنٌ: تهتم. غَرْنَى: جائعة والمقصود أنها لا تغتاب النساء.

(3) طبقات فحول الشعراء، ص 179.

(4) الأغاني، 4/ 34.

(5) الديوان، ص 72.

وقوله (1):

لنا الجفناتُ الغُرُ يلمغنَ بالضُّحَى وأسيفنا يقطرنَ من نَجْدَةٍ دما
واتصل حسان بالغساسنة ومدح ملوكهم، فقرَّبوه إليهم وأكرمهم، وأغدقوا عليه
العطايا وجعلوا له مُرتباً سنوياً، فكساهم بروائع مدائحه، ويقال إنه ذهب إلى المناذرة ونال
عطاياهم.

وفي الإسلام نصَّب نفسه للدفاع عن الإسلام والرد على المشركين، وشعره هنا يدور
حول موضوعين هما:

أ. مدح النبي ﷺ وأصحابه، ويرتكز على وصف الخصال الحميدة وبروز المعاني الإسلامية
وهو مدح بعيد عن التكسب، ويلحق بهذا المدح رثاء النبي ﷺ، ومن أجل مراثيه التي
يبدو فيها تمكُّنه الفني وتدفعه العاطفي داليتة في رثاء النبي ﷺ ومنها (2):

لقد غيَّبوا حلماً وعلماً ورحمةً عشيةً علَّوهُ الثرى لا يُوسدُ
وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نبيُّهم وقد وهنتُ منهم ظهورٌ وأعُضدُ

ب. هجاء المشركين من قريش بعامية، وهجاء خصوم الدعوة من أمثال أبي جهل وأبي لهب
وأبي سفيان بن الحارث بخاصة، ويغلب عليه الإقذاع على شاكلة قوله في هجاء هند
بنت عتبة (3):

ونسيتِ فاحشةً أتيتَ بها يا هندُ ويحكِ سُبَّةُ الدَّهرِ
فرجعتِ صاغرةً بلا تِرةٍ مما ظفرتِ به ولا وئِرٍ (4)
زَعَمَ الولائدُ أنها وَلَدَتْ ولداً صغيراً كان من عَهْرِ

وحسان لا يصف الخمر إلا على سبيل العادة والتقليد، بعد أن نزل تحريم قاطع بها
بعد وقعة أحد سنة 3هـ، وكان قبل الإسلام يصفها على سبيل الفخر والتباهي بها، لأنه لم
يكن يشربها إلا كبار القوم.

(1) الديوان، ص 221.

(2) م.ن، ص 55.

(3) م.ن، 133.

(4) وتر وترة: الثائر.

ولم يكن حسان بارعاً في الغزل، فقد شغل عنه بمدائحه في الغساسنة، وبأهاجيه في المشركين، وهو يأتي له في مقدمات قصائده، فقد تغزل في الجاهلية بشعنا وعمرة على سبيل العادة والتقليد.

آثاره

لحسان بن ثابت ديوان رواه ابن حبيب، وقد دخله كثير من الشعر المصنوع؛ يقول الأصمعي: «تنسب إليه أشياء لا تصح عنه»⁽¹⁾. ويقول ابن سلام: «قد حُمِلَ عليه ما لم يُحْمَلْ على أحد، ولما تعاضهت (تشتامت) قريش واستبَّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنْقَى»⁽²⁾. وكان ممن حمل عليه غثاء كثيراً ابن إسحاق في المغازي، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يروي عنه السيرة النبوية.

ويظن شوقي ضيف أن شعر حسان قد اختلط بأشعار الأنصار، وخاصة شعر كعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة وابنه عبد الرحمن، فقد اشتركا معه في هجاء قريش، وأما عبد الرحمن فكان يُهاجي النجاشي الحارثي ويذم قومه بني الحارث بن كعب وعشيرته بني الحماص ذمّاً قبيحاً⁽³⁾، وقد حُمِلت هذه الأهاجي على حسان، وكذلك أشعاره في قتلة عثمان، فكثير منها وضعه الأمويون⁽⁴⁾؛ لدواعٍ سياسية، وليرفعوا عن كواهلهم أهاجيه في أبي سفيان وزوجه هند بنت عتبة، وبذلك أرادوا أن يجعلوه في صفهم، وكذلك نُسبت إليه أشعار في مديح الزبير بن العوام وعبد الله بن العباس، وكأنّ هذه الأحزاب السياسية أرادت أن تستغل اسمه وشعره في برامجها الدعائية.

والحق أن شعره الإسلامي كثر الوضع فيه، وهذا سبب ركافة بعض الأشعار المنسوبة إليه، مما ينقض مقولة الأصمعي: «الشعر نكيد، بابه الشر؛ هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره»⁽⁵⁾، فهذا كلام فيه ظلم لحسان ونجس

(1) ابن عبد البر، الاستيعاب، ص 130.

(2) طبقات فحول الشعراء، ص 179.

(3) م.ن، ص 125.

(4) انظر: ابن عبد البر، م.س، ص 492.

(5) م.ن، ص 208.

على شعره، فقد وقف الباحثون عند أشعاره الموثقة وطرحوا من ديوانه ما اتهمه الرواة⁽¹⁾، كما أنهم قبلوا منه ما غلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب.

ولم يزل حسان في الإسلام حامل لواء شعر الدعوة، ولم يسقط شعره كما زعم الأصمعي، وإنما امتزج بالألفاظ الإسلامية الجديدة، ناهيك عن المعاني الإسلامية التي اتضحت في كثير من أشعاره في الإسلام، ويرى الدكتور محمد حسين أنه «من الظلم لحسان وللشعر أن يُقارن شطر عُمره الأول بشطَر عُمره الثاني على أساس الكفر والإيمان، أو الشر والخير، دون أن يُقام وزن للشباب والشيخوخة، والقدرة والعجز»⁽²⁾.

القيمة الفنية

حسان شاعر شديد التأثير، تمثلت فيه البساطة والوضوح والبعد عن التعقيد، وهو قوي العاطفة، يفوته التآني الزهيري، ولهذا ترى شعره يتدفّع تدفعاً، متتبعاً في ذلك الطبع والفطرة لا الصنعة والتعمّل.

وتبرز في شعره المعاني الإسلامية، إذ نلمس أثراً إسلامياً يظهر في المعاني الجديدة في ارتياح إلى المصير، وتفصيل لبعض العقائد والشعائر من توحيد وتنزيه وثواب وعقاب، كما تبرز الألفاظ الإسلامية المنثورة في شعره؛ وهي ألفاظ اكتسبت إيحاءً جديداً ودلالة جديدة.

وقد برع في خلق الصور الفنية وابتكارها مما أتاح له الشهرة والذيع، وهذه الموهبة تصور إلى جانب الذكاء بصيرة هجائية وروحاً فكهة، كقوله⁽³⁾:

لا بأس بالقوم من طول ومن عَظْمِ جِسْمِ الْبِغَالِ وَأَحْلَامِ الْعَصَافِرِ
وأكثر ما يكون هجاؤه لاذعاً قارصاً حين يقصر فلا يتجاوز الأبيات.

ويبدو في شعر حسان الإسلامي صدق العاطفة؛ وذلك لحبه العظيم لرسول الله ﷺ وللإسلام. كما أن ألفاظه في مجملها أصبحت قميل إلى السهولة والعذوبة، ولم تعد فيها تلك الخشونة الجاهلية.

(1) انظر: الأغاني، 14/ 125-127

(2) الهجاء والهجاءون في الجاهلية، ص 211.

(3) ديوان حسان، ص 122.

وأيّاً كان الأمر، فقد اختلف النقاد في شاعريته، فمنهم من قال: إن شعره ضَعْفٌ ولأنَّ عندما جاء الإسلام، وابتعد عن الكذب في القول ؛ ومنهم من قال: إن شعره بلغ الذروة في شكله ومضمونه ؛ لتأثره بالأسلوب القرآني.

القيمة التاريخية

يُعدّ شعره مصدراً من مصادر تاريخ الأيام، يُسجّل مآثر الغساسنة ويصف غزواتهم ويتحدّث عن ملوكهم، ويسجل أحداث الفجر الإسلامي، ويُطلعنا على أخبار النبي ﷺ في غزواته بعامة وفتح مكة بخاصة، كما يُطلعنا على أسماء الصحابة وأسماء أعداء الإسلام، وهكذا كان حسان شاعراً ومؤرخاً كما كان شعره فاتحة للشعر السياسي الذي غا وتطوّر في عهد بني أمية.

المبحث الثاني

لامية حسان بن ثابت المشهورة⁽¹⁾

«أسألت رسم الدار أم لم تسأل»

دراسة وتحليل

جو القصيدة

كان حسان بن ثابت يمدح ملوك الغساسنة، ويحظى بصيالاتهم، فكانت هذه القصيدة من أجود مدائحه فيهم. ويتضح من قراءتها أنها قيلت بعد فتح الشام وسقوط دولة الغساسنة، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين سنتي 13هـ و 15هـ، وكانت تربطه علاقة وثيقة بآخر ملوكهم جبلة بن الأيهم، وكان قد أسلم ثم ارتد إلى النصرانية وفر إلى القسطنطينية حاضرة الدولة البيزنطية، وقد بلغه أن حسان بن ثابت قد أصبح مضرور البصر، فبعث إليه بصلة سنية هي خمسمائة دينار وخمسة أثواب ديباج، فأخذها عمر رضي الله عنه وبعث في طلب حسان فدفعها إليه.

ومن هذا المنطلق فقد ظل حسان مخلصاً للغساسنة، دائم الحنين إلى أيامهم، تلك الأيام التي مرت كالحلم، إذ أدركته الشيخوخة، ولم يبق أمامه سوى أن يحلم بها، ويستعيد بعض صورها، لقد عاش في كنف دولتهم قبل أن تزول، ولبث فيهم أزماناً طويلاً، ومن ثم أنشد هذه القصيدة.

وأما ما يذكره بعض مؤرخي الأدب من أنه أنشد قصيدته على مسامع عمرو بن الحارث الغساني، بحضور النابغة الذبياني، وعلقمة بن عبدة، فلا يستقيم مع دلالة القصيدة على زوال ملك آل جفنة.

(1) الديوان، 179-181.

النص

- أَسَأَلْتَ رَسَمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ بَيْنَ الْجَوَابِي فَالْبُضِيعِ فَخَوَّمَلِ (1)
فَالْمَرْجَ مَرْجَ الصُّفْرَيْنِ فَجَاسِمِ فِدْيَارِ سَلَمَى ذُرْسًا لَمْ تُحْلَلِ (2)
دَمَنْ تَعَاقَبَهَا الرِّيحُ دَوَارِسُ وَالمُدْجَنَاتُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَعَزَلِ (3)
دَارٌ لِقَوْمٍ قَدْ أَرَاهُمْ مَرَّةً فَوْقَ الْأَعَزَّةِ عِزُّهُمْ لَمْ يُنْقَلِ (4)

- لِلَّهِ ذُرٌّ عَصَابَةٌ نَادِمَتْهُمْ يَوْمًا بِجَلَقٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (5)
يَمْشُونَ فِي الْحُلَلِ الْمُضَاعَفِ نَسْجُهَا مَشَى الْجَمَالِ إِلَى الْجَمَالِ الْبُزْلِ (6)
الضَّارِبُونَ الْكَبِشَ يَبْرُقُ بِيضُهُ ضَرْبًا يَطِيحُ لَهُ بِنَانُ الْمَفْصِلِ (7)
وَالْخَالِطُونَ فَقِيرَهُمْ بَغْنِيَّهِمْ وَالنَّمِيعُونَ عَلَى الضَّعِيفِ الْمُرْمِلِ (8)
أَوْلَادُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضَلِ (9)
يُعْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ (10)
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرْدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ (10)
بِيضُ الْوَجْهِ كَرِيمَةٍ أَحْسَابُهُمْ شَمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

- (1) أراد بالجوابي جابية الجولان، والبضيع وحومل أسماء أماكن.
(2) مرج الصفيرين وجاسم: موضعان بالشام. تُحْلَل: لم ينزل بها أحد وهذه المنازل كلها للغساسنة.
(3) الدمن: جمع دمنة وهي آثار الدار. تعاقبها الرياح: تهب عليها آناً فآناً. المدجئات: الغيوم الممطرة. السماء الأعزَل: من منازل المطر.
(4) لم يُنْقَل: لم يزل ولم يتحوّل.
(5) جَلَق: موضع قرب دمشق.
(6) الحلل: الثياب. البزل: الواحدة بازل، البعر الذي استكمل السادسة وطعن في التاسعة.
(7) الكبش: سيد القوم. بيضه: الواحدة بيضة. يطيح: يذهب.
(8) المُرْمِل: الذي نقد زاده.
(9) مارية: ذات القرطين، وهي أم بني جفنة.
(10) البريص: نهر بدمشق.

فلبثت أزماناً طَوَّالاً فيهم ثم اذكرتُ كأنني لم أفعل
إمائرِي رأسي تغَيَّرَ لونه شَمَطاً، فأصبح كالثَّغَامِ المَحُولِ⁽¹⁾
ولقد يراني مُوعِدِيَّ كأنني في قصرِ دَوْمَةٍ أو سواءِ الهيكلِ⁽²⁾

ولقد شربتُ الخمرَ في حانوتها صهباءَ صافيةً، كطعمِ الفُلْفُلِ⁽³⁾
يسعى عليَّ بكأسها مُتَنَظِّفٌ، فَيَعْلُنِي منها، ولو لم أنهلِ⁽⁴⁾
إنَّ التي ناولتني فردذَّتها قُتِلَتْ، قُتِلَتْ، فهاتها لم تُقتلِ⁽⁵⁾
كلتاها حَلَبُ العَصِيرِ فعاطني بزجاجةٍ أرخاها لِلْمِفْصَلِ⁽⁶⁾
بزجاجةٍ رقصتُ بما في قعرها رَقَصَ القُلُوصِ براكبٍ مُستعجلِ⁽⁷⁾

نَسِي أصيلٌ في الكرامِ ومذودِي تكوي مواسمُهُ جُنُوبَ المِصْطَلِي⁽⁸⁾
ولقد ثَقَلَدنا العشيْرَةُ أمرها، ونسودُ يومَ النَّائِبَاتِ، ونعتلي⁽⁹⁾
ويسودُ سَيِّدُنَا جحاجحَ سادةً وَيُصِيبُ قائلُنَا سواءَ المِفْصَلِ⁽¹⁰⁾

- (1) الشَّمَطُ: بياض الشعر يُخالط سواده. الثَّغَامُ: نبت يبيضُ ورقه إذا يبس. المحول: الذي مرَّ عليه حول.
- (2) مُوعِدِيَّ: أعدائي الذين يُنذرونني بالشر. وقصر دومة: أراد به دومة الجندل، وهي ما بين الشام والحجاز. سواء الهيكل: وسط الهيكل، بيت للنصارى.
- (3) الحانوت: دكان الخَمَار. صهباء: بياض لا تخاذاها من غيب أبيض. وقوله كطعم الفُلْفُل: أي أنها تلذع اللسان كالفلفل.
- (4) المتتنظف: اللابس الثُّنْطَة أي القُرط. يعلني: يسقيني مرة بعد مرة. التهل: الشرب الأول، أراد أنها تُقدِّم له على كل حال عطش أم لم يعطش.
- (5) قُتِلَتْ: مُزجت بالماء. قُتِلَتْ: دعا عليه بالقتل ولم يُرد به الشر.
- (6) كلتاها حَلَبُ العَصِيرِ: أي الخمر والماء. وأراد بأرخاها للمفصل: الخمر، المفصل: اللسان.
- (7) رقصتُ بما في قعرها: أي اضطراب الحباب بها. رَقَصَ القُلُوصِ: سير الناقه خبيأ.
- (8) مذودي: لساني الذي أذود به وأدفع. مواسمُهُ: هجاؤه الذي يسم به. المِصْطَلِي: أي من اصطلى بناري.
- (9) ثَقَلَدنا أمرها: تطيعنا.
- (10) الجحاجح: السادة، الواحد جحاجح. سواء: وسط. والمفصل: كل ملتقى عظم في الجسد. والمعنى: يتفوق السيد منا على كل عظيم همام، بما لنا من قوة وصوله وحصافة عقول والمعية أفكار، فالمرء منا إذا نطق كان مصيباً.

وُحَاوِلُ الْأَمْرِ الْمَهْمُ⁽¹⁾ خِطَابُهُ فِيهِمْ، وَنَفْصِلُ كُلِّ أَمْرٍ مُعْضِلُ
وَتَزُورُ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ رُكَايُنَا وَمَتَى نُحْكُمُ فِي الْبَرِيَّةِ نَعْدِلُ

بناء القصيدة

تجري القصيدة على الطريقة الجاهلية التي تقوم على تعدد الأغراض الشعرية، وقد تمحورت في المقاطع الآتية:

1. الوقوف على الأطلال (الآيات 1-4).
2. مدح ملوك الغساسنة (الآيات 5-12).
3. الشكوى من الزمن (الآيات 13-15).
4. الحديث عن لهوه (الآيات 16-20).
5. الفخر بنفسه وعشيرته (الآيات 21-25).

ينتقل الشاعر من موضوع إلى موضوع داخل القصيدة، وقد تألفت أجزاءها في وحدة عضوية ينظمها سلك واحد هو حديث الذكريات.

فالمقطع الأول مطلع جاهلي تقليدي، إذ يقف الشاعر على الأطلال وقوفاً سريعاً، ويجول بخياله في مغاني الغساسنة بالشام، ويذكر أسماء الأماكن التي كان له فيها ذكريات، وقد تعاورتها الرياح، وتعاقت عليها الأمطار، فغيّرت معالمها، وهو لا يكاد يمر بمكان حتى يذكر عهده به، وأحاباه الذين رحلوا ولم يبق منهم أحد، فيأسى ويحزن، ويختم ذلك بقوله:

دار لقوم قد أراهم مرةً فوق الأعزّة عزّهم لم يُنقل

فهو يتحدث عن قوم دالت دولتهم وخلت منهم الديار، ويشير إلى أنهم قوم أشرف لا يُدانيهم أحد في عزهم ومجدهم.

ويمضي حسان بعد هذه المقدمة ليتحدث في المقطع الثاني عن مآثر الغساسنة التي تدور حول فضائل يعتز بها العرب كالشجاعة، والجدود، وسعة العيش، وعراقة النسب، والسماحة، والسيادة، ويقدمها في قوالب تصويرية تقليدية دون أن يستغرق في تفصيلاتها أو

(1) المهْم: المشكل.

يربط بعضها ببعض، ولكنه يحاول أن يُجدّد فيها أو يضيف إليها، وتغلب عليها نغمة حزينة شجية لأنه يُشير إلى أناس نادهم في الزمن الماضي، وهو ما يبدو في كلماته: مرّة، ويوماً، والزمان الأول، ومن ثمّ فإن حديثه عنهم هو حديث الذكريات التي تثير في نفسه حنقاً على الحاضر فيقول: أين هذه المعيشة الرغدة من عيش هؤلاء الأعراب الضنك؛ فولائدهم مرقّهات لا يتقن الحنظل كما هو حال ولائد الأعراب.

ونراه في المقطع الثالث مثقلاً بالهموم فقد مرّت الأيام التي عاشها بين ظهرانهم وهو يرفل في حلل اللهو والرفاهية، مرت كالحلم، ولن تعود أبداً، فقد دهمته الشيخوخة، ووحظ الشيب رأسه، فأخذ يحلم بها ويستعيد بعض صورها. وهو يتذكر هذه الحقبة من عمره، وكأنها على طولها، قد انقضت سريعاً، ولكنه لن ينساها، فهي لم تُزايِله وإنما وجد فيها شبابه.

وفي المقطع الرابع يتحدث عن أيام لهوه، فيصف الخمر دون أن يتحرّج في ذلك، على سبيل العادة والتقليد، وبوصفها شيئاً من ماضيه، لم يعد له صلة بالحاضر، ويرى الدكتور محمد محمد حسين أن القصيدة قيلت بعد تحريم الخمر، ذلك أن زوال دولة الغساسنة (آل جفنة) كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ⁽¹⁾. وهو يأتي على أوصافها المعروفة، من لون وصفاء وطعم ويصف الساقى، ويُحدّد مكان شربها، وأثرها في نفسه، إذ تشيع النشوة والغبطة.

وفي المقطع الخامس يفخر بنسبه وعشيرته، فيتحدث عن أمجادهم وسيادتهم وتفوقهم على غيرهم من السادة البهاليل، وأنّ صلتهم وثيقة العرى بالملوك والأقيال، وأنهم عدول إن تقلّدوا زمام الأمور، فيقضون بالعدل والفسطاس المستقيم.

المؤثرات الفنية

استخدم حسان بن ثابت وسائل مختلفة للتأثير في المتلقي، وذلك لأن حنينه إلى الماضي، وشعوره بثقل الشيخوخة جعلاه يحلم بأيامه التي عاشها في سابق الزمان في كنف ملوك الغساسنة الذين دعوه ولم ينسوه حتى بعد زوال ملكهم، فلجأ إلى مؤثرات فنية متعددة، تتمثل في ما يلي:

1. يمضي الشاعر في قصيدته على طريقة الجاهليين في لغة جزلة، محكمة التّسج، سواء في مقدمته الطللية أو في مديحه وفخره ووصفه للخمر، وقد جاءت ألفاظه معبرة عنها، ففي

(1) الهجاء والهجاءون في الجاهلية، ص 254.

المقطع الأول ترد ألفاظ طللية مثل: رسم الدار، والدّمن، والدّوارس، والمدجنات، فضلاً عن أسماء الأماكن والديار التي مرّ بها.

وفي المقطع الثاني ترد ألفاظ مدحية تقليدية مستمدة من البيئة العربية، فالغساسنة يمّشون في حللهم مشي الجمال، وكلابهم لا تهرّ حين يغشاهم الضيف، وهم بيض الوجوه، كريمة أحسابهم، وشُمّ الأنوف.

وفي المقطع الثالث ترد ألفاظ تناسب عالم الخمرة، فيصف لونها وطعمها، ويذكر الكأس والزجاجة والساقى.

وتتردد في المقطع الأخير ألفاظ الفخر بنفسه وعشيرته على نحو ما أسلفنا سابقاً.

2. العناية بالصور المؤثرة التي جاءت امتداداً للصور الجاهلية الموغلة في البداوة، ففي قوله:

يمّشون في الحُلل المضاعف نسجها مَشْيَ الجمال إلى الجمالِ البُزْل

شبه إقدامهم في القتال وعليهم دروعهم بهجوم الإبل الشابة بعضها على بعض، وهي صورة مستوحاة من البيئة البدوية.

وفي قوله:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

كناية عن استقرارهم وعلوّ منزلتهم.

وفي قوله:

يُغشون حتى ما تهرّ كلابهم لا يسألون عن السّوادِ المُقبل

كنايتان تصوّران الكرم والشجاعة، وهما: «ما تهرّ كلابهم» أي لكثرة ما ترى من ضيوف، وقوله: «لا يسألون عن السّواد المقبل» أي حين يبصرون أناساً مُقبلين على بيوتهم لا يسألون لأنهم قد أعدّوا لهم ما يستحقون، فهم يُعدّون لكل جماعة عُدتها، فإن كانت ضيوفاً فالقرى جاهز وكثير، وإن كانت أعداءً فالسيوف على أهبة القتال.

وفي قوله:

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم شُمّ الأنوفِ من الطّراز الأول

كنايتان، هما: «بيض الوجوه» كناية عن السماحة، و «شم الأنوف» كناية عن سيادتهم ورفعة شأنهم. ومن الواضح براعة حسان في تصوير الخمر، حين تخيل طعمها اللاذع فللاً حاراً، وحين تخيلها في قاع الزجاجة وهي تفور ناقة تهتز براكبها.

ومن المؤثرات التي اتكأ عليها الشاعر للتعبير عن شكواه الشديدة، من تحول الزمن الذي طرأ عليه وعلى الغساسنة الذين زالت دولتهم، الإكثار من استخدام الأفعال الماضية المقترنة بالزمان (نادمتهم يوماً، لبثت أزماناً فيهم، ثم أدركت، رأسي تغير لونه شمطاً) رغبة منه في التمسك بالحال التي كان عليها في الماضي، ولهذا نراه يلجُ على استخدام المضارع الذي يفيد الحاضر واستمراره، إمعاناً منه في التثبيت بالماضي فيما يتصل بممدوحه نحو قوله: (يمشون في الحلل، يغشون حتى ما تهرّ كلابهم، يسقون من ورد البريص عليهم، بردى يصفق بالرحيق السلسل).

كما أن تركيز الشاعر على هذين الزمنين يأتي في إطار تصوير نضارة الماضي وحسنه، ويتمثل أيضاً في ذكر الألفاظ الدالة على الزمن (يوماً، الزمان الأول، أزماناً).

ونراه يستخدم الضمائر ببراعة، فقد استخدم ضمير الغائب الجمعي حين تحدّث عن الغساسنة، واستخدم ضمير المتكلم في وصفه للخمر بوصفها إحدى لذاذاته قبل تحريمها، فهو يتحدّث عنها بصيغة الماضي (شربت الخمر)، ونراه في المقطع الأخير يستخدم صيغة الجمع التي تفيد التلاحم بينه وبين قومه، بحيث أصبح الناطق عنهم سواء في فخره أو في وعيده، في مثل قوله: (نسود، نعتلي، سيدنا، قائلنا، نحاول، نفصل، نزور، نُحكّم، نعدل).

ولا شك في أنّ هذه المفارقة من تقاليد الجاهلية، تغلب عليها المبالغة، بحيث أصبح قومه سادة الناس ولهم فصل الخطاب في أمره، وهو بذلك لا ينسى نفسه وعشيرته حين يمدح آل غسان، ويؤدي دورين في آن واحد، دور الشاعر الرسمي (بوصفه شاعر البلاط عند الغساسنة) ودور الشاعر القبلي، الذي يمدح عشيرته، ولم يلبث حسان أن أصبح يمثل دورين آخرين: شاعر الرسول ﷺ، وشاعر الأنصار.

الإيقاع

حفلت قصيدة حسان بالتجانس الصوتي، مثل تكرار بعض الكلمات في البيت الواحد، في قوله:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

وقوله:

يمشون في الحُلل المضاعف نسجها مشي الجمال إلى الجمال البزل

وفي اشتمال البيت الواحد على كلمات بينها علاقة اشتقاقية، ومن أمثلة ذلك: «يمشون» و«مشي» في قوله:

يمشون في الحُلل المضاعف نسجها مَشْيَ الجمال إلى الجمال البزل

و«قُتِلَتْ» و«قُتِلَتْ» و«ثُقِلَتْ» في قوله:

إن التي ناولتي فرددتها قُتِلَتْ، قُتِلَتْ، فهاتها لم تُثَقِّلْ

و«رقصت» و«رَقَصَ» في قوله:

بزجاجة رَقَصَتْ بما في قعرها رَقَصَ القلوص براكبٍ مُستعجل

كما أن اختيار الشاعر لقافية اللام المكسورة المشبعة يتفق مع أجواء القصيدة المتعددة، وكذلك أعطى اختياره وزن البحر الكامل بتفعيلاته السُّت، مجالاً أكبر في انسيابية القصيدة وتنظيمها.

المبحث الثالث

قصيدة «عدمنا خيلنا»⁽¹⁾

دراسة وتحليل

جوالنص

نظم الشاعر قصيدته بعد صلح الحديبية الذي عقد بين النبي ﷺ ومشركي قريش سنة 6هـ، ولم يلبث أن نقضه المشركون، فكان الفتح سنة 8هـ، وكانت العمرة بينهما سنة 7هـ، ويبدو أن حسان بن ثابت نظمها قبل العمرة، وآية ذلك قوله:

فإِذَا تُعْرَضُوا عَنَّا اعْتَمِرْنَا وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ

والقضية المركزية التي تقوم عليها القصيدة هي فتح مكة الذي بشر الله به نبيه الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١) [الفتح: 1]، وجاءت القصيدة ردًا على المشركين بعامه وأبي سفيان بن الحارث بخاصة، إذ هجا النبي ﷺ.

النص

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عِذْرَاءٍ مَنْزِلَهَا خِلَاءُ⁽²⁾
 دِيَارٍ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفَرٌ تُعْفِيهَا الرِّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ⁽³⁾
 وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيْسُ خِلَالِ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ
 فَدَعِ هَذَا، وَلَكِنْ مِنْ لَطِيفٍ يُؤَرْقِنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ⁽⁴⁾

لَشَعَثَاءُ الَّتِي قَدْ تَيَمَّمَتْهُ فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ⁽⁵⁾
 كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ⁽⁶⁾

(1) ديوان حسان بن ثابت، ص 7-9.

(2) عَفَّتْ: درست. ذات الأصابع، الجواء، عذراء: مواضع في الشام.

(3) بنو الحسحاس: أولاد الحسحاس بن مالك من بني النجار. الروامس: الرياح التي تثير التراب فترمس به الآثار؛ أي تدفنها. السماء: المطر.

(4) إذا ذهب العشاء: أي إن حان وقت النوم.

(5) شعثاء: اسم امرأة.

(6) السبيئة: الخمر. بيت رأس: بلدة بالشام.

على أنيابها، أو طعمَ غَضٍّ من الثُّفاحِ هَصَّرَه الجَنَاءُ^(١)
 إذا ما الأشرباتُ ذُكِرْنَ يوماً فهُنَّ لطِيبُ الراحِ الفداءِ
 نُولِيها الملامَةَ، إنَّ أَلَمَنَا إذا ما كان مَعَثٌ أو لحاءُ^(٢)
 ونشربُها فتركنا ملوكاً وأسداً ما يُنهنهننا اللقاءُ

عَدِمْنَا خيلنا إن لم تُرَوْها نُثير النقعَ موعِدها كَدَاءُ^(٣)
 يبارين الأعنةَ مُصعداتٍ على أكتافها الأسَلُ الظماءِ^(٤)
 تظلل جياذُننا متمطراتٍ ثُلُطُمُنَّ بالخُمُرِ النساءِ^(٥)
 فإما تُعرضوا عنا اعتَمَرْنَا وكان الفتحُ وانكشفَ الغطاءُ^(٦)
 وإلا فاصبروا لِجِلادِ يومٍ يُعزُّ الله فيه من يشاءُ^(٧)

وجبريلٌ أمينُ الله فينا وروحُ القدسِ ليس له كِفَاءُ^(٨)
 وقال الله: قد أرسَلْتُ عبداً يقول الحقُّ إنَّ نَفَعَ السِّبَاءِ
 شهدتُ به فقوموا صدقوه فقلُّنَّ لا نقوم ولا نشاء
 وقال الله: قد يَسَّرْتُ جُنُداً همُ الأنصارُ، عُرِضَتْها اللقاءُ
 لنا في كل يومٍ من مَعَدٍ سِبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ

(١) هَصَّرَه: أماله.

(٢) المَعَثُ: الشر والقتال. اللحاء: الملاحة والسَّيَاب.

(٣) النقع: غبار الحرب. كدَاء: موضع بأعلى مكة.

(٤) مصعدات: مسرعات في الصعود. الأسَل: الرماح الجيدة.

(٥) متمطرات: مسرعات متحفزات.

(٦) الفتح: يعني فتح مكة.

(٧) الجِلاد: المصابرة في القتال.

(٨) روح القدس: جبريل.

فَنَحْكُمُ بِالْقَوَافِي مِنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سَفْيَانَ عَنِي فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخْبَ هَوَاءِ⁽¹⁾
 بَأَنَّ سَيُوفَنَا تَرَكْتُكَ عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتْهَا الْإِمَاءُ⁽²⁾
 هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
 أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍ فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ
 فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ
 فَإِنْ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ فِدَاءُ
 لِسَانِي صَارَمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَبِحَرِي لَا تُكْذِرُهُ الدَّلَاءُ

بنية النص ومساره

تدور قصيدة حسان الهمزية حول موضوعات عدة، هي:

1. مقدمة طللية (الآيات 1-4).
2. الحديث عن طيف المحبوبة ووصف الخمر (5-10).
3. تهديد قريش بغزو مكة وفتحها (11-15).
4. فخر إسلامي (16-21).
5. هجاء أبي سفيان بن الحارث والمشركين (22-28).

يستهل الشاعر قصيدته بمقدمة طللية، فيقف على الأطلال، ويُعدّد مواطنها، ويجول في ديار بني الحسحاس، وهم من بني النجار والخزرج، وقد أقفرت وتعاقبت عليها الرياح والأمطار، وكانت من قبل ممرعة خصبة، وبها أهلها، ولعله بذلك يقيم علاقة بين المكان والإنسان.

(1) نخب: جبان.

(2) عبد الدار: أخو عبد مناف.

ولا يلبث أن ينتقل من المطلع إلى الحديث عن لهوه دون تمهيد إلا بقوله: «فدع ذا...» فيحدثنا عن طيف شعناء، ويشبه رُضابها بخمر الشام التي مزجت بالعسل والماء آونة، وبتفاحه آونة أخرى.

ويسترعي انتباهنا، أن الشاعر يذكر الخمر على سبيل العادة والتقليد في افتتاح القصائد، فهي خمر مجلوبة من إحدى قرى الشام، ولم يكن يشربها إلا صفوة القوم، ثم يصف مزاجها وطعمها ويفضلها على سائر الأشربة، لكونها تُحدث أثراً في شاربها فتجعله قادراً على لقاء الأعداء.

ويرى بعض الدارسين أن هذا الجزء من القصيدة وبخاصة حديثه الصريح عن الخمر، هو مما قاله قبل الإسلام، ذلك لأنهم ينكرون أن يتحدث شاعر إسلامي وثيق الصلة بالدعوة والرسول ﷺ مثل هذا الحديث⁽¹⁾.

ونراه ينتقل من هذا الجزء إلى موضوعه الرئيس دون أن يمهد له، وهو تهديد قريش بغزو مكة وفتحها، مستخدماً لهجة صارمة، إذ يتوعد المشركين بمهاجمتهم من أعلى مكة (وهذا ما حدث عند الفتح)، ويذكر أن الرّماح متعطّشة إلى دمائهم.

ويتحدث عن المسلمين بلهجة سمحة تغلب عليها المعاني الإسلامية، فيفخر بأن الملائكة تؤيد جيش المسلمين، يتقدّمهم جبريل روح القدس الذي لا ينهض لقوّته نذ من البشر، ويفخر بأنه هو والأنصار قد استجابوا لدعوة النبي ﷺ كما أمرهم الله بذلك، في حين بقي المشركون على ضلالهم.

ثم ينتقل إلى هجاء أبي سفيان بن الحارث والمشركين، فيصم أبا سفيان بالجن والدّل، وأنه ليس نذاً لمحمد ﷺ، وأنه ترك كفر بني عبد الدار عبداً للإماء، أما كفار قريش فلا وزن لهم ولا أهمية، سواء مدحوا النبي ﷺ أو هجوه، أما هو فيفديه بأبيه وأمه، ويدافع عنه بلسان صارم قاطع، ذلك أنه كالبحر بالنسبة لشعراء قريش، لا تُعكره الدلاء.

المؤثرات الضمنية

لقد حرص حسان بن ثابت على استخدام تقنيّات فنية للتأثير في المتلقي، وذلك لأن شعوره بالغيرة الصادقة والحبّ العميق للنبي ﷺ جعله لا يُطبق عداوة المشركين له، ولا يطبق

(1) انظر: عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، ص 43.

هجاء أبي سفيان لشخصه الكريم، فأراد أن يوجه رسالة إلى هؤلاء، فيها تهديد ووعيد، وردّ على أبي سفيان.

وأما مخاطبة العاطفة فتبرز في محاولته إثارة مشاعر المسلمين نحو النبي ﷺ، ونحو مكة التي يُشترُ بفتحها (وكان الفتح وانكشف الغطاء) فحسان شاعر قوي العاطفة، وعاطفته الحارة الصادقة هي أبرز عنصر فني في شعره، فهو مخلص للإسلام، محبّ لرسول الله ﷺ. وأما المؤثرات الفنية التي لجأ إليها الشاعر فكثيرة، وتتمثل في ما يأتي:

1. يحتفظ الشاعر في الجزء الأول من قصيدته بمعجم لغوي جاهلي سواء في مقدمته الطللية أو في حديثه عن طيف المحبوبة وما تلاه من وصف للخمر، فإذا انتقل إلى المقطعين الأخيرين نجد لغته قد لانت، وشاع فيها كثير من الألفاظ الإسلامية (اعتمرنا، اصبروا، يُعزّ الله من يشاء، جبريل أمين الله، روح القدس، الأنصار، يقول الحق، وعند الله في ذاك الجزاء)، والألفاظ التي تخدم قضية الفتح (خيلنا، تثير النقع، يبارين الأعنة، مصعدات، متمطرات، الأسل الظماء، جنداً، سيوفنا) ونلمس هنا بروز قيم إسلامية في هذه الألفاظ والتعبيرات، وقد بدت لغته محكمة طيّعة له، لا تستعصي عليه، كما أن اللغة ذاتها تحمل دلالات دينية تتم عن إخلاص للإسلام، وحب للنبي ﷺ والحفاظ على عرضه.
 2. العناية بالصورة بوصفها تقنية تؤثر في المتلقي، في الجزء الأول يشبه رضاب المحبوبة بخمر ممزوجة بالعتسل والماء، وهي صورة فنية تقليدية، وقد أفاض في وصف الخمر في نطاق الصور الجاهلية.
- ويلقانا في الجزء الثاني تصوير فني لجياد المسلمين التي تعدو بشدة كصوب المطر يسبق بعضها بعضاً، وتصوير لنساء المشركين وهنّ يضربن الخيل مخمّرهن كناية عن ضعف المشركين، فقد غادر الفرسان المعركة ولم يبق إلا النساء اللاتي يحاولن كفّ الجيش المغير بهذه الخمر، وقد روى ابن هشام أن الرسول ﷺ رأى النساء يُلطّمن الخيل بالخمر يوم الفتح فتبسّم إلى أبي بكر.
- وفي قوله:

لساني صارم لا عيبَ فيه وبحري لا تُكدره الدلاء

استعارتان جميلتان، وهما: «لساني صارم» وهي استعارة تجعل من لسانه شيئاً قاطعاً كالسيف، و«بحري لا تكدره الدلاء» وهي استعارة جعلته بالنسبة لشعراء قريش بحراً واسعاً لا تكدره دلاؤهم.

3. يبرز في القصيدة إحساس الشاعر بالقوة، قوّته (لساني صارم) وقوة المسلمين (سيوفنا، خيلنا، نُحكّم، نضرب)، وثقته بقدرة المسلمين على مواجهة المشركين إذ تجرّأ في إعلان الحرب عليهم وتهديدهم (عدمنا خيلنا إن لم تروها).

الإيقاع

جاءت القصيدة على وزن البحر الوافر، وهو من البحور السريعة المتدفقة الخطابية، ويصلح لكل ما يثير الهمم والعزائم، وقد أعطى مجالاً للشاعر لتفريغ شحناته العاطفية، وذلك كله يصب في خدمة إيقاع النشوة في الجزء الأول والغضب في الجزء الثاني. كما أن اختيار الشاعر لرويّ الهمزة المضمومة المشبعة المسبوقة بحرف المدّ الألف، يتفق مع أجواء النشوة والإحساس بالظفر.

الشعراء المخضرمون (ب)

المبحث الاول: كعب بن زهير

المبحث الثاني: الحطيئة

المبحث الثالث: الخنساء

الفصل الثالث

الشعراء المخضرمون (ب)

المبحث الأول

كعب بن زهير (-24 هـ / 622م)

حياته

أبوه زهير بن أبي سُلمي، ولد في غطفان قبيلة أمه كبشة حيث عاش والده، وهما أصلاً من قبيلة مزينة، وقد تلقن الشعر عن أبيه، فكان يخرج به إلى الصحراء، فيلقي عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يجيزه تمريناً له وتدريباً على صوغ الشعر ونظمه.

وإذ أسلم أخوه بُجَيْر وبخه واستحثه على ترك الإسلام وهجاه هجاء آذى فيه رسول الله ﷺ فأهدر دمه، ومن ثمّ راح يستجير بالقبائل، ونصحه أخوه بالرجوع ودعاه أن يُقدم على رسول الله تائباً، وشرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر، فوقع من نفسه فلما سلّم النبي ﷺ من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته، فقال: يا رسول الله؟ هذا رجل جاء يبائعك على الإسلام، فبسط النبي ﷺ يده، فحسر كعب عن وجهه وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير فتجّهتمة الأنصار وغلظت له، لذكره قبل ذلك رسول الله ﷺ، وأحبت المهاجرة أن يسلم ويؤمته النبي ﷺ، فأمنه رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

وأنشده مدحته الخالدة:

بانّت سعادُ قلبي اليوم متبولٌ مُتيمٍ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ

فكساه النبي ﷺ بُردته التي كان يلبسها، وقد اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بني عثمان.

(1) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص 83، وابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 104.

وإذ أسلم كعب بن زهير فقد أخذ يُعبر عن بعض المعاني الإسلامية، فالله يرزق عباده وهو الذي يفضل عليهم في مثل قوله:

فلا تخافي علينا الفقرَ وانتظري فضل الذي بالغنى من عنده نثِقُ
إنْ يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا وَمَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزقُ

وكثيراً ما يتأثر في مواعظه وحكمه بالقرآن الكريم، من مثل قوله:

يسعى الفتى لأمرٍ ليس يُدرکہا والنفسُ واحدةٌ والهَمُّ منتشرُ
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثرُ

إلا أنه ظلّ في مقدّماته وأوصافه يجري على سُنن الجاهليين في مقدماتهم وأوصافهم، من مثل قصيدته اللامية:

ألا بَكَرَتْ عِرسي تلوُمُ وتعذلُ وغيرُ الذي قالتْ أعفُ وأجملُ

وهو معنى تقليدي مكرور، يدور حول انصراف النساء عنه بعد أن وخطه الشيب، نلمس فيه نغمة حزينة وأسلوباً دقيقاً، فإذا انتقل إلى وصف الذئب أو الناقة أخذ يُغرب ويميل إلى التعقيد.

توفي كعب نحو سنة 24هـ / 662م.

آثاره

لكعب ديوان طبعته دار الكتب المصرية، ليس فيه، إذا استثنينا قصيدة «البردة» إلا المقطوعات القصيرة التي نظمت في الأغراض المعروفة، من مديح، وغزل، وهجاء، ورثاء، وما إلى ذلك.

قصيدة «بانت سعاد» (البردة)⁽¹⁾

تُعدُّ من المشوبات⁽²⁾، وهي لامية من البحر البسيط لا تتجاوز 58 بيتاً، اكتسبت شهرة واسعة، وتناولها العلماء بالشرح والتفسير، كما تناولها الشعراء فشطروها وخمّسوها وعارضوها، ومن شُرّاحها ابن دريد (933م) والتبريزي (1109م) وابن هشام (1360م).

(1) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 2/ 789.

(2) المشوبات: قصائد شابهها الكفر وأصحابها: النابغة الجعدي (630م)، كعب بن زهير (622م)، القطامي (710م)، الحطيئة (379م)، الشماخ (640م)، عمرو بن أحر (663م)، تميم بن مقبل (625م).

بانتُ سعادُ قلبي اليومَ متبولٌ مُتيمٌ إثرها، لم يُفدَ مكبولٌ⁽¹⁾
وما سعاد غداةَ البينِ، إذ رحلوا إلا أغنُ غضيضُ الطرفِ مكحولٌ⁽²⁾
هيفاءُ مُقبلَةٌ، عجزاءُ مديرةٌ لا يُشتكى قصرَ منها، ولا طُولُ
تجلو عوارضَ ذي ظَلَمٍ إذا ابتسمتِ كأنه مُنهلٌ بالراحِ معلولٌ⁽³⁾
أكرمَ بها خُلَّةً! لو أنها صدقتِ موعودها، أو لو أن النصحَ مقبولٌ⁽⁴⁾
فلا يغرنك ما مُنت وما وَعَدَتِ إن الأمانِي والأحلامَ تضليلٌ⁽⁵⁾
كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلاً وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ⁽⁶⁾
أرجو وأملُ أن تدنو مودُّها وما إخالُ لدينا منك تنويلٌ⁽⁷⁾
أمت سعاد بأرض لا يُبلغها إلا العتاقُ النجياتُ المراسيلُ⁽⁸⁾
ولن يُبلغها إلا عُذافرةٌ فيها على الأين إرقالٌ وتبغيلٌ⁽⁹⁾
من كُلِّ ناضحةِ الذفري إذا عرقتِ عرُضُها طامسُ الأعلامِ مجهولٌ⁽¹⁰⁾
ترمي الغُيوبَ بعيني مُفردٍ لهقٍ إذا توقدتِ الحُزَّانُ والميلُ⁽¹¹⁾

- (1) بانت: فارقت. متبول: أسقمه الحب. متيم: مذل بالحب. لم يفد: لم يجد من يفديه. مكبول: أسير مقيد.
- (2) البين: الفراق. أغن: صفة لصوت الغزال محبة. غضيض الطرف: فاطر النظر.
- (3) تجلو: تكشف. العوارض: الضواحك من الأسنان. ظَلَم: ماء الأسنان وبريقها. مُنهل: مسقي. الراح: الخمر.
- (4) خُلَّة: المراد الخليفة، لا تلفظ همزة أن لضرورة الوزن.
- (5) مُنت: جعلتك تتمنى.
- (6) عرقوب: رجل من يثرب يضرب به المثل في إخلاف الوعد.
- (7) التنويل: العطاء.
- (8) لا يبلغها: لا يبلغ سعاد إليها. العتاق: النوق الكرام الأصول. النجيات: السريعات.
- (9) عُذافرة: شديدة غليظة. الأين: التعب. الإرقال والتبغيل: ضربان من العذو.
- (10) النَّضح: شدة فوران الماء. الذفري: ما خلف الأذن، والمراد ما يتصبَّب من عرق تلك الناقة. عرضتها: غايتها.
- (11) لهق: شديد البياض، ويريد الثور الوحشي. الحُزَّان: ما غلظ من الأرض. الميل: العقد الضخمة من الرمل.

- ضَخَمَ مُقْلِدُهَا فَعَمَّ مُقْيِدُهَا فِي خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْضِيلُ⁽¹⁾
 غِلْبَاءُ، وَجَنَاءُ، عُلُكُومٌ، مُذَكَّرَةٌ فِي دَفْعِهَا سَعَةً، قُدَامُهَا مِيلُ⁽²⁾
 تَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَنِّيْهَا وَقَوْلُهُمْ: إِنَّكَ يَا ابْنَ سُلْمَى لَمَقْتُولُ⁽³⁾
 وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ: لَا أَهْيَيْتُكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ⁽⁴⁾
 فَقُلْتُ: خَلَوْا سَبِيلِي، لَا أَبَا لَكُمْ فِكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ⁽⁵⁾
 كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حِدْبَاءَ مَحْمُولُ⁽⁶⁾
 بُنِّتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ⁽⁷⁾
 مَهْلًا: هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً الـ قِرَآنَ، فِيهِ مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ⁽⁸⁾
 لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبَ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ⁽⁹⁾
 إِنِّي أَقُومُ مَقَامًا لَا يَقُومُ لَهُ أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ⁽¹⁰⁾
 حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أَنَازَعُهَا فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قَوْلُهُ الْقِيلُ⁽¹¹⁾
 مِنْ خَادِرٍ مِنْ لِيُوْثِ الْأَسَدِ مَسْكَنُهُ مِنْ بَطْنِ عَثْرٍ غَيْلٌ دُونَ غَيْلٍ⁽¹¹⁾

(1) مقلدها: رقبته. فعم مقيدها: ممتلئة الرسغ.

(2) الغلباء: الغليظة الرقبة، كناية عن القوة. الوجناء: الناقة الشديدة الصلبة. العلكوم: الضخمة العظيمة. المذكرة: التي لها قوة الذكر.

(3) جنبيها: حوالها، والضمير للناقة.

(4) أهيتك: أشغلنك.

(5) لا أبالك: يقال في المدح والذم.

(6) حدباء: مؤنث أحذب وهو الذي تقوس ظهره، والمراد وصف التعش.

(7) أوعدني: هددني. مأمول: متوقع.

(8) النافلة: العطية الزائدة على ما يجب من العطاء.

(9) لا تأخذني: لا تهمني.

(10) ما أنازعها: متسلما. قوله القيل: كلامه الصادق.

(11) الخادر: الأسد في الغابة. ليوث الأسد: أقوى الأسود وأجلدها. عثر: مكان تكثر فيه الأسود. الغيل: أجمة الأسد.

إن الرسولَ لنورٍ يُستضاء به مهتدٌ من سيفِ الله مسلولٌ
 في عُصبة من قُريشٍ قال قائلهم بطن مَكَّة لما أسلموا زُولوا⁽¹⁾
 زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشفٌ عند اللقاء ولا ميلٌ معازيل⁽²⁾
 شُمُ العرانيين أبطالٌ لبوسُهُم من نسجِ داودَ في الهيجا سرايل⁽³⁾
 لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا⁽⁴⁾
 لا يقعُ الطعنُ إلا في نُحورهم وما لهم عن حياضِ الموتِ تهليل⁽⁵⁾

بنية النص ومساره

تتمحور قصيدة كعب بن زهير اللامية في المقاطع الآتية:

1. مقدمة غزلية تقليدية.
2. وصف الناقة التي تبلغ بالشاعر إلى المحبوبة.
3. ذكر أقوال الوشاة.
4. المدح والاعتذار.

بناء القصيدة

استهلَّ الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية على عادة الشعراء الأقدمين، استغرقت بضعة أبيات، وصف بعدها ناقته وصفاً تفصيلياً، فمطلع القصيدة:

بانت سعادٌ فقلبي اليوم متبولٌ مُتيمٌ إثرها، لم يُفدَ مكبولٌ

- (1) عصبة من قريش: يعني المهاجرين. زولوا: هاجروا. قائلهم: هو عمر بن الخطاب. زولوا: أي انتقلوا من مكة إلى المدينة.
- (2) أنكاس: جمع نكس وهو الضعيف. كشف: جمع أكشف وهو الذي لا ترس له. ميل: جمع أميل وهو الجبان. معازيل: جمع معزال وهو من لا سلاح له.
- (3) شم العرانيين: الأنوف العالية، كناية عن العزة والإباء. من نسج داود: صنع داود، كناية عن الدروع القوية. الهيجا: الحرب. سرايل: دروع، أي لباسهم دروع من نسج داود.
- (4) نالت: أصابت. مجازيع: جمع مجزاع وهو شديد الخوف. نيلوا: أصيبوا.
- (5) حياض الموت: موارد الهلاك. تهليل: فرار.

فهو يذكر سعاد التي فارقتها، ولكن قلبه ظلّ مأسوراً بها، ثم شبهها بالغزال الأغرنّ، المنكسر الطرف، المكحول العينين، ووصف أسنانها وابتسامتها ورُضابها. ويُبدي سوء ظنه بها؛ لمخادعتها، ويتنكّر لها، لأنها تُواعده وتغرّر به، ولهذا قارن طباعها بطباع عرقوب المعروف بخلف الوعد والمماطلة.

على أنه بعد هذه المقدمة تخلص إلى وصف ناقته وصفاً تقليدياً فيه كثير من الغريب والتعقيد، وإن لم يخلُ من الابتكارات، مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع، إذ يقول:

أُمست سعادُ بأرضٍ لا يُبلّغها إلا العتاقُ النجياتُ المراسيلُ

ثم انتقل إلى وصف حاله في أثناء تشرّده ممهداً بذلك لقضيته المركزية، إذ يقول:

لقد تبرّأ مني كل صديق وقال لي: «لا أهيتك إني عنك مشغول» وحينئذٍ قلت لهم: «خلّوا سبيلي فكل ما قدّره الله كائن، ومصير كل إنسان إلى الموت».

وفي الأبيات التالية أخذ يمدح الرسول ﷺ، يستشفعه ويصف الرهبة التي تملكته إثر إهدار دمه، ولكنه اليوم يأمل منه العفو، ويلاحظ في هذه الأبيات براعة كعب في المدح، إذ يتصاعد بمعانيه حتى يبلغ بها إلى الذروة، فبادئ ذي بدء أقرّ برسالة النبي ﷺ بقوله: «بُئيت أن رسول الله أوعدني» ثم طلب العفو منه بقوله: والعفو عند رسول الله مأمول، مازجاً بين المعنى المدحي والمعنى الاعتذاري، ويخاطبه قائلاً: تمهل هداك الله ولا تنتقم ولا تأخذني بأقوال الرشاة الباطلة، ويتحدث عن خوفه وتهيبه في موقف لو وقفه الفيل لارتعدت فرائصه، وصوّر نفسه بالمقبل على أسد، فإذا فرغ من وصف الأسد، أخذ يمدح النبي ﷺ فقال:

إن الرسول لنور يُستضاء به مُهنّدٌ من سيوف الله مسلولٌ

فيمثل هداه بالنور، وقوّته بالسيف، بمعنى أنه الحق والدين، ولما سمع النبي ﷺ هذا البيت خلع على الشاعر برده، إشارة إلى أنه عفا عنه.

وانتقل بعد ذلك إلى امتداح المهاجرين البطولة في صورة موحية، إذ يقول:

شُمّ العرّانين أبطالُ لبوسُهم من نسج داودَ في الهيجا سراويلُ

والدروع هنا ترمز إلى ما دونها من أسلحة.

ثم يخلع عليهم صورة أخرى تجمع الواقعية إلى المثالية بقوله:

لا يقعُ الطعنُ إلا في نُحورهم وما لهم عن حياض الموتِ تهليلُ

فالواقعية تبدو في اعترافه بأنه قد يقع منهم قتلى، والمثالية في أنهم لا يُطعنون في ظهورهم بل في صدورهم، للتدليل على شجاعتهم وإقدامهم في الحروب، فهم يؤثرن الموت على الفرار.

وفي بيت آخر يتحدث عن ثبلهم في الحرب فهم لا يغترون بالنصر، ولا يجزعون للهزيمة:

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

المؤثرات الفنية

لقد حرص كعب على استخدام وسائل مختلفة ليتداركه عفو النبي ﷺ، وذلك لأن خوفه من الهلاك، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، جعله لا يطيق تحمل العواقب، فلجأ إلى المدح والاعتذار، مخاطباً العقل والوجدان، وإلى مؤثرات فنية مختلفة، أما مخاطبته للعقل فتتجلى في تنفيذ أقوال الوشاة، وفي إقراره برسالة النبي ﷺ.

وأما مخاطبة العاطفة فتبرز في محاولته إثارة عاطفة الرسول ﷺ، وهي عاطفة يمتزج فيها الخوف والرجاء والإعجاب.

وتعددت المؤثرات الفنية التي لجأ إليها الشاعر، وتتمثل في ما يأتي:

1. ارتبطت لغته بطبيعة الموضوع الذي يتحدث عنه، فهو في مقدمته الغزلية يستخدم لغة عذبة رقيقة، عبّر بها عن جمال صاحبه وولعه بها، فإذا انتقل إلى وصف ناقته أمعن في الغريب واستخدم ألفاظاً جاهلية.

وهو في مدح النبي ﷺ والمهاجرين يتعد عن الغريب ويستخدم ألفاظاً وعبارات إسلامية، عبّر بها عن بعض المعاني الإسلامية من ذلك: «ما قدر الرحمن مفعول» و«نافلة القرآن»، و«رسول الله»، و«الرسول». فضلاً عن المعاني التقليدية، ولكنه في وصف الأسد الذي شبه به النبي ﷺ ارتدّ إلى الألفاظ الجاهلية الغريبة:

من ضيغم من ضراء الأسدٍ مُخدره ببطن عئّر، غيل دونه غيل⁽¹⁾

يعدو فيلحِمُ ضرغامين عيشهما لحم من القومِ معفور خراذيل⁽²⁾

(1) مخدره: مكانه. عئّر: اسم مكان. الغيل: المكان الكثير الشجر.

(2) يلحم: يطعمهما اللحم. معفور: مُعقّر التراب. خراذيل: مُقطّع.

إذا يُساورُ قرناً لا يحلُّ له أن يتركَ القرنَ إلا وهو مغلول⁽¹⁾

تظلُّ حمير الوحش ضامزةً ولا تمشئ بواديه الأراجيل⁽²⁾

2. العناية بالصورة بوصفها تقنية مؤثرة في المتلقي، فقد شبه صاحبه بالغزال الأغن ثم وصف أسنانها وبسمتها المتألقة، وتعرض إلى رُضابها فتمثله بالراح. ثم انتقل إلى وصف ناقته على نحو ما يفعل الشاعر الجاهلي، فيه كثير من التشبيهات التقليدية، وقد بث فيه قوة واندفاعاً يظهران حتى في الألفاظ الشعرية، في مثل قوله:

غلباء وجناء علكومُ مذكرةٌ في دفها سعة قدامها ميلُ

ومن الواضح براعة كعب في تصوير شخصية النبي ﷺ، فنراه يركز على هيئته وهذاه وقوته، فيصوره بالأسد والنور والسيف، في حين يُصور نفسه بالخائف المذعور، وقد أراد الشاعر من هذا التصوير أن يجعل النبي ﷺ صاحب العفو والمقدرة، مُصيخاً إليه. والمتأمل في موقف الشاعر بين يدي النبي ﷺ يلحظ امتزاجه بمختلف العواطف الإنسانية من خوف ورجاء وإعجاب.

وإذ يمدح المهاجرين يأتي بكنائيات جميلة تدور حول الأنفة والعزة (شُمَّ العرانيين) والشجاعة (لا يقع الطعن إلا في نحورهم) والصبر في ميدان القتال (وما لهم عن حياض الموت تهليل).

الإيقاع

ويتمثل أبرز ما يتمثل في اختيار الألفاظ ذات الجرس الشديد، وفي التكرار اللفظي، في مثل قوله:

إنَّ الرِّسُولَ لنورٍ يستضاء به وصارمٌ من سيوف الله مسلول

في عُصبةٍ من قريشٍ، قال قائلهم: بطن مكة لما أسلموا: زولوا

زالوا، فما زال أنكاسٌ ولا كُشفٌ عند اللقاء ولا ميلٌ معازيل

وفي تكرار بعض الأصوات، في مثل قوله:

وما سعادُ غداة البين إذ رحلوا إلا أغن، غضيضُ الطرفِ مكحول

(1) يساور: يقاتل. مغلول: أسير في الأغلال.

(2) ضامزة: ساكنة لا يصدر عنها صوت. الأراجيل: الرجال.

فتكرار حرف الغين أضفى لوناً من الإيقاع يتناسب مع صوت الظبي.

وتكرار بعض الأوزان يُعمّق من صدى هذه الإيقاعات، ومن ذلك قوله:

هيفاءً مقبلة، عجزاءً مدبرة لا يُشتكى قصرَ منها ولا طول

وقد زادتها هذه الطباقات المتوالية جمالاً: هيفاء - عجزاء، ومقبلة - مدبرة،

وقصر - وطول.

ومن ذلك قوله:

غلباءً، وجناءً، علكومٌ، مذكرةٌ في دَفْها سعةٌ، قُدّامها ميل

فورود مثل هذه الألفاظ المتوازنة يتناسب مع قوة الناقّة واندفاعها، ويُعمّق من صدى

هذه الإيقاعات ذات الجرس القوي.

كما أن اختيار الشاعر لقافية رويّها اللام المضمومة المشبعة المسبوقة بحرف المد الياء أو الواو، يتفق مع العاطفة التي امتزج فيها الخوف والرجاء والإعجاب، وكذلك كان اختياره مستفعلن فاعلن، مستفعلن فاعلن في كل شطر يعطي مجالاً أكبر للشاعر لتفريغ شحناته العاطفية.

التناص في القصيدة

في قصيدة «البردة» تناص وتقاطع مع نصوص جاهلية من أشعار وأمثال، ومع القرآن الكريم، مما يدل على ثقافة كعب واطلاعه وتشعب معرفته، فقد تأثر بالنابغة الذبياني، إذ أخذ بعض ألفاظه ومعانيه، ففي قوله:

أَبَيْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

أخذ شطره الأول من قول النابغة:

أَبَيْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ

وفي قوله:

لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ، وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَايِلِ

قريب الشبه بقول النابغة:

لَشَنَ كُنْتَ قَدْ بَلَغْتَ عَنِي وَشَايَةً لِمُبْلَغِكَ الْوَاشِي أَغْشُ وَأَكْذِبُ

وقوله:

تسعى الوشاة بجنييها، وقولهم: إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
شبيه بقول النابغة معتذراً للنعمان ومُعظماً له:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

وقوله:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا أباطيل
مأخوذ بلفظه ومعناه من المثل الجاهلي «مواعيد عرقوب» وهو رجل يضرب به المثل
في الكذب، وقصة المثل معروفة في كتب الأمثال، وقد خلعه على صاحبه سعاد التي تخادعه
وتكذب عليه.

وقوله:

شَمُ العرانيين، أبطالاً لبوسُهُم من نسج داود في الهيجا سراويل
متأثر بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّنَاهُ صَنْعَةً لِّبُوسٍ لَّكُمْ لِيُخَيِّبَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾
[الأنبياء: 80] فداود عليه السلام هو أول من صنع الدروع التي تقي في القتال شر الأعداء، وهي صنعة
خصه الله بها، وامتداح المهاجرين بأنهم يتخذون هذه الدروع في قتالهم، فيه دلالة على
بطولتهم في صورة موحية.

والتأمل لقصيدة كعب واعتذاريات النابغة للنعمان يجد تشابهاً واختلافاً بينهما،
فالنابغة هو مبتكر فن الاعتذار في الأدب العربي وواضع أصوله، وقد سار كعب على خطاه
مقتصراً على اعتذارية واحدة، خلافاً للنابغة. وكلاهما يعتذر من عمدوحه ويعظمه
ويسترضيه، فالنابغة يعتذر للنعمان ويصور عظمته واتساع ملكه وسلطانه (فإنك شمس
والملوك كواكب)، وكذلك كعب بن زهير يمدح النبي ﷺ ويعظمه فيصوره بالأسد تارة
وبالسيف تارة أخرى، وكلاهما يتحدث عن الوشاة وينفي التهم عن نفسه، وهو لذلك
يكذب هؤلاء الوشاة، ويتشابه الشاعران في تصوير نفسيتهما تجاه الممدوح، فالنابغة يحمل
همومه ومتاعبه (في صورة الشوك الذي يغطي فراشه):

فبت كأن العائدات فرشن لي هراساً به يُعلى فراشي ويُقشب

وصور نفسه بالبعير الأجرب:

كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب

وكعب يصور موقفه بين يدي النبي ﷺ في موقف لو وقفه الفيل لارتعدت عروقه، ويقطع الصحراء مستتراً بالليل:

لقد أقوم مقاماً لو يقوم به يرى ويسمع ما قد أسمعُ الفيلُ
إلى آخر الأبيات...

وكلا الشاعرين نجح في الحصول على نيل العفو، فقد عفا النعمان عن النابغة وعاد عنده إلى سابق حظوته، أما كعب فقد عفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه برده التي كان يلبسها، وقد اكتسى بها، وسميت قصيدته «البردة».

لكنَّ الفرق بين الشاعرين أن النابغة مدح النعمان وحده ووصف حلمه وعدله، وأثنى على جوده وأريحته، ثم شبه جوده بالفرات في فيضان مياهه وهو بذلك يستغرق في الصورة الواحدة وما يتصل بها من صور، وأما كعب فقد مدح النبي ﷺ ثم مدح المهاجرين دون الأنصار⁽¹⁾، وهو ما أخذه النبي ﷺ عليه، بقوله لكعب: هل ذكرت الأنصار؟! فنظم فيهم قصيدة رائية يمدحهم بها، إذ يقول:

ورثوا السيادة كابراً عن كابرٍ إنَّ الكرامَ هم بنو الأخيار
وكذلك نلاحظ على صوره الجزئية التي يرسمها لفضائل النبي ﷺ أنها صور مُحدَّدة اقتصرَت على تمثيله بنور للهداية، وسيف على الباطل، دون أن يتفننَ فيها أو يربط بينها وبين غيرها من الصور.

كما أنَّ النابغة يعتذر إلى ملك هو النعمان، كان شاعره وجليسه، ولما رأى الحساد عظم منزلته سعوا بالوشاية بينه وبين النعمان، ولَفَّقُوا أبياتاً على لسانه في هجاء النعمان والتغزل بزوجه المتجرِّدة، فغضب الملك وأهدر دم شاعره، ففرَّ إلى الغساسنة في الشام، وقيل إنه كان يسعى لخدمة مصالح قومه، وأما كعب بن زهير فهو يمدح النبي محمداً ﷺ وكان من شعراء قريش الذين آذوا رسول الله ﷺ، فتَوَّعده وأهدر دمه، وأعلمه أخوه بذلك، وحثَّه على التوبة، فقدم المدينة، وأنشد مدحته واعتذاره.

(1) وقد عرَّضَ بهم من خلال مدح المهاجرين، وأنكر المهاجرين ذلك، وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم، ولم يقبلوا منه ذلك حتى مدح الأنصار، أما تعريضه ففي قوله:

يمشون مشي الجمال الزَّهر يعصمهم ضربُ إذا عرَدَ السَّودُ التناييل

المبحث الثاني

الخطيئة (59هـ / 679م)

حياته

هو جرجول بن أوس بن مالك، لقب بالخطيئة لقصره أو لدمامته ⁽¹⁾، ولد لأمة تسمى الضراء، كانت لأوس بن مالك العبسي، ونشأ في حجره مغموزاً في نسبه، مما جعله قلقاً مضطرباً. وزاد في اضطرابه ضعف جسمه وقبح وجهه إذا كانت تقتحمه العيون، ولم يكن فيه فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في «عبس» على نحو ما صنع عنتره من قبل. تزوج الخطيئة بأُم مليكة، وأظهر لها ولأولاده العطف ⁽²⁾.

وقد اختلف الرواة في تاريخ إسلامه، والأرجح أنه أسلم في أواخر حياة النبي ﷺ، إذ نراه يُسارع إلى الردة، معيناً بشعره المرتدين على أبي بكر وخلافته، حتى يقول:

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لعبادِ الله ما لأبي بكر

أيورثها بكراً، إذا مات، بعده فتلك، وييت الله، قاصمة الظهر ⁽³⁾

ووصف الخطيئة بجملة صفات، فقد ذكر الأصمعي أنه: «كان جشعاً سؤولاً ملحفاً دنيء النفس، كثير الشعر، قليل الخير، بخيلاً، قبيح المنظر، رثاً الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين، وما تشاء أن تقول في شاعر من عيب إلا وجدته، وقلما تجد ذلك في شعره» ⁽⁴⁾.

ويبدو أن الأصمعي بالغ في نعته بهذه الصفات، فهو كغيره يمدح سادة القبائل بشعره، وقد تكون حادثته مع الزبرقان بن بدر هي التي شوّهته، إذ أقام عنده زمناً على سعة ورحب، ثم إن امرأة الزبرقان خشيت أن يتولّه زوجها بابتة الخطيئة وكانت جميلة، فجعلت تسيء معاملته، وأتيحت بذلك الفرصة لبني أنف الناقة - إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان - فضموا الخطيئة إليهم وبالغوا في إكرامه، فمدحهم ⁽⁵⁾ معرضاً بالزبرقان، بقوله:

(1) خزانة الأدب، 1/ 409.

(2) انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 238.

(3) ديوان الخطيئة، ص 109 و 110.

(4) الأغاني، 1/ 175.

(5) مما قاله فيهم:

ومن يُسوي بأنف الناقة الدّبا

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم

فرفع به عار اسمهم، بل صار لهم ذلك فخراً.

دَعِ الْكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا واقعد فإنك أنت الطَّاعِمُ الكاسي
ثم يمضي في المفاضلة بين الحيين:

سيرى أمامُ فلانٍ الأكثرين حصيً والأكرمين أباً من آلِ شماسٍ
ما كان ذنبي إذا فُلْتُ معاولكم من آلِ لأيٍ صفاةٌ أصلها راسي
ورفع الزبرقان أمره إلى عمر، فحكّم حسان بن ثابت فيه، فلما حكّم بأنه هجاء حبسه، وأخذ الخطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التي يقول فيها:

ماذا تقول لأفراخٍ بذِي مَرَخٍ رُغِبَ الحواصلُ لا ماءً ولا شَجَرٌ⁽¹⁾
ألقىت كاسيهم في قعر مُظلمةٍ فاغفر عليك سلامُ الله يا عمرُ

وَلَاَنَّ لَهُ قلبَ عمر، فعفا عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء⁽²⁾. وقال له: إياك وهجاء الناس، قال: إذا يموت عيالي جوعاً، هذا مكسي ومنه معاشي، قال: إياك والمقذع من القول، قال: وما المقذع؟ قال: أن تُخاير بين الناس، فتقول فلان خير من فلان، وآل فلان خير من آل فلان، قال: فانت والله أهجى مني، يقصد بذلك أنه أعلم منه بالهجاء الموجه.

والبواقع أن الخطيئة لا يقذع في هجائه هنا، بل يعتمد إلى التهكم والسخرية؛ ذلك أن الإسلام خَفَّفَ من حدة لسانه. ولم يلبث أن استأنف الخطيئة شعره في بغيض وفي الزبرقان، بعد موت عمر، فيمضي في المفاضلة بينهما على هذا النحو:

فإن تكُ ذا عَزٍّ حديثُ فلانهم ذوو إرثٍ مجدٍ لم تخنهم زوافره⁽³⁾
وإن تكُ ذا شَاءٍ كثيرُ فلانهم ذوو جاملٍ لا يهدأ الليلَ سامره

وفي عهد عثمان رضي الله عنه اتجه نحو العراق، فمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة، ومدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلفه في تلك الولاية، كما يمدحه في ولايته لمعاوية على المدينة (49-55هـ) ونرى أهلها يجمعون له من أموالهم خشية معرة لسانه.

(1) ذو مرخ: واد بالحجاز. زغب الحواصل: كناية عن صغرهم؛ الدقيق من الريش. الحواصل: جمع حوصلة، وهي معدة الطائفة. المظلمة: البئر المظلمة.

(2) الأغاني، 2/ 79 وما بعدها.

(3) الزافرة من البيت ركنه، ومن الرجل عشيرته وأنصاره الذين يعتز بهم.

وفاته

توفي الخطيئة نحو سنة 679م / 59هـ، ويُروى أنه لما حضرته الوفاة أوصى أن يُحمل على أتان إلى أن يموت، قائلاً في ذلك إن الكريم لا يموت على فراشه فحمل على أتان تذهب وتجيء به.

آثاره

للخطيئة ديوان تصرّف الرواة بقسم من شعره؛ طبع للمرة الأولى في القسطنطينية سنة 1890م ثم طبع في ليلسك سنة 1893، ثم في مصر سنة 1905، وفيه مديح، وهجاء، وفخر، ونسيب. وطبع أخيراً في بيروت سنة 1992م.

مدرسته وفنه

لزم الخطيئة أستاذه زهير بن أبي سلمى، منذ تيقّظت في نفسه موهبة الشعر، وتخرج على يديه، فكان مثله يُعنى بالتعبير وتصفيته من كل شائبة، كما كان يُعنى بمعانيه ويُدققها، فضلاً عن أنه كان يروي شعره وشعر ابنه كعب.

يُعدّ الخطيئة من أعلام الشعراء المخضرمين، لمستواه الفني الرفيع، إذ يراه شوقي ضيف بقية الفحول من العصر الجاهلي، ويقرنه بزهير فيقول: وقد كان على شاكلة زهير، يُعنى بشعره وتجويده عناية شديدة، وقد أثر عنه أنه كان يقول: خير الشعر الحولي المحكّ فهو ممن كانوا يتأثّون في شعرهم ويعيدون النظر فيه حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة⁽¹⁾.

وكان الخطيئة نفسه يدرك هذه المكانة الفنية الرفيعة، وأنه لا يقل شأنًا عن غيره، فلقد سأل كعب بن زهير أن يُنوّه بفنه: «قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإنّ الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع»⁽²⁾، فيقول كعب أبياته التي يرفع فيها من شأنه:

فَمَنْ لِلْقَوافي؟ شأنها من يحوكها إذا ما ثوى كعباً وفوّز جرولاً⁽³⁾
يقولُ فلا يعيا بشيء يقوله ومن قائلها من يُسيء ويعمل

(1) العصر الإسلامي، ص 98.

(2) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص 87.

(3) ثوى وفوّز: بمعنى مات. وجرول هو الخطيئة.

يَقُومُهَا حَتَّى تَقُومَ مُتُونَهَا فَيَقْصُرُ عَنْهَا كُلَّ مَا يُتَمَلَّلُ
كَفَيْتُكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ شَاعِراً تَنْخُلُ مِنْهَا مِثْلَ مَا أَنْخُلُ⁽¹⁾

فلا عجب إذا أن ينتسب الخطيئة إلى مدرسة أوس بن حجر المعروفة بالمدرسة الأوسية، التي تميز شعراؤها بما فيهم الخطيئة وزهير بالروية والتأني، والتصوير الحسي، وقد أفرد له صاحب الأغاني ترجمة وافية، بدأها بقوله: «وهو من فحول الشعراء ومُتَقَدِّمِهِمْ وَفُصَحَائِهِمْ، متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب، مُجِيداً في ذلك أجمع»⁽²⁾.

وللخطيئة بصيرة في الهجاء الأصيل، إذ عُرف ببراعته في خلق الصور وابتكارها، واختيار الألفاظ المناسبة في أهاجيه، في مثل قوله في هجاء رجل⁽³⁾:

أَبْلَغُ بَنِي عَبْسٍ بَأَنَّ نِجَارَهُمْ لَوْمْ وَأَنْ أَبَاهُمْ كَالْهَجْرَسِ
يُعْطِي الْخَسِيسَةَ رَاغِباً مِنْ رَامِهَا بِالضَّيِّمِ بَعْدَ تَكْلُحٍ وَتَعَبُسٍ

فقد صوّر مهجوه بالقرء، واختار للقرء لفظ (هجرس) ليزيد من السخرية به، وزاد على هذا القبح بأنه يكلح ويعبس إذا رُمّت عنده حاجة، وهو يُعْطِي مُرْغِماً. ونراه في مطولاته يشبب ويصف الصحراء وحيوانها.

ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بني أنف الناقة (آل شماس)⁽⁴⁾:

يَسُوسُونَ أَحْلَاماً بَعِيداً أَنَاثُهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِظَةُ وَالْجَدُّ
أَوْلُتْكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبُنَى وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

واستطاع أن يغسل بخله -الذي أشار إليه الرواة- بكثرة مديحه للكرم، وبقصيدته «وطاوي ثلاث» وفيها يصور أعرابياً فقيراً نزل به ضيف، وعياله من حوله يتضورون جوعاً، فهم أن يذبح له أحدهم، لولا أن عَنَتْ له أتان وحشية، فصاهاها وقَدَّمَهَا لضيّفه.

(1) أنخُل: أصطفي واختار.

(2) الأغاني، 2/ 149.

(3) انظر: محمد محمد حسين، الهجاء والهجاءون، ص 134 و 135.

(4) ديوان الخطيئة، ص 72.

كما بالغ الرواة في اتهامه بفساد الدين، فقد حسن إسلامه، وآية ذلك قوله في وصفه العمل الصالح:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الخطيئة (1):

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

ويعتمد الخطيئة التصوير الحسي في شعره، فيميل إلى الواقعية التي تجسم الفكرة وتكسوها مادة، كقوله في هجاء الزبرقان:

جار لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مقيماً بين أرماس (2)

ملأوا قراه وهرته كلابهم وجرحوه بأنياب وأضراس (3)

وكان ميلاً إلى الهجاء، تدفعه حاجته إلى المال؛ ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: «إياك وهجاء الناس! فقال: يموت عيالي جوعاً، هذا مكسي ومنه معاشي» فاشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم (4).

وكان هجاؤه يهدف إلى أمرين، هما:

1. التكسب والتشفي كهجائه للزبرقان.

2. إرضاء حاجة في نفسه كالذي قاله في زوج أمه، وفي أمه، وفي ضيفانه، وكلها سخرية وتهكم حتى لنراه يسخر من نفسه، فيقول:

أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه فقبّح من وجهه وقبّح حامله

وكذلك هجا زوجته فقال:

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى بيت قعيدته لكاع (5)

(1) الأغاني 2/ 173.

(2) الهون: الذلة. الأرماس: جمع رمس هو القبر.

(3) القرى: الضيافة. هرته كلابهم: نبخته لأنها لم تألف الضيوف.

(4) الشعر والشعراء: ص 203.

(5) لكاع: المرأة اللثيمة.

تموذج من شعر الحطيئة يمدح آل شماس

جو النص

قصد الحطيئة زعيماً من زعماء تميم هو الزبرقان ومدحه، لكن زوجه أساءت إلى الشاعر، فتحوّل إلى آل شماس، وهم أيضاً من تميم، لكنهم كانوا منافسين للممدوح الأول. ومدحهم بقصيدة بدأها بالغزل على عادة الشعراء:

ألا طرقتنا بعدما هجعوا هندُ وقد سیرن خساً واتلأبُ بنا نُجْدُ⁽¹⁾

النص

أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ مِنْ اللُّومِ أَوْسَدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُوا
أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبُنَى وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا⁽²⁾
يَسُوسُونَ أَحْلَاماً بَعِيداً أَنَاثُهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِيزَةُ وَالْجِدُّ⁽³⁾
وَإِنْ كَانَتْ النُّعْمَى عَلَيْهِمْ جَزَوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدُّوا⁽⁴⁾
وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جِلٍّ حَادِثٍ مِنَ الدَّهْرِ: رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا⁽⁵⁾
مَطَاعِينَ فِي الْهَيْجَا مَكَاشِيفُ لِلدَّجَى بَنَى لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَبَنَى الْجَدُّ
وَتَعَذَّلْنِي أَفْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ⁽⁶⁾

البناء العام

يخاطب الشاعر منافسي آل شماس فيقول لهم: لا تلوموا هؤلاء العظماء، وإن أردتم أن تتعرضوا لهم فافعلوا مثل فعالهم. إنهم قوم يجيدون بناء المجد، ويوفون بالعهد، ويتمسكون بالحقوق والمواثيق المعقودة، وهم حلماء، واسعو الصدور، يتحلّون بالرفق والأناة، ولكنهم عند الغضب ذوو ثورة وجدّ عظيمين، وإذا أسدى إليهم أحد نعمة جزّوه بها، وإذا أنعموا

(1) طرقتنا: زارتنا ليلاً. اتلأب: انطلق وتتابع، والمتلأب: المنبسط. النجد: ما ارتفع من الأرض. ومعنى البيت يرجو أن تقبل عليه هند بطيفها، بعد رحلة أيام خمسة، اجتاز بها الأرض المرتفعة.

(2) يروى البنى: والبنى جمع بنية وهي ما يُبنى.

(3) الحفيظة: الأنفة.

(4) النعمى: طيب العيش ورفاهيته.

(5) جلّ حادث: أمر عظيم.

(6) الأفناء: أخلاط الناس، والمقصود هنا بطون سعد.

على الناس لم يُتبعوا نعماهم متاً وتكديراً وإرهاقاً، ومهما تشتدّ الأمور فإنهم يحترمون الكلمة ويقفون عندها، حتى لو أن سيدهم قال لهم: الزموا الحلم لوقفوا عند رأيه. وهم يجيدون الطعان في المعركة، ويكشفون ظلام الخطوب، وقد وروثوا الفضائل أباً عن جد.

وقد لامني في مدحهم منافسون من بطون سعد مع أني لم أقل إلا الذي يعلمه عنهم الجميع.

المؤثرات الفنية

استخدم الخطيئة مؤثرات فنية للتأثير في عمدوحيه، وذلك لأنه تحوّل إليهم بعد أن أساءت إليه زوجة الزبرقان، وكان آل شماس ينافسون جماعة الزبرقان، فأراد أن يرضيهم، وينال عطاياهم، وهو المعروف بتكسبه، فمدحهم، مُستغلاً هذه الخصومة بين العشيرتين، إلا أن عاطفته تنم عن إعجاب بهم، أما المؤثرات الفنية فتمثّل في ما يلي:

1. يحتفظ الخطيئة في أبياته بلغة الشعر الجاهلي وأوصافه وتشبيهاته ومجازاته، ومن المعروف أنه من الشعراء الذين يُنقّحون ألفاظهم، ومن ثمّ جاءت في غاية الجمال والجزالة، خالية من الألفاظ المستكرهة أو الغريبة، ثمّ إن في عباراته تقسيماً موسيقياً عذباً نلمحه في كل بيت، ولكنه يتجلى بوضوح في البيتين الثاني والسادس.

وهناك تناسب رائع بين ألفاظه ومعانيه إذ يختار الألفاظ الفخمة حين يمدحهم بالشجاعة كقوله: «وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد» وقوله: «مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى»، لكنه في المقابل يأتي بألفاظ رقيقة حين يصف شمائلهم الرقيقة، كقوله: «إن كانت النعمى عليهم جزوا بها».

وقد بدأ الشاعر أبياته موجهاً خطابه إلى مُنافسي آل شماس بفعلي الأمر (أقلّوا وسدّوا) وصيغة الدعاء التهكمية (لا أباً لأبيكم)، ثم خصّ عمدوحيه ببقية الأبيات، مبتدئاً باسم الإشارة (أولئك) وهي صيغة تُعطي نبرة قوية للصوت، وتتراحم الجمل الشرطية ليؤكد صفاتهم التي يتميزون بها على منافسيهم: إن بنوا أحسنوا البنى، إن عاهدوا أوفوا، إن عقدوا شدّوا، وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد....

2. العناية بصوره الفنية التي استوحاها من البيئة البدوية، وقد جاءت لطيفة مُحبيّة، ومنها قوله: «وإن بنوا أحسنوا البنى» فقد صوّر المجد بالبناء الشامخ، وقوله: «وإن عقدوا شدّوا» فقد صوّر الميثاق بالحلل المعقود، وقوله: «يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها» فقد صوّر

أحلامهم؛ أي عقولهم، بالخيل العنيفة التي تحتاج إلى ترويض، وقوله: «مكاشيف للدّجى» فقد صورَ الخطوب والكروب والمصائب بالظلمات.

3. التجانس الصوتي: حفلت الأبيات بالتجانس الصوتي الذي جاء في غاية الجمال، وقد غاب عنه أثر التكلف، ومن صورته:

أ. اشتمال البيت الواحد على كلمات تربط بينها علاقة اشتقاقية مع المحافظة على معنى مشترك بينهما، مثل كلمتي «سُدّوا وسُدّوا» في البيت الأول، وكلمتي «بَنَوْا والبُنَى» في البيت الثاني، وكلمتي «الُعمى وأنعموا» في البيت الرابع، وكلمتي «رُدّوا ورَدّوا» في البيت الخامس.

ب. تكرار بعض الكلمات في البيت الواحد مثل كلمة (بنى) في البيت السادس، و«سعد» في البيت السابع.

4. الضمائر: ومن المؤثرات الفنية الأخرى التي استخدمها الشاعر الضمائر للغائب والمخاطب بصيغة الجمع، ولم يكن استخدامه لها عبثاً، وإنما أراد أن يُبرز بها معانيه، وهي تمجيد ممدوحه (بنوا، أحسنوا، عاهدوا، أوفوا، عقدوا، شدّوا).

5. صيغة المبالغة: كقوله «مطاعين» و«مكاشيف» للدلالة على أنهم يجيدون أساليب القتال، وأنهم يكشفون ظلام الخطوب.

6. الإيقاع: تجري المقطوعة على وزن البحر الطويل، وهو بحر يصلح لمختلف الأغراض الشعرية بعامة والمديح على وجه الخصوص، لطول تفعيلاته، وجاءت القافية مناسبة، ورويتها الدال المضمومة المشبعة.

وتمثلت الموسيقى الداخلية في الألفاظ الموحية بمعاني القوة فضلاً عن شدة جرسها وجزالتها، وبدت أيضاً في الصور الخيالية التي تلائم طبيعة الممدوحين.

وأياً كان الأمر، فإن أبيات الخطبة تُعدّ من عيون الشعر العربي، لما تميّزت به من صفاء الأسلوب، وأناقة اللفظ، وجمال الخيال، وشرف المعنى.

نموذج آخر من شعر الحطيثة «يروي قصة أعرابي كريم»

جو القصيدة

عُرف العرب بفضيلة الكرم، على الرغم من قسوة الصحراء العربية بهم، والقارئ لشعرهم يستطيع أن يرى بوضوح أن الكرم في كل صوره هو المثل الأعلى الذي أشاد به الشعراء في مدائحهم، ويكاد بعض الشعراء أن يقصر شعره على المديح، ومنهم الحطيثة الذي كان يتكسب شعره، مستفيداً من الخصومات والمنافرات التي كانت تدور بين سادة القبائل، فيمدح هذا ويهجو ذاك.

وهو هنا يروي قصة شعرية مؤثرة رسم فيها مثلاً أعلى في الجود والكرم، فأضفى عليها حُللاً من الجمال والبهاء، وجعل هذه الفضيلة قيمة إنسانية رفيعة، بريشة فنان محترف يعرف كيف يوزع خطوطه.

يحدثنا فيها عن رجل كريم ربما يكون الشاعر نفسه هو الضيف فيها، وربما كانت متخيلة، استمدَّ خيوطها من بيئته البدوية الصحراوية.

وسواء أكانت القصيدة جاهلية أم إسلامية فإنها تنبع من صميم البيئة البدوية، ومتأثرة بالإسلام، ولعل قصة الذبح التي وردت فيها تعود إلى جذور دينية وتاريخية، والغرض منها هو المبالغة في وصف هذا الأعرابي بالكرم.

النص

وطاوي ثلاثٍ عاصبِ البطنِ مُرملٍ بييداءٍ لم يعرف بها ساكنٌ رسماً⁽¹⁾
أخي جفوةٍ فيه من الإنس وحشةً يرى البؤسَ فيها من شراسته نَعْمَى⁽²⁾
وأفردَ في شعبٍ عجوزاً إزاءها ثلاثةُ أشباحٍ نَخَالُهُمْ بَهْمَا⁽³⁾
حُفَاءَ غُرَاءَ ما اغْتَدَوْا خُبْزَ مَلَةٍ ولا عَرَفُوا لِلْبُرِّ مَذْ خَلَقُوا طَعْمَا⁽⁴⁾

(1) طاوي ثلاث: جائع ثلاث ليالٍ. مُرمل: شديد الفقر.

(2) أخي جفوة: ذي خشونة.

(3) البهم: صغار الغنم. ثلاثة أشباح: يعني أولاده.

(4) خبز الملة: قرص يجبز في الرماد الحار.

رأى شبحاً وسَطَ الظلامِ فراعَهُ فلما رأى ضيفاً تشمَّرَ واهتمَّما
فقال: هيا رباهُ ضيفٌ ولا قرى! بحقِّكَ لا تحرمهُ تالليلةَ اللحمِ⁽¹⁾
فقال ابنُهُ لما رآه بجيرة: أيا أبتِ اذبحني وهيئْ له طُعماً⁽²⁾
ولا تعتذرْ بالعدمِ علَّ الذي ترى يُظنُّ لنا مالاً فيوسِغَنَا ذمًّا⁽³⁾

فبينما هُما عَنَّتْ على البُعْدِ عانةً قد انتظمتْ من خَلْفِ مِسْجَلِها نظماً⁽⁴⁾
عِطاشاً تُريدُ الماءَ فانسابَ نحوها على أنَّه منها إلى دمها أظماً
فأمهلها حتى تروَّتْ عِطاشُها فأرسلَ فيها من كنانته سَهْماً
فخرَّتْ لحوصٍ ذاتُ جَحشٍ سَمينةً قد اكتنزتْ لحماً وقد طَبَّقَتْ شَحْماً⁽⁵⁾
فيا بشره إذ جرَّها نحو قومه ويا بشرهم لما رأوا كَلَمَها يَدْمى⁽⁶⁾
وباتوا كراماً قد قَضَوْا حقَّ ضيفهم وما غَرَمُوا غَرماً وقد غَنِمُوا غُنْماً⁽⁷⁾
وبات أبوهم من بشاشته أباً لضيفهم والأمُّ من بشرها أمًّا

بناء القصيدة

تتألف قصيدة الخطيئة «وطاوي ثلاث» من مجموعة من الشرائح المترابطة ترابطاً سردياً ينزع فيها الشاعر نزعة القاص، فيبدأ القصيدة بمطلع يُنبئ عن طبيعة العيش في الصحراء الموحشة (الآيات 1-4):

(1) القرى: طعام الضيف. تاليلة: هذه الليلة.

(2) طعم: طعام.

(3) العدم: الفقر.

(4) عَنَّتْ: لاحت. العانة: القطيع من البقر الوحش. مِسْجَلها: فحلها.

(5) لحوص: بقرة سمينية. اكتنزت: امتلأت (ومثلها طَبَّقَتْ).

(6) كَلَمَها: جَرَحَها.

(7) غَرَمُوا: خسروا.

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمِلٌ ببيداء لم يعرف بها ساكنٌ رَسْمًا فهو ينبئنا أن هذه الصحراء لم تكن رحيمة بأهلها، فهذا الأعرابي الذي كان يقيم في تلك الصحراء هو وزوجه وأولاده، لم يذق الطعام من ثلاث ليال، وهو لبدوته يستوحش من معاشرته الناس، ويرى العيش في هذه الصحراء نعمة كبرى، أما عياله فهم حفاة عراة لا يعرفون الخبز ولم يذوقوا طعم البرّ وقد نجح الخطيئة في تكثيف مصاعب الحياة وقسوتها في الصحراء ووحدة هذا الأعرابي فيها وأنه ليس له أنيس سوى عياله.

وبعد أن وصف الخطيئة الحياة في هذه الصحراء نقلنا إلى مشهد آخر (الآيات 5-9)، هو ظهور ضيف وسط الظلام، وترحيبه به، واهتمامه بأمره، وحيرته في قراء إلى أن همّ يذبح ولده، خوفاً من ذم الضيف له وتشهيره به، وهنا تبلغ الأحداث ذروتها وتتعدد.

وقد تدرّج الخطيئة في سرده القصصي فأخذ يتحدث عن ظهور قطيع من بقر الوحش (الآيات 10-13) وهي عطاش تريد الماء، يتقدما فحل ضخم، وخلفه باقي القطيع تسير في انتظام، وهنا تتجه الأحداث نحو الحل، إذ يقف الأعرابي من هذا القطيع، ويُمهلته حتى ترتوي عطاشه، ثم يرسل فيها سهماً من كنانته، فيصطاد منها بقرة سميكة ذات ولد.

وتكون خاتمة القصة (في الآيات 14-16) إذ يتحدث الشاعر عن سروره وسرور عياله بهذا الصيد السمين، وعن قراء لضيفه، وأدائه لحقه وإكرامه له.

المؤثرات الفنية

ويلاحظ في هذه القصيدة براعة الخطيئة في أسلوبه القصصي الرائع، وقد توافرت فيها عناصر القصة الفنية من الحدث والحركة والعقدة التي تمثلت في عزم الرجل على ذبح ولده، وحل الأزمة حين اصطاد الرجل بقرة الوحش، وهي حسنة التوقيع في توالي أحداثها ووقوعها في الوقت المناسب، فقد لاح القطيع من بقر الوحش بعد حيرة الأب ومناشدة ابنه له بأن يذبحه، وبذلك انحلت العقدة، ومن ذلك أنه لم يرسل سهمه في بقرة الوحش إلا بعد أن ارتوت بالماء.

وتعتمد روعة التصوير عند الخطيئة على دقة الوصف والكنيات والتشبيهات والاستعارات، ففي قوله: «وطاوي ثلاث» و«عاصب البطن» كنياتان عن شدة الجوع، وفي قوله: «تشمّر» كناية عن التأهب والاستعداد، والصحراء لا يعرف فيها رسماً، والأولاد كالبهم، وهم حفاة عراة لا يعرفون الخبز، وقطيع بقر الوحش كالعقد التنظيم، وبات أبوهم

من بشاشته أباً للضيف، والأم من بشره أما له، ومن استعاراته الجميلة قوله: «ثلاثة أشباح» يريد أطفالاً أصابهم الجوع والطوى والهزال حتى صاروا أشباحاً، ولا شك في أن هذه الصور رائعة ومؤثرة، فالشاعر يرسم لوحته بريشة فنان.

وعندما شرع الخطيئة بعرض مشاهد قصته، بدأها بعبارتين لهما وظيفتهما الأساسية وهما: «وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل»، و«أفرد في شعب عجوزاً إزاءها ثلاثة» فقد أدت هاتان العبارتان وظيفة تهيئة المتلقي لاستقبال المشاهد التالية.

وتتمثل هذه المشاهد في طريقة الانتقال من المشهد العام إلى مشاهد تفصيلية إذ ينقلنا من المشهد الأول (الأعرابي المقيم في الصحراء هو وعياله) الى بقية المشاهد.

وجاءت ألفاظه جزلة متقاة، يتوالد بعضها من بعض، مثل قوله: فانساب نحوها، عنت على البعد عانة... فأمهلها حتى تروّت عطاشها، فأرسل فيها من كنانته سهماً، فخرّت نصوص ذات جحش سمين. فهو ينتقي ألفاظه بعناية، بوصفه واحداً من عبيد الشعر الذين عُرفوا بتنقيح شعرهم ومراجعته قبل عرضه، من أمثال زهير بن أبي سلمى، وأوس بن حجر.

وقد أجاد الخطيئة استعمال حروف العطف في تسلسل الأحداث وتتابعها فقد استعمل حرف العطف (الفاء) لإفادة الترتيب والتعقيب على ما أسلفنا في العبارات السابقة. واستعمل حرف العطف (ثم) لإفادة طول المدة، من ذلك قوله: «فروى قليلاً ثم أحجم برهة».

وقد أتبع هذا الحرف بكلمتين تدلان على طول المدة «أحجم» تفيد التردد، و «برهة» تدل على المدة من الزمن، وبذلك جاءت كلماته متكلفة يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن تنهالك وتعباً.

واستخدم الخطيئة لونين من ألوان المحسنات البديعية: الطباق والجناس، في قوله: «من الإنسان وحشة»؛ و«روى قليلاً»؛ و«أحجم برهة»؛ و«غرموا غُرمًا»؛ و«غنمو غنماً». وقد برع في استخدامهما.

ومن المؤثرات الفنية الأخرى الحوار بين الأب وابنه وهو حوار ينم عن التضحية ووقوف الابن مع أبيه في هذا الموقف الصعب، والنداء الذي يمثل معالم التعلق (الأب بربه) و(الابن بأبيه)، والدلالة على انفراج الأمور والإحساس بالبهجة (فيها بشره / ويا بشرهم)،

ويتلو النداء الأول الاستفهام التعجبي (ضيف ولا قرى) في حين جاء النداء الثاني متلوأً بفعلِي الأمر (اذبحني/ ويسر).

وتشير قصة الذبح إلى المبالغة في وصف هذا الأعرابي بالجود والكرم، وهي قصة ارتبطت بالفداء والتضحية، استمدّها من القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات: 102]، ومن قوله تعالى: ﴿وَقَدَيْنَهُ يَذْبَحْ عَظِيمًا﴾ [الصافات: 107].

وفي ضوء هاتين الآيتين الكريميتين نسج الخطيئة قصته، ففي قول الابن لأبيه: «أيا أبت اذبحني» نظر إلى قوله تعالى على لسان إسماعيل عليه السلام: ﴿يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ۚ﴾ [الصافات: 102] والأمر هو بالذبح.

وفي حديث الشاعر عن بشر الأعرابي وبشر أولاده بالصيد السمين، يتماهى مع الآية الكريمة الثانية: ﴿وَقَدَيْنَهُ يَذْبَحْ عَظِيمًا﴾ [الصافات: 107].

والنهاية متشابهة في القصتين: ذبح عظيم / صيد سمين. ولعل التماثل في هاتين القصتين يدل دلالة قاطعة على أن القصيدة متأثرة بالإسلام.

كما أن اختيار الشاعر لقافية الميم المفتوحة المشبعة يتفق مع أجواء القصيدة الحافلة بالحركة، وكذلك كان اختياره لوزن البحر الطويل بتفعيلاته الثماني مناسباً، أعطاه مجالاً ليروي حكايته التي تدور أحداثها في البادية.

المبحث الثالث

الخنساء (664م / 44هـ)

حياتها

هي أم عمرو ثماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية شاعرة مصرية. ولدت نحو سنة 575م، وكانت تقيم بين المدينة ومشارف نجد، وقد نشأت في بيت عز وشرف، فأبوها سيد قومه، وأخوها صخر يخلفه على السيادة، وكانت لها مكانة مرموقة، إذ رفضت الزواج من سيد هوازن دريد بن الصمة، ثم تزوجت مرتين الأولى بعبد العزى والثانية بمرداس السلمي، فأنجبت له أولاداً عدة، اشتهروا بالفروسية وقول الشعر. لقبت الخنساء لخنس⁽¹⁾ في أنفها، ومعنى الخنساء بقرة الوحش، وكانت الخنساء جميلة.

طعن أخوها صخر في إحدى الغارات بين بني سليم وبني أسد، وقد أورثته تلك الطعنة علة لم يلبث أن مات بعدها، وحزنت عليه وجزعت لفراقه، ورثته، وكان شقيقها معاوية قد قتل قبله، فبكته، دون أن ترثيه بمثل ما رثت صخرأ، ويقال إن صخرأ كان يقاسمها ماله مراراً، إذ تزوجت رجلاً كريماً مسرفاً، ولم يترك لها شيئاً، فكان هذا الأخ عظيم البر بها، مع أنها أخته لأبيه.

وفدت الخنساء مع قومها بني سليم على الرسول ﷺ، وأسلمت على يديه وأنشدته شعرها فاستحسنه، وكلما قدمت إليه استزادها من إنشاد الشعر، بقوله لها: هيه⁽²⁾ يا خُناس، ولما استشهد أبناؤها الأربعة يوم القادسية سنة 638م قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

توفيت الخنساء بعد أن كُفَّ بصرها، واختلف في تاريخ وفاتها، فقيل في أول خلافة عثمان رضي الله عنه سنة 24هـ، وقيل في أول خلافة معاوية بن أبي سفيان نحو سنة 664م / 44هـ ولها من العمر نحو 89 سنة.

(1) الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع الأرنبة.

(2) هيه هيه: كلمة بمعنى زيديني كلاماً.

شاعريتها

تعدُّ الخنساء شاعرة متميزة؛ فشعرها يتسم بالصفاء والصدق، نفثته عاطفة جياشة تستدر البكاء وتملأ القلب بالحزن، وشعرها معظمه مقطوعات، تدور حول الرثاء والفخر وبعض الوصف.

تكثر في شعرها أساليب الاستفهام التي يغلب عليها التحسر والحيرة والذهول،
ققولها:

ألا تبكيان الجريء الجميل؟ ألا تبكيان الفتى السيّد
ولربما تخرج أحياناً في مبالغاتها عن المألوف، إذ تذهل عن نفسها، لحزنها الشديد على
أخيها صخر، ويكثر التكرار البليغ في شعرها، وكذلك التصوير الفني كالتشبيه والكنيات
الطريقة.

وأسلوبها سهل لئن يركز على العاطفة الهائجة التي تنطلق دون تكلف، وتنبع من
عالم الذكريات، فكل شيء يُذكرها بأخيها صخر، فالشمس إذا طلعت تُذكرها بغارات
صخر، وإذا غربت تذكرها بكرمه:

يُذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولها لقتلت نفسها، فنسمعها تردد قائلة:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وإذ ملأت الدنيا بكاء وعويلاً فقد صوّرت تجربة الموت أدقّ تصوير وعبرت بأشعارها
عن مرارة الفراق وألم الموت، فعاش هذا الشعر، وأحسّته القلوب وتجاوبت معه، وانفعلت
به.

وأيّاً كان الأمر، فالخنساء شاعرة مُخضّمة وهي أشهر شاعرة مسلمة في هذا العصر،
ظلت تبكي أخويها وصخراً على وجه الخصوص، بكتهما في الإسلام مثلما بكتهما في
الجاهلية، فكانت تُردّد أنغامها الحزينة حتى انتقلت إلى بارئها .

للخنساء ديوان شعر، يدور حول رثاء أخويها ولا سيّما صخر، طبع في بيروت أولاً
سنة 1872م، ثم طبع غير مرة، ونُشر مشروحاً، وقد حققه الدكتور أنور أبو سويلم سنة
1988م.

المتخير من شعرها

قالت ترثي صخرأ وتفخر به ⁽¹⁾:

قذى بعينيك أم بالعين عوار
كان دمعى لذكراه إذا خطرت
تبكي لصخر هي العبرى وقد ولهت
تبكي خناس على صخر وحق لها
لا بد من ميتة في صرفها غير
وإن صخرأ لمقدام إذا ركبوا
وإن صخرأ لتأثم الهداة به
حمال الوية، هباط أودية
لم تره جارة يمشي بساحتها
أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار ⁽²⁾
فيض يسيل على الخدين مدار ⁽³⁾
ودونه من جديد الثرب أستار ⁽⁴⁾
إذ رابها الدهر، إن الدهر ضرار ⁽⁵⁾
والدهر في صرفه حول وأطوار ⁽⁶⁾
وإن صخرأ إذا نشتو لنحار
كانه علم في رأسه نار ⁽⁷⁾
شهاد أندية، للجيش جرار
لريّة حين يخلي بيته الجار

وقالت في رثائه أيضاً:

أعيني جودا ولا تجمدا
ألا تبكيان الجريء الجميل
طويل التجاد رفيع العماد
إذا القوم مدّوا بأيديهم
ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الفتى السيّد
ساذ عشيرته أمردا
إلى المجد مدّ إليهم يدا

(1) ديوان الخنساء، تحقيق أنور أبو سويلم، ص 377 وما بعدها.

(2) عوار: رمد.

(3) فيض: مطر غزير.

(4) العبرى: التي تسكب الدموع، التي تحري دموعها، والعبران (للمذكر) من عبر غبرأ: جرت دمعته. جديد: وجه الأرض.

(5) رابها: أثار ربيتها وأضر بها.

(6) صرفها: حوادثها. غير: مصائب. حول وأطوار: تحول وتقلب.

(7) علم: جبل.

فقال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مُصعداً
ويحمل للقوم ما عَالَهُمْ وإن كان أصغرهم مولداً
جَموع الضيوف إلى بيته يرى أفضل الكسب أن يُحمداً
وإن ذُكرَ المجدُ الفَيْثُهُ تَأَزَّرَ بالمجد ثم ارتدى
غِيَاثُ العشيرة إن أمحلوا يُهينُ التلاد ويُحيي الجداً
وقالت أيضاً:

يُذكرني طلوع الشمسِ صخراً وأذكره لكل غروبِ شمسٍ
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عَجَولاً وباكية تنوح ليوم نحس⁽¹⁾
أراها والهأ تبكي أخاها عشية رُزئه أو غبّ أمس⁽²⁾
وما يبكين مثل أخي ولكن أعزّي النفس عنه بالتأسي
فلا والله لا أنساك حتى أفارق مُهجتي ويُشَقَّ رمسي
فيا لَهْفِي وَلَهْفَ أمسي أُنصبحُ في الضريح وفيه يُمسي؟!

(1) العجول: المرأة التي تكلت ولداً صغيراً.

(2) والهأ: جازعة. غب أمس: ثاني يوم المصيبة.

النثر في صدر الإسلام

المبحث الأول: الخطابة الإسلامية

المبحث الثاني: الكتابة في صدر الإسلام

الفصل الرابع النثر في صدر الإسلام المبحث الأول

الخطابة الإسلامية

كان ظهور الإسلام إيداناً بتطور واسع في الخطابة، إذ اتخذها الرسول ﷺ أداة للدعوة إلى الدين الحنيف، وملتمة للذكر الحكيم، ومن ثم كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع، والأعياد، ومواسم الحج.

وطبيعي أن تقضي هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام، سواء سجع الكهان أو خطابة المنافرات، فقد نهى الإسلام عن التفاخر بالآباء والأنساب والأحساب وإن ظلت لذلك بقية في حياة الرسول ﷺ حين كانت تفد عليه وفود العرب، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطار بن حاجب بن زرارة بين يديه مفاخراً بقومه، وقد ندب له الرسول ﷺ ثابت بن قيس بن الشماس، فردّ عليه مستوحياً هدي الإسلام، ولم يلبث أن استجاب هذا الوفد لله ولرسوله⁽¹⁾. وقد ازدهرت الخطابة في هذا العصر للعوامل الآتية:

1. أنها أصبحت لسان الدعوة الإسلامية ووسيلة نشرها.
2. أن الإسلام فرض الخطابة وجعلها من شعائره في الجمعة، والعيدين، وفي يوم الحج الأكبر.
3. ما أسبغه الإسلام على المجتمع الإسلامي، من حرية واسعة تسمح له بالتعبير عن نفسه، شملت المرأة أيضاً، فكانت تعترض وتخطب، من ذلك المرأة التي راجعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب، واضطرته إلى أن يرجع عن رأيه، ويقول: «أصاب امرأة وأخطأ عمر». وقد عُرف العرب بفصاحتهم وقوة بيانهم، مما دعا إلى نهضة الخطابة وازدهارها.

(1) انظر تاريخ الطبري، 2/ 372.

4. استعملت الخطابة في تحميس الجنود في معارك الفتوحات، إذ كان العصر الإسلامي عصر فتوحات، ومعارك خالدة.
5. ثارت الفتن السياسية والدينية منذ مقتل عثمان رضي الله عنه، وتشعبت المذاهب والمعتقدات والفرق.

أشهر الخطباء

يُعدّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخطيب الأول في الإسلام، وقد تأثر به عدد من الخطباء أبرزهم الإمام علي بن أبي طالب، وكذلك عُرف سائر الخلفاء الراشدين بالخطابة، وسواهم من أعلام الخطباء، منهم عائشة، وابن عباس، وعبد الله بن الزبير، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، رضوان الله عليهم أجمعين.

خطابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، وقد أوتي من الفصاحة ما ملك به أزمة القلوب، وظل طوال ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً، وحيناً آخر كان يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم بعد الجهر بالدعوة⁽¹⁾:

«إن الرائد لا يكذبُ أهله، والله لو كذبتُ الناسُ جميعاً ما كذبتكم، ولو غررتُ الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسولُ الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموئنُ كما تنامون، ولتبعثنُ كما تستيقظون، ولتحاسبُن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنةٌ أبدأ أو لنارٌ أبدأ».

التحليل والدراسة

الهدف من الخطبة

هدف الخطبة محدد وهو إعلان دعوة الإسلام التي تقوم على وحدانية الله تعالى، ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وقد ربط الرسول ذلك بالبعث والحساب والجزاء؛ فلماذا كان لكل شيء غاية فإن غاية ذلك سعادة الآخرة، ومن هنا كان ربط الوسيلة بالغاية.

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي)، 4/ 245.

أسلوب الخطبة

هذه الخطبة إشارة البدء لدعوة الإسلام، ويكفي إعلانها، ولذلك جاء حجمها قصيراً، بل ربما كانت أقصر خطب الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن هنا جاءت هذه الخطبة محددة الهدف، مرتبة الفكرة، مركزة المعاني، قوية العبارة.

ولعل جوانب التأكيد خير ما يبرز ملامح الأسلوب، ففي صدر كل معنى يقدم القسم (والله...) فضلاً عن مؤكدات أخرى مثل: إنّ ونون التوكيد، واللام.

وتمتاز بالإيجاز البالغ الذي يجمع المعاني العظيمة الواسعة في الألفاظ القليلة. ونلمس فيها جمال التقسيم في الجمل، مع وقوع بعض المحسنات كالسجع والطباق في غير تكلف. وهي ملائمة لنفوس السامعين، فلم تتعرض للأصنام وعبادتها، ولم تتحدث عن فساد تفكيرهم؛ لأن هدفها هو التأثير في النفوس والعقول جميعاً.

كما أنها تعتمد على الدليل والحجة؛ فقد ورد في بدء الخطبة دليل خطابي «إن الرائد لا يكذب أهله» وهي قضية مسلمة، من ورائها إنسان أمين هو محمد ﷺ، ثم ساق دليلاً على البعث من حياتهم اليومية، فهم ينامون بغير إرادة منهم، ويستيقظون بغير إرادة منهم، وإنما هناك قوة خفية وراء ذلك، هي الله.

حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة، وكان ما يزال يخاطب في الأحداث التي تلم بالمسلمين، وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات.

ومن أروع خطب الرسول ﷺ ما قاله في حجة الوداع⁽¹⁾.

مناسبة الخطبة

حجّ النبي ﷺ حجّته الوحيدة في السنة العاشرة للهجرة، واصطحب معه أهله وأصحابه، وانضمّ إليهم في الموسم ما يزيد على مائة ألف مسلم، وفي يوم الحج الأكبر وقف النبي ﷺ يخاطب الناس وفي كلامه لهجة المودع، فكانت آخر خطبة له، فكان يسأل الناس عقب كل مقطع بلازمة وداعية: ألا هل بلغت؟ ثم يقول: اللهم اشهد. وقد توفي النبي ﷺ بعد هذه الحجة بثلاثة أشهر، فسميت خطبة الوداع.

(1) البيان والتبيين، 2/ 31.

النص

«الحمد لله لحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم -عباد الله- بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد أيها الناس! اسمعوا مني أبين لكم، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقعي هذا.

أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبداً به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة ⁽¹⁾ غير السدانة ⁽²⁾ والسقاية ⁽³⁾. والعمد قود ⁽⁴⁾، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد نيس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس! إنما النسيء ⁽⁵⁾ زيادة في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحللوا ما حرم الله.

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض؛ إنَّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات وواحد فرد؛ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

(1) موضوع: ساقط ومحرم.

(2) السدانة: خدمة الكعبة.

(3) السقاية: سقاية الحجيج.

(4) القود: قتل القاتل بمن قتل.

(5) النسيء: شهر المحرم، كانوا يحرمونه عاماً ويحلونه عاماً آخر.

إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن⁽¹⁾، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح⁽²⁾، فإن انتهن وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان⁽³⁾، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس! إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ فلا ترجعنْ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلکم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تمحوز وصية لوارث في أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر⁽⁴⁾، من ادعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مؤاليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرّف⁽⁵⁾ ولا عدل⁽⁶⁾.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأحكام التي اشتملت عليها

1. الدعوة إلى التوحيد الخالص والإيمان الكامل.
2. حرمة الأموال والدماء وقداستها، فمن أكل مال مسلم أو سفك دمه، فكأنما انتهك حرمة يوم عرفة في الشهر الحرام، وفي البلد الحرام.
3. أداء الأمانات إلى أهلها.

(1) تعضلوهن: تضيّقوا عليهن.

(2) غير المبرح: الخفيف.

(3) عوان: جمع عانية، وهي الأسيرة، أي كأنهن أسيرات.

(4) الفراش لصاحبه، وللعاهر الحجر: إشارة إلى رجها أو أنه مقضي به رغم أنفها.

(5) صرف: توبة.

(6) العدل: الفدية.

4. إلغاء الربا و ثارات الجاهلية و تراثها غير خدمة البيت الحرام، و سقاية الحجيج.
5. إن القاتل عمداً يُقتل، و القتل شبه المتعمد يكون بأداة غير حادة، و فيه دية مُغلّظة مائة من الإبل.
6. تأكيد حقوق المرأة، و رعاية العلاقة الزوجية.
7. التحذير من فتن الشيطان.
8. الدعوة إلى التمسك بكتاب الله و سُنّة رسوله.
9. تبليغ الرسالة للناس كافة.

تعليق

خطبة الوداع من أعظم الخطب في أدبنا، و قد امتازت بما يأتي:

1. الإيجاز البليغ الذي يجمع المعاني العظيمة الواسعة في الألفاظ القليلة دون إخلال بها.
2. لهجة المودّع سواء عند افتتاحها أو عندما يشهد الله على أنه بَلَّغ الرسالة.
3. البساطة في الألفاظ، و ذلك لأن الخطبة تعليمية، و الأسلوب التعليمي يجب أن يخلو من الصعوبة و التعقيد و التكلف، و بذلك خلت من الغريب النافر و المستكره الحوشي.
4. حلاوة النغمة و جمال التقسيم في الجمل مع وقوع بعض السجع في غير تكلف أو إكثار.
5. التأثير بالقرآن الكريم و الانتفاع به و جميع الأحكام التي أوردها مستمدة من كتاب الله، و اقتبس منه في ثلاثة مواضع: قوله «لكم رؤوس أموالكم» و «منها أربعة حرم...» و «فإن خفتن نشوزهن».

و هذه الخطبة و غيرها تصوّر في دقة حسن منطق الرسول ﷺ في خطابته، و أنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب، و قد وصف الجاحظ بلاغته في خطابته أدق وصف، فقال إنه: «لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعلى زناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أقصى معنى، من كلامه ﷺ» (1).

و من صورها البيانية: «لا يوطئن فرشكم» و «تحت قدمي هذه».

ويرى شوقي ضيف أنه «فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله، فهو الذي رسمها، وفجر ينابيعها»⁽¹⁾.

خطابة الخلفاء الراشدين

كان الخلفاء الراشدون في الذروة من الفصاحة والبلاغة؛ إذ سرى في نفوسهم بيان القرآن بترغيه وترهيبه وبيان الرسول ﷺ بمواعظه وتشريعاته، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم. وقد أثرت عن أبي بكر ﷺ خطب كثيرة، تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقظته وصدق حسه.

وعندما تمت له البيعة خطب في الناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أرواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. أقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم»⁽²⁾.

واستثنى بجانب خطبه ومواعظه سنة الوصية للجيوش الفاتحة، وهو في وصاياه يصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم. وأما عمر ﷺ فكان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة، وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسداداً، وسار سيرة أبي بكر في تشجيع الجيوش بالخطابة محرّضاً على الجهاد.

وخلفه عثمان ﷺ وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان، ويروى أنه أرتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب»، ولكنه كان يخطب أحياناً، فيملا النفس بمواعظه، على شاكلة قوله حين بويع على الخلافة: «ألا وإن الدنيا خضرة»⁽³⁾ وقد شهّيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها».

(1) العصر الإسلامي، 121.

(2) عيون الأخبار، 2/ 234، والطبري، 2/ 450.

(3) خضرة: حلوة.

وتعدُّ خطب الإمام عليه السلام التي ألقاها في أتباعه من أكثر الخطب العربية بلاغة وصدقاً (بعد خطب النبي صلى الله عليه وآله)، كما أنها في الآن ذاته أكثرها عدداً. وذلك لأنه ظل يجاهد خصومه نحو أربع سنوات، فكان يخطب في أصحابه حائناً لهم على الجهاد.

خطبة الإمام علي عليه السلام في الحث على الجهاد

تمهيد

عُرف الإمام علي عليه السلام ببلاغته، وبأنه أعظم خطيب شهدته اللغة العربية بعد النبي صلى الله عليه وآله، فكان يخطب في الناس بروح القائد الفارس حيناً، وبروح الزاهد الفقيه حيناً آخر، غير غافل عن الأحوال التي كانت تُحيط به.

وهناك عوامل متعددة كونت عبقرية الخطابية، هي:

1. نشأته في بيت النبوة على يدي النبي صلى الله عليه وآله، وتلمذه على بلاغته.
2. ثقافته الواسعة، فهو مُلم بكتاب الله وتشريعه ومقاصده، وهو يعرف العربية وأسرارها.
3. حياته الحافلة بالبطولة، وتقلب الأحوال السياسية بعد توليه الخلافة، والتي شهدت الفتن والأحداث المضطربة.

وإذا صح أن جميع الخطب التي وردت في «نهج البلاغة» هي للإمام علي، فهو من أعظم الخطباء قاطبة.

مناسبة الخطبة

أغار سفيان بن عوف الغامدي بخيل لمعاوية على الأنبار بالعراق، وكانت تابعة للإمام علي عليه السلام، فقتل عامله عليها، واسمه حسان بن حسان البكري، ثم دخل الجند الدور، فنهبوا حُلِي النساء، دون أن يلقوا مقاومة تذكر، وإذ بلغ الخبر الإمام علي عليه السلام، خرج غاضباً وألقى هذه الخطبة في أهل الكوفة:

النص

أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُتِّه الوثيقة⁽¹⁾، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، وذُيِّث⁽²⁾ بالصغار والقماء⁽³⁾، وضُرب على قلبه بالأسداد، وأُديِل الحق منه⁽⁴⁾ بتضييع الجهاد، وسيم الخسف⁽⁵⁾، ومنع النصف⁽⁶⁾.

ألا وإنني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم قط في عُقر دارهم⁽⁷⁾ إلا ذلوا، فتواكلتم وتحاذلتم حتى شئت عليكم الغارات ومُلكت عليكم الأوطان.

هذا أخو غامد⁽⁸⁾، قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن معاقلها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فيتتزعج ججلها⁽⁹⁾ وقلبها⁽¹⁰⁾ وقلائدها ورعائها⁽¹¹⁾، ما تُمنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرین، وما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان عندي به جديراً.

فيا عجباً والله يُميت القلب، ويَجلبُ الهم، من اجتماع هؤلاء على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تُغزون، ويُعصى الله وترضون.

(1) جُتِّه: وقاية.

(2) ذُيِّث: ذلل.

(3) الصغار والقماء: الذل والضعفة والسقوط.

(4) أُديِل الحق منه: ضاع حقه.

(5) سيم الخسف: أنزل به الذل.

(6) مُنِع النصف: حُرم العدل.

(7) عُقر الدار: وسطها.

(8) أخو غامد: سفيان بن عوف الغامدي.

(9) الججل: الخلاخيل.

(10) القُلب: السوار.

(11) الرعات: جمع رعث، وهو القرط.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف، قلتُم: هذه حمارة القيظ⁽¹⁾، أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتُم: هذه صبارة القُر⁽²⁾، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحر والقُر، فأنتم والله من السيف أفرّ.

يا أشباة الرجال ولا رجال، خلوم⁽³⁾ الأطفال، وعقول ربات الحجال⁽⁴⁾، لوددت أنني لم أركم ولم أعرفكم معرفةً والله جرّت ندماً، وأعقبت سدماً⁽⁵⁾، فاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قبحاً، وشحتتم⁽⁶⁾ صدري غيظاً، وجرّعتُموني نُغب⁽⁷⁾ التهام أنفاساً، وأفسدتُم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم!! وهل أحدٌ منهم أشدّ لها مراساً، وأقدم فيهم مقاماً مني؟ لقد نهضت بها وما بلغت العشرين، وها أنا قد ذُرُفْتُ⁽⁸⁾ على الستين ولكن، لا رأي لمن لا يُطاع.

تحليل الخطبة

أولاً: بنية النص ومساره

قامت الخطبة على مقدمة وعرض وخاتمة:

1. المقدمة: وتضمنت الفكرتين الآتيتين:

- أ. الترغيب في الجهاد، بوصفه باباً من أبواب الجنة، فتحه الله لأوليائه، معتمداً على رؤيته الدينية في الحث عليه، فهو لباسُ التقوى، ودرعُ الله الحصينة، وجنته الوثيقة.
- ب. الترهيب من ترك الجهاد، بذكر العواقب الوخيمة التي تنجم عن ذلك، من ذل ومهانة وظلم.

(1) حمارة القيظ: شدة الحر.

(2) صبارة القُر: شدة البرد.

(3) خلوم: عقول.

(4) ربّات الحجال: النساء.

(5) السدم: الهم والأسف.

(6) شحتتم: ملأتم.

(7) نُغب: جمع نُغبة، وهي الجرعة.

(8) ذُرُفْتُ: زدت على.

وهو بهذه المقدمة يمهّد لموضوعه ويبين مكانة الجهاد في سبيل الله.

2. العرض: وقد تضمن الأفكار الآتية:

أ. تذكير أهل الكوفة بأنه قد دعاهم إلى القتال قبل أن تُباغتهم الخيل، وكيف أنهم تحاذلوا حتى هاجهم العدو في عقر دارهم.

ب. إخبارهم بما كان من إغارة خيل معاوية على الأنبار، وبالفظائع التي ارتكبت، وبخاصة سلب النساء، وما كان من عودتها سالمة.

ج. إظهار الأسف والعجب، لحال أصحابه الذين أصبحوا في وضع مخجل، فأين هم من عدوهم؟ تلك هي المسألة:

• اجتماع عدوهم على الباطل وتفرّقهم عن الحق.

• يُغار عليهم ولا يُغيرون.

• يُغزون ولا يغزّون.

د. إعلان نقمته على أهل الكوفة على مستويين:

• فضح موقفهم وقعودهم عن الجهاد، وتعللهم بأوهى الأعذار، كالحر والبرد.

• توبيخ عنيف لهم، جراء العصيان والتخاذل، إذ يقول: يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال.

هـ. إبداء غيظه ويأسه منهم، وظهر ذلك جلياً في قوله: قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قبحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهام أنفاساً.

3. الخاتمة: رد فيها على المشككين ببطولته، وجهله بأمر الحرب، مع اعترافهم بأنه رجل شجاع، مفنداً ذلك بالدليل والحجة:

أ. بأنه قائد متمرس، خاض الحروب وهو دون العشرين.

ب. تقاعس أهل الكوفة وتمردهم على أوامره، فلا رأي لمن لا يُطاع.

ج. لقد كانت كلمته مدوية: الله أبوهم!! وهل أحدٌ منهم أشدّ مراساً لها، لكن هذه الصيحة لم تُسكت غضبه، ولم تُفلح في إيقاف يأسه، فنسمعه يُردد بأسى ومرارة: ولكن لا رأي لمن لا يُطاع، فالمشكلة إذاً ليست في الإمام البطل، وإنما هي في المحيطين به.

ثانياً: المؤثرات الفنية

وبتأمل الخطبة تتضح لنا خصائص الإمام علي الخطابية وطبائع أسلوبه والمؤثرات الفنية التي استعملها، أما خصائصه الخطابية فهي:

1. تدرجه في ألفاظه ومعانيه، فالخطبة تتطور تطوراً ارتقائياً، من اللين إلى العنف، إذ بدأ هادئاً نسبياً وهو يتحدث عن الجهاد وفضله، ثم اشتد حين تعرض لقصة أخي غامد حتى بلغ ذروة العنف حين رماهم بأوصاف النساء والأطفال.
وعلى صعيد اللفظ قدم لفظة التعجب (فيا عجباً) على لفظة التقييح واللعنة (فقبحاً لكم وثرحاً).

2. ظهور أثر الثقافة في الخطبة، الثقافة القرآنية والثقافة اللغوية والأدبية، فمن الألفاظ القرآنية التي وردت في خطبته: الجهاد، الجنة، فتحه الله، لباس التقوى، وتبدو ثقافته اللغوية في انتقاء ألفاظه المؤثرة، مع صعوبة بعضها بالنسبة إلى عصرنا، مثال ذلك: دُيْتُ بالقماء، ضرب على قلبه بالأسداد، حمارة، القيق، صبرة، القر، نُغِب التهام، وهي قليلة العدد، لكنها تيمُّ عن تضلعه باللغة، وتغيره منها اللفظة المناسبة لمعناها.

3. قدرة الإمام على إثارة النفوس بوسائل بلاغية مختلفة، فهو يثير النخوة حين يتحدث عن استباحة النساء وصراخهن، ويبعث فينا حب الجهاد حين يتحدث عن فضله، ويجعلنا نشمئز من المتخاذلين عن لقاء العدو والدفاع عن حرمة الدين والوطن.

أما المؤثرات التي استعملها الإمام في خطبته، فمتعددة:

1. فقد توسل بالقسم والنداء والتعجب والاستفهام والتمني والشرط: فجاء بالقسم ليؤكد به معانيه، في مثل قوله: فوالله ما غزي قومٌ...، فأنتم والله من السيف أفر، وبالنداء لأغراض بلاغية كالتعجب في مثل قوله: فيا عجباً، أو للتحقير في مثل قوله: يا أشباه الرجال، أو ليبيدي دهشته واستغرابه في مثل قوله: لله أبوهم!!.

ويأتي الاستفهام في قوله: وهل من أحد أشد لها مراساً!! وقد أجراه مجرى بلاغياً، أفاد به النفي، وبالتمني في قوله: لوددت أني لم أعرفكم، وهو كغيره من الأساليب السابقة يمثل حالة من حالات الانفعال، والشرط في قوله: فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذل فإذا أمرتكم بالسير إليهم...

2. المحسنات البديعية: كالجناس والطباق والمقابلة والسجع، يأتي بجناس الاشتقاق: اغزوهم قبل أن يغزوكم - يُغار عليكم ولا تُغيرون - تُغزون ولا تغزون.
ويعتمد على الطباق في توضيح معانيه، في مثل قوله: ليلاً ونهاراً، سرّاً وإعلاناً، يُغار ولا تغيرون، تُغزون ولا تغزون.
ويأتي بالمقابلة أحياناً في مثل قوله: اجتماع هؤلاء على باطلهم وتفرقكم عن حقكم - حارة القيظ - صبارة القرّ.
3. الصورة والفكرة: وهو يأتي بالصور الطريفة ليوضح بها أفكاره وخواطره، فقد جسد التقوى في قوله: لباس التقوى، وجسد الذل في قوله: ألبسه الله ثوب الذل، وجسد الضلال في قوله: وضرب على قلبه بالأسداد.
وهذه الصور تنمُّ عن تأثره بالقرآن الكريم، كما استطاع أن يوحد فيها بين المشهد الحسي والمضمون النفسي، ففي قوله: «لباس التقوى» نرى تماثلاً بين اللباس، وهو مظهر حسي، يضمّر دلالة معنوية توحى بالتقوى.
4. الإيقاع: تميزت خطبة الإمام بحسن إيقاعها وتدرجه من اللين إلى العنف، إذ تقوم خطبته على إثارة الانفعالات وتهدف إلى التأثير في النفس، وقامت الموسيقى الداخلية على مقومات عدة، كالسجع، والجناس والتضاد، على نحو ما أشرنا إليه آنفاً، وتقوم أيضاً على توازن العبارات، كقوله: هو لباس التقوى ودرع الله الحصينة - اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم.
5. التكرار: فهو يكرر المعنى الواحد ويؤكد من خلال ترادف الألفاظ في مثل قوله: هو درع الله الحصينة، وجنته الوثيقة؛ فالجنته هي تكرار معنوي لفظي للدرع، والوثيقة هي تكرار للحصينة في معناها، وكذلك في قوله: وألبسه ثوب الذل ودُيْتُ بالصغار والقماء انطوت الألفاظ (الذل والصغار والقماء) على معنى واحد.

المبحث الثاني

الكتابة في صدر الإسلام

عُرفت الكتابة عند العرب منذ العصر الجاهلي، إذ انتقلت إليهم من الأنبار والحيرة، وسُمِّي خط أهل الحجاز الحجازي، فلما أُنشئت الكوفة أدخل عليه كُتَابُهَا من الزخرف والتحسين فُعرف بالخط الكوفي.

واقترنت بالتقدم الحضاري والعمراني، وأصبحت من أدوات الفكر والثقافة، وازدادت الحاجة إليها منذ عهود بعيدة، وقد نوه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول آية نزلت على الرسول ﷺ، فقال جل شأنه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝۱ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝۲ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝۳ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝۴ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝۵﴾ [العلق: 1-5].

ومن تمام هذا التنويه القسم بالقلم في قوله تعالى: ﴿تَوَالَّفَ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝۱﴾ [القلم: 1]. وبالكتاب في قوله سبحانه: ﴿وَالطُّورِ ۝۱ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ۝۲ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝۳﴾ [الطور: 1-3].

وعمل الرسول ﷺ جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة⁽¹⁾، فلا يطلق سراحه إلا بعد تعليمهم؛ مما ساعد على انتشار الكتابة في المدينة، وحث القرآن على استخدام الكتابة في المعاملات، يقول ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ إِلَاجٌ أَجْلِي مُسَمًّى فَاصْتَبُوهُ﴾ [البقرة: 282].

وأخذت الكتابة تستخدم على نطاق واسع، سواء في كتابة القرآن أو في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم وعقودهم، وكان الرسول ﷺ يستخدمها في جميع مواعيقه وعهوده، وبلغ عدد كُتَابِهِ ﷺ ثلاثة وأربعين كتاباً، منهم زيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان. وكانت عائشة وصفيّة من أمهات المؤمنين تحسنان الكتابة، ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وقد أناف الكتاب على خمسمائة بين رجل وامرأة وفتى.

وفي العهد النبوي كُتِبَ القرآن الكريم على أيدي كُتَابِ الوحي المعروفين، وكتبت أيضاً رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأقيال والأمراء، وكتبت عهود الصلح بينه وبين قريش، ومنها صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، ومعاهدته مع أهل نجران.

(1) طبقات ابن سعد، 14/2.

وإلى جانب كُتّاب الوحي عُرف كُتّاب الأعمال، من أمثال الزبير بن العوام، وجهل ابن الصّمت، وكانا يكتبان الصّدقات؛ والمغيرة بن شعبة، والحصين بن ثُمير، وكانا يكتبان التداين والمعاملات؛ وحذيفة بن اليمان، وكان يكتب خرص النخل.

وكان الرسول ﷺ يُملي على كُتّابه، ذلك أنه كان أمياً، وآية ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: 48].

كذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده، إذ اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهدهم، فكثرت الحاجة إلى الكتابة، وقام الكُتّاب بأعمال الدولة من رسائل إلى العمال والولاة والقادة، ووصايا إلى القضاة، ورسائل إلى أهل الأمصار، ووثائق الصلح ونصائح الخليفة وتوجيهاته في الحرب والسلم، فضلاً عن كتابة القرآن الكريم.

وكان الخليفة أو الوالي يكتب بيده أو يُملي على بعض الكُتّاب، وذلك قبل أن تصبح الكتابة صناعة فنية في العهود اللاحقة، وقد عهد الخلفاء بالكتابة في الأقاليم إلى غير العرب، فكانت كتابة الخراج في مصر بالقبطية، وفي الشام بالرومية، وفي العراق وفارس بالفارسية، ولم تلبث أن تحولت لغة الدواوين إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان.

وقد مالت الكتابة في صدر الإسلام إلى الإيجاز والوضوح والسهولة، والبعد عن التكلف وزخرف القول، وقد تأثرت بالقرآن الكريم وأسلوبه، وكثر الاقتباس منه.

وكانت الرسائل تبدأ بالبسملة، فالقول: «من فلان إلى فلان»، فالسلام على من اتبع الهدى، أو السلام عليكم، فالتحמיד، فأما بعد، ثم مضمون الرسالة وأخيراً تُختم بقوله: «السلام عليكم ورحمة الله».

وقد جمع محمد حميد الله الحيدر آبادي مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة.

نموذج من الكتابة في عهد النبي ﷺ

ومن نماذجها ما كتبه الرسول ﷺ إلى هرقل في السابعة من الهجرة، وقد حمل هذه الرسالة دحية بن خليفة الكلبي، ونصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم... سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين⁽¹⁾. ويا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم؛ ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

وكانت كتب أبي بكر وعمر إلى أهل البلاد المفتوحة وعهد عمر لأهل إيليا (بيت المقدس) مشهور، وفيه يقول:

«هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئتها وسائر ملتها: أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا أحد من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية... وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين».

وواضح أن عمر ترسّم في هذا العهد عهد الرسول ﷺ لنصارى نجران، وكذلك كان يستلهم وصاياه لولائه في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان، ومن ذلك رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة، ومنها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد:

فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق إلا نفاذ له.

(1) هم العمال والفلاحون التابعون لسادتهم.

آس⁽¹⁾ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك⁽²⁾ ولا يخاف ضعيف من جورك. البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً، لا يمنعك قضاء قضيت به بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع عنه إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل، الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشياء والأمثال، فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق». وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته في الحرب والسلم، وخلفه علي فكثرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه، ومن أهم ما كتب حينئذ وثيقة التحكيم بينه وبين معاوية.

وهكذا أصبحت الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة، وحددت العلاقات السياسية والاقتصادية بين المسلمين وأهل الذمة. ومن ثم تطورت الكتابة تطوراً واسعاً في هذا العصر، وكان الرسول ﷺ هو الذي ذلّلها لتجمل النظم الجديدة التي قامت عليها الدولة الإسلامية وخلفه عليها خلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم، وكذلك قادة الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة، ولعمر القُدح المَعلى⁽³⁾ إذ ساعدت كتبه الكثيرة إلى الولاة وغيرهم إلى نهضة الكتابة وتطورها.

(1) آس: داو، عالج؛ و المقصود أصلح.

(2) حيف: جور، ظلم.

(3) أي النصيب الأكبر.

الباب الثاني

الأدب الأموي

الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية والثقافية

المبحث الأول: الحياة السياسية

المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية

المبحث الثالث: الحياة العقلية والثقافية

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية والثقافية

المبحث الأول

الحياة السياسية

كيف صار الحكم لبني أمية؟

قامت الدولة الأموية سنة 41هـ / 661م على يد معاوية بن أبي سفيان الذي كان مُناوئاً للإمام علي بن أبي طالب، الذي لم يلبث أن استشهد على أيدي طغمة من الخوارج يتقدمهم عبد الرحمن بن ملجم، وقد نفذ هؤلاء مؤامراتهم في الكوفة وكان الإمام قد خرج إلى صلاة الفجر، فقتلوه في 17 رمضان سنة 40هـ م 24 كانون الثاني سنة 661م، وبذلك أزيح أكبر منافس لمعاوية في الخلافة الإسلامية، كما أن تنصيب الحسن بن علي خليفة مكان أبيه لم يكن حائلاً دون تولّي معاوية الحكم وإزاحته من طريقه، إذ سرعان ما تنازل له الحسن عن الخلافة وعادت البلاد الإسلامية تحت حكم معاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ / 661م، وسُمي هذا العام عام الجماعة، لعودة الالتئام واجتماع الشمل. وبذلك انتقل الحكم إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الجديدة، وغدت الخلافة مُلكاً وراثياً.

عُرف معاوية بدهائه ومقدرته السياسية، يساعده نخبة من الولاة الدهاة، من أمثال عمرو بن العاص (مصر) والمغيرة بن شعبة (الكوفة) وزياد ابن أبيه (البصرة)، ومن ثمّ استطاع أن يوطّد الحكم لنفسه، وأن يُمهّد لمبايعة ابنه يزيد بولاية العهد، فأخذ البيعة له طوعاً على أهل الشام وبالقوة على العراق والحجاز. وقد بدأ معاوية يُمهّد لأخذ البيعة ليزيد في وقت مبكر، إذا أو عز إلى الشاعر مسكين الدارمي بفكرته، فأنشد قصيدة أمام رجالات من قريش رفضوا هذه الفكرة، بقوله: ⁽¹⁾

ألا ليت شعري ما يقول ابنُ عامرٍ ومروانُ أم ماذا يقول سعيد؟!

بني خلفاء الله مهلاً فإئماً يُبوءُها الرحمنُ حيثُ يُريدُ
إذا المنبرُ الغربيُّ خلاه ربهُ فإنَّ أميرَ المؤمنين يزيّدُ
على الطائرِ الميمونِ والجُدُّ صاعدٌ لكلِّ أناسٍ طائرٌ وجُدودُ
وخلاصة الفكرة التي يُردّها الشاعر تقوم على أن الله عزّ وجلّ هو الذي اختار يزيد
بعد أبيه، وهي فكرة ردّدها شعراء بني أمية فيما بعد.

ومات معاوية سنة 60هـ/680م فخلفه يزيد ابنه، فكانت سابقة في تاريخ الخلافة
الإسلامية، إذ أصبحت الخلافة وراثية، ولم يكن يزيد يتمتع بمواهب أبيه وقدراته السياسية
والإدارية، إلا أن الولاة الذين تركهم معاوية بعده، كانوا مخلصين للدولة، حراساً على إبقاء
الخلافة في البيت السُفّاني.

العصر الأموي

يطلق العصر الأموي على الفترة التي تمتد من تولي معاوية بن أبي سفيان على مقاليد
الخلافة سنة 41هـ حتى سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين سنة 132هـ. وقد مر
هذا العصر بمرحلتين رئيسيتين، مرحلة الفرع السُفّاني، ومرحلة الفرع المرواني.

أما الفرع الأول فلم يطل به العهد، إذ انقطع بوفاة يزيد في 14 ربيع الأول سنة 64هـ
/الموافق 11/11/683م، وهي فترة قصيرة لم تزد على ثلاث سنوات، تعرّض العالم
الإسلامي فيها إلى الفتن والحروب الداخلية، على رأسها مأساة كربلاء التي انتهت بمصرع
الحسين بن علي في كربلاء يوم عاشوراء العاشر من المحرم سنة 61هـ، ووقعة الحرّة في ذي
الحجة من سنة 63هـ، شرقي المدينة، استبيحت فيه المدينة وقُتل كثير من أهلها.

ولا شك في أن هذه الأحداث نالت من مكانة يزيد وشلّت يده في مواصلة الإعمار
والإصلاح، وخلفه معاوية الثاني في هذه الأجواء العاصفة، ولم يكن يصلح لتولّي الخلافة
فأثر اعتزال السياسة، وقيل إنه مات في ظروف غامضة.

وأما الفرع الثاني فقد شهد انتقال الخلافة إلى مروان بن الحكم، إذ عُقد له الأمر في
الجابية في الثالث من ذي القعدة سنة 64هـ / 22 حزيران سنة 684م، وعلى الرغم من قصر
حكمه فقد استطاع أن يوطد حكم الأمويين في الشام ومصر والحجاز. وتولّى الخلافة بعده
ابنه عبد الملك، الذي يعد المؤسس الثاني للدولة الأموية، إذ عُرف بإصلاحاته الداخلية،

ومنها تعريب الدواوين الحكومية وسك عملة للبلاد الإسلامية، وكان المسلمون يتعاملون بالعملة الرومية والعملة الفارسية، وكذلك امتدت الفتوحات في عهده شرقاً وغرباً.

توفي عبد الملك في 14 شوال من سنة 86هـ/705م وخلفه ابنه الوليد، فشهدت الدولة الأموية في عهده أزهى سنواتها، من فتوحات امتدت شرقاً إلى السند وما وراء النهر، وغرباً إلى الأندلس. وأخذ خلفاء بني أمية يتعاقبون الحكم فيما بينهم، حتى آلت الخلافة إلى خلفاء ضعاف جداً لا يصلحون للحكم، أمثال الوليد بن يزيد (125هـ) ويزيد بن الوليد (126هـ) وإبراهيم بن الوليد (126هـ).

وعلى الرغم من الإنجازات التي أحرزتها الدولة الأموية من فتوحات وتعريب وعمران إلا أن المعارضة كانت تحيط بها من كل حذب وصوب، وبخاصة الخوارج والشيعة، ثم إن معاملة الموالي معاملة غير معاملة العرب، المبنية على سيادة العرب وحدهم، أدت إلى استيائهم وتذمرهم، وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز (101هـ) إعادة الاعتبار إلى الموالي، فأمر عماله بأن يضعوا الجزية عمّن أسلم قائلًا عبارته المدوية: إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً، وكان لهذه السياسة العُمرية أثر إيجابي، إذ ازداد اعتناق أهل الذمة للإسلام بعد إسقاط الجزية عن الموالي، والإسلام لم يأمر بها أصلاً ثم إنه حظر على بني أمية أن يأخذوا من بيت المال ما كانوا يأخذونه اغتصاباً من قبل، وكذلك أعاد الأراضي التي كانت بحوزتهم من غير حق، إلى بيت المال، وبذلك حقق ما ينادي به الإسلام، من عدل ومساواة.

إلا أن هذه السياسة لم تدم طويلاً، فقد مات عمر بعد تسلمه الخلافة بوقت قصير، ومن ثم أخذ الموالي وبخاصة في فارس يتذمرون من بني أمية حتى انضموا إلى الدعوة العباسية التي كانت تهدف إلى إسقاط الدولة الأموية، فكان مروان بن محمد هو آخر خليفة أموي الذي شغل بإخماد الفتن والثورات، وبخاصة ثورات الخوارج، ولم يستطع أن يستجيب لصرخة عامله في خراسان، نصر بن سيار، إذ أنشده شعراً كثيراً، نذكر منه أبياته المشهورة:

أرى بين الرّمادِ وميضَ جمرٍ ويوشك أن يكونَ له ضرامُ
فلئن النارَ بالعودين ثذكى وإن الحربَ مبدؤها كلامُ
أقول من التعجب ليت شعري أليقاًظ أميةٌ أم نيامُ؟

والواقع أنّ مروان لم يكن نائماً بل كان مشغولاً بجروبه الداخلية، فكان ردّه على عامله: احفظ ناحيتك بجندك، ولم تلبث الثورة أن عصفت بنصر، فولى هارباً نحو العراق،

تتبعه الجيوش العباسية، ولكن المنية أدركته في الطريق بنواحي الرّي سنة 131هـ، وهو في أرذل العمر.

ولم يلبث أن أطاح العباسيون بمروان في موقعة الزاب الأعلى بالقرب من الموصل في جمادى الآخر سنة 132هـ التي انتهت بانتصار الجيش العباسي بقيادة عم الخليفة عبد الله بن علي، وهزيمة الجيش الأموي وغرق معظم جنده في نهر الزاب.

وهرب مروان إلى مصر، حيث أدركه جنود العباسيين في قرية من قرى الصعيد، اسمها أبو صير (بو صير)، وقتلوه في 26 ذي الحجة من سنة 132هـ، الموافق 5 آب من سنة 750م، وبمقتله سقطت الدولة الأموية.

وإذا أنعمنا النظر في أسباب سقوط الدولة الأموية، وهي لم تكمل قرناً من الزمن، وجدناها متعددة، منها: اتساع رقعة الدولة وتآكلها من الداخل، بسبب العصابات القبلية (القيسية واليمانية) التي تورط فيها كثير من الخلفاء الأمويين، وحركات العصيان والتمرد على سلطة الدولة التي كان ينهض بها الخوارج من جهة والشيعية في خراسان من جهة ثانية، ولا شك في أن فساد بعض الخلفاء وانغماسهم في اللهو، فضلاً عن ضعفهم عجّل في نهاية هذه الدولة.

المبحث الثاني

الحياة الاجتماعية

شهدت الحياة الاجتماعية في العصر الأموي تطوراً كبيراً، إذ استقرّ العرب في البلاد المفتوحة وأخذوا يتأثرون بالحضارات الأجنبية، وتغيّرت لهم أسباب الترف، وكانوا من قبل هذا العصر يعيشون في الصحراء العربية التي لم تكن سخيّة بهم، وإنّما كانوا يُقاسون شظف العيش، ولم يكن لهم عهد بمرافق الترف الحضاري، حتى لقد ظن بعضهم الخبز رقاعاً للكتابة، وهمّ بعضهم أن يعجن الكافور يظنه دقيقاً، يقول ابن خلدون: «لما ملّك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة، فقد حكى أنه قدّم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم»⁽¹⁾، ولم يلبثوا أن «تطوّروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفُرش والأنية وسائر الماعون والحُرثي»⁽²⁾ فاتوا من ذلك وراء الغاية»⁽³⁾.

كانت دمشق حاضرة الدولة الأموية، وقد أخذت تُحمل إليها الأموال من جميع أنحاء الدولة، فكانت توزع على أهل الشام بخاصة وعلى أهل البلدان الأخرى، ويؤثر عن معاوية أنه كان يقول إنّنا تمرّغنا في نعيم الدنيا تمرّغاً⁽⁴⁾، وكانت قصور بني أمية تزدان بالطنافس وتترامى في ساحاتها النافورات، وتزخرف حيطانها بالرخام والفسيفساء، وقد عمّ الرخاء بلاد المسلمين حتى كان الرجل يطوف بركاته في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فلا يجد من يأخذها.

واختطت في هذا العصر مدن جديدة، فاخط الحجاج مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، واتخذها عاصمة له، بعد أن استحال عليه المقام في الكوفة والبصرة؛ لتنافسهما ولعدائهما معاً لبني أمية، واخط سليمان بن عبد الملك مدينة اللد بفلسطين، وبني هشام بن عبد الملك مدينة الرصافة قرب تدمر.

(1) مقدمة ابن خلدون، ص 121.

(2) الحرثي: أثاث البيت.

(3) م.ن.

(4) تاريخ الرسل والملوك، 4/ 247.

وكان عهد الوليد بن عبد الملك عهد إصلاح وإعمار فقد عُني بالجامع الأموي في دمشق، وبالمسجد الحرام في مكة، فأحاله تحفة رائعة، وكانت له مآثر أخرى فقد عمّ بعطائه المجتَمين، وقال لهم: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مُقعد خادماً وكل ضرير قائداً⁽¹⁾.

وزاول المترفون وسائل الترويح والتسلية كسباق الخيل⁽²⁾، والصيد⁽³⁾، والقنص، ولعبي الشطرنج والترد⁽⁴⁾، وتورّط بعض الناس في إثم الخمر، وكذلك انتشر الغناء في كثير من البلدان. وانتقل هذا الترف إلى النساء العربيات، فبالغن في زينتِهْن وأناقتهن، فقد عُرفت سَكينة بنت الحسين بجمالها ووقارها وأخذها بأسباب الزينة فكانت تصفف جُمّة شعرها، وقلّدتها النساء في ذلك⁽⁵⁾.

ويُروى أن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة بنت طلحة بن عُبيد الله ثمانِي حَبّات من اللؤلؤ، قيمتها عشرون ألف دينار، ولما دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدّمها إليها، فلما رأتها قالت له غير آبهة، لقد كان النوم أحبّ إليّ⁽⁶⁾. ويُروى أنها حجّت، فكان موكبها كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهواذج، وأنه كان لخازنتها موكب آخر ولما شطتها موكب ثالث غير الموكب الرئيس⁽⁷⁾. وكان مصعب قد تزوجها على مَهر بلغ ألف ألف درهم، فكتب الشاعر أنس بن أبي أناس إلى عبد الله بن الزبير قائلاً:

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً من ناصح لك لا يريد خِداعا
بُضع الفتاة بألف ألفٍ كاملٍ وتبيت سادات الجنود جِباعاً⁽⁸⁾
لو أنّ للفاروق سُقتُ مقالي وأقصرُ شأن حديثكم لارتاعا

(1) تاريخ الرسل والملوك، 5/ 265.

(2) البيان والتبيين، 3/ 257.

(3) الأغاني، 13/ 361.

(4) نقائض جرير والفرزدق، ص 787.

(5) انظر: الأغاني، 14/ 157 وما بعدها.

(6) م.ن، 11/ 182.

(7) انظر: م.ن، ص 188.

(8) بُضع الفتاة: مَهرها وعقد زواجها.

المبحث الثالث

الحياة العقلية والثقافية

تمحورت الحياة العقلية والثقافية في ثلاثة اتجاهات: اتجاه قديم (جاهلي) واتجاه جديد (إسلامي) واتجاه أجنبي (يوناني ورومي وفارسي).

وقد تمثل الاتجاه الأول في الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليد الجاهلية، وأدى إلى ظهور الرواة من أمثال حماد الراوية (155هـ)، وأبي عمرو بن العلاء (154هـ)، وخلف الأحمر (180هـ)، وكان هؤلاء بوصفهم رواة وعلماء لغة شديدي التعصب للشعر الجاهلي. ويلقانا أيضاً عبيد بن شربة راوية الأخبار اليمنية، ودغفل بن حنظلة النسابة، وغيرهما.

أما الاتجاه الجديد فقد تمثل في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والتاريخ الإسلامي، فقد اهتم أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير بمغازي الرسول ﷺ، وعُني وهب بن منبه بجمع أخبار أهل الكتب السماوية، وهناك من عُني بقراءات القرآن وبالحديث النبوي الشريف؛ ففي مكة اشتهر تلاميذ ابن عباس بتقديمهم عطاء وعكرمة؛ وفي المدينة سالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وعروة بن أذينة، والزهري؛ وفي البصرة ابن سيرين، والحسن البصري، وقتادة، وإياس بن معاوية، ومالك بن دينار؛ وفي الكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلى رأسهم الشَّعبي، وسعيد بن جبير، وشريح بن الحارث القاضي؛ وفي خراسان الضحاك بن مزاحم؛ وفي الشام شهر بن حوشب، ومكحول، والأوزاعي، وفي مصر الصائحي، ويزيد بن عبد الله.

وإذا اختلط العرب بالأعاجم، فقد انتشر اللحن، مما جعل أبا الأسود الدؤلي (69هـ/688م) يضع أسس النحو، بضبط أواخر الكلمات ثم أكمل مسيرته الخليل بن أحمد (170هـ/786م) في العصر العباسي، إذ اخترع الحركات والشدة والسكون.

وأما الاتجاه الأجنبي فيتمثل في جانبين، تطبيقي ونظري، فقد أخذوا العلوم التطبيقية من المدن القديمة، من تخطيط المدن وعمارة المباني، وشق التُّرع والقنوات وقد عرف يزيد ابن معاوية بأنه كان يحب العمران وسُمي مهندس بني أمية؛ إذ أتم نظام الري في غوطة دمشق، وحفر قناة عُرفت بـ «نهر يزيد». وأمر خلفاء بني أمية ببناء الجامع الأموي الذي تم بناؤه في عهد الوليد بن عبد الملك، وكان يمثل الفن الإسلامي، مع أن معظم الصُّناعات والعمال

الذين قاموا ببنائه كانوا روماً، وبني الأمويون أيضاً المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة في القدس الشريف، فقد عُني عبد الملك بمسجد قبة الصخرة وزخرفته، بحيث أصبحت قبة إحدى عجائب الدنيا، وكذلك عُني الوليد ابنه بالجامع الأموي في دمشق وزخرفته بالرخام والزجاج الملون⁽¹⁾، وكذلك بنوا القصور في البوادي والحواضر ومنها قصر هشام بن عبد الملك في أريحا.

وعرف العرب المسلمون فن الزخرفة الهندسية التي عرفت بالفن العربي (الأرابيسك) وقد وُجد في قصر الحبر بالقرب من تدمر بقايا رائعة من فن الزخرفة والتصوير العربي.

وأما الجانب النظري فيتمثل في العلوم الفلسفية التي تسرّبت إلى العرب من خلال المراكز الثقافية في البلاد المفتوحة، وأهمها الإسكندرية موطن الثقافة اليونانية، وكانت الفلسفة قديماً مرتبطة بالطب، وقد انتشرت في البلاد الإسلامية على أيدي النصارى وبخاصة القديس يوحنا الدمشقي ابن سرجون مدير المالية في دمشق، وكانت بعض المدارس والأديرة تُعنى بدراسة المنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية، وكانت مدرسة جُند يسابور تُعنى بالثقافات الشرقية المختلفة، فضلاً عن مدارس أخرى ساهمت في نشر هذه الثقافات في الرُّها ونصيبين وأنطاكية وقنشرين.

وقد راجت علوم الطب والكيمياء، في مدرسة الإسكندرية، ومن تفرَّغ لها خالد بن يزيد بن معاوية، وكان مغرمًا كذلك بعلم النجوم، إذ استحضر آلاته وأنفق في طلبها المال الوفير.

(1) الحيوان، 1/ 56.

الشعر الأموي بيئاته والمؤثرات العامة فيه

- المبحث الأول: بيئات الشعر الأموي
المبحث الثاني: عودة العصبية القبلية
المبحث الثالث: الموالي والثقافة الأجنبية
المبحث الرابع: المجالس الأدبية
المبحث الخامس: الأسواق
المبحث السادس: الاهتمام برواية الشعر ونقده

الفصل الثاني

الشعر الأموي: بيئاته والمؤثرات العامة فيه

المبحث الأول

بيئات الشعر الأموي

امتدَّ العصر الأموي قرابة القرن من الزمان من 41هـ-132هـ، في رقعة مكانية واسعة، انتشر العرب فيها، وتعدّدت بيئاتها، حيث نشطت حركة الشعر في بعضها، وضعفت في بعضها الآخر، وأبرز هذه البيئات هي الحجاز ونجد والعراق والشام وخراسان ومصر.

الحجاز

ففي حاضرتي الحجاز مكة والمدينة اللتين شهدتا بزوغ فجر الإسلام، نشأت فيهما حركة علمية نشطة، إذ نبغ في مكة الصحابة وكبار التابعين في التفسير وعلم الحديث منهم تلامذة ابن عباس حبر الأمة من أمثال عطاء بن أبي رباح، ونبغ في المدينة سعيد بن المسيب الذي كان من تلاميذ زيد بن ثابت، وابن شهاب الزهري الذي كان من تلاميذ عروة بن الزبير، ومن أشهر من جمع الحديث النبوي.

ويعد الحجاز موطن المعارضة لبني أمية، إذ لم يرضَ الناس عن خلافة يزيد وعزموا على قتاله، فأرسل جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المرّي، وقائل أهل الحجاز في مكان يُدعى الحرّة (أرض بركانية) شرقي المدينة في ذي الحجة من سنة 63هـ ودخل المدينة، وكذلك ظهرت حركة عبد الله بن الزبير في مكة، حيث أحكم سلطانه على الحجاز حتى قضى الحجاج على حركته سنة 73هـ.

وقد تركت هذه الأحداث أثراً كبيراً في حركة الشعر من حيث مواقف الناس من الخلافة والدعوة إلى قريش بعامة وآل الزبير بخاصة على نحو ما نرى في شعر عُبيد الله بن قيس الرقيات.

وإذ أغدق الأمويون الأموال على هاتين المدينتين وأهلها فقد ظهر لون من الترف وميل إلى الغناء، بالغ فيه مؤرخو الأدب، وبخاصة صاحب كتاب الأغاني، فقد عُرِفَ أهلها بالورع والتقوى، على الرغم من ميلهم إلى الظرف والدُّعابة.

وأيّاً كان الأمر، فقد ظهرت في بيئة الحجاز طائفة من الشعراء واکبوا هذه الحياة الجديدة، وانصرفوا عن السياسة إلى الشعر الغزلي الرقيق يتقدّمهم عمر بن أبي ربيعة، والأحوص، والعرجي.

نجد وبوادي الحجاز وأطراف الجزيرة

وأما في نجد وبوادي الحجاز، فقد ضعفت حركة الشعر في هذه البيئة البدوية، إذ ضعفت الروح العصبية في ظل الإسلام، والتحق كثير من الناس بالفتوح شرقاً وغرباً، وأدى ذلك إلى ضعف الشعر في مجاليّ الفخر والهجاء، ولكنّ هذه الحركة ازدهرت في مجال الغزل إذ كثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الوجدانية، وخاصة في بني عذرة وبني عامر، وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثير منهم، من أمثال جميل بن معمر، وقيس بن ذريح، وعروة بن حزام، إلا أنه شكّك في مجنون ليلى (قيس بن الملوّح).

ومما ساعد على هذا الغزل البداوة والتدينّ بالإسلام الخفيف ومثاليته السامية، والشعور بالحنن، فكان الغزل في نجد من أروع صور الغزل العربي، لما شاع فيه من بُبل، وسموّ، وطهارة، ونقاء.

وظهرت أشعار الفخر والهجاء عند شعراء قيس وتغلب في أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام، حيث اصطدمت المصالح السياسية والاقتصادية، فالتهب الهجاء والفخر عند شعراء كلب (جوّاس بن القعطل، وعمر بن المخلاة، ومنذر بن حسان)، وشعراء تغلب (الأخطل بخاصة) وشعراء قيس (زفر بن الحارث، وعُمير بن الحباب وغيرهما) من جهة أخرى.

ومضى كثير من شعراء القبائل بعد أن استقرّت الأوضاع يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للنوال، من أمثال الأخطل، والقُطامي، وأعشى تغلب، وأعشى بني شيبان، ونابتهم.

العراق

شهد العراق حركة شعرية نشطة، فازدهر الشعر السياسي لكونه موئلاً للمعارضة والأحزاب السياسية، إذ انطلقت حركات معادية لبني أمية، على رأسها ثورة الحسين بن

علي، والخلافة يومذاك ليزيد، وحركة التوايين بزعامة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وحركة الزبيريين، إذ استتب الأمر لمصعب بن الزبير في العراق بضع سنين، وقد أخفقت هذه الحركات ووقع العراق في قبضة الأمويين وتولى شؤونه ولاية حازمون من أمثال زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي، وأدى قمعهما للمعارضين إلى توسيع آفاق الشعر السياسي. وانصرف الشعراء إلى لون آخر من الشعر هو الهجاء أو شعر النقائص، وسندخر الحديث عنه في فصل لاحق.

وشهدت الكوفة والبصرة نشاطاً علمياً واسعاً، إذ أخذ العلماء والرواة يأخذون عن الأعراب، ويجمعون الشعر واللغة من خلال ما يتلقونه عنهم.

وقد خُطّطت الكوفة سنة 17هـ لعهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حاضرة له، ومن ثم أصبحت موئل الشيعة في هذا العصر، ومن شعرائها المتشيعين الكُميت بن زيد الأسدي (126هـ). ولم يكن للخوارج شأن مذكور فيها، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطرماح (105هـ)، وأقبل بعض الشعراء على اللهو والخمر مثل الأقيشر الأسدي، في حين تعصب آخرون لبني أمية مثل عبد الله بن الزبير الأسدي.

وكان حظ الكوفة من شعر الفخر والهجاء محدوداً، لأنها لم تتورط في العصبية القبلية، غير أنها أخرجت شاعراً هجاءً هو الحكم بن عبدل.

أما البصرة فقد خُطّطت حوالي سنة 16هـ؛ لتكون معسكراً للجيش المقاتلة في الشرق، ونزلها كثير من القبائل العربية فضلاً عن الرقيق الفارسي الذي جلبه المحاربون. وتحولت في هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم، فكان لكل شاعر حلقة، وظلت تعيش للعصبية القبلية، ومن ثم كانت المحور الذي دار عليه شعرها، إذ تحول كل شاعر يفخر بقبيلته مُصوباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل، من ذلك معركة الهجاء التي نشبت بين الفرزدق وجربير.

وكان الخوارج في البصرة كثيرون، فظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حِطّان، ولم يكن للشيعة فيها شأن يُذكر، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي فيها. ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر مثل يزيد بن مفرغ الحميري، ويلقانا أيضاً شعراء اللهو والخمرة مثل حارثة بن بدر الغداني، وكان ذلك محدوداً، فقد كانت البصرة تميل إلى الوقار، وكان للزهد وشعرائه فيها نصيب، ومُن عرف بهذا اللون أبو الأسود الدؤلي.

الشام

كانت دمشق حاضرة الدولة الأموية، ومقر الحكم، وقد استقطبت الشعراء الطامحين إلى الشهرة والمال، فكانوا يقدون إليها ويقفون على أبواب الخليفة من أمثال جرير والفرزدق والأخطل (العراق)، وعبيد الله بن قيس الرقيات بعد سقوط حكم آل الزبير، ونصيب، والأحوص، وكثير (الحجاز)، والراعي، وابن ميادة، والعجير السلولي، وأرطاة بن سُهَيْة وغيرهم.

ولعلّ أهم شاعر أنبته بيئة الشام هو عديّ بن الرّقاع العاملي الذي أصبح شاعر بني أمية بعد الأخطل.

خراسان

نشطت حركة الشعر في إقليم خراسان حيث انتقلت إليه القبائل العربية، واستقرت فيه، حاملة لغتها وعاداتها وتقاليدها، فضلاً عن منازعاتها القبلية، وكانت الأحداث كثيرة، مما ألهم الشعراء بالشعر الوفير الذي التفت حوله القبائل، وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء زياد الأعجم بن معدان الأشقري، وثابت بن قطنة، والمغيرة بن حبناء، وأبو جلدة الإشكري، وأعشى همدان، وكانوا في معظمهم من الفرسان، في حين كان بعضهم يحنّ إلى ديار قومه في الجزيرة، مثل مالك بن الربيع؛ وقصيدته في رثاء نفسه مشهورة، والصّمة القشيري الذي مات غازياً بطبرستان.

مصر والمراكز الأخرى

لم يكن بمصر حركة شعرية في هذا العصر، لغلبة العناصر اليمنية عليها، وهي من حيث الشعر والشاعرية تتخلف عن العناصر المضرية، ومن شعرائها ابن أبي زمزمة في ولاية عبد العزيز بن مروان الذي وفد عليه كثير من الشعراء يمدحونه لأخذ نواله من أمثال كثير، وابن قيس الرقيات، ونصيب.

أما بقية البيئات فقد كان الشعر خامداً فيها كاليمن والأندلس التي فتحت في عهد الوليد بن عبد الملك.

المبحث الثاني

عودة العصبية القبلية

نقصد بالعصبية القبلية ذلك النزاع الذي جرى بين عرب الشمال (القبائل القيسية أو العدنانية أو المضرية) وعرب الجنوب (القبائل اليمنية أو القحطانية) وقد أوجّه الخلفاء والولاة وبعض رجال الفرق الإسلامية وتبعهم في ذلك الشعراء الذين كانوا لسان حالهم في هذا النزاع.

فكان الخلفاء الأمويون أنفسهم يُقدّمون اليمنية مرة والقيسية مرة أخرى، ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك أنّ معاوية بن أبي سفيان قدّم القبائل اليمنية في الشام وظلّ يؤثرها بالعطاء حتى تحركت القبائل القيسية ففرض عطاءً لأربعة آلاف رجل من قيس دفعة واحدة. ثم خطا خطوة أخرى، فجعل يُغزي اليمن في البحر، وقيساً في البر رعاية لها، مما أسخط اليمنية، إذ يقول شاعرهم⁽¹⁾:

أُترِكَ قَيْسٌ آمَنِينَ بَدَارَهُمْ وَنَرَكَبُ ظَهْرَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ زَاخِرُ

وإذ عُرف معاوية بدهائه وقدرته على استمالة الأقطار المختلفة، وإيجاد الولاة الذين يديرون هذه الأقطار تحسباً لمواجهة الأحزاب التي كانت تُهدد استقرار الدولة الأموية، فإنّ واليه على البصرة زياد ابن أبيه كان يحارب هذه النزعة المقيتة، فحدّر الناس في خطبته البتراء من الانغماس في العادات الجاهلية، فقال: «وإيّاي ودعوى الجاهلية فإنّي لا أجد أحداً دعا بها إلا قطع لسانه، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة»⁽²⁾، وكان تيار هذه العادات قوياً في بادية البصرة، فلما هجا الفرزدق بني نهشل وبني فُقيم والأشهب ابن رميلة، استعدّوا زياداً عليه «فلم يعرفه زياد حتى قيل له الغلام الأعرابي الذي أنهب ورقه وألقى ثيابه فعرفه»⁽³⁾، ولما طلبه زياد هرب إلى البادية، ومنها إلى الحجاز.

وكانت هذه العصبية وخيمة على الدولة الأموية، إذ عجلت بسقوطها، وقد اشتد أوارها في عهد سليمان بن عبد الملك، إذ نقم على سياسة الحجاج بن يوسف فعزل أنصاره

(1) انظر: ابتسام الصفار، آفاق الأدب في العصر الأموي.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 3/ 193.

(3) تاريخ الطبري، 5/ 241.

ونكب بعضهم كموسى بن نصير، وأساء إلى طارق بن زياد، وقد كان سليمان يميل إلى اليمنية فضلاً عن أنه كان حقوداً أساء إلى القيسية وإلى من نال حظوة عند الولاة القيسيين.

ولم يقف الأمر عند الأمويين، فقد أسهم بعض مناوئهم في إذكاء العصبية القبلية، ومن ذلك دعوة عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب للكميت بقوله: «إني قد رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما نخب»⁽¹⁾، وذلك بقصد الثورة على الدولة الأموية، فكانت قصيدته «المذهبة» التي يذكر فيها مناقب النزارية (القيسية)، ومطلعها:

أَلَا حَيَّتْ عَنَّا يَا مَدِينَا وَهَلْ بَأْسٌ بِقَوْلِ مُسْلَمِينَا

ومنها:

وَجَدْتُ اللَّهَ إِذَا سَمَى نَزَاراً وَأَسْكَنَهُمْ بِمَكَّةَ قَاطِنِينَا
لَنَا جَعَلَ الْمَكَارِمَ خَالِصَاتٍ وَلِلنَّاسِ الْقَفَا وَلَنَا الْجَيْنَا

وهي قصيدة طويلة تربو على ثلاثمائة بيت، وقد حفلت بهجاء أحياء اليمن، فأجج بذلك على حد تعبير الشيخ حمد الجاسر نار العصبية بين القحطانيين، وتركت أثراً كبيراً ما يزال أواره مستمداً منه أي منذ قالها حتى اليوم⁽²⁾.

ونراه يَمْضِي فِي كَرَاهِيَّتِهِ لِبَنِي أُمِيَّة، فيثور عليهم ويؤلب الناس عليهم، ويكتب إلى أهل مرو أن يثوروا في وجه أسد القسري حين ولّاه أخوه خالد على خراسان، وهو يريد بذلك بثّ العصبية بين اليمنية والمضرية لا في العراق وحدها وإنما في خراسان، مما أثار حتى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأمر بحبسه، ثم هام بوجهه حتى أدخل على الخليفة، فعفا عنه، ومعنى ذلك أن الكميت استطاع أن يستغلّ العصبية القبلية لخدمة زيد بن علي وتمهيد الجو لثورته⁽³⁾.

(1) مروج الذهب، 3/ 53.

(2) مجلة العرب، العدوان، 9 و 10، سنة 1399 هـ / 1979 م.

(3) انظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 269.

المبحث الثالث

الموالي والثقافة الأجنبية

لم يعد الشعر مقصوراً على العرب بل امتد إلى الموالي الذين دخلوا الإسلام في البلدان المفتوحة، في العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب، حيث سادت اللغة العربية على لغات هذه البلدان من فارسية ونبطية وقبطية وسريانية وبربرية؛ وذلك أن أبناء الأعاجم عاشوا مع العرب وتعلموا لغتهم بوصفها لغة القرآن الكريم واللغة الرسمية في الدولة الإسلامية، فضلاً عن أن هؤلاء كانوا يطمحون إلى تحقيق مكانة اجتماعية أو علمية. ولم يلبث أن تمازج العرب بأبناء هذه الشعوب الذين استُخدموا في الصناعات والاشتغال بالزراعة والتجارة، واتخذ العرب من الإماء والجواري زوجات.

وانضوى عدد من شعراء الموالي تحت ألوية الشعر العربي، فكانوا يتعصبون للقبائل التي ينتسبون إليها بالولاء، ويدافعون عنها، فقد روى عمرو بن أبي عمرو الشيباني أن ربيعة كانت تقول لزياد الأعجم: يا زياد أنت لساننا، فأذنب عن أعراضنا بشعرك، فلن سيفنا معك، فقال المغيرة بن حنبل الشاعر الذي هاجى زياداً وقد بلغه قول ربيعة مشيراً إلى هذا:

يقولون ذُئِبَ يا زيادُ ولم يكن ليوقظ في الحرب الملمّة نائماً

ولو أنهم جاءوا به ذا حفيظة فيمنعهم أو ماجداً أو مُراغماً

وقال أيضاً:

لعمرك لا تهدي ربيعةً للحجا إذا جعلوا يستنصرون الأعاجما⁽¹⁾

ومن الشعراء الموالي الذي تلقاهم في هذا العصر نصيب بن رباح وابن الدمينه وزياد الأعظم. أما نصيب فكان مولى لرجل من كنانة ثم أعتق، وكان مُقرباً من عبد العزيز بن مروان، إذ دُبج فيه مدائح رائعة، ولم يكن نصيب يعبأ بسواده الشديد أو بأنه من أصول نوبية، إذ يقول⁽²⁾:

فلن يك من لوني السوادُ فليني بك المسك لا يروى من المسك ذائقة

(1) الأغاني، 96/13.

(2) م.ن، 1/324 وما بعدها.

ولما توفي عبد العزيز سنة 85هـ رثاه، ثم تفرغ لمديح بني أمية وولاتهم في الحجاز والعراق، وقد وصف شعره بالجودة، حتى ليقول فيه أبو عبد الله بن أبي إسحاق اللغوي المعروف: لئن وليت العراق لأستكتبن نصيباً لفصاحته⁽¹⁾، وهو إلى جانب ذلك كان عفيفاً، لم يتورط في هجاء أو غزل فاحش.

وأما ابن ميادة فهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، جعله ابن سلام مع عمر ابن لجأ والعجيف العقيلي⁽²⁾، وزعم أن أمه فارسية وافتخر بمجده العربي، ليعلو في نظر معاصريه وليجمع المجد من طرفيه، مع أنه كان يهجو بأصوله الصقلية فنسمعه يقول⁽³⁾:

أنا ابن أبي سلمى وجدّي سالم وأمي حصانٌ أخلصتها الأعاجمُ
أليس غلامٌ بين كسرى وظالمٍ بأكرمٍ من نيطت عليه التمامُ
لو أن جميع الناس كانوا بساحةٍ وجئتُ بجدي ظالمٍ وابن ظالمٍ
لظلتُ رقابُ الناس طائفةً لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

وأما زياد الأعجم فكان مولى لبني عبد القيس، ويكنى أبا أمامة، وكان ينزل أصطخر، ولُقب بالأعجم لعجمة كانت في لسانه⁽⁴⁾، فقد مدح المهلب بن أبي صفرة ولاحظ لُكته في قوله:

فتى زاده السلطان في الخير رفعةً إذا غيّر السلطان كلّ خليل
إذ نطق السلطان «السلطان» بإبدال السين شيناً، والطاء تاء، فوهب له غلاماً فصيحاً ينشد شعره⁽⁵⁾.

واقترن بهذه اللكنة لحنه، في مثل قوله:

إذا قلتُ قد أقبلتُ أدبرتُ كمن ليس غادٍ ولا رائحُ

وكان القياس أن يقول: «ليس غادياً ولا رائحاً»⁽⁶⁾.

(1) الأغاني، 13/ 96.

(2) انظر: طبقات فحول الشعراء.

(3) انظر: الأغاني، 3/ 351.

(4) البيان والتبيين، 1/ 17.

(5) انظر: م، 1/ 17.

(6) الشعر والشعراء، 1/ 398.

وقد وقف زياد إلى جانب بني عبد القيس يدافع عنها، فقد ألق الفرزدق عن هجاء هذه القبيلة، وكان قد همّ بهجائه حين رآه يكثر من هجاء المغيرة بن حنساء وقبيلة تميم، إذ يقول:

وما ترك الهاجون لي إن هجوئه مصحاً أره في أديم الفرزدق
وإنما وما تهد لنا إن هجوتنا كالبحر مهما يُلَقَّ في البحر يغرق
فتوسل الفرزدق إليه أن يكف عنه.

وكانت لزياد مهاجرة مع شعراء عصره من أمثال كعب الأشقر، والمغيرة بن حنساء، وقتادة بن مغرب الشكري، وتفوق عليهم «وحق له أن يلقب بشاعر العربية في خراسان»⁽¹⁾. ونستطيع أن نضيف إلى هؤلاء الشعراء الموالى شاعراً كبيراً هو بشار بن برد، الذي عاش بين عهدين، وكان الجسر الذي عبر عليه الشعر من العصر الأموي إلى العصر العباسي، وقد عُرف بأشعاره في بني أمية وولاتهم، على نحو ما نجد في قصيدته البائية الرائعة في مروان بن محمد وقيس عيلان، والتي مطلعها:

جفا ودّه فازورّ أو قلّ صاحبه وأزرى به أن لا يزال يُعائِبُه
فكان البداية الحقيقية لشعراء الموالى الكبار الذين أخذوا يكثرون في العصر العباسي كأبي نواس وأبي العتاهية وغيرهما.

وتأثرت اللغة العربية بكثير من لغات البلاد المفتوحة بعامة والفارسية على وجه الخصوص، وهو تأثر بدأت معالمه منذ العصر الجاهلي، فقد دخلت في العربية كلمات أعجمية في مجالات عدّة من أطعمة وأدوات حضارة أورد الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» كثيراً منها، وبخاصة الكلمات التي جرت على ألسنة أهل الكوفة، فكانوا يسمون السوق «وازاراً» والقضاء «خياراً»⁽²⁾.

كما شاعت الفارسية في البصرة، وآية ذلك ما يروى من أن يزيد بن مفرغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد في ولايته عليها سقاه نبيذاً وحمله على دابة في ثياب مهلهلة مقروناً إلى هرة وخنزير، وأمر أن يطاف به في الشوارع على هذه الصورة المزرية، فتجمّع حوله الصغار يسألونه بالفارسية أين جيست؟ فكان يجيبهم بلسانهم؟

(1) ابتسام الصفار، آفاق الأدب الأموي، ص 36.

(2) البيان والتبيين، 19/1 وما بعدها.

أَبَ اسْتَنْبِيذُ اسْتِ غُصَارَاتِ زَيْبِ اسْتِ
سُمِيَّةُ رُوسِيَّ اسْتِ⁽¹⁾

وهو يقصد بها: هذا ماء ونبيذ وعصارة زيبب وسميّة الخنزيرة، ويريد الساقطة أخلاقياً.

ويلاحظ الجاحظ أن تأثير الفارسية وصل إلى عمق الجزيرة في المدينة مع من نزلها من الفرس، فسموا البطيخ «خربز»، والسميط «الرزق» وطعام المصوص وهو لحم يُنقع بالخردل «المزور» والشطرنج «الإشترنج» وغير ذلك من الأسماء⁽²⁾.

وانتقلت بعض الألفاظ الأعجمية إلى شعراء عرب كبار أمثال الفرزدق وجريز اللذين عاشا في البصرة، فقد وردت ألفاظ فارسية معربة في شعر الفرزدق، وهي نادرة الورد، من ذلك قوله مخاطباً جريراً⁽³⁾:

وَنَحْنُ إِذَا عَدَّتْ تَمِيمٌ قَدِيمَهَا مَكَانُ النَوَاصِي مِنْ وَجْهِ السَّوَابِقِ
مَنْعَتِكَ مِيرَاثَ الْمُلُوكِ وَتَاجِهِمْ وَأَتَتْ لِدْرَعِي بِيذْقٌ فِي الْبِيَاذِقِ
وَالْبِيَذِقُ وَالْبِيَاذِقُ مِنْ الْكَلِمَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي لَعِبَةِ الشَّطْرَنْجِ، وَتَعْنِي الْجَنْدِي الرَّاجِلُ.
وقوله:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ضَرْبَنَاهُ دُونَ الْأَثْنَيْنِ عَلَى الْكَرْدِ
وَالْكَرْدُ: «مَجْثَمُ الرَّأْسِ عَلَى الْعُنُقِ فَارْسِي مُعَرَّبٌ»⁽⁴⁾.
ونرى جريراً يستعمل ألفاظاً فارسية معربة أو دخيلة في مثل قوله في جعثن أخت الفرزدق⁽⁵⁾:

لَا خَيْرَ فِي غَضَبِ الْفَرْزَدَقِ بَعْدَمَا سَلَخُوا عَجَانَكَ سَلَخَ جِلْدَ الرَّوْذِقِ

(1) است: من أفعال الكينونة، وآب: ماء، وسميّة: أم زياد، وروسي: الخنزيرة.

(2) البيان والتبيين، 1/ 19.

(3) نقائض جريز والفرزدق، ص 787.

(4) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 1/ 144.

(5) نقائض جريز والفرزدق، ص 845.

سبعون والوصفاء مهر بناتنا إذ مهر جِعثنَ مثل حُرِّ البيذق
فكلمة «الروذق» فارسية بمعنى الحَمَل المتوف وبره بعد سلقه، وكلمة «البيذق»
فارسية أيضاً، يعني بها الدلالة على الشيء التافه.
وقوله:

لبستُ سَلاحِي والفرزدقُ لُعبَةً عليها وشاحاً كُرَّجٌ وجلاجله
ف «الكرَج» دخيل (معرب)، وهو شيء يُلعب به، وربما قالوا كُرَّق (1)، وتكون على
هيئة المهر يلعب عليها الأطفال.
وقوله:

إنَّ الفرزدقَ والبَيعِثَ وأُمَّه وأبا الفرزدقَ شرُّ ما إِستار
ف «إِستار» معربة، إذ تقول العرب للأربعة إِستار لأنها بالفارسية جهاز (2).
وأدى التمازج بالموالي إلى ظهور اللحن، إذ اعتاد الناس سماع كلام الأعاجم من
أمثال زياد الأعجم على نحو ما أسلفنا عنه، ونحن نجد الحجاج الذي عُرف بفصاحته ولسنه
يلحن وهو لحن نادر، فقد سأل ابن يعمر: أسمعني لحن؟ فقال: الأمير أفصح الناس، فقال
الحجاج: أين؟ قال: في القرآن، فقال: ذلك أشنع له، فما هو؟ قال ابن يعمر: تقول: ﴿قَدْ إِنْ
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ
رَضَوْنها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: 24) بقراءة أحب بالرفع ومكانها
النصب. فقال الحجاج: لا جرم لا تسمع لي لحناً أبداً (3).

ومن ثم أخذ علماء النحو واللغة منذ القرن الأول للهجرة يتبعون الشعراء
وينقدونهم على نحو ما معروف عند ابن أبي إسحاق الذي كان يتبع الفرزدق ويحضي عليه
أخطائه ويراجعها فيها، حتى قال فيه بيته المأثور:

فلو كان عبدُ الله مولى هجوتَه ولكنَّ عبد الله مولى موالِيا

(1) طبقات فحول الشعراء، ص 96.

(2) الأزهرى، تهذيب اللغة، 383/12.

(3) طبقات فحول الشعراء، ص 13.

فتعرّض له ابن أبي إسحاق قائلاً: كان يحسن أن تقول: مولى موالٍ⁽¹⁾.

على أن الفرزدق عرف بثرائه اللغوي، على الرغم من ميله إلى التعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي، لكونه نشأ في بادية البصرة وتأثر بها. ويذكر الرواة أن الطرمّاح والكميت قد عاشا في الحاضرة إذ استخدم الطرمّاح الألفاظ البدوية في شعره استخداماً غير دقيق⁽²⁾، وكان يكلف بإدخال ألفاظ النبط الأراميين في شعره⁽³⁾، وكذلك كان الكميت يَشركه في ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية، فكان هؤلاء العلماء لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرمّاح في اللغة⁽⁴⁾.

(1) طبقات فحول الشعراء، ص 16 وما بعدها.

(2) الموشع، ص 209.

(3) م.ن، ص 208.

(4) م.ن، ص 191 و 208.

المبحث الرابع

المجالس الأدبية

اتسعت مجالس الأدب في العصر الأموي، وشملت الخلفاء والأدباء والشعراء. فقد كان عبد الملك بن مروان محباً للأدب، يروي الشعر وينقده، وكان الشعراء يفدون عليه مادحين متملقين، وكانت له مجالس أدبية حيث يستمع ويشارك في أحاديث الشعر ونقده، فقد أنشده الأخطل قصيدته المعروفة «خفّ القطين» وأعجب بها عبد الملك مخاطباً الشاعر: «ويحك يا أخطل! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب؟ فقال: أكتفي بقول أمير المؤمنين. وأمر له بحفنة كانت بين يديه فملئت دراهم، وألقى عليه خلعة، وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول: هذا شاعر أمير المؤمنين، هذا أشعر العرب! وقيل: إن عبد الملك قال بعد سماعه المدحة: إن لكل قوم شاعراً، وإنّ شاعر بني أمية الأخطل»⁽¹⁾.

وأنشده جرير ثلاث قصائد كلها في الحجاج يمدحه بها، فأحفظ عبد الملك، وقال له: يا جرير، إن الله لم ينصر الحجاج، وإنما نصر خليفته ودينه⁽²⁾. ثم أقبل على الأخطل فقال: شمس العدوّة حتى يُستقاذ لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا فأعجب بقوله وأمر له بخلع وجعل يقول: «إنّ لكل قوم شاعراً، وإنّ الأخطل شاعر بني أمية»⁽³⁾.

واجتمع بحضرته الفرزدق والأخطل وجرير، فأحضر بين يديه كيساً فيه خمسمائة دينار ثم قال: ليقُل كلُّ منكم بيتاً في مدح نفسه، فأبكم غلب فله الكيس، فبدأ الفرزدق فقال: أنا القطرانُ والشعراء جربى وفي القطرانِ للجربى شفاء فقال الأخطل للفرزدق: فإن تك زق زاملية فإني أنا الطاعونُ ليس له دواء فقال جرير لهما:

أنا الموتُ الذي أتى عليكم فليس لهاربٌ مني نجاء

(1) الأغاني، 350 / 7 و 357.

(2) م.ن، 369 / 7.

(3) م.ن.

فقال عبد الملك: فلعمري إن الموت يأتي على كل شيء، وقضى جرير⁽¹⁾.

وهكذا كان يتعامل عبد الملك مع هؤلاء الشعراء بوصفه واحداً منهم، فكان بعضهم يتراشق أمامه بالعبارات القاسية دون أن يُبدي استياءً، من ذلك ما رواه أبو الحسن المدائني، بقوله: «وفد جرير على عبد الملك بن مروان، فقال عبد الملك للأخطل: أتعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا جرير. قال الأخطل: والذي أعمى رأيك يا جرير ما عرفتكَ. قال جرير: والذي أعمى بصيرتك وأدام خزيتك، لقد عرفتكَ، لسيماك سيما أهل النار»⁽²⁾.

ويدور البحث في مجلس عبد الملك عن القبائل التي تُجيد الشعر، فيُدلي برأيه؛ من ذلك أنه ذُكر الشعر عنده فقال: «إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بالزرق من بني قيس بن ثعلبة، وهم رهط أعشى بكر، وبأصحاب النخل من يثرب، يريد الأوس والخزرج، وأصحاب الشعف من هُذيل»⁽³⁾. فهو يستجيد شعر بعض قيس بن ثعلبة، والأوس والخزرج وهُذيل. ولكنه لا يُعلّل هذه الاستجادة.

ولم يكن عبد الملك مستمعاً لهؤلاء الشعراء فحسب، وإنما كان يدلي بآرائه النقدية. فقد أخذ عليهم جملة مآخذ، سواء في صورهم الفنية أو في سِقَم أذواقهم ومجافاة كلامهم لمقتضى الحال وعدم البراعة في الاستهلال، فقد انتقد ذا الرُّمّة في قصيدته البائية التي يفتتحها بوصف دموعه التي تسيل ولا تنقطع:

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ كأنه من كُلى مفرّية سَكِبُ

فغضب عليه، ونَحَاه، ظَنّاً منه أنه يقصده، حتى عاد فقال:

ما بال عيني منها الماء ينسكبُ كأنه من كُلى مفرّية سكب⁽⁴⁾

واستهلّ الأخطل مدحته «المزّمة» بقوله:

خفّ القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صَرفها غَيرُ

فعاب عليه عبد الملك هذا المطلع وتطيّر من قوله «منك» وقال له: لا بل منك. فعاد

الأخطل وغير البيت بقوله:

(1) انظر: ديوان جرير، ص 7. وانظر التعليق عليه في الحاشية 3.

(2) العقد الفريد، 296/5.

(3) م.ن، 273/5. والشعف: رؤوس الجبال.

(4) انظر: عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي، ص 220.

خَفَّ القَطينُ فراحوا اليوم أو بكرُوا وأزعجتهم نوى في صَرفها غَيْرُ⁽¹⁾
وقد يتدخل عبد الملك أحياناً في النص الشعري فيُغيّر فيه، بتعديل ما لا يستحسن
معناه، فابن قتيبة يذكر أن الأقيشر الشاعر دخل على عبد الملك بن مروان وعنده قوم
فتذاكروا الشعر، وذكروا قول نُصيب بن رباح:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أُمْتُ فيا ويحَ دعدٍ من يهيمُ بها بعدي؟
فقال الأقيشر: والله لقد أساء قائل هذا الشعر، قال عبد الملك: فكيف كنت تقول لو
كنت قائله؟ قال: كنت أقول:

تُحبِّكُمُ نفسي حياتي فإن أُمْتُ أوكلُ بدعدٍ من يهيمُ بها بعدي
قال عبد الملك: والله لأنت أسوأ منه قولاً حين تُوكِّل بها! فقال الأقيشر: فكيف كنت
تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أقول:

تُحبِّكُمُ نفسي حياتي فإن أُمْتُ فلا صلحتُ دعدٌ لذي خُلَّةٍ بعدي
فقال القوم جميعاً: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم⁽²⁾.

وتلقانا مجالس الخلفاء الآخرين، منها مجلس الوليد بن عبد الملك، ومجلس سليمان بن
عبد الملك، ومجلس هشام بن عبد الملك، فكانوا يستمعون لإنشاد الشعراء ويخوضون معهم
في أحاديث الشعر ونقده.

فهذا سليمان بن عبد الملك يدخل عليه نُصيب وعنده الفرزدق، فاستنشد الفرزدق
وهو يرى أنه سينشده مدحاً له، فأنشده قوله يفخر:

وركبٍ كأنَّ الرِّيحَ تَطلبُ عندهم لها تِرةٌ من جَذبهم بالعصائبِ
سروا يركبون الرِّيحَ وهي تُلْفهم إلى شُعَبِ الأكوار من كل جانبِ
إذا استوضحوا ناراً يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم نار غالبِ

فأعرض عنه مُغضباً؛ لفخره بحضرته. فقال نُصيب: يا أمير المؤمنين، ألا أشدك في
رويها ما لعله لا يتّضع عنها؟ قال: هات، فأنشده:

(1) انظر: جعفر العلوي، مواسم الأدب، 1/ 221.

(2) الشعر والشعراء، 1/ 412. والخُلَّة بضم الخاء الصداقة، وبفتحها: الخَصلة.

أقول لركبِ صادرين لقيتُهم قفا ذاتِ أوшал ومولاك قارب⁽¹⁾
 قفوا خبروني عن سليمان إنني لمعرفه من أهل ودان طالبُ
 فعاجوا فائتوا بالذي أنتَ أهلهُ ولو سكتوا أثنتُ عليك الحقائقُ
 وقالوا عهدناه وكلُّ عشيّةٍ بأبوابه من طالبِ العُرفِ راكبُ
 هو البدرُ والناسُ الكواكبُ حوله ولا تشبه البدرَ المضيءُ الكواكبُ
 فقال له سليمان: أحسنت والله يا نصيب، وأمر له بجائزة ولم يصنع ذلك بالفرزدق.
 فقال الفرزدق وقد خرج من عنده:

وخيرُ الشعرِ أكرمهُ رجلاً وشرُّ الشعرِ ما قال العبيد⁽²⁾
 والتفضيل هنا قائم على أساس الغرض الشعري، فالفرزدق يفخر بأبيه، ونصيب
 يمدح الخليفة، إلا أن صورة الفرزدق أجمل، وصورة نصيب يغلب عليها التقليد، فقد نسلَ
 بيته الأخير من بيت النابغة في مدح النعمان بن المنذر:
 فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبُ إذا طلعت غاب عنها كل كوكب
 ولكنه جعل ممدوحه بدرأ لا شمساً، وأحلَّ الناس محلَّ الملوك.

وتلقانا أخبار هشام بن عبد الملك في كتب الأدب، يستمع فيها للشعر وينقده، فقد
 جاء في الأغاني أن نصيباً الشاعر كان إذا قدم على هشام أخلى له مجلسه واستنشدته مرثي
 بني أمية، فإذا أنشدته بكى وبكى معه، فأنشدته يوماً قصيدة له مدحه بها منها:
 إذا استبقَ الناسُ العُلا سبقتُهم يمينك عفواً ثم صلتُ شِمَاهَا
 فقال له هشام: يا أسود، بلغت غاية المدح فسلمي، فقال: يدك بالعطاء أجود وأبسط
 من لساني بمسألتك. فقال: هذا والله أحسن من الشعر، وحباه وكساه وأحسن جائزته⁽³⁾.
 وهكذا كانت مجالس بني أمية عامرة دائماً بالشعراء، يستمعون إليهم، وينقدون
 شعرهم ويوجهونه مما أثرى حركة الشعراء في العصر الأموي، وأدى إلى كثرة الشعراء.

(1) الأوشال: جمع وشل وهو الماء العليل. وقفا ذات أمثال: أي وراء ذلك المكان.

(2) الأغاني، 1/ 244.

(3) م. ن، 1/ 245. وصلى الفرس: تلا السابق.

وكان للشعراء مجالسهم وأنديتهم، يتطارحون فيها الأشعار، وينقد بعضهم بعضاً، فقد ذكر صاحب الأغاني أن جميل بن معمر وعمر بن أبي ربيعة اجتماعاً بالأبطح، فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها:

لقد فرح الواشون أن صرمتُ جبلي بُثينة أو أبدت لنا جانبَ البخل
يقولون مهلاً يا جميلُ وإنني لأقسمُ مالي عن بُثينة من مهل
حتى أتى على آخرها، ثم قال لعمر: يا أبا الخطاب، هل قلت في هذا الروي شيئاً؟
قال: نعم، قال: فأنشدني، فأنشده قصيدته التي مطلعها:

جرى ناصحٌ بالودِّ بيني وبينها فقرَّبني يومَ الحِصابِ إلى قتلي⁽¹⁾
فقال جميل: هيهات يا أبا الخطاب! لا أقولُ والله مثل هذا سجيس الليالي! والله ما
خاطب النساء مخاطبتك أحداً! وقام مُشمرًا⁽²⁾.

ويروى أن نُصيباً أنشد جريراً شيئاً من شعره، فقال له: كيف ترى يا أب حزرة؟
فقال: أنت أشعر أهل جلدتك⁽³⁾. أي أشعر السودان فقط، ومن المعروف أن نُصيباً كان
أسود البشرة.

وقيل إن نُصيباً والكميت وذا الرُّمة اجتمعوا يوماً فأنشدهما الكميت من شعره،
فجعل نُصيب يعقد أصابعه (أي يُحصي). فلما سئل عما فعل، قال: إنه يُحصي أخطاء
الكميت في شعره⁽⁴⁾.

والأخبار في ذلك كثيرة، تدلُّ كلها على اتساع الحركة الشعرية في هذا العصر، وعلى
أن الشعر قد شغل الناس وملاً مجالسهم، فهم يسمعون وينقدونه، مما ساعد على نهضة
الشعر، جنباً إلى جنب مع نهضة النقد الأدبي.

(1) الحِصاب: موضع رمي الجمار.

(2) الأغاني، 1/ 88 و 89. وسجيس الليالي: طوال الليالي.

(3) م.ن، 4/ 103.

(4) م.ن، 1/ 348.

المبحث الخامس

الأسواق

كان للعرب في الجاهلية أسواق يجتمعون فيها للبيع والشراء، بلغت أربع عشرة سوقاً، أشهرها سوق عكاظ، حيث يجتمع الشعراء والخطباء ينشدون أشعارهم ويُلقون خطبهم بحضور الجمهور، «وكان لهم حكام معلومون يفضُّون المشاكل بين القبائل، ولهم مُحكِّمون يحكمهم إليهم الناس في مفاخراتهم وأشعارهم»⁽¹⁾، يتقدَّمهم النابغة الذبياني، وقد أقام العرب في العراق أسواقاً أدبية على غرار أسواقهم في الجاهلية. ومن أشهر هذه الأسواق «مربد» البصرة الذي كان يُدعى في العصر الأموي «عكاظ الإسلام».

وقد ابنتت هذه السوق مع البصرة سنة 16هـ، على بُعد ثلاثة أميال منها⁽²⁾، وكانت موضع سوق الإبل والغنم. ولم تلبث أن أصبحت سوقاً أدبية، تعقد فيها مجالس العلم والأدب، وحلقات المناشدة والمفاخرة، إذ يتوافد الشعراء ومعهم رواتهم للمناشدة والمفاخرة أو المحاكمة، وتختلف إليها القبائل والجماهير، وتتحدَّق حلقات للاستماع إلى فحول الشعراء، وإلى ما يحدث جرير والفرزدق خاصة⁽³⁾، فضلاً عن ذي الرِّمة وراعي الإبل.

وهكذا نهضت حركة الشعر بما كان يُحدثه هذان الشاعران، إذا عرفنا القبائل التي توزعت البصرة بينها، وهي: تميم وعبد القيس وبكر والأزد إلى جانب من يفد على البصرة من الأعراب وسكان المناطق الأخرى. أما الفرزدق فيتحلَّق حوله قبيلته من بني دارم ومجاشع وأما جرير فكانت تتحلَّق حوله قبيلته من كليب وبني يربوع، كما تتحلَّق حولهما جماعات أخرى كانت تفد عليهما من البادية أو من الحجاز لحضور هذه الحلَّبات الشعرية التي يتبارى فيها الشاعران الكبيران، فيتناشد الناس أشعارهما ويتناقلونها.

وقد ساعد على ازدهار هذه الحركة الشعرية التي تمثلت في نقائض جرير والفرزدق عاملان اثنان: «عامل اجتماعي هو هذا العَطَل والفراغ الذي حدث في تاريخ القبائل العربية ثم ما اتصل بذلك من إحياء العصبية وتورَّط القبائل في أحزاب سياسية، وعامل عقلي هو هذه المحاورات والمناقشات التي كانت تدور بكل مكان في البصرة»⁽⁴⁾.

(1) سعيد الأفغاني، أسواق العرب، ص 176.

(2) انظر: معجم البلدان (مادة البصرة).

(3) الأغاني، 29/8 وما بعدها.

(4) شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 185.

وفي المربد انطلقت حركة جمع الشعر العربي من أفواه الرواة أمثال أبي عمرو بن العلاء، فكان مما رواه من شعر الفرزدق وأخباره مما شهدته بنفسه، بأنه حضر المربد وسأل الفرزدق عما أحدث -أي عما نظم من شعر جديد- فينشده الفرزدق قوله:

كَمْ دُونَ مِئَةٍ مِنْ مُسْتَعْمِلٍ قَذِفٍ وَمِنْ فَلَاحٍ بِهَا تُسْتَوَدَعُ الْعَيْسُ
فَيَنْبَهُ أَبُو عمرو إلى أن القصيدة ليست للفرزدق ويواجهه بسرقتها قائلاً له: سبحان الله، هذا للمتلّمس. فيقول له الفرزدق: اكتمها، فلضوال الشعر أحب إليّ من ضوال الإبل⁽¹⁾.

وروى أبو عمرو ما شهدته من سلوك الفرزدق⁽²⁾، وروى تنذره بمحمد بن وكيع⁽³⁾. وروى ابن قتيبة -عن أبي عبيدة- أنّ الفرزدق كان بالمربد فمرّ به رجلٌ قدم من اليمامة - موطن جرير - فقال له: من أين وجهتك؟ قال: من اليمامة، قال: علقت من جرير شيئاً؟ فأنشده:

هَاجَ الْهَوَى بِفؤادِكَ الْمَهْتَاجِ

فقال الفرزدق:

فَانْظُرْ بِتَوْضِيحِ بَاكِرِ الْأَحْدَاجِ⁽⁴⁾

فقال:

هَذَا هَوَى شَغَفَ الْفؤَادِ مُبْرِحٍ⁽⁵⁾

فقال الفرزدق:

وَنَوَى تَقَاذِفُ غَيْرِ ذَاتِ خِلَاجِ

(1) المربزاني، الموضح، ص 111.

(2) مراتب النحويين، ص 15.

(3) الأغاني، 374/21.

(4) توضح: كتيب أبيض من كتبان حُمَر بالدهناء قرب اليمامة، وقيل: توضح من قرقرى باليمامة. باكر الأحداج: الأظعان المبكرة بالرحيل.

(5) شغف الفؤاد: برّح به. الخداج: النقصان في كل شيء.

فقال:

ليت الغراب غداة ينعبُ دائماً

فقال الفرزدق:

كان الغرابُ مُقطَّع الأوداج⁽¹⁾

فما زال الرجل يُنشده صدرأً من قول جرير، ويُنشده الفرزدق عَجْزاً، حتى ظنَّ الرجل أن الفرزدق قد قالها وأنَّ جريراً سارقاً⁽²⁾.

وأياً كان الأمر، فإن هذه الروايات تدل على عناية المعاصرين لهذين الشعارين بأشعارهما وأخبارهما وروايتهم لها عناية كبيرة أصبحت مصدراً من مصادر الشعر الأموي، كان للأسواق الأدبية دور كبير فيها.

ولم تكن سوق المربد مقصورة على شعراء المثلث الأموي فقد اجتمع فيها كبار الرُّجَاز من أمثال العجَّاج وأبي نُخَيْلة، إذ تهاجيا رجزاً، فحضر الصبيان الموقف كما حضرها الكبار، فأخذ رجل يطرد الصبيان، فقال العجَّاج: دعهم فإنهم يُغْلَبُونَ وَيُغْلَبُونَ؛ يريد أن الشعر يسير على أفواه الصبيان، فمن شاع شعره وساد بين الناس غلب عليه⁽³⁾.
وتلقانا سوق أخرى في العراق هي سوق كناسة بالكوفة، وكان يرتادها الشعراء أيضاً، ويُلْقُونَ نتاجهم الشعري فيها، إلا أن هذه السوق لم تثل المكانة المرموقة التي نالتها سوق المربد.

(1) الأوداج: مفردها وذج، عرق في العنق.

(2) الشعر والشعراء، 1/ 379.

(3) انظر: آفاق الأدب في العصر الأموي، ص 38.

المبحث السادس

الاهتمام برواية الشعر ونقده

ظهر اهتمام برواية الشعر ونقده في العصر الأموي، لم يقتصر على الرواة المحترفين وإنما امتد إلى الناس الذين أولعوا بالشعر بعامة وبنقائض جرير والفرزدق بخاصة حتى لنجد بعضهم يحفظ ما يسمع قبل تدوينه وروايته، فهذا جرير يكتب إليه قومه وهو في اليمامة يُرغّبونه في القدوم إلى العراق لأن الناس يروون شعر الفرزدق ولا أحد يروي عن جرير أشعاره - في بدء مناقضتهما - فانحدر جرير إلى العراق وأقام بالبصرة⁽¹⁾.

حتى لقد أصبحت رواية الناس للشعر موضع تنذر؛ فقد روي عن بعض القرويين أن الفرزدق قدم عليهم فقال قومه: إن جريراً مرّ بهم، وأنشدهم قصيدة يمدح بها قوماً، فسألهم أن ينشدوها، فأنشدوه قصيدة لكثير عزة، فلما رأوا وجهه وقد تأثر تأثراً بالغاً، هوتوا عليه الأمر، وأخبروه أنها لكثير، وليست لجرير⁽²⁾.

نقد النحاة

ويُعدّ الفرزدق من أكثر شعراء عصره تعرّضاً لنقد النحاة، مما جعل علاقته بهم تتخذ طابع العداء الصريح، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (117هـ/735م)، لكونه أكثرهم تعرّضاً له، وتكلماً في شعره، وكان يتتبع أخطاءه، ويُلحّنه كقوله عندما سمعه ينشد:

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا بَنَ مَرَوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنْ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفًا⁽³⁾
«على أي شيء رفعت مجلفاً؟ فقال: على ما يسوؤك وينوؤك»⁽⁴⁾.

وموطن الاعتراض هنا أن الفرزدق عطف مرفوعاً على منصوب، فأتعب النحاة في طلب العلّة، وأكثروا الاحتيال لبيته «ولم يأتوا فيه بشيء يُرتضى»⁽⁵⁾. وعندما راجعه النحاة في

(1) انظر: الشعر والشعراء، 1/ 306.

(2) الأغاني، 21/ 395.

(3) المرزباني، الموشح، 100؛ وانظر: الديوان ص 386. المسحت: المال الحرام الذي يحق البركة. المجلف: المال الذي بقيت منه بقية.

(4) المصدر السابق، ص 100.

(5) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 296.

في رفعه قال: «عليّ أن أقول، وعليكم أن تحتجّوا»⁽¹⁾. وبالفعل فقد خضع النّحاة للفرزدق وتكلّفوا لبيته هذا عدة توجيهات، منها أنه معطوف على المنصوب بملاحظة المعنى، كأنه قال: بقي مسحت. وهذا ما ذهب إليه أبو عمرو بن العلاء، فقد روى أنه قال: «أصبت هو جائز على المعنى»⁽²⁾، أما يونس بن حبيب، فكان «لا يعرف له وجهاً»⁽³⁾. وسمعه ينشد في مديحه يزيد بن عبد الملك:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ الْقُطْنِ مَثُورِ
عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحَلِنَا عَلَى زَوَاحِفَ تُزْجِي مُحْهَارِيرِ

«قال له: أسأت، إنما هي (رير) بالرفع، وكذلك قياس النّحو في هذا الموضع»⁽⁴⁾. وقيل إن الفرزدق شتمه شتماً قبيحاً، ثم هجاه بقوله⁽⁵⁾:

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى هَجَوْتُهُ وَلَكِنْ عَبْدَ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا

فقال له ابن أبي إسحاق: «ولقد لحنت أيضاً في قولك: مولى مواليا، وكان ينبغي أن تقول: مولى موالٍ». ويرى سيبويه أنه أجراه على الأصل للضرورة⁽⁶⁾.

وقد ذكر المرزباني أنّ النّحاة يستظرفون قول الفرزدق:

وَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ خُضْعَ الرُّقَابِ نَوَاسِ الْأَبْصَارِ

وأنهم لا يجمعون ما كان على فاعل نعتاً فواعل، لثلا يلتبس بالمؤنث، وأنّ الفرزدق هنا احتاج هذا لضرورة فأجراه على أصله⁽⁷⁾.

وأما بيت الفرزدق:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُو أَمَةٍ حَيٍّ أَبَوُهُ يُقَارِبُهُ

(1) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 296.

(2) المرزباني، الموشح، ص 102.

(3) م.ن، ص 101.

(4) م.ن، ص 99؛ وانظر: الديون، ص 190، وشرط البيت الثاني هو: على زواحف تُزجيه محاسير؛ أي على نياق شديدة التعب.

(5) البيت ليس في ديوان الفرزدق.

(6) المرزباني، الموشح، ص 99.

(7) م.ن، ص 167.

فقد «أتعب النحاة بما أوقع فيه من التقديم والتأخير»⁽¹⁾، وحاولوا شرحه وتأويله دون أن «يلغوا منه ما يُقنع ويُرضي»⁽²⁾، ووجدوا فيه أربع ضرورات.

وكان لإبراهيم أنيس رأي آخر في هذا البيت، إذ قال: ألسنت ترى معي أنّ المعاني قد تزامت في ذهن الفرزدق، فتزاحمت الألفاظ واختلط بعضها ببعض⁽³⁾. ولكن هذا الانفعال أدى إلى التعقيد والإبهام والغموض، ولم يُفصّل إلى إحساس بالجمال، ومن ثمّ فإنه يبقى فاسداً لنظم غامض المعنى، ثقیل الإيقاع⁽⁴⁾.

وإذا كان الفرزدق تيّهاً ومتعالياً على هؤلاء النحاة، فإنه كان يتودّد إليهم أحياناً، طالباً منهم أن يجدوا لعبه مخرجاً، فعندما عابه ابن أبي إسحاق في قوله السابق، وبلغ الفرزدق أن الناس يقولون قد أقوى الفرزدق ولم يبلغه بعد أن قائله ابن أبي إسحاق قال: فما بال هذا الذي يحجر خصييه في المسجد -يعني ابن أبي إسحاق- لا يجعل له بجيلته وجهاً⁽⁵⁾.

وإنّ دلّ ذلك على شيء، فإنما يدلّ على أن النحاة استطاعوا فرض قواعدهم على الشعراء، وبصّروهم بما يجوز وما لا يجوز في الشعر. وارتقوا بمنهجهم الجديد حدود النقد إلى آفاق جديدة في حركة الشعر، وتعديل مسار الشعر نحو قواعدهم ومقاييسهم النحوية.

نقد الرواة

ومن الرواة الذين عاصروا المثلث الأموي حماد الراوية، فقد كان يفضل الأخطل على صاحبيه، فقال له الفرزدق: «إنما تفضله لأنه فاسق مثلك، فقال: لو فضلت بالفسق لفضلتك»⁽⁶⁾.

وفي المقابل كان يفضل كلاً من الفرزدق وجريير على الآخر في بعض شعره، فقد قال: «أتيت الفرزدق فأنشدني ثم قال: هل أتيت الكلب جريراً؟ قلت: نعم. قال: أفأنا أشعر أم هو؟ فقلت: أنت في بعض الأمر وهو في بعض. فقال: لم تُناصحني. فقلت: هو أشعر منك

(1) المبرد، الكامل، 28/10.

(2) المرزباني، الموشح، ص 104.

(3) من أسرار اللغة، ص 247.

(4) أحمد مطلوب، بحوث لغوية، ص 57.

(5) انظر: سيبويه، الكتاب، 100/3.

(6) الأغاني، 350/7.

إذا أرخى من خناقه، وأنت أشعر منه إذا خفت أو رجوت. فقال: وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء، وعند الخير والشر»⁽¹⁾.

وروى أبو عبيدة حجاج من فضل جريراً فقال: «يحتج من قدم جريراً بأنه كان أكثرهم فنون شعر، وأسهلهم ألفاظاً، وأقلهم تكلفاً، وأرقهم نسيباً، وكان ديناً عفيفاً»⁽²⁾.

ولعل أحكام هؤلاء الرواة لم ترق إلى النقد المعلن، وافتقرت إلى الموضوعية، فضلاً عن أنها جاءت موجزة، إلا أنها ساهمت في إنهاض حركة الشعر في هذا العصر.

نقد الشعراء

كذلك أخذ الشعراء ينقد بعضهم بعضاً، فالفرزدق يرى أنه وجريراً يستمدان شعرهما من نبع واحد، وأن شعره في جملته أقوى من شعر جرير، وفي ذلك يقول الفرزدق: «إني وإياه -جريراً- لنغترف من بحر واحد. وتضطرب دلاؤه عند طول النهر»، إلا أنه يتفق هو والأخطل على أن جريراً أسير شعراً منهما، وفي ذلك يخاطب الأخطل الفرزدق: «والله إنك وإياي لأشعر منه، ولكنه أوتي من سير الشعر ما لم نوته»⁽³⁾.

وأدلى جرير بدلوه في نقد صاحبيه، فقد أورد صاحب الأغاني خبراً مفاده أن عكرمة ابن جرير سأل أباه عن أشعر الناس في الجاهلية والإسلام قال: «قلت لأبي يا أبت، من أشعر الناس؟ فقال: الجاهلية تريد أم الإسلام؟ قلت: أخبرني عن الجاهلية. قال شاعر الجاهلية زهير. قلت: فالإسلام؟ قال نبعة الشعر الفرزدق. قلت: فالأخطل؟ قال: يجيد صفة الملوك ويصيب نعت الخمر. قلت: فما تركت لنفسك؟ قال: دعني فإني بمرت الشعر بجرراً»⁽⁴⁾.

فالشاعران يُصدران أحكاماً نقدية عامة في باب المفاضلة بين شعراء المثلث الأموي، يُقضى فيها لكل شاعر منهم بالسبق في فن من فنون الشعر، دون تحليل لها.

وفي المقابل شهد الحجاز حركة نقدية نشطة، تربّع على قمته ابن أبي عتيق، فضلاً عن نقد الشعراء بعضهم بعضاً، على نحو ما أسلفنا في حديثنا عن عمر بن أبي ربيعة وشعره.

(1) الأغاني، 7/ 94.

(2) م.ن، 7/ 69.

(3) م.ن، 2/ 380/ 381.

(4) م.ن، 7/ 91-92.

الشعر السياسي

المبحث الأول: الأحزاب السياسية

المبحث الثاني: شعراء الزبيريين

المبحث الثالث: شعراء الخوارج

المبحث الرابع: شعراء الشيعة

المبحث الخامس: شعراء بني أمية

الفصل الثالث

الشعر السياسي

المبحث الأول

الأحزاب السياسية

شهد العصر الأموي نشاطاً على مختلف الصّعد، السياسية والحربية والعقدية. وهو عصر الأحزاب السياسية بامتياز، وأولها حزب السلطة الأموية الحاكمة، وثانيها حزب بني هاشم الذي عُرف تاريخياً بالشيعة، وثالثها حزب الخوارج، ورابع الأحزاب السياسية والدينية حزب الزيرية.

الأمويون

نُجح الأمويون في تأسيس دولتهم سنة 41هـ/ 661م، تحت حكم معاوية بن أبي سفيان الذي لم يجد صعوبة في إزاحة الحسن بن علي من طريقه. ويرون بوصفهم الحزب الحاكم أنهم خلفاء الله ورسوله في أرضه، وطاعتهم واجبة، على نحو ما تُصوره خطبة زياد ابن أبيه في أهل البصرة، وهي الموسومة بـ«البراء»، إذ يقول: «أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم زادة، نسومكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا».

ولما مات معاوية سنة 60هـ / 680م خلفه ابنه يزيد، إذ أصبحت الخلافة الإسلامية وراثية، والتفّ حوله عدد من الولاة الذين تركهم معاوية بعده كانوا ذوي مقدرة وحزم. على أن صورة يزيد ارتبطت بمحدثين كبيرين، هما: مقتل الإمام الحسين بن علي في كربلاء يوم عاشوراء العاشر من المحرم سنة 61هـ، ووقعة الحرة شرقي المدينة في ذي الحجة من سنة 63هـ؛ وقتل فيها الكثير من أهل المدينة.

وبموت يزيد في 14 ربيع الأول سنة 64هـ، انتقل الحكم من الفرع السفيفاني إلى الفرع المرواني، الذي تمثّل في مروان بن الحكم وأبنائه من بعده.

وأياً كان الأمر، فقد ظل الخليفة الأموي هو الإمام الذي تجب طاعته، لأن طاعته من طاعة الله، وطاعة خصومه من طاعة الشيطان، وآية ذلك ما رواه الطبري من أنه لما توفي يزيد

ابن معاوية ودعا ابن الزبير لنفسه قام حسان بن مالك بالأردن فقال: «يا أهل الأردن، ما شهادتكم على ابن الزبير وعلى قتل أهل الحرّة؟ قالوا نشهد أن ابن الزبير منافق وأنّ قتل أهل الحرّة في النار، قال: فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة؟ قالوا: نشهد أن يزيد على الحق وأنّ قتلانا في الجنة»⁽¹⁾.

وقد كثر شعراء الأمويين كثرة مفرطة فقد اكتظت كتب الأدب العربي بهم وبأشعارهم، وعلى رأسهم الأخطل وعدي بن الرقاع.

الشيعة

والشيعة هم أتباع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي بويع بالخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 35هـ / 656م، ويرون أن تكون الخلافة في الأئمة من ذرية علي بن أبي طالب بوصفه من بني هاشم الذين ينبغي أن تكون الخلافة خالصة لهم من دون الناس. وقد أصبحت العراق والكوفة على وجه الخصوص مركزاً لهم، إذ انضم إليهم كثير من الموالي، ووقفوا موقفاً معادياً للدولة الأموية، وانقسمت الشيعة إلى فرق أشهرها في هذا العصر فرقتان، هما:

1. الكيسانية: وهم فرقة متطرّفة تزعمها المختار الثقفي الذي ثار في العراق، وقال بإمامة محمد بن الحنفية، وتغلّب على الكوفة وأخذ يطالب بدم الحسين، وكان يميل إلى الشعوذة، فادعى أنه يوحى إليه. ولما انقلب على آل الزبير خاض حروباً معهم انتهت بمقتله هو وأتباعه على يدي مصعب بن الزبير في منتصف رمضان سنة 67هـ.

وشاعر هذه الفرقة هو كثير عزة، وكان يذهب مذهبهم ويقول بالرجعة والتناسخ.

2. الزيدية: وهم فرقة معتدلة تنسب إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين، الذي خرج على هشام بن عبد الملك بالكوفة فقتل وصلب، ويرون أن تكون الخلافة في أولاد علي من فاطمة.

لم يُغالوا في عقيدتهم، فهم لم يخلعوا على الإمام صفاتٍ روحية تفصله عن البشر وإنما اكتفوا بوصفه بالعلم والزهد والسخاء والشجاعة، ولم يتبرؤوا من الشيخين إذ أجازوا إمامة المفصول مع قيام الأفضل. وشاعر الزيدية هو الكُميت بن زيد الأسدي.

(1) الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، 2/ 469.

الخوارج

وهم فئة خرجت على الإمام علي بن أبي طالب؛ لقبوله مبدأ التحكيم بينه وبين معاوية في أعقاب موقعة صفين سنة 36هـ / 657م، رافعين شعار «لا حكم إلا لله»⁽¹⁾. وقيل إنهم سَمَوْا أنفسهم هذا الاسم من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: 100] وسَمَوْا أنفسهم الشُّرَاة أيضاً من قوله ﷺ: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أَتَيْكَاءَ مَرَضَاتٍ اللَّهِ ﷻ﴾ [البقرة: 207] وكذلك يُسَمُّون «الحُرورية» نسبة إلى حروراء التي اعتزلوا فيها علياً وجيشه. وقد حاربهم الإمام علي في وقعة «النهروان» وهزمهم، دون أن يتخلص منهم، بل إنهم ازدادوا عناداً وبُغضاً له.

ولم يلبث أن استشهد الإمام علي في الكوفة سنة 40هـ / 661م على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم، ضمن مؤامرة كانت تستهدف أيضاً التخلص من معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، أما معاوية فإنه جرح ولم يُقتل، وأما عمرو فلم يخرج في ذلك اليوم إلى صلاة الفجر، بل أناب عنه خارجة بن أبي حبيبة، صاحب شرطته، وقد قتل خارجة خطأ.

توزَّع الخوارج إلى فِرَق مختلفة من أزارقة وصُفْرية ونجدات وإباضية، وقد رفعوا السلاح بوجه الدولة الأموية، مطالبين بالعدل والمساواة وإحقاق الحق، وألا تكون الخلافة قاصرة على قبيلة بعينها أو قومية مُعيَّنة، بل يتولّاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشياً؛ ولهذا جوَّزوا إمامة الموالي، ثم إنهم زعموا أن الجماعة الإسلامية ضالَّة عن الطريق الديني الصحيح، وعدَّوا جهادها فريضة دينية، ومن ثمَّ ظلُّوا يخوضون حروباً طاحنة أودت بالكثير منهم، وقتل أيضاً على أيديهم الآلاف من المسلمين، وإذ ضعفت الدولة الأموية بسببهم ضعفاً شديداً فإن الأهداف التي أرادها الخوارج لم تتحقق، بل إنهم مزَّقوا الجماعة الإسلامية، وسفكوا دماء المسلمين.

الزبيريون

الزبيريون هم أتباع عبد الله بن الزبير، وكان قد دعا إلى نفسه بالخلافة في أيام يزيد، والتفَّ الناس حوله بسبب ما شاع بين الناس من أخبار يزيد وميله إلى اللهو. وقد استقلَّ ابن الزبير بالحجاز إلا أن حكمه لم يدم طويلاً، إذ عاشت دولته قرابة تسع سنوات، ولذلك

(1) تاريخ الطبري، 6/ 37.

لم تنهياً له الظروف لتكوين حزب سياسي يقف نداً لبني أمية الذين نجحوا في تأسيس دولتهم وتكوين حزب سياسي بالمعنى الصحيح.

ولعلّ الزبيريين كانوا يُمثّلون ردّة فعل من أهل الحجاز بعامة والقرشيين بخاصة على استيلاء بني أمية على الخلافة واستئثارهم بالسلطة اعتماداً على القبائل اليمنية، وإذكاء روح العصية بين العرب.

وكان ابن الزبير يرى أن تعود الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية.

وقد تقرب عبد الله بن الزبير من الحجازيين والمكيين على وجه الخصوص فأعاد بناء الكعبة بعد أن كانت قد هدمت في عهد يزيد بن معاوية، واستتب الأمر للزبيريين في العراق بضع سنين، وكان الأمر فيها لأخيه مصعب بن الزبير.

ولكن هذه الدولة الفتية لم تصمد أمام الأعاصير، إذ تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (65-86هـ) وكان يتمتع بالدهاء وحسن السياسة، فالتقى بمصعب بن الزبير في العراق، وألحق به هزيمة منكرة أطاحت به سنة 72هـ، وبعد مقتله دخل أهل العراق في طاعة عبد الملك. ولم يلبث أن أرسل إلى عبد الله بن الزبير جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف، فحاصر مكة، وأخذ كثير من أتباع ابن الزبير يتخلّون عنه، فخرج لقتال الحجاج، فقتل في جمادى الثانية من سنة 73هـ.

ويعد هذا الحزب من أقل الأحزاب استقطاباً للشعراء، لقصر عمره من جهة ولأنّ عبد الله بن الزبير، كان يضمن على الشعراء من جهة أخرى.

ولعلّ أبرز شاعر تصدّى للدفاع عن هذا الحزب هو عبيد الله بن قيس الرقيات، إذ مدح الزبيريين وناصح عنهم وسجّل ما أصاب قريش من محن وفرقة.

المبحث الثاني شعراء الزبيريين

عُبَيْدُ اللَّهِ بن قَيْسِ الرِّقِيَّاتِ

يُعد ابن قيس الرقيّات من أبرز شعراء الزبيريين، وقد وُصف بأنه شاعر قرشي كلها في الإسلام⁽¹⁾، وقد اختلف الرواة في اسمه هل هو عُبَيْدُ اللَّهِ أو عبد الله، والأول أرجح، وكذلك اختلفوا في سبب نعته بالرقيّات، فقيل لأنه شَبَّب بثلاث فتيات اسم كل منهن رُقِيَّة⁽²⁾، وقيل إن اللقب هو لقب أبيه لأن له جذات ثلاثاً كلاً منها اسمها رُقِيَّة، وهو قرشي من بني عامر بن لؤي.

ولد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس بن شريح بن مالك بن ربيعة. وقد بدأ حياته بملازمة بعض المغنين والتعرّض لبعض النساء في الحجّ، وشغف برقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد وأخذ يتغزل بها. ولم يلبث أن رحل إلى المدينة يدفعه إلى ذلك حب الغناء فاختلفت بالمغنين، الذين ترنموا بأشعاره الغزلية. واضطر إلى الابتعاد عن المدينة إبان حكم يزيد بن معاوية ووصلت إلى مسامعه أنباء موقعة الحرّة التي وقعت شرقي المدينة في ذي الحجة من سنة 63هـ، وقتل فيها طائفة من أهله، فإذا هو يبكيهم بكاءً حاراً، ويثور فيها على يزيد، فيقول⁽³⁾:

إِنَّ الْحَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ أَوْجَعَنِي وَقَرَعَنَ مَرَوْتِيهِ⁽⁴⁾
وَجَبَّيْنِي جَبَّ السَّنَامِ وَلَمْ يَتَرَكُنْ رِيْشاً فِي مَنَاكِيهِ
ثُمَّ يُشِيرُ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ الَّذِي نَعَى لَهُ مَقْتَلِ ابْنِهِ:
يُنْعَى بَنُو عَبْدِ إِخْوَتِهِمْ حَلَّ الْهَلَاكِ عَلَى أَقَارِيهِ
وَنُعِيَ أَسَامَةُ لِي وَإِخْوَتِهِ فَظَلَلْتُ مُسْتَكْأً مَسَامِعِي
تَبْكِي لَهُمْ أَسْمَاءُ مُعْوِلَةً وَتَقُولُ لَيْلَى: وَارْزَيْتِيهِ

(1) الأغاني، 75/5.

(2) البغدادي، خزانة الأدب، 366/3.

(3) ديوانه، ص 199.

(4) المروة: حجر أبيض تُقدح منه النار. وهو مثل يضرب لمن نزل به شر.

ويختتم بكائيته بتهديد بني أمية، ويتوعدّهم بالحرب فيفجعهم بإخوتهم كما فجعوه،
ويسبي نساءهم كما سبوا نساء قومه:

والله أبـرح في مقدّمـة أهدي الجيوش على شِكْتِيه
حتى أفجّعَهُم بإخوتهم وأسوقُ نسوتهم ينسوتيه
التحق بعبد الله بن الزبير حين خرج على الأمويين، ثم لزم مصعب بن الزبير في
العراق واختصّه بمدحه، ويُشير إلى انتصاره على المختار الثقفي، ويمدحه بقوله:

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـ هـ تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكُهُ مُلكٌ قوّةٌ ليس فيه جبروتٌ ولا به كبرياء
ولعل ولاءه للزبيرين ينبع من كراهيته لبني أمية، وإشاره لقريش على غيرها من
القبائل، وإذ تفرّقت بلداناً وشيعاً نراه يأسى لهذا المصير، فيقول:

حبّذا العيشُ حين قومي جميعٌ لم تُفرّقْ أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في مُلـ كـ قريشٍ وتُشمتَ الأعداء
ثم يرد على الخوارج الذين دعوا إلى انتزاع الخلافة من قريش وردها إلى المسلمين
جميعاً، إذ يقول:

أيّها المُشتهي فناء قُريشٍ بيدِ الله عُمرُها والفناء⁽¹⁾
إن تودّع من البلاد قريشٌ لا يكن بعدهم حيٌّ بقاء
ويختتمها بتهديد عبد الملك وبني أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام، وقتلوا
الحسين في كربلاء، فيدعو عليهم بغارة شعواء، ويوجعهم كما أوجعوه⁽²⁾:

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهلُ الشيخ عن بنيه وتُبدي عن بُراها العقيلة العذراء
أنا عنكم بني أمية مُزوَّ رُ وأنستم في نفسِي الأعداء
إن قتلى بالطف قد أوجعتني كان منكم لئن قُلتُم شفاء

(1) عمرها: يريد بقاءها.

(2) ديوانه، ص 41-49.

وتجري الأحداث على غير ما يشتهي الشاعر، فيزحف عبد الملك بجيشه إلى العراق لقتال مصعب، فيتغلب عليه ويقتله، ويفرّ ابن قيس إلى الكوفة ويختبئ في أحد منازلها حولاً كاملاً، ثم يخرج إلى المدينة، حتى تشفّعت له أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك، وأدخله عبد الله بن جعفر إلى الخليفة، فلما سأل عنه، قال عبد الله بن جعفر هذا القاتل (1):

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوكة فلا تصلح إلا عليهم العرب
إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقار والحجب
خليفة الله فوق منبره جفت بذلك الأقلام والكتب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الدهب

ويُروى أن عبد الملك علّق على البيت الأخير بقوله للشاعر: يا ابن قيس، تمدحني بالتاج كأنني من العجم! وتقول في مصعب:

إنما مصعب شهاب من الله تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء (2)

وأياً كان الأمر، فإن الشاعر يلح في مدحه على معنى الملك سواء في مدح عبد الملك أو مصعب أو قريش بعامّة، «وهو تعبير يعكس تصوره لمعنى الحكم حينذاك، وأنه سلطان وجاه وثراء قبل أن يكون خلافة تقوم على أساس من التقوى والعدالة والمساواة» (3)، إلا أن عبد الملك كان متحاملاً على الشاعر لأنه كان شاعراً زبيرياً ذا موقف سياسي، ومن ثم فقد عفا عنه على مضض، ومنحه الأمان دون أن يُجري عليه عطاء. ويتعهد عبد الله أن يُجريه عليه من ماله الخاص.

ومن ثم يتجول ابن قيس إلى مدح الأمويين، فيمدح عبد الملك بن مروان، وعبد العزيز بن مروان وعبد الله بن جعفر؛ وذلك بحكم واقعه السياسي الجديد إثر زوال حكم الزبيريين، ولهذا «لم يشعر بكثير من الحرج النفسي الذي لا بد أن يكون قد خامر

(1) الديوان، ص 4 و 5.

(2) الموشح، ص 204.

(3) عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، ص 368.

الكميت حين اضطر في النهاية إلى مدح الأمويين والاعتذار عن ذلك إلى أوليائه الهاشميين⁽¹⁾ كما أنَّ هذا التحول لا يتناقض مع تغنيه بأجناد قريش ودعوته إلى اجتماع كلمتها، وهو الدور الذي نهض به بنو أمية. فكان تحوله مُسوَّغاً لكونهم قرشيين كآل الزبير كما هو معروف. ولا غرو أن «مدحهم بنفس الحرارة والإخلاص اللذين كان يمدح بهما الزبيريين من قبل، وأن يلتمس لهم العذر في تنكيلهم بأهل مكة والمدينة»⁽²⁾.

إلا أن ابن قيس الرقيات ظلّ حذراً من بني أمية، فكان يتصرّف معهم بذكاء، وآية ذلك موقف عبد الملك من شعر ابن قيس، إذ نراه يتخير بيتين من بكائيته التي تفجّع فيها على أهل بيته الذين قُتلوا بعد وقعة الحرّة، إذ يخاطب الشاعر متسائلاً:

لقد خُتّ قوافيك؟ فيسأله الشاعر بماذا؟ ويحيب الخليفة بقولك:

إنّ الحوادث بالمدينة قد أوجعتني وقرغن مروتيه
وجيّنتني جَبَّ السّنام ولم يتركّن ريشاً في مناكيبه
فيجيبه الشاعر جواباً ينمّ عن حُسن التخلص إذ فطن إلى مقصد الخليفة قائلاً:

ما عدوتُ كتاب الله: ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: 29]⁽³⁾.

وكذلك ظلّ مستمراً على حُبّه لآل الزبير بعد زوال دولتهم، إذ يذكر ابن سلام مقطوعة لابن قيس الرقيات يخاطب فيها إحدى بنات قومه ممن ساءها ما آل إليه حال قريش، ويذكر فيها الخليفة المظلوم العائد بالبيت عبد الله بن الزبير:

ذكرت قومها قريشاً فقالت راب دهري وأيّ دهرٍ يدوم؟!
لا يُريك الذي تُرينَ فإنّ ن الله طِبُّ بما تعلمين علیم
إنّ يكنْ للإله في هذه الـ أمة دعوى يَغْدُ عليك النّعیم
وتحلّي محلّ آبائك الأ خیارِ حيث يلقى الخطیم
بلدٌ تَأْمَنُ الحمامةُ فيه حيث عاذَ الخليفةُ المظلوم⁽⁴⁾

(1) عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، ص 367.

(2) م.ن.

(3) الموشح، ص 294.

(4) طبقات فحول الشعراء، ص 530.

خصائص وسمات

1. هو شاعر سياسي، وقف إلى جانب الحزب الزبيري، وناصح عنه فقد لزم مصعب بن الزبير وهاجم بني أمية بعنف، ودعا إلى جمع كلمة قريش، وآله تفرّقها. فلما انتهى حكم الزبيريين انضمّ إلى خصومهم بني أمية مضطراً، وأشاد في مدائحه بأجداهم.
2. خروجه على المقدمات التقليدية، وربط مقدمته بموضوع قصيدته، ففي همزته التي يمدح بها مصعب بن الزبير ويفتخر بقريش، يستهلها بقوله:
أقفرتُ بعد عبد شمس كداءً فكُديُّ فالركنُ فالبطحاء
فهو إذ يقف على الأطلال في مقدمته ينطلق من موقف سياسي هو ولاؤه لآل الزبير وانتماؤه إلى قريش.
3. تقليدي في مدائحه، بتركيزه على صفتي الجود والعطاء، ويركز في صوره البياينة من تشبيهات ومجازات على الناقة في مثل قوله في مدح عبد العزيز بن مروان:
الواهبُ البيضَ كالظباء عليها الرِيطُ والشّاحيات في اللّجُمُ
والمائة المصطفاة يحفزها الراعي وبالفحل وسطها السدُمُ
4. تميل لغته إلى الوضوح والسهولة في شعره السياسي وفي مدائحه. ولكنه ينجح إلى الألفاظ الجاهلية في وصف الناقة وفي مقدمات مدائحه، من ذلك قوله:
كم تشجمتُ من مهامه قفّرٍ نازحٍ غولُه بعيد المسافِ
بذمولٍ عيرانةٍ ذاتِ لوثٍ عنتريسٍ شملّةٍ مقذافِ
5. يعتمد أحياناً إلى التقسيم، فيكسب أبياته جمالاً وإيقاعاً موسيقياً في مثل قوله:
واضح الخدُّ، كامل العقل والدين نقي الثياب غمر العطافِ
ثابت البيت في الأرومة والمجدٍ رحيب البناء للأضيافِ
سَبَطِ الكَفِّ والبنان على السائل جزل العطاء مأوى الضعافِ
وعلى أية حال فإن ملازمته للمغنين في أوائل حياته جعلته يطبع شعره بطوايع الغناء، فترغوا بأنغامه التي اتسمت بعذوبة ألفاظها وخفة أوزانها، في مثل قوله متغزلاً:
رُقِيَّ بعيشكم لا تهجرينا ومئينا المنى ثم امطينا
عدينا في غدٍ ما شئتُ إنا نحبُ - وإن مَطَلْتِ - الواعدينا
فإما تُنجزني عِدتي وإما نعيشُ بما نؤمَلُ منك حيناً

المبحث الثالث

شعراء الخوارج

من أبرز شعراء الخوارج قطري بن الفجاءة (78هـ)، وعمران بن حطان (84هـ)، والطرماح بن حكيم (100هـ)، وتدور على ألسنتهم معانٍ مشتركة أسماها إحسان عباس بالوحدات الثلاث، وحدة الغايات، ووحدة الخصائص، ووحدة التيارات النفسية⁽¹⁾.

فتبرز في أشعارهم فكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل الله؛ طلباً للثواب والجنة، إلا أنهم غالوا في جهادهم، فاستباحوا الدماء البريئة، وشددوا على أنفسهم، حتى لنجد بعضهم إذا طعن فأنفذه الرمح جعل يسعى فيه إلى قاتله، وهو يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (٨٤) [طه: 84]، فهذا أحد شعرائهم يتمنى تلك الطعنة ليلقى إخوانه في الجنة، فيقول⁽²⁾:

فيا ربَّ هَبْ لي ضربةً من مُهْنِدٍ حُسامٍ إذا لاقى الضريبة يهبر
ويقول يزيد بن حبناء، وكان من الأزارقة:

أريدُ ثوابَ الله يوماً بطعنةٍ غموسٍ كشدقِ العنبريِّ بن سالم⁽³⁾
فهو يتمنى الموت بطعنة رُمح ليفوز بالشهادة والثواب.

ومنهم من يحذر الموت رغبة في قتال أهل البغي والإلحاد، ولأنه يخشى عقاب الله وإن مات راضياً بحكمهم، فيقول⁽⁴⁾:

أخافُ عقابَ الله إن متُّ راضياً بحكم عبيد الله ذي الجورِ والعدوِ
وأحذرُ أن ألقى إلهي ولم أرغْ ذوي البغي والإلحاد في جحفلٍ مُجرٍ
وهم لا يكون قتلهم بالصورة المألوفة عند شعراء الرثاء، وإنما يرون في ذلك تقرباً وعبادة لله، على شاكلة قول عمرو بن الحصين في رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة ومن قُتل من أصحابهما⁽⁵⁾:

يا ربَّ أسـلـكني سـبـيلهمْ ذا العرشِ واشـدُّ بالتُّقى أـزري

(1) شعر الخوارج، ص 20.

(2) معجم الشعراء، ص 234.

(3) غموس: واسعة. العنبري بن سالم: رجل من الأزارقة، كان يُقال له الأشدق لسعة فمه.

(4) شعر الخوارج، ص 70.

(5) الأغاني، 11/20 وما بعدها.

في فتنَةٍ صَبَرُوا نفوسَهُمْ لِلْمَشْرِفِيَّةِ وَالْقَنَا السُّمْرِ
مُتَأَهِّبِينَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ نَاهِينَ مَنْ لَاقُوا عَنِ التُّكْرِ

ولاحظ النقاد أن شعراء الخوارج يُبدئون ويُعيدون في معانيهم ورسم المثل العليا التي يتصف بها أصحابهم، مثل وصفهم بالشجاعة، والحلم، والكرم «ولعلّ هذا هو السبب في أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت، وكأنما هي صور متعددة من نمط واحد»⁽¹⁾، يمتزج فيها التأمل والزهد بالتضحية والاستشهاد في ساحات الوغى.

ومن الصفات التي تبرز في أشعارهم وصفهم بالثقوى والخشوع لله سبحانه وتعالى وعكوفهم على العبادة وتلاوة القرآن، وصيام الدهر. يقول أحد شعرائهم واصفاً شباب الخوارج⁽²⁾:

إذا ما الليلُ أَظْلَمَ كابدوه فيسفرُ عنهمُ وهم ركوغُ
أطار الخوفُ نومهم فقاموا وأهلُ الأرضِ في الدنيا هُجُوجُ
لهم تحت الظلامِ وهم سَجُودُ أنين منه تنفرُ الضلُوعُ
وتجدهم صامتين نهاراً خشيةً لله وخشوعاً⁽³⁾:

خُرسٌ بالنهارِ لَطولِ صمتٍ عليهم من سَكِينَتِهِ خُشُوعُ

وكذلك تجدهم صائمين، قد شحبت أجسامهم وبرأها الصوم وأنهكها، كقول عمرو القنا⁽⁴⁾:

فحسبي من الدنيا دِلَاصٌ حَصِينَةٌ وأجرُ خَوَارِ العِنانِ نَجِيبُ
معي كل أوَاةٍ برى الصوم جسمهُ ففي الجسمِ منه نهكةٌ وشُحوبُ

وصورة الطير وهي تتبع الجيش وتاكل لحوم القتلى تتردد في الشعر العربي، إلا أن هذه الطير لا تجد في قتلى الخوارج بُغيتها، لأن أجسادهم هزيلة، ويرسم أحد شعرائهم هذه الصورة، فيقول:

(1) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 306.

(2) شعر الخوارج، ص 41 و 42.

(3) م.ن، ص 70.

(4) م.ن، ص 102 و 103.

ترى عافيات الطير يحجلن حولهم يُقلّبن أجساماً قليلاً لحومها
فوا حرباً ألا أكون شهدتهم بمكة والخيلاً تدمى كلومها
وكانت نساء الخوارج على شاكلة مقاتليهم شجاعة وإصراراً على القتال، فكانت
«غزالة» زوجة شبيب الخارجي فارسة مقاتلة تقود الجيش وتحارب جيوش الحجاج، وكانت
قد نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عمران، ففعلت. وذلك
في مواجهة الحجاج، حتى اضطرت إلى الهرب والاختباء في قصره. وفي ذلك يقول عمران بن
حطّان مخاطباً الحجاج ويذكره بهربه، وينعته بالجن⁽¹⁾:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعاماً ربداء تجفل من صفير الصافر⁽²⁾
صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت منابره كأمس الدابر
هلاً برزت إلى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحي طائر
ومن هذا الطراز أم حكيم الفارسة والشاعرة، وكانت تتقدّم الحرب وهي ترتجز
متحدية الفرسان⁽³⁾:

أحملُ رأساً قد سئمتُ حمْلَهُ وقد مللتُ دهنه وغسلَهُ
ألا فتى يحملُ عني ثقلَهُ

وكانت أم حكيم من أجل الناس وجهاً وأشجعهم، وأحسنهم بدينها تمسكاً، وكان
الخوارج يقدونها بالآباء والأمهات. وقد تغنى بها قطري بن الفجاءة، ووصف شعره فيها
بأنه «عشق نادر يقترب فيه الشاعر من حبيبته كلما اقترب من الموت»⁽⁴⁾، وذكر أنها كانت في
معسكره، وأنه تحدّث عنها في أبيات نُسبت إليه، إذ يقول⁽⁵⁾:

لعمرك إنني في الحياة لزاهدٌ وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفّرات البيض لم يُر مثلاً شفاءً لذي بث ولا لسليم

(1) الكامل، 184/2.

(2) ربداء: اختلط سوادها بكُدرة.

(3) شعر الخوارج، ص 143. وانظر الكامل، 182/2 و 184.

(4) م.ن، ص 44.

(5) م.ن، 120.

ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان فتى في الحرب غير لثيم
وهي آيات توحى بأنه يتحدث عنها بوصفها زوجة يحترمها ويحسن معاملتها، وليس
بعجيب أن تشاركه في حروبه، وهي الفارسة الجميلة.
ومن شعراء الخوارج قطري بن الفجاءة، وعمران بن حطان، والطرمّاح.

قطري بن الفجاءة (-79هـ)

وقطري من قبيلة مازن، وزعيم فرقة الأزارقة وإمامها وشاعرها وخطيبها. وينسب إلى
قطر. وكان يخاطب بلقب أمير المؤمنين طوال ثلاث عشرة سنة، حارب خلالها جيوش الدولة
الأموية، حتى تغلبت عليه، فقتل في طبرستان حوالي سنة 79هـ، في خلافة عبد الملك بن
مروان.

وقطري الذي عُرف بشجاعته وشدة بأسه، أتعب الدولة الأموية واستبسل في مقارعة
جيوشها، هو نفسه الذي يُقرّ بقوة خصمه وشدته في الحرب، فيصف المهلب بن أبي صفرة
بالقوة ويشبهه بالصخر، إذ نراه يدعو أصحابه إلى الوقوف بثبات أمامه والصبر على الحرب،
دون الركون إلى التمنيّات، ويذكر هزيمته أمام هذا القائد الأموي وخوفه منه، فيقول:

لعمري لئن كُنّا أصبنا بنافع وأمسى ابنُ ماجوزٍ قتيلاً مُلحِباً
لقد عظمتُ تلك المصيبةُ فيهما وأعظمُ من هاتين خوفي المهلبا
رُمينا بشيخٍ يفلقُ الصّخرَ رأيه يراه رجالٌ حول رأيتِه أبا
فلن تهزموه بالمنى فاصبروا له وقولوا لأمر الله أهلاً ومرحباً

وإذ سمع الخوارج هذه القصيدة قالوا لقطري: شدّ ما مدحت الرجل يا أمير
المؤمنين؟! فقال: ما أثبتُ عليه شيء في دينه، ولكني ذكرت ما فيه. وقد عرفت القصائد
التي ينصف فيها الشاعر أعداءه بالمنصفات، سواء عند قطري أو غيره من شعراء الخوارج
كالطرمّاح وعمران بن حطان.

وله مقطوعة تصور عقيدة الخوارج في لقاء الموت بشجاعة وثبات. يقنع نفسه فيها بأن
الخوف من الموت لا يُجدي لكونه النهاية الحتمية لجميع الأحياء، فيقول⁽¹⁾:
أقول لها، وقد طارت شُعاءً من الأبطالِ، ويحكِ لن تُراعي!

(1) ديوان شعر الخوارج، ص 122.

فإنك لو سألت بقاء يوم
فصبراً في مجال الموت صبراً
ولا ثوب البقاء بثوب عز
سبيل الموت غاية كل حي
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم
وما للمرء خير في حياة
إذا ما عُذ من سَقَطِ المتاع

بدأ الشاعر مقطوعته بمخاطبة نفسه وانتزاع الخوف منها، وقد تبددت وهي تواجه الأبطال، ومن ثم يبحثها على المضي والثبات في الحرب، ذلك أن أجلها لا يمكن أن يتأخر عن مواعده يوماً واحداً، ومن ثم يدعوها إلى الصبر في ساحة الوغى ما دام الخلود مستحيلاً.

ولكننا نحسن في خطاب الشاعر لنفسه توخداً بين مشاعره وأحاسيسه، فهو في الواقع يخاطب ذاته المترددة الخائفة، ويذكر لها أن الموت لا مناص منه سواء في قتال أو في غير قتال.

ويستمر في إقناع نفسه بمواجهة الموت فلطالما تمتأه هو وغيره من الخوارج، ويرى أن طول العمر لا يعد شرفاً وعزاً، فلربما ناله الجبان. وكيف يجبن من يوقن أن الموت هو النهاية الحتمية لكل مخلوق، وأن الهرم لا يعقبه إلا التعب والعزلة عن الناس.

لقد استخدم الشاعر الألفاظ المتعلقة بموضوعه كالأجل والموت والبقاء والخلود، وتتردد معانيه على فكرة واحدة هي حتمية الموت، التي اقتبسها من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

عمد الشاعر إلى التشخيص والتجسيم، فالنفس تطايرت حطاماً، وهي تسأل ولا تُطاع. وجسم البقاء والعز، فجعل لكل منهما ثوباً. وفي البيت الأخير تصوير لأرذل العمر بسقط المتاع.

وعمد أيضاً إلى التجريد (في البيت الأول)، والطباق بين العز والذل، والموت والخلود، لينقل صورة لحاله وهو في ساحة القتال، يواجه الأبطال. وهو موقف فكري وسياسي يتمثل بوجوب القتال وخوض الحرب طلباً للشهادة. وقد طغت العاطفة الصادقة وروح الحماسة على هذا الموقف، في إطار الحكمة.

عمران بن حطّان (84هـ)⁽¹⁾

وهو من الخوارج الصُّفْرية، وأصله من شيان. نشأ ورعاً، وكان يروي عن الصحابة. ونقله في عصر زياد خطيباً يروغ من يستمعون إليه. ولم يلبث أن تزوّج ابنة عمه جمره، وكانت خارجية، وأراد أن يردها عن هذا المذهب، فلم يفلح، بل إنها كانت سبباً في اتخاذه والدخول فيه، إذ أغرته بجمaha وهو القبيح الدميم⁽²⁾، حتى لُيَروى أنها قالت له يوماً: أنا وانت في الجنة، قال: ومن أين علمت ذلك؟ قالت: لأنك أعطيت مثلي فشكرت، وابتليتُ بمثلِكَ فصبرت، والشاكر والصابر في الجنة.

وقد غالى في معتقده، حتى لنراه يُشيد بالشقيّ عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي ابن أبي طالب، وفي طعته له، إذ يقول⁽³⁾:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها إلا ليلغَ من ذي العرش رضوانا
إنني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

وكان عمران يذكر الموت في شعره، ويفرغ منه:

لا يُعجزُ الموتُ شيءَ دون خالقه والموتُ فإنِ إذا ما ناله الأجلُ
وكلُّ كَرَبٍ أمام الموتِ مُتَضِحٌ للموت، والموت فيما بعده جَلُّ

في مقابل شغفه بزوجه جمره، وكان ذلك يثير نغمة شجية حزينة في نفسه، إذ يتتابه إحساسان عميقان «أولهما مثالي يتجلّى في رفض الحياة الفانية، واحتقارها والرغبة في الموت من أجل العقيدة. وثانيهما إنساني واقعي يبدو في حُبّه زوجته الجميلة التي كان وجودها يُزيّن الحياة في ناظره»⁽⁴⁾، وهي التي أغرته بالانضواء تحت راية الخوارج، إلا أنه كان يقعد عن القتال، ويعلل أبو الفرج ذلك بأنه أصبح من القعدة؛ لأن عمره طال وعجز عن الحرب وحضورها⁽⁵⁾.

(1) انظر: الأغاني، 147/6 وما بعدها.

(2) انظر: شعر الخوارج، ص 10 وما بعدها.

(3) انظر: المبرّد، الكامل، ص 531.

(4) انظر: الفرق الإسلامية، ص 452.

(5) انظر: الأغاني، 147/6 وما بعدها.

وكان عمران يزدرى شعر المديح، فقد سمع الفرزدق مرةً ينشد بعض مدائحه، فقال له ⁽¹⁾:

أيها المادح العبادَ ليعطى: إن الله ما بأيدي العباد!

فاسأل الله ما طلبت إليهم وارجُ فضلَ المقسمِ العوادِ

لا تقلُ في الجواد ما ليس فيه وتسمي البخیلَ باسمِ الجوادِ

وإذا كان عمران يرفض المديح شأنه في ذلك شأن الخوارج، فإنه كان يمدح زوجه جمة هذه ويثني على خلقها ⁽²⁾:

يا جمرَ إني على ما كان من خلقي مُثْنٍ بخَلَاتِ صدقِ كلِّها فيك

الله يعلمُ أنني لم أقلْ كذباً فيما أقولُ وأني لا أزيك

غير أن هذا المديح يدخل في نطاق حبه لزوجته، وهو إلى الإطراء أقرب، لما كان يعلمه من كريم خلقها، كما أنه يخلو من الكذب و النفاق.

وفي المقابل نراه يُذكرها بالموت الذي لا يُقدِّمه ولا يؤخره قتال، وكأنما يخاطب نفسه إذ «نحسَ في خطاب الشاعر لها توحداً بين ذاته وذات زوجته المحبَّ لها» ⁽³⁾، فنسمعه يقول ⁽⁴⁾:

يا جمرَ يا جمرَ لا يطمحُ بك الأملُ فقد يكذبُ ظنُّ الأملِ الأملُ

يا جمرَ كيف يذوقُ الخفضَ معترفٌ بالموتِ، والموتُ فيما بعده جَلَلُ

وقد أظلتك أيامٌ لها حُمُسٌ فيها الزلازلُ والأهوالُ والوهلُ

ويُذكرها بالموت في قصيدة أخرى يرثي بها أبا بلال مرداس بن أدية ⁽⁵⁾:

يا جمرَ، قد مات مرداسٌ وإخوته وقبل موتهم مات النبیونا

يا جمرَ، لو سلمت نفسٌ مطهرةً من حادثٍ لم يزل، يا جمرَ يُعيننا

إذا لدامت بمرداسٍ سلامته وما نعاءُ بذات الغصنِ ناعونا

(1) شعر الخوارج، ص 20.

(2) م.ن، ص 131.

(3) م.ن.

(4) م.ن، ص 167.

(5) انظر: في الشعر الإسلامي والأموي، ص 387.

الطرمّاح بن حكيم (100هـ - 718م)

وهو شاعر الخوارج، وكان يميناً من طيء، نشأ بدمشق، ثم انتقل إلى الكوفة، مع من وردّها من جيوش الشام، واتصل بأحد الخوارج الصفريّة فدعاه إلى مذهبه حتى دخل فيه، فكان مُسالماً بعيداً عن التطرف الذي عُرف به متطرفة الخوارج؛ لذلك لم يكن غريباً أن تقوم بينه وبين الكميت شاعر الهاشميين صداقة حميمة نوّه بها الجاحظ إذ يقول: لم يرَ الناسُ أعجب حالاً من الكميت والطرمّاح، كان الكميت عدنانياً عصبياً، وكان الطرمّاح خارجياً من الصفريّة، وكان الكميت يتعصّب لأهل الكوفة، وكان الطرمّاح يتعصّب لأهل الشام، وبينهما مع ذلك من الخاصّة والمخالطة ما لم يكن بين نفسيّن قطّ، ثم لم يجر بينهما صرْم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه ⁽¹⁾، ومما عمّق هذه الصداقة الإخلاص في العقيدة والتفاني فيها ⁽²⁾، فكلاهما كان يطلب الشهادة ويواجه عدواً وحداً هو الدولة الأموية ⁽³⁾، فضلاً عن أنهما احترفا مهنة واحدة، هي تعليم الناشئة، ففي أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد بن المهلب، وأراد أن يمدحه قاعداً، فنحاه لمخلد، ودّعي الكميت فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم، فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه.

وهو يصوّر حياة الخوارج وصفاتهم التي عرفوا بها أكثر مما يصوّر نفسه، فهو لا يزدري الدنيا مثلهم فقد كان مدّاحاً يطلب المال، ويتنقل من أجله في العراق وفارس وخراسان، ومن هذا المنطلق نراه يصف الخوارج، في مثل قوله:

لله درُّ الشُّرّة إنهم إذا الكرى مال بالطلأ أرقوا
يرجعون الحنين آونة وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفة تكاد عنها الصدور تنفلق

ويعجب أيضاً ممّن يجمع المال ويفخر به، وكانت تتابه حالة من الزهد وهو يتأمل حال الدنيا، وتمسك الناس بها مع أنها عرض زائل، فيقول:

أرانا، على حبّ الحياة وطولها يجدُّ بنا في كل يوم، ونهزل
ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جنة، مما نخاف، ومعقل

(1) البيان والتبيين، 46/1.

(2) في الشعر الإسلامي والأموي، ص 387.

(3) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 311.

ويعجب مَنْ يجمع المال ويفخر به، فيقول:

عجباً ما عجبتُ للجامعِ ما لَ يُباهي به ويرتغذه
يُضيع الذي يُصيره الله إليه، فليس يعتقده

تفاوت لغة الطرماح بحسب أغراضه الشعرية، فهو في شعره السياسي ومدائحه يميل إلى الرقة ولا يغرب على سامعيه، ولكنه حين يصف الصحراء يميل إلى الغريب، فيجمع أوابد الألفاظ ووحشيتها، وقد سئل ابن الأعرابي اللغوي المشهور عن ثماني عشرة كلمة أبدت في أشعاره فلم يستطع تفسيرها، ذلك أنَّ الطرمَاح لم يكن يستعمل الغريب في موضعه، فضلاً عن أنه كان يُدخل في شعره الألفاظ النبطية. وقد توفي حوالي سنة 100 للهجرة.

المبحث الرابع

شعراء الشيعة

ومن أبرز شعراء الشيعة في العصر الأموي: كُثَيِّر عزة، وإيمن بن خريم الأسدي، والكميت الأسدي.

كُثَيِّر عَزَّة (ت 105هـ)

وهو كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن أبي جمعة، شاعر حجازي من خزاعة كان ينزل المدينة كثيراً، وكان قميئاً شديد القصر مُحَمِّقاً، وفي الأغاني أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق. وقد اشتهر بغزله في عزة بنت حُمَيل الضمرية حتى قرن اسمه باسمها فصار يُعرف بكُثَيِّر عَزَّة.

اعتنق الكيسانية بكل ما فيها من غلوٍ وتطرف، كفكرة التناسخ، وانتقال قبس النبوة في علي وأبنائه، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر، وأنه لم يمِت، ولكنه يقيم بجبل رضوى على مسيرة سبعة أيام من المدينة، وأنَّ عودته ستكون من هذا المكان ليملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، لكنه ظل مخلصاً لآل البيت حتى آخر لحظة في حياته، إذ نراه ينشد⁽¹⁾:

برئتُ إلى الإله من ابن أروى و من دين الخوارج أجمعين⁽²⁾

ومن عمر برئتُ ومن عتيقٍ غداة دُعي أمير المؤمنين⁽³⁾

ونراه يمتلئ حقدًا على ابن الزبير لموقفه المتشدد من ابن الحنفية، ولا يلبث أن يلحق بعبد الملك في دمشق في معية ابن الحنفية، ويصبح من مداحه.

وكانت مدائحه لبني امية وعبد الملك بن مروان على وجه الخصوص سبباً في اتهامه بالنفاق السياسي⁽⁴⁾. ولربما كانت هذه المدائح لوناً من الوان التقية أو غمطاً من أنماط التمويه

(1) الملل والنحل، 1/ 242.

(2) ابن أروى: عثمان بن عفان ؓ.

(3) عتيق: أبو بكر الصديق ؓ.

(4) انظر: حديث الأربعاء، 1/ 290.

وحسن التخلص⁽¹⁾. والواقع أنه كان شاعراً متكسباً على غرار الشعراء الذين كانوا يميلون إلى آل البيت ويمدحون خصومهم، من أمثال الفرزدق وبشار بن برد، وابن الرومي. وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له في مدحه لبني أمية لموقفه من آل البيت إذ بالغ في إكرامهم ومنع عماله منعاً باتاً من سبهم على المنابر.

الكُميت الأسدي (126هـ)

يُعد الكُميت بن زيد الأسدي من أبرز شعراء الشيعة في العصر الأموي، وهو يمثل الشيعة المعتدلين، ولد بالكوفة سنة 60هـ فلما شبَّ أخذ يختلف إلى حلقات العلم، فدرس الفقه، والحديث النبوي، وأنساب العرب وأيامها.

ثم إنه أصبح معلماً يعلم الناشئة في مسجد الكوفة ونشأت بينه وبين الطرمّاح صداقة ومودة على تفاوت المذهب والعصبية، فكان الكُميت شيعياً يتعصب لأهل الكوفة، وكان الطرمّاح خارجياً يتعصب لأهل الشام. ووصف ابن قتيبة ما كان بينهما بقوله: كانت بينه وبين الطرمّاح خلطة ومودة وصفاء لم يكن بين اثنين⁽²⁾.

وُجدت في الكُميت «خصال لم تكن في شاعر، كان خطيب بني أسد، وفقه الشيعة، وحافظ القرآن، وكان ثبت الجنان، وكان كاتباً، وكان نسّابة، وكان جدلياً»⁽³⁾، وقد فطن الجاحظ إلى قدرته على الإقناع والمحااجة بقوله: «ما فتح للشيعة باب الاحتجاج بالشعر إلا الكُميت»⁽⁴⁾، لكنه نأى بنفسه عن منظومة الشعر التعليمي، فشعره مجال رحب للعاطفة، وما تشبه بالدليل العقلي إلا ليثبت حقاً ويدحض رأياً.

استخلصه زيد بن علي بن الحسين إمام فرقة الزيدية فدافع عنه الشاعر بإخلاص ومدح بني هاشم، وعرفت قصائده فيهم بالهاشميات، حتى ليقول الفرزدق (114هـ) وقد ذُكر له: إنه وجد أجراً وجصاً فبنى، بمعنى أنه وجد مادة لأشعاره، فأحسن في نظمه⁽⁵⁾.

(1) انظر: ابتسام الصفار، آفاق الأدب في العصر الأموي، ص 118.

(2) الشعر والشعراء، ص 562.

(3) البغدادي، خزائن الأدب، 1/ 138.

(4) البيان والتبيين، 1/ 39.

(5) أنظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، 324.

عُرف الكميت بعصبية للمضرية وهجائه لأهل اليمن، وذلك رداً على شاعر اسمه حكيم بن عياش الكلبي كان يهجو بني هاشم والإمام علي بن أبي طالب على وجه الخصوص، فضلاً عن هجاء بني أسد قوم الكميت.

ثم إن خالداً القسري والي العراق كان متعصباً لأهل اليمن، فلما قال الكميت مذهبته التي هجا بها اليمنية ومطلعها ⁽¹⁾:

أَلَا حَيْتَ عَنَا يَا مَدِينَا وَهَلْ بَأْسٌ بِقَوْلِ مُسْلِمِينَا
ويقال أنها بلغت ثلاثمائة بيت سجل فيها مثالب اليمنية.

وإذ وصلت القصيدة إلى سمع خالد أغضبته، فأعلم الخليفة هشام بن عبد الملك بهجائه لبني أمية وبعث إليه هاشمته التي يقول فيه:

فِيَا رَبَّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُتَغَى وَيَا رَبَّ هَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمَعُولُ

وفيها تحريض على بني أمية والثورة عليهم، فأمر خالداً بحجسه، وطلب منه أن يتخلص منه بقطع يديه ورجليه وبضرب عنقه، وبهدم داره، وبصلبه على ترابها.

واستطاع الكميت أن يفلت من السجن، متخفياً في ثياب زوجته أم المستهل، وكانت تدخل عليه، وألف أهل السجن وحراسه ذلك، ثم إنها دخلت في غفلة عنهم، فلبس الكميت ثيابها، وتهاياً بهيئتها، ومضى إلى الشام، حيث لاذ بقبر معاوية بن الخليفة هشام، وكان قد مات حديثاً وجزع أبوه عليه جزعاً شديداً، فلما دُعي به ربط أبناء معاوية ثيابهم بثياب الكميت، ودخلوا به على جدّهم فاستعطفوه حتى عفا عنه. ثم استأذن الخليفة في أن ينشده قصيدة في رثاء ابنه معاوية، فأذن له، فأنشده قوله:

سَأُبْكِيكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ إِنِّي رَأَيْتُ يَدَ الْمَعْرُوفِ بَعْدَكَ شُلَّتْ

فبكى هشام ومن كان في حضرته، وأمن الكميت، وكتب إلى واليه بالكفّ عن طلبه.

وأياً كان الأمر، فإن قصائده في بني أمية تفتقر إلى العاطفة الصادقة، فهي أقرب إلى المداينة والاسترضاء، وآية ذلك أنه هجاهم ثم لم يلبث أن مدحهم، فبعد أن عفا عنه هشام خاطبه بقوله أنت القاتل:

فَقُلْ لِبَنِي أُمِيَّةٍ حَيْثُ حُلُّوا وَإِنْ خَفْتَ الْمَهْنَدَ وَالْقَطِيعَا

أَجَاعَ اللَّهُ مَنْ أَشْبَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعَ مَنْ يَجُورُكُمْ أَجِيعَا
بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِمِيٌّ يَكُونُ حَيًّا لِأُمْتِهِ رِبِيعَا
فَقَالَ الْكَمِيتُ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَحْوَا عَنِّي قَوْلِي الْكَاذِبَ.
قَالَ: بِمَاذَا؟ قَالَ: بِقَوْلِي الصَّادِقَ:

أُورِثْتُهُ الْحَصَانُ أَمْ هَشَامُ حَسْبُ ثَاقِبًا وَوَجْهًا نَضِيرَا
وَتَعَاطَى بِهِ ابْنُ عَائِشَةَ الْبَرِّ فَاْمَسَى لَهُ رَقِيْبًا نَظِيرَا
وَكِسَاءُ أَبُو الْخَلَائِفِ مَرُو أَنْ سَنَا الْمَكَارِمَ الْمَأْثُورَا

وقيل إن الخليفة هشام كان متكئاً فاستوى جالساً. وقال هكذا، فليكن الشعر⁽¹⁾. ولعله كان يمدحه ثقية، ذلك أنَّ القصيدة «لا تنضح بعاطفة أو صدق أو توافق ثورة فنية ذات قيمة أو عبارة شعرية محكمة»⁽²⁾، ومن هنا فإن إعجاب الخليفة لم يكن في هذا المديح الكاذب وإنما لأن هشاماً أراد أن يستميل الشاعر إلى بني أمية. وآية ذلك أن الكميت أبدى ما يخفيه حين دخل على أبي جعفر محمد بن علي وواجهه سائلاً عن قوله:

فَالْآنَ صَرْتُ إِلَى أَمِيٍّ سَةِ وَالْأُمُورُ لَهَا مَصَائِرُ
أَهْلُ التَّجَاوُبِ فِي الْحَا فِلِّ وَالْمَقَاوِلِ بِالْمَخَاصِرُ
أَنْتُمْ مَعَادُنُ لِلْخِلَا فَةِ كَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِرُ

فيُعْتَرَفُ الْكَمِيتُ قَائِلًا: قَدْ قُلْتُ، وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ إِلَّا الدُّنْيَا، وَلَقَدْ عَرَفْتُ فَضْلَكُمْ. وَيُقَرَّرُ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ بِصَحَّةِ مَوْقِفِهِ، وَلَا يُلُومُهُ، قَائِلًا: أَمَا إِنْ قُلْتُ ذَلِكَ فَإِنَّ التَّقِيَةَ لَتَحُلَّ⁽³⁾، وَهُوَ مَا يَدْحُضُ حَكَمَ ابْنِ قَتِيْبَةَ عَلَى شَعْرِ الْكَمِيتِ بِأَنْ «شَعْرُهُ فِي بَنِي أُمِيَّةٍ أَجُودُ مِنْ شَعْرِهِ فِي الطَّالِبِيِّينَ، وَلَا أَرَى عِلَّةَ ذَلِكَ إِلَّا قُوَّةَ أَسْبَابِ الطَّمَعِ، وَإِثَارَ عَاجِلِ الدُّنْيَا عَلَى آجِلِ الْآخِرَةِ»⁽⁴⁾.

(1) الأغاني، 24 / 17.

(2) عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي، ص 305.

(3) الأغاني، 24 / 17.

(4) الشعر والشعراء، ص 562.

لقد دعاه جبه لبي هاشم إلى نبذ المقدمة الطللية في مستهل هاشميته التي يقول فيها:
(ولم تلهمني داراً ولا رسم منزل). وهو لا يفتأ يذكر حق البيت الهاشمي من سلالة فاطمة
بالخلافة. وكان زيد بن علي بن الحسين يشترط ذلك في الإمام، ويحثّم أن يكون عالماً زاهداً
شجاعاً سخياً⁽¹⁾. ويُردّد الكميّ هذه الصفات في هاشمياته، ويضيف إليها صفة العدل.
وقف الكميّ إلى جانب الإمام زيد بلسانه، فلما رآه يخرج للجهاد قعد عن نصرته،
وآية ذلك قوله:

تجود لهم نفسي بما دون وثبةٍ تظلُّ لها الغربانُ حولي تحجِّلُ
ولما قُتل زيد على أيدي بني أمية، ذهب يبكيه معلناً سخطه عليهم وعلى عاملهم
يوسف الثقفي، الذي ضيّق عليه الخناق، ودسّ إليه من قتله حين وفد عليه مادحاً سنة
126هـ.

(1) انظر: الملل والنحل، ص 115.

هاشمية الكُميت⁽¹⁾ (دراسة وتحليل)

جو القصيدة

هذه القصيدة هي واحدة من مجموعة قصائد للكميت عرفت بالهاشميات نسبة إلى بني هاشم. وهي لون من الشعر السياسي يختلط فيها مدح آل البيت بهجاء بني أمية، وما الشعر السياسي إلا مدح وهجاء وحماسة.

وقد أشاد النقاد بهذه القصيدة، وعدّوها أجود الهاشميات، ويقال إنه عرضها على الفرزدق قبل أن يذيعها، فأعجب بها إعجاباً شديداً وقال للكميت: يا بُنيّ أذع شعرك ثم أذع، فلأنت أشعر من مضى ومن بقي. وتقع هذه القصيدة في مائة وأربعين بيتاً، مما على شاعرية الكميت وطول نفسه الشعري.

النص

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب⁽²⁾؟
ولم ثلّهي دارٌ ولا رسمُ منزل ولم يتطربني بنانٌ مُخضَّب⁽³⁾
ولا أنا ثَمَنٌ يزجرُ الطيرَ همُّه أصاح غرابٌ أم تعرّضَ ثعلب
ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيّة أمراً سليمُ القرنِ أم مرّاً غضبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والثّقى وخير بني حواء والخير يُطلبُ
إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيمّا نالني أتقربُ
بني هاشم رهط النبيّ فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ
خفضت لهم مني جناحيّ مودةً إلى كَنَفٍ عطفاه أهل ومرحب⁽⁴⁾
بأي كتابٍ أم بأية سُنّةٍ ترى حُبهم عاراً عليّ وتحسبُ؟
فمالي إلا آلَ أحمدَ شيعةً ومالي إلا مذهبَ الحق مذهبُ

(1) طبعت مدائح الكميت في بني هاشم مراراً باسم الهاشميات.

(2) البيض: النساء. طرق: فرح وحزن وهي من الأضداد.

(3) رسم: أطلال. يتطربني: يهيج أشواقِي. بنان مخضّب: أصابع مصبوعة بالحناء وقد استعملها الشاعر كاسم جمع، ولهذا جعل الصفة بعدها بصيغة المفرد.

(4) كنف: حضن أو صدر. عطفاه: جانيباه.

يعيونني من غيهم وضلالهم على حبكم بل يسخرون وأعجب
 فطائفة قد كفرتني بحبكم وطائفة قالوا: مسيء ومذنب
 ألم ترني من حب آل محمد أروح وأغدو خائفاً أترقب؟
 وقالوا ورثناها أبانا وأمننا وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
 يرون لهم فضلاً على الناس واجباً سفاهاً وحق الهاشميين أوجب⁽¹⁾
 ولكن مواريث ابن آمنة الذي به دان شرقي لنا ومغرب⁽²⁾
 بك اجتمعت أنسابنا بعد فرقة فنحن بني الإسلام ندعى وننسب
 يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيلاً وأرحب⁽³⁾
 فإن هي لم تصلح لحي سواهم فلإن ذوي القربى أحق وأقرب⁽⁴⁾
 فيا موقدا ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطباً في جبل غيرك تحطب⁽⁵⁾

بنية النص ومساره:

تدور القصيدة حول ثلاثة محاور، هي:

1. مقدمة تحدث فيها الشاعر عن شوقه لآل بيت الرسول ﷺ، إذ يقول: لقد هاجني الشوق والطرب، لا إلى النساء، ولا إلى اللعب واللهو، فما يكون للشيخ أن يلعب، ولا كان شوقي لأطلال الأحبة والبكاء لفراقهم، ولقد سما عقله عن الخرافات التي يتشبث بها الناس من زجر الحيوانات والطيور طلباً للفال، أو زجر الأطباء والطيور لاستفزازها ومعرفة الجهة التي يتوجهون نحوها، ولكن القضية التي تشغله هي شوقه وموالاته لآل البيت من بني هاشم، أهل الفضائل والتقى، وأفضل الناس.
2. مدح آل البيت ووصف مشاعره نحوهم، فيقول: إنني أطرب إلى أولئك القوم المباركين الذين أتقرب إلى الله بحبهم، وأتحمل الأذى من أجلهم وأرضى وأغضب تبعاً لمرضاتهم

(1) سفاهاً: جهلاً.

(2) دان: خضع.

(3) بكيلاً وأرحب: قبيلتان من قحطان.

(4) هي: الضمير للخلافة.

(5) الخطاب في هذا البيت لأنصار بني أمية وهو يعني أنهم يتعبون ليحني بنو أمية ثمرة أتعابهم.

وغضبهم. لقد تذلت وخضعت حباً وترحياً لهم. وسيظل هذا مذهبي مهما يُحيط بي من خوف وبهم.

ثم يتساءل مستنكراً: كيف تعيوني في حبة هؤلاء الأبرار؟ وهل في كتاب الله أو سنة رسوله ما يعيب محبتهم؟ ويقول: إن بني أمية يلومونه في حب آل البيت، بل يسخرون به، وهو يعجب من تصرفاتهم.

3. نقاش منطقي حول أحقية آل البيت في الخلافة، يجعل الكميت شاعراً عقدياً، ويكشف تناقض الأمويين في هذا الأمر؛ فهم يرون أن لهم حقاً في الخلافة لأنهم من قريش قبيلة محمد ﷺ، فإذا جاء آل البيت يطالبون بها قال بنو أمية إن الأنبياء لا يورثون. ومن ثم فإن هاشمياته لا تستند إلى الإقناع العاطفي الذي نلقاه عند بقية شعراء الشيعة، وإنما تعتمد أولاً وقبل كل شيء على الإقناع العقلي القائم على النظر العقلي المحض، مستعيناً في استدلالاته بما يتأتى له من آيات القرآن الكريم، والقياس المنطقي على نظام التوريث في الإسلام، قاصداً أن يظهر بني أمية غاصبين لحق بني هاشم متناقضين مع أنفسهم في زعمهم أن النبي لا يورث⁽¹⁾.

وهذا لا يعني أن الهاشميات تخلو من العاطفة، فهي تمتاز بصدق العاطفة، وتقوم على حب آل البيت وبُغض بني أمية، مازجاً بذلك بين عاطفته وعقيدته، ومن ثم رأى أن حب آل البيت ركن من أركان عقيدته، وقربه إلى الله ﷻ.

المؤثرات الفنية

تقوم هاشمية الكميت على مؤثرات فنية، هي:

1. اللغة

ارتبطت مفردات القصيدة بطبيعة الشعر السياسي، ففي المقدمة ترد مفردات تقليدية تتوحد مع مفردات عصره، ومفردات العصر الجاهلي، كالنساء البيض، والبنان المخضب، والطرب، وذكر الشيب، والدار، والرسوم وغيرها، غير أن الشاعر جرّدها من سياقاتها الشعرية، إذ أوردتها تشويقاً للسامع وإثارة انتباهه.

وجاءت المفردات بعد ذلك معبرة عن طرفين متناقضين هما: آل البيت وبني أمية، ففي نُصرته لآل البيت ترد مفردات تناسب موضوعه الذي تصدى له، فتكثر ألفاظ الحب

(1) الفرق الإسلامية، ص 384.

والمودة وما يتعلق بهما كقوله: أرضى وأغضب، الحب والمودة وما يتعلق بهما، خفضت لهم مني جناحي؛ وهي صورة مقتبسة من الآية الكريمة: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24] وترد ألفاظ تخص آل البيت مثل: أهل الفضائل والتقى، خير بني حواء، النفر البيض، رهط النبي، آل أحمد، آل محمد، ابن أمنة، ذوي القربى.

وفي محاججته لبني أمية ترد مفردات مضادة مثل غيهم وضلالهم، يسخرون، كفرتني بجبكم، لم يورث، لم تصلح لحي سواهم ولا شك في أن جانباً من ألفاظه مقتبس من القرآن الكريم والحديث الشريف، في الأبيات.

2. الاستفهام:

استخدم الاستفهام في البيت الأول وذو الشيب يلعب⁽¹⁾؟ وهو موجه إلى السامع أو القارئ بسخرية وتهكم لكنه يتسم بالإنكار والتعجب، وفي البيت (بأي كتاب أم بآية سئنة...) وهو موجه لبني أمية الذين يلومونه في حب آل البيت، بحدة وانفعال لكنه يفيض بقوة المنطق والحجة. وفي البيت

لم ترني من حب آل محمد أروح وأغدو خائفاً أترقب؟

وهو استفهام قصد منه الكمية تأكيد حبه لآل البيت على الرغم من أنه يخشى سطوة بني أمية.

1. النفي: اعتمد الكمية أسلوب النفي لبيان موقف يشغل تفكيره أو محاجة بني أمية مثل: لم تلهني دار، لم يتطربني بنان مُخَضَّب، ما شوقاً إلى البيض أطرب، يقولون لم يورث، ما ورثتهم ذاك أم ولا أب.

2. النداء: استخدم المنادى الشبيه بالمضاف في مثل قوله: فيا موقداً ناراً، ويا حاطباً في جبل غيرك تحطب؛ للتدليل على من يتعب لغيره، وذلك في سياق محاججته لبني أمية.

3. الطباق: يؤدي الطباق دوراً أساسياً في بنية القصيدة ويصور موقف الشاعر من عالمين متناقضين، من ذلك: طربت وما أطرب، سليم وأعضب، أرضى وأغضب، أروح وأغدو، شرقي ومغرب.

(1) قال بعض الشراح: ليس فيها استفهام. ومعنى البيت: لم أطرب شوقاً إلى الحسنات ولم أقصد إلى اللهو والعبث، وقد يلهو ذو الشيب ويطرب، وإن كان قبيحاً منه، ولكن طربي إلى آل البيت، أهل الفضائل والتقى. في حين يرى آخرون أن الاستفهام مُقَدَّر، والمقصود أذو الشيب يلعب؟

4. أسلوب الشرط: ويأتي في سياق المحاجة مثل: فإن هي لم تصلح لحي سواهم فإن ذوي القربى أحق، ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب.

5. أسلوب الحصر والاستثناء: ويؤكد به معانيه ويدلل على ثبات موقفه من آل البيت، في قوله:

فمالي إلا أحمد شيعة ومالي إلا مذهب الحق مذهب

6. الجناس التام: البيض في البيت الأول النساء، وفي البيت الرابع آل البيت المباركون.

7. التوكيد والتكرار: فهو يعمد إلى التكرار اللفظي والمعنوي في توكيد حبه لآل البيت في مثل قوله: طربت/ أطرب/ يتطربني، بني هاشم/ رهط النبي، حب آل أحمد / وحب آل محمد.

8. صيغة خطاب المفرد المتكلم: يعمد الشاعر لخطاب المفرد المتكلم ليوحي بتوجهه الفكري وتعبيره عن موقفه، ابتداءً من المطلع (طربت) إلى سائر أبيات القصيدة مثل: أطرب، لم تلهني، لم يتطربني، نالني، أتقرب، فإنني، أرضى، وأغضب، أروح وأغدو.

9. أسلوب الحوار والجدل: استخدم الكميّ أسلوب الحوار لتوضيح موقفه السياسي، وبيان وجهة نظر الآخر (قالوا، يقولون)، ومن ثم ينتقل إلى المحاجة والرد على خصومه، مبيّناً التناقض في أقوالهم، فهم يزعمون أنّ لهم حقاً في الخلافة لكونهم من قريش، فإذا طالب آل البيت بها قالوا إن الأنبياء لا يورثون، وقد جاء رده منطقياً، وأدار نقاشه حول موضوع واحد هو حب آل البيت من جهة وإثبات حقهم في الخلافة، ومن هنا فقد رأى الأقدمون أن شعر الكميّ أشبه بالنثر لاعتماده أسلوب الجدل في بيان حق آل البيت في الخلافة.

ونجد هذه المحاجة في غير سياق، من ذلك قوله:

يرون لهم حقاً على الناس واجباً سفاهاً وحقّ الهاشميين أوجب

وقوله:

به اجتمعت أنسابنا بعد فرقة فنحن بني الإسلام ندعى وننسب

وقوله:

فإن هي لم تصلح لحي سواهم فإن ذوي القربى أحق وأقرب

وبذلك يتحول الشعر السياسي عند الكميت وفي هاشمياته على وجه الخصوص حُججاً وأدلة وأقيسة تماماً كمقالات المتكلمين⁽¹⁾، ومن هذا المنطلق وصف حماد الراوية شعر الكميت بالخطابة في معرض ذمّه لهذا الشعر، ذلك أن الكميت رفض أن يروي حماد شعره قائلاً: أنت لحان، ولا أكتبك شعري، فيجيبه حماد: وأنت شاعر؟ إنما شعرك خُطب⁽²⁾.

10. الصور والأخيلة: نرى الشاعر يتوسل بالكناية محولاً أفكاره إلى صور مثل: «خفضت لهم مني جناحي مودة» للتدليل على الذل والخضوع، و «يا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها»، «ويا حاطباً في جبل غيرك تحطب» للتدليل على من يتعب لغيره.

وعلى أية حال، فإن أسلوب الشاعر يميل إلى التقرير، نلمس فيه الجدل والاحتجاج، ويرتكز على الألفاظ العاطفية التي لا تجهّم فيها ولا عسر. وقد تجسّمت الانفعالات بالأفكار السياسية.

11. الموسيقى

أ. الموسيقى الخارجية (الوزن والقافية) جاءت القصيدة على وزن البحر الطويل، وهو بحر يصلح للمدح والهجاء، وقام روي القصيدة على الباء المضمومة.

ب. الموسيقى الداخلية: وتقوم على صدق العاطفة النابعة من حبه لآل البيت، وإلى جمال التقسيم الذي نجده في كثير من الأبيات، وإلى بعض المحسنات البديعية وبخاصة الطباق.

وعلى الرغم من أنه شاعر خطيب إلا أنه استطاع بأدلته وحُججه أن يخاطب العقل والعاطفة معاً، وهو ما أطلق عليه عبد القادر القط مصطلح الاستهواء الخطابي الذي يُحيل فيه الخطيب الفكرة إلى إحساس بوسائل الخطابة المعروفة من تكرار أو سخرية أو تأكيد أو اتجاه إلى عاطفة السامع، ومحاولة إثارة وجدانه قبل إقناع رأيه⁽³⁾.

وعلى الجملة، فقد كانت العاطفة أبرز العناصر الفنية في هذه الهاشمية، وآية ذلك أن الكميت كان يدعو لآل البيت مستجيباً لنداء دينه وعقيدته وحبه الأكيد، ولم يكن يجري وراء المال.

(1) انظر: الفرق الإسلامية، ص 386.

(2) الموشح، ص 308.

(3) من الشعر الإسلامي والأموي، ص 279.

المبحث الخامس

شعراء بني أمية

يلقانا عدد من الشعراء المعدودين على بني أمية، يتقدمهم الأخطل الذي يعدّ شاعرهم الأول بامتياز، ومسكين الدارمي، وأبو العباس الأعمى، وأبو عطاء السّندي، وعبد الله بن الزبير الأسدي، وعديّ بن الرّقاع. وسنقف عنده وقفة قصيرة نتطّلع فيها إلى حياته وشعره وسندخر الحديث عن الأخطل لاحقاً.

عدي بن الرّقاع

وهو عدي بن زيد بن مالك بن مالك بن عدي بن الرّقاع، والرّقاع جدّ جدّه، نُسب إليه شهرته⁽¹⁾، من «عاملة» إحدى قبائل قضاة، وكان يقطن في دمشق، وهو بذلك يعد من حاضرة الشعراء لا من باديتهم، وقد جعله ابن سلام من شعراء الطبقة السابعة من فحول الإسلاميين⁽²⁾.

يعد من شعراء بني أمية، فكان كما يقول أبو الفرج مداحاً لهم، يدافع عن الخلافة الأموية، ويهجو مناوئها، فنراه يمدح عبد الملك ويهجو خصمه اللدود مصعب بن الزبير⁽³⁾:

لعمري لقد أصحرت خيلنا بأكناف دجلة للمُصعب⁽⁴⁾

يهزّون كلّ طويل القنا ة ملتئم النّصل والثعلب⁽⁵⁾

تقدّمنا واضح وجهه كريم الضرائب والمنصب⁽⁶⁾

أعين بنا ونصرنا به ومن ينصر الله لم يُغلب

ونجده يختص بالوليد بن عبد الملك، ويصبح شاعره الرسمي، فيمدحه بقصائد يتجاوز بعضها الخمسين بيتاً. ويُعليه على جرير في بعض مجالسه، ويدافع عنه، نجد هذا في خبر جمع

(1) طبقات فحول الشعراء، 683/2.

(2) م.ن، 683/2.

(3) م.ن، 384/2.

(4) أصحرت: برزت.

(5) الثعلب: رأس المرح.

(6) الضرائب: الطباع

فيه عدي بن الرقاع وجريز في مجلس الخليفة الوليد، وحين سأل الخليفة جريراً عما إذا كان يعرف عدياً أجابه بالنفي، فعرف الخليفة بعدي، بأنه رجل من عاملة -يعني قبيلته- فأجابه جريز، الذين يقول فيهم جلّ جلاله: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (٢) ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ (٤) [الغاشية: 3-4]، ثم أنشد بيتاً فاحشاً في بني عاملة، فاستعاذ عدي بالخليفة، واستجار به، ليردّ هجاء جريز وقوله فيهم، فما كان من الخليفة إلا أن يهدّد جريراً ويمنعه من أن يذكر اسم عدي في شعره (١). ويظل في رعايته يُصفيه مدائح، التي تغنى بها المغنون، وما غنى له ابن سريج فيه قوله:

صلى الذي الصلوات الطيات له والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
إن الوليد أمير المؤمنين ملئك عليه أعان الله فارتفعا

وقوله (٢):

ولقد أراد الله إذ ولأكها من أمة إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبّت في أرض العدو مصيبة عمّت أفاصي غورها ونجادها
ظفراً ونصراً ما تناول مثله أحد من الخلفاء كان أرادها
وإذا نشرت له الشاء وجدته جمع المكارم طرفها وتلاذها

فالله ﷻ ولأه أمر المسلمين واختاره لسياستها وصلاح شؤونها ورشاد أمورها ونصره على أعدائها، وكيف عمر أرض المسلمين حتى أينعت وأثمرت.

وله من هذا الطراز قصيدة في مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز تقع في ستين بيتاً، وصفها الأصمعي بالحولية، لما روي أن عدياً كان قد جبرها في سنة (٣).

وله قصيدة ثانية في المدح يسرد فيها محاسن الخليفة عمر بن عبد العزيز، وكأنه يسجل قائمة مشتريات، فيلجأ إلى التعداد من أول عدد إلى العدد العاشر، وذلك في قوله:

فأولهن البر والبر غالب وما بك من غيب السرائر يعلم
وثانية كانت من الله نعمة على المسلمين إنه خير منعم

(١) طبقات فحول الشعراء، 2/ 705.

(٢) ديوانه، ص 73.

(٣) م.ن، ص 197.

وثالثة أن ليس فيك هودةً لمن رام ظلماً أو سعى سعي مجرم
ورابعةً ألا يزال مع الثقي تحثُ بميمونٍ من الأمر مُبرم
 وخامسةً في الحكم أنك تنصفُ الضعيفَ وما من علم الله كالعمي

وشتان بينه وبين الأخطل سواء من حيث العاطفة أو جزالة اللفظ أو روعة الأسلوب؛ فعدي «يبدو وكأنه كاتب أو صحفي يُوثق صاحبه ومدوحه بتعداد صفاته ومآثره، في حين نجد هذه المآثر عند الشعراء الذين امتدحوا بني أمية قد ألبست لباس الإقناع في الدعوة من خلال صور فينة»⁽¹⁾.

وعُرف بين الأقدمين بأنه يجيد وصف الإبل وحُمُر الوحش والطّباء، من ذلك وصفه لظبية ترعى ومعها وليدها:

تُزجي أغنْ كأنَّ إبرةَ رَوْقِهِ قلمٌ أصاب من الدّواة مِدادها⁽²⁾
وكذلك كان يحسن وصف المرأة في نطاق الغزل، كقوله:

لولا الحياءُ وأنْ رأسي قد سعى فيه المشيبُ لزرتُ أم القاسمِ
وكأنها وسنطُ النساءِ أعارها عينيه أحورُ من جاذرِ جاسمِ⁽³⁾
وسنانُ أقصدَه الثّعاسُ فرثقتُ في عينه سِنَّةٌ وليس بنائمِ⁽⁴⁾

وهي أبيات استحسنتها أبو عمرو بن العلاء، وأعجب بها النقاد والرواة، وعدّها جرير من أجمل الأشعار في النسب، وأنه يرى لو أن عدياً لم يقل بعدها شيئاً لم يبال⁽⁵⁾. وفي المقابل كان يترصدّه بعض الشعراء فيُحصون عليه أخطاءه حسداً منهم لتقريب الخليفة له، وإثارة عليهم. وقد أشرنا آنفاً إلى موقف جرير منه.

ويلقانا كثير وهو ينقده في مجلس الوليد بن عبد الملك، من ذلك أنه سمعه يُنشد الخليفة:

عرف الدّيارَ توهماً فاعتادها

(1) ابتسام الصفار، آفاق الأدب في العصر الأموي، ص 96.

(2) تزجي: تسوق. الأغن: الشادن في صوته غنة. الروق: القرن. إبرته: طرفه المحدّد.

(3) الجاذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة. وجاسم: من قرى دمشق.

(4) أقصدَه: صرعه. رثقت: خالطت.

(5) الأغاني، 9 / 311.

فعلّق كُثِير: هذا شعر حجازي مقرر، إذا أصابه قُر الشام جمد وهلك، فأنشده إياها حتى أتى على قوله:

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم مئلهما وسنادها

فقال له كُثِير: لو كنت مطبوعاً أو فصيحاً أو عالماً لم تأت منها بميل ولا سناد...،
وحين دافع عُديّ عن نفسه مفتخراً أتى بيت شعر عابه عليه كُثِير أيضاً، وعابه عليه من جاء بعده وهو قوله مدّعياً العلم بكل شيء:

وعلمت حتى ما أسائل واحداً عن علم واحدة لكي أزدادها

فقال له كُثِير: كذبت وربّ الكعبة، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك، وما كنت قطّ أحق منك الآن حيث تظن هذا بنفسك، فضحك الوليد ومن كان معه، وقطع بعديّ بن الرّقاع⁽¹⁾.

فن النقائض

تمهيد

المبحث الأول: عوامل نشأة النقائض

المبحث الثاني: نقائض جرير والأخطل

المبحث الثالث: نقائض جرير والفرزدق

الفصل الرابع

فن النقائض

تمهيد

النقائض جمع نقيضة وهي أن يقول شاعر قصيدة هاجياً أو مفتخراً، ويرد عليه آخر هاجياً ومفتخراً أيضاً ملتزماً البحر والقافية والرّوي (غالباً) الذي اختاره الأول⁽¹⁾، وقد يشترك في المناقضة غير شاعر.

وقد عُرفت أراجيز ومقطعات في العصر الجاهلي، كانت وليدة الصراعات القبلية، وما يتبعها من منافرات ومفاخرات، فلما جاء الإسلام احتدم الصراع بين المسلمين وكفار قريش والقبائل الأخرى وتمثل إعلامياً في المواجهة بين شعراء الطرفين؛ فقال شعراء المشركين أشعاراً يهجون بها الرسول ﷺ وردّ عليهم شعراء المسلمين، وأهمها الأهاجي المشهورة بين حسان بن ثابت وعبد الله بن الزبيري⁽²⁾، وأخرى بين حسان وأبي سفيان بن الحارث⁽³⁾، وبين حسان وهبيرة بن وهب⁽⁴⁾.

انبعث هذا الفن بين شعراء الهجاء في العصر الأموي وأطلق أبو عبيدة اسم «النقائض» على قصائد الهجاء المتبادلة بين جرير وغيره من الشعراء وبخاصة الفرزدق، نبهه إليه مسحل بن كُسيب سبط جرير الذي روى له أخبار التهاجي بين جرير والفرزدق. وقد دامت نقائض جرير والفرزدق خمسة وأربعين عاماً لم يغلب أحدهما الآخر، ولم يتهاج شاعران في الجاهلية والإسلام بمثل ما تهاجيا به⁽⁵⁾.

(1) تاريخ النقائض، ص 1.

(2) انظر: ديوان حسان، ص 57.

(3) انظر: طبقات فحول الشعراء، 1 / 48.

(4) انظر: الأماي في الأدب الإسلامي.

(5) طبقات فحول الشعراء، 2 / 389.

وأول اشتباك في النقائض حدث بين جرير وشاعر يقال له غسان السليطي؛ لخلاف حول ماء بين حي بني الخطفي (قوم جرير) وحي بني جحيش بن سيف بن سليط، فاستعان بنو سليط بغسان ليهجو جريراً وقومه. وبعد محاولات لإسكات صوت المهجاء بين الحيين يدخل الشاعر البعيث المجاشعي هاجياً جريراً، وتبدأ بينهما المهاجاة، فيسقط الشاعر غسان السليطي الذي بدأ بمهاجاة جرير، وتستمر النقائض والمهاجاة بين جرير والبعيث حتى إذا أفحش جرير في هجائه لبني مجاشع، وذكر نساءهم بسوء ضجوا إلى الفرزدق، وحرّضوه على جرير⁽¹⁾.

ويدخل الفرزدق في هذه المهاجاة مع جرير، ويبلغ خبرهما ابن الزبير، إبان استقلاله بحكم الحجاز والعراق، فأمر بحبسهما، فهرب الفرزدق، وأخذ جريراً فحبسه، وسجن النوار زوج الفرزدق، ثم أمر ابن الزبير واليه بهدم داري الشاعرين، وفي ذلك يقول الفرزدق:

أحارثُ داري مرتين هدمتها وكنت ابن أختٍ لا تُخاف غوائله

(1) نقائض جرير والفرزدق، 2-7.

المبحث الأول

عوامل نشأة النقائض

تحدثنا عن نشأة فن النقائض في العصر الأموي، الذي أشعله نزاع قبلي على ماء بين حيين من أحياء العرب، ثم تطور هذا الفن وأذكتة عوامل أخرى، مدّت في عمره نحواً من خمسة عقود، وهي عوامل متعددة: سياسية وقبلية وعقلية واقتصادية وفنية.

العوامل السياسية والقبلية

اتصلت النقائض بالظروف السياسية في العصر الأموي، فقد ذكر أن والي العراق بشر بن مروان كان يُغري بين الشعراء، ويدفعهم إلى التهاجي⁽¹⁾، وكان الحجاج بن يوسف يسكت عن هذه الأهاجي، ويزيدها اضطراباً، فكان يطلب من الفرزدق وجريز أن يأتيا إليه بلباس الجاهلية، وهو بهذا يُشجّع الرّدة إلى الجاهلية سلوكاً وشعراً⁽²⁾.

فيُروى أنه قال لهما وهو في قصره في البصرة: اتيا في لباس آبائكما في الجاهلية، فجاء الفرزدق، وقد لبس الديباج والخز، وقعد في قبة. وشاور جريز دهاة قومه -بني يربوع- فقالوا: ما لباسُ آبائنا إلا الحديد، فلبس جريز درعاً وتقلّد سيفاً، وأخذ رُمحاً، وركب فرساً لعباد بن الحصين، يُقال له المنحار، وأقبل في أربعين فارساً من بني يربوع⁽³⁾.

ولعلّ الحجاج حاول التفكه بهذه الهيئة التي بدا فيها الشاعران، لكنها تبنم عن استعدادهما لحرب طاحنة، يشارك فيها الرجال من كل قوم، وآية ذلك أن جريراً والفرزدق شوهدا في مسجد دمشق، والفرزدق في عصابة من خندف، والناس حول جريز (قيس وموالي بني أمية) لأن جريراً مدح القيسية⁽⁴⁾.

وارتبط الأخطل ببني أمية ليقفوا مع تغلب في مواجهة قيس، فكان في نقائضه مع جريز يفخر بقبيلته ويذكر أيامها ووقائنها ومناصرتها للأمويين، من ذلك النصر الذي حققته على قيس عيلان يوم الحشاك، وقتلها أحد فرسانها وهو عُمير بن الحُباب⁽⁵⁾:

(1) طبقات فحول الشعراء، 2 / 406.

(2) ابتسام الصفار، آفاق الأدب في العصر الاموي، 189.

(3) طبقات فحول الشعراء، 1 / 604.

(4) م.ن، 1 / 407.

(5) نقائض جريز والفرزدق، ص 379.

أَمَسْتُ عَلَى جَانِبِ الْحِشَالِكِ جِيفَتَهُ وَرَأْسَهُ دُونَ الْيَحْمُومِ وَالصُّورُ
إِنِّي رَأَيْتُكُمْ وَالْحَقُّ مَغْمُضَةٌ تُخْفُونَ أَنْ يُذَكَرَ الْجَحَافُ أَوْ زُفَرُ
فَمَا مَنَحْتُمْ غَدَاةَ الْبَشَرِ نِسْوَتَكُمْ وَلَا صَبَرْتُمْ لَقَيْسٍ مِثْلَ مَا صَبَرُوا
وِيرَدَ جَرِيرٌ عَلَى هَذَا الْفَخْرِ الْقَبْلِيِّ فَيَذَكُرُ يَوْمًا انْتَصَرَ فِيهِ الْقَيْسِيُّونَ عَلَى تَغْلِبِ. وَكَانَ
قَوْمُ جَرِيرٍ قَدْ وَقَفُوا إِلَى جَانِبِ ابْنِ الزَّبِيرِ فِي التَّصَدِيِّ لِلْأُمَوِيِّينَ فِي مَرْجِ رَاهِطٍ.
لَقَدْ خَدِمْتَ النِّقَائِضَ سِيَاسِيَّةً بَنِي أُمَيَّةٍ فِي الْعِرَاقِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، فَكَانَتْ
الْجُمَاهِيرُ تَخْتَلِفُ إِلَى الْمَرْبِدِ وَتَتَحَلَّقُ حُلُقَاتٍ لِلْإِسْتِمَاعِ إِلَى الشُّعْرَاءِ، وَكُلُّ شَاعِرٍ يَتَحَلَّقُ حَوْلَهُ
قَوْمُهُ وَأَنْصَارُهُ، وَالنَّاسُ يُهَرِّجُونَ وَيُصَفِّرُونَ وَيُضْحِكُونَ. وَهَذَا عَامِلٌ اجْتِمَاعِي يَرْفِدُ الْعَامِلَ
السِّيَاسِيَّ.

العوامل العقلية

وهي عوامل يعزوها شوقي ضيف إلى نموّ العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار
والجدل والمناظرة في النُّحْلِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَقْدِيَّةِ وَفِي الْفَقْهِ وَشُؤُونِ التَّشْرِيعِ⁽¹⁾، مِمَّا مَنَحَ شُعْرَاءَ
النِّقَائِضِ وَالْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرَ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ الْقُدْرَةَ عَلَى رَدِّ الْمَعْنَى بِمَا يَنْقُضُهَا، وَهَذِهِ
الْعَوَامِلُ «لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا فِي ظَهُورِ فَنِّ النِّقَائِضِ، وَلَكِنَّهَا وَسِيلَةٌ لِتَطَوُّرِهِ وَتَعَدُّدِ
مَعَانِيهِ»⁽²⁾.

العوامل الاقتصادية

فَقَدْ كَانَ النِّزَاعُ الْقَبْلِيُّ عَلَى مَاءِ بَيْنَ حَيِّينَ مِنَ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ عَامِلًا اقْتِصَادِيًّا أَدَّى إِلَى
الْمِهَاجَةِ بَيْنَ جَرِيرٍ وَغَسَّانِ السَّلِيطِيِّ، وَدَخَلَ الْأَخْطَلُ فِي مِهَاجَةِ جَرِيرٍ لِلصَّرَاعِ الْقِصَاصِيِّ
بَيْنَ قَيْسٍ وَتَغْلِبِ حَوْلِ الْمَرَاعِيِّ بِأَرْضِ الْجَزِيرَةِ، فَاحْتَدَمَ الْقِتَالُ بَيْنَهُمَا، وَكَانَتْ قَيْسٌ قَدْ نَزَلَتْ
قَسْرِينَ وَأَسَاءَتْ جَوَارِ تَغْلِبِ.
وَيَدْخُلُ فِي هَذَا النِّطَاقِ مَوْقِفُ الْأَخْطَلِ مِنْ مَعَاصِرِيهِ الْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرِ، فَقَدْ حَكَّمَ أَوَّلًا
لِجَرِيرٍ عَلَى الْفَرَزْدَقِ بِأَنَّهُ الْأَشْعَرُ، وَلَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ غَيَّرَ حُكْمَهُ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِ عُمَيْرُ بْنُ
عُطَارْدٍ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ وَكِسْوَةٍ وَبَغْلَةٍ وَخَمْرٍ، فَقَضَى لِلْفَرَزْدَقِ، بِقَوْلِهِ:

(1) العصر الإسلامي، ص 242.

(2) ابتسام الصفار، آفاق الأدب في العصر الأموي، ص 191.

أجريرُ إنك والذي تسمو له كأسيفة فخرتُ بجدج حصان
فردّ عليه جرير:

لمن الدّيار ببرقة الرّوحان إذ لا نبيع زماننا بزمان⁽¹⁾

العوامل الفنية

حرص شعراء النقائض على حشد طاقاتهم الشعرية في ابتكار الصور الكاريكاتيرية الساخرة التي تثير الجماهير، فتستجيب لهذا الشاعر أو ذاك، بالتصفيق والتصفيح والضحك، مما يدفع به إلى الإجادة في فنه، وتنويع معانيه وصوره مع التجديد فيها، لتكون قصيدته أشد سخرية وإيلاماً وآية ذلك وصف أحد شيوخ البصرة المدينة ومسجدها بقوله: «ما كنت أريد أن أجلس إلى قوم إلا وفيهم من يُحدّث عن الحسن (البصري)، وينشد للفرزدق»⁽²⁾.

وتبدو هذه العوامل في الأحكام الفنية التي تُطلق على الشعراء حيناً، وعلى القصائد حيناً آخر، كقولهم: جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر، وسمّى جرير قصيدته البائية في الفرزدق والراعي الدامغة والمنصورة، وسمّاها الناس الفاضحة، ومطلعها:

أقلبي اللومَ عاذلَ والعتابا وقولي إن أصبتُ لقد أصابا

وهكذا تطور فن الهجاء من أراجيز ومقطوعات لا عمق فيها ولا اتصال بظروف الحياة السياسية الجديدة إلى قصائد من طراز جديد، فيها اتصال عميق بماضي القبائل العربية وأمجادها، وفيها اتصال بالمستجدات السياسية، فضلاً عن تعبيرها عن كل ما حصل عليه العرب حينئذ من رقي عقلي وروحي ومران على الحوار والجدل. واستطاع شعراء النقائض (الأخطل وجرير والفرزدق) أن يحوّلوا صورة الهجاء القديمة إلى صورة جديدة؛ هي صورة النقائض كما سمّاها لهم الأقدمون.

تقع النقائض في ديوانين: نقائض جرير والأخطل، ونقائض جرير والفرزدق.

(1) انظر: نقائض جرير والفرزدق، 2-7.

(2) البيان والتبيين، 1 / 220.

المبحث الثاني

نقائض جرير والأخطل

تنسب نقائض جرير والأخطل إلى أبي تمام الطائي الشاعر بوصفها إحدى مجموعاته الشعرية، وتحتوي على إحدى عشرة قصيدة لجرير وتسع قصائد للأخطل.

وكان سبب تهاجي الشاعرين أنه لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك: انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما، وتأتيني بخبرهما، فلقيهما، فاستمع، ثم أتى أباه فقال: جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر، فقال الأخطل: فجرير أشعرهما، ثم قال⁽¹⁾:

إني قضيتُ قضاءً غيرَ ذي جَنَفٍ لما سمعتُ ولما جاءني الخبرُ⁽²⁾

أَنَّ الفرزدقَ قد شالتِ نعامَتُهُ وعَضُّهُ حَيَّةٌ من قومِهِ ذَكَرُ⁽³⁾

فلما قدم الأخطل على بشر بن مروان أخي الخليفة في الكوفة بعث إليه قوم الفرزدق بهدايا وقالوا له: فَضَّلْ شاعرنا عليه وَسَبِّهِ، فقال الأخطل:

قوم إذا خطرَ إليك قرومهم جعلوك بين كلاكِ وجِـرَانِ

وإذا وضعتُ أباك في ميزانهم رجحوا وشال أبوك في الميزان⁽⁴⁾

فرد عليه جرير؛ ومنذ ذلك الحين اشتعلت نار العداوة من الشاعرين.

ويروي ابن سلام في موضع آخر أن الفرزدق والأخطل وجريراً اجتمعوا عند بشر بن مروان، وكان يغري بين الشعراء، فقال للأخطل: احكم بين الفرزدق وجرير، فقال اعفني أيها الأمير، فقال: احكم بينهما، فاستعفى بجهده، فأبى إلا أن يقول، فقال: هذا حكم مشؤوم: الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر. فلم يرضَ بذلك جرير، وكان سبب الهجاء بينهما، فقال جرير:

(1) طبقات فحول الشعراء، 2 / 406.

(2) جنف: ظلم.

(3) شالت نعامته: رفعت ذيلها، كناية عن الهزيمة؛ شالت نعامتهم: مثل يضرب في تفرق الناس. حية ذكر: شهم.

(4) م. ن، 2 / 451-454.

يا ذا العباءة إن بشراً قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان
فدعوا الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة في بني شيبان
ثم استطارا في الهجاء⁽¹⁾.

وبشر بن مروان نفسه دفع سراقه البارقي ليهجو جريراً، فخاطبه جرير ببيته المشهور:
قد كان حقك أن تقول لبارق يا آل بارق فيم سب جرير
غير أن شوقي ضيف يرى أن هذه النقائض إنما استطارت بين الشاعرين بحكم موقف
جرير في صف قيس في حين كان الأخطل لسان قومه تغلب، وبذلك كانت قيس وتغلب
على طرفي نقيض سواء في السياسة أو في المصالح الاقتصادية⁽²⁾. وأيا كان الأمر فقد اصطدم
شاعر تغلب بشاعر قيس فدخل في هذه المعارك التي أنتجت لنا هذه النقائض الطريفة.
ونقائض جرير والأخطل قصائد طويلة، استنفدت جهداً غير قليل من الشاعرين، إذ
نجدهما يحاولان الإمام بتاريخ قيس وتغلب وما لهما من أجداد في الجاهلية أو مثالب. ومن
هنا كانت هذه النقائض وثائق تاريخية لمن يريدون درسهما ومن اتصل بهما من
القبائل. وفضلاً عن ذلك نجدهما يلمان بالحياة الإسلامية الحديثة وما طرأ عليها من ظروف
سياسية؛ فالأخطل حين يهجو قيساً يفكر في موقفها من الأمويين ويحجره ذلك إلى مدح
الخليفة.

ويقدم الشاعر لنقيضته ببكاء الأطلال، ووصف رحلته في الصحراء، وقد يضيف
الأخطل نعتاً للخمر، وبذلك تشمل بعض النقائض على جُل فنون الشعر التي عرفت
حينئذ.

لم يحتكم الشاعران إلى ذلك فحسب، بل احتكما أيضاً إلى الإقذاع في الهجاء ومحاولة
السخرية وإضحاك الجماهير. حتى يسقط كل منهما قبيلة صاحبه سقوطاً لا تقوم من بعده
بما يلبسها من الخزي والعار، وذلك بنقض الصفات التي يُجلُّها العرب من كرم ووفاء.
ولكل منهما أبيات مشهورة، فمن ذلك قول الأخطل في إحدى نقائضه:

قوم إذا استنبج الأضياف كلهم قالوا لأهم بُولي على النار

(1) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص 110.

(2) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 242.

فهو لا يصفهم باللؤم والدناءة وابتذال الناس فحسب، بل جعل نارهم أيضاً حقيرة ضئيلة تطفئها الكمية القليلة من الماء (البول).

وكان جرير هو الآخر يحاول أن يهجو الأخطل وقومه أقبح الهجاء وأشدّه لذعاً وتهكماً. فتعمد دائماً أن يهجو نساء تغلب، فإذا عدل عن ذلك فلإى دين تغلب ومسيحيّتها، وكذلك إلى أخلاقها وخصالها من مثل بيته المشهورة⁽¹⁾:

والستغليّ إذا تنحنحَ للقرى حك استه وتمثّل الأمثالا

وهي صورة قبيحة، ولكنها مضحكة، تحمل كل ما أرادته من سخرية بصاحبه وبقييلته. ومن ذلك قوله:

أبعِلَ التغليّة لا تطأها فلا ديناً أصبّت ولا جمّالا

وقد انتهى جرير والأخطل من صنع نقائضهما معاً بوفاة ثانيهما في عصر الوليد بن عبد الملك حوالي سنة 92 هـ⁽²⁾.

(1) الأغاني، 5 / 318.

(2) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص 89 وما بعدها.

المبحث الثالث

نقائض جرير والفرزدق

جمعها أبو عبيدة معمر بن المثنى (110 - 207هـ) عن رواية عصره من أمثال الأصمعي والمفضل الضبي وابن الأعرابي وغيرهم، ثم زاد في مادتها ثلاثة من العلماء هم: محمد بن حبيب، والسكري، واليزيدي.

ويعود تهاجي جرير والفرزدق إلى خصومة بين جرير وغسان السُلَيطي، إذ دخل بينهما شاعر من مجاشع قوم الفرزدق يسمى البعيث، فتفوق عليه جرير، ففزع بنو مجاشع إلى الفرزدق، وكان قد قيد نفسه لحفظ القرآن، واعتزم أن يهجر الشعر، فأظهر شيئاً من التردد، فجاءه نسوة بني مجاشع واستثرنه للاشتراك في الخصومة والرد على جرير، وما زلن به حتى فك وثاقه وزحف إلى المعركة، واستمر عالقاً بها حتى آخر لحظة من حياته⁽¹⁾.

ظل الشاعران يتهاجيان نحو خمسة وأربعين عاماً في عشيرتهما من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية، فقد وقف جرير في صف قيس، إذ إن عشيرته اليربوعية بايعت ابن الزبير، وصادف أن قتل مجاشعي الزبير بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجمل إلى مجاشع، كما تصادف أن لجأت النوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير، فأعانها عليه، مما جعل الفرزدق يهجو.

وانزلق الراعي في هذه المعركة متحيزاً للفرزدق بقوله:

يا صاحبي دنا الرحيلُ فسيرا غلبَ الفرزدق في الهجاءِ جريرا

فرد عليه جرير ببائيته الدامغة التي هدمت الراعي وقبيلته نميرا، حتى لقد صار الرجل من نمير إذا سمع قوله تعالى: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: 30]: خجل وطأطأ رأسه، لقول جرير في تلك القصيدة:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناسَ كلَّهم غَضابا
فغُضَّ الطرفَ إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ولم يلبث الراعي أن انصرف من مجلس الفرزدق، واتجه إلى منازل قبيلته في نجد.

(1) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص 89 وما بعدها.

ونحن هنا نفاجأ بموقف شاذ، فجيرير يهجو الراعي النميري القيسي، والفرزدق يدافع عن الراعي ويقف في صفه، ولعل ذلك يعود إلى ظهور بشر بن مروان في العراق وتقريبه بين الراعي من جهة والفرزدق من جهة أخرى.

ومن يرجع إلى شرح أبي عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب، لأن الشعارين تحدثا عنها؛ فجيرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس، والفرزدق يتحدث عن أيام الإسلام وخاصة ما كان بين تميم وقيس في خراسان، فقد نكلت تميم بقتيبة بن مسلم حين ثار على سليمان بن عبد الملك.

لقد أصبحت النقيضة عند الفرزدق وجيرير عملاً فنياً معقداً، اختلطت فيها العصبية بالسياسة، بحيث أصبحت لا تحتوي فخراً وهجاءً فحسب، بل تحتوي كذلك مديحاً، كما تحتوي نسبياً وغزلاً، والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه، كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل.

على أنه ينبغي أن نفهم أن الشعارين كانا يقومان بهذه النقائض على أنها شيء يقصد به إلى التسلية أكثر مما يقصد به إلى السباب والتخاصم. وكان الناس يعرفون ذلك وكانت تعجبهم هذه الألوان الفاقعة من الهجاء، ومن هنا تأتي استشارة ولاة العراق لهما بحضرتهم طلباً للتسلية واللهو ومن ثم فإن صور الهجاء الفاحشة التي تتناول نساء القبيلة من أمهات وزوجات وأخوات لم يأخذها الشعراء مأخذ الجد وإنما على سبيل الفكاهة والسخرية. وإذا رجعنا إلى أخبار الشعارين وجدناهما متصادقين متوادين، فإذا طُلب جيرير لحرب الأزارقة توسط له الفرزدق عند المهلب ليتركه⁽¹⁾، وإذا حبس الفرزدق توسط له جيرير عند صاحب الشرطة في العراق⁽²⁾، ثم عند هشام بن عبد الملك في الشام⁽³⁾.

وقد حزن جيرير على صاحبه حزناً شديداً حين سبقه إلى الموت، وراثه بأبيات، منها⁽⁴⁾:

فُجِعْنَا بِمَمَالِ الدِّيَاتِ ابْنَ غَالِبٍ وَحَامِي تَمِيمٍ عَرَضَهَا وَالْمَرَاجِمَ⁽⁵⁾

فَلَا حَمَلْتُ بَعْدَ ابْنِ لَيْلَى مَهِيرَةً وَلَا شُدَّ أَنْسَاعُ الْمُطِيِّ الرَّوَاسِمَ⁽⁶⁾

(1) الأغاني، 19 / 29.

(2) المصدر نفسه، 19 / 42.

(3) العقد الفريد، 3 / 145.

(4) الديوان، ص 535.

(5) المراجع: المناضل.

(6) المهيرة: الحرة. أنساع: جمع نسع وهو سير تشد به الرّحال. الرواسم: النوق.

كان المربد هو المكان الذي تختلف إليه الجماهير، وتتخلق حلقات للاستماع إلى الشعراء. وبخاصة جرير والفرزدق حيث يتخلق الناس حولهما، أما الفرزدق فيتخلق حوله قومه من تميم وبني دارم ومجاشع وأخلاط من قبائل أخرى، وأما جرير فكانت تتخلق حوله قبيلته من كليب وبني يربوع فضلاً عن قبائل قيس. فإذا أنشد الفرزدق قصيدة في هجاء قيس وقوم جرير والفخر بتميم وأجادها في الجاهلية، والانتصار للأخطل وتغلب حملها الرواة إلى جرير، فيرد كل ما فيها من سهام إلى نحر الفرزدق وقومه دارم، ويتعرض للأخطل يقذفه بدينه وكل ما يرد على خاطره. والناس من حول جرير وصاحبه يُهرجون، ويصفرون، ويضحكون.

ويرى شوقي ضيف أن نقائض جرير والفرزدق حديثة العهد بالإسلام وبالْبصرة في العصر الأموي، إذ وجدت أول مرة لسبيين:

1. عامل اجتماعي، هو الفراغ وإحياء العصبيات وتورط القبائل في أحزاب سياسية.
2. عامل عقلي، هو المحاورات والمناقشات في البصرة، مما أكسب الشعارين القدرة على الحوار والجدل⁽¹⁾.

وتشهد الأخبار والنصوص أن الشاعر كان ينشد قصيدته من صحيفة مكتوبة، وبعد فراغه من إملائها وكتابة الرواة لها كانوا يأخذونها إلى خصمه، فيتأملها، ثم يحاول الرد عليها؛ ففي الشعر والشعراء أن أبا عمرو بن العلاء كان في حلقة جرير وهو يملئ نقيضته في الأخطل:

وَدُعْ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ إِنَّ الْوَدَاعَ لَمِنْ تَحَبُّ قَلِيلُ⁽²⁾

ويقص الرواة أن جريراً حين نظم نقيضته في الفرزدق والراعي النميري قال لروايته: «زد في ذهن سراجك الليلة، وأعدد الواحاً ودواة. فما زال جرير يصوغ البيت والحسين يكتب، حتى انتهى من النقيضة»⁽³⁾.

(1) شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 184.

(2) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص 286.

(3) النقائض، ص 430.

وهذا يفسر لنا ضعف الشاعر الثاني الذي يُطلب إليه الرد على زميله، فالرواة والناس من حوله يتعجلونه ويستحثونه أن يرد في أقرب فرصة، فإرد عليها دون ريث، فمثلاً في نقيضة الفرزدق التي استهلها بقوله:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول⁽¹⁾
 بيتاً بناه لنا المليك وما بنى حكم السماء فإنه لا يُنقل
 نجد جريراً يرد عليها بصياغة ماثلة، فيقول:
 إن الذي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا عِزاً عَلاكَ فَمَالَهُ مَنَقِلُ
 ويقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانةً وتخالنا جنّاً إذا ما نجهلُ
 فإرد جرير بقوله:

أحلامنا تزن الجبال رزانةً ويفوق جاهلنا فعال الجهل
 أبلغ بني وقيان أن حلومهم خفت فلا يزنون حبة خردل

لقد استعان الشاعران بكل ما يمكن من توليد للمعاني وتركيب فيها، أما من حيث التركيب، فقد أدخلها عليها معاني جديدة، وأما من حيث التوليد فقد كانا يعرضان المعنى الواحد في صور مختلفة.

أما ما يزعجه النقاد من أن جريراً يكرر أربعة معانٍ في هجاء الفرزدق لا يكاد يعدوهما، وهي قتل مجاشع للزبير حوارى الرسول ﷺ، وأن الفرزدق قين ابن قين، وما يرميه في أخته جعثن، وما كان من نبو السيف في يده حين ضرب الرومي، فليس صحيحاً. وقد رد عليهم ابن الأثير⁽²⁾، إذ أتى بهجاء كثير لجرير يثبت به أنه نوع في معاني هجائه، وأنه لم يقف عند هذه المعاني الأربعة.

واستعرض المعنى الثاني، وهو أن الفرزدق قين ابن قين، إذ كان لجدّه صمصعة قيون كثيرة في الجاهلية، فاستغل ذلك جرير في سبه وهجائه به، وعرضه في صور مختلفة، فتارة يقول له إن أباك شغل عن المكارم بصناعة القيون، بقوله:

(1) سَمَكَ: رفع.

(2) ابن الأثير، المثل السائر، ص 490 وما بعدها.

ألهى أباك عن المكارم والعُلا ليُ الكتائف وارتفاعُ المرجل⁽¹⁾

وتارة ثانية يقول له إن المرجل والقدر يبكيان أباه:

يبكي صده إذا تصدّع مرجل أو إن تثلم بُرمة أعشار⁽²⁾

وتارة ثالثة يقول له: إن أباك أورثك آلة الحدادة، أما أبي فأورثني آلة الشجاعة، في

مثل قوله:

فأورثك العَلاة وأورثونا رِباط الخيل أفنية القياب⁽³⁾

وهكذا نهض الشاعران بهذا الفن، ونالا به منزلة رفيعة في أذهان الناس خاصتهم

وعامتهم لهذا العصر، فقد كان الخلفاء والولاة يُجلّونهما، وكذلك كان الناس من حولهما.

(1) الكتائف: جمع كتيفة، وهي ضبة من حديد تشعب بها الآنية والقذور. المرجل: القدر.

(2) البرمة الأعشار: القدر المحطم، الصدى هنا: بدن الميت.

(3) العلاة: إناء يجلب فيه.

شعراء النقائض

المبحث الأول: الأخطل

المبحث الثاني: الفرزدق

المبحث الثالث: جرير

المبحث الرابع: موازنة بين الأخطل والفرزدق وجرير

الفصل الخامس

شعراء النقائض

المبحث الأول

الأخطل (20 - 92هـ)

هو غياث بن غوث بن الصلت البكري التغلبي، ويكنى أبا مالك، ولد في بادية الحيرة نحو سنة 640م / 20هـ وحُرِّم أمه صغيراً، فأساءت إليه زوج أبيه، إذ لقَّبته دُوبلاً⁽¹⁾، والدوبل هو الحمار الصغير، وكانت ترسله مع الغنم وتؤثر أولادها بالطعام.

استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة، واقرن بها سفه شديد، فكان يكثر من هجاء الناس، وهجا كعب بن جُعيل شاعر تغلب وأخله، ولقب بالأخطل إما لخطأ أذنيه وكبرهما، وإما لسفه لسانه وجراته⁽²⁾. فيروي الأغاني عن أبي عبيدة أن السبب فيه أنه هجا رجلاً من قومه، فقال له: يا غلام إنك لأخطل فغلب عليه. وحدث الضبي أن كعب بن جُعيل سمعه ينشد هجاء، فقال له: يا غلام إنك لأخطل اللسان، فلزمته.

شاعر بني أمية

1. اتصاله بالأمويين: خرج معاوية من صفين مستأثراً بالخلافة، فخضعت الأنصار ولكن على مضض؛ وكان عبد الرحمن بن حسان قد شَبَّ برملة بنت معاوية، فغضب أخوها يزيد وسأل كعب بن جُعيل أن يهجو الأنصار، فاعتذر ودلَّه على الأخطل، فهاجمهم برأيته اللاذعة التي يقول فيها:

ذهبت قريشٌ بالمكارم والعُلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

(1) وقد عبَّره جرير بذلك حين قال يهجو:

بكى دُوبل، لا يرقأ الله دمعته إلا إنما يكي من الذل دُوبل
ويظهر أن الأخطل استاء من هذا اللقب، وقال: والله ما سمتني أمي دُوبلاً، إلا نهراً واحداً، فمن أين سقط إلى هذا الخبيث؟ ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص 166.

(2) الأغاني، 9 / 316 و317.

فذرّوا المعالي لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجّار⁽¹⁾
وهي قصيدة موجهة لم تُثر عبد الرحمن بن حسان فحسب، بل أثارت الأنصار جميعاً، فقد
دخل النعمان بن بشير الأنصاري على معاوية، وكان مُقرباً منه، دخل عليه وهو يستشيط
غضباً، وحسر عمامته عن رأسه قائلاً: يا أمير المؤمنين، أترى لؤماً؟ فيقول له: لا، بل
أرى كرمًا وخيراً، ما ذاك؟ قال: زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمامتنا. فوعده معاوية
بقطع لسان الأخطل.

ويتدخل يزيد ويشفع للأخطل فتقوى علاقته بيزيد ويمتدحه بمذائح يشير فيها إلى
حمايته من معاوية ويسميه ابن الإمام⁽²⁾. وردّ النعمان بن بشير عليه، ولكن الهجاء لم
يستطر بينهما، إذ أثر الأخطل الانسحاب خوفاً على نفسه وصار من ذلك الحين شاعر
بني أمية.

وقيل في سبب دخوله هذا الهجاء هو تلك الملاحاة السياسية بين عبد الرحمن بن حسان
الأنصاري وعبد الرحمن بن الحكم أخي مروان بن الحكم، وكان والياً على المدينة من قبل
معاوية، ومما قاله عبد الرحمن في هجاء بني أمية، قوله:

صار الذليل عزيزاً والعزيز به ذلٌ وصار فروع الناس أذئاباً
إنني للمتمسك حتى يبين لكم فيكم، متى كنتم للناس أرباباً
ففارقوا طلعكم ثم أنظروا وسلوا عنّا وعنكم قديم العلم أنساباً
وقوله أيضاً:

أحياؤهم عارٌ على أمواهم والميتون مسبةٌ للغادر⁽³⁾
وحين اشتدت المهاجة اشترك شاعر الأمويين مسكين الدارمي في هجاء الأنصار، حتى
بلغ الأمر أن يشترك في هذا الهجاء يزيد بن معاوية نفسه.

2. شاعر الدولة الأموية: هكذا توثقت علاقات الشاعر مع بني أمية، فأكرموه: وأجمل يزيد
معاملته، فمدحه الشاعر بعدة قصائد، ولما توفي رثاه. وفي عهد عبد الملك بن مروان (حتى
سنة 86هـ): قرّبه عبد الملك ولقبه بشاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين، فأخذ الأخطل

(1) المسحاة: الجرقة.

(2) انظر: الأغاني، 13 / 147.

(3) م، ن، 13 / 145.

يتغنى بمدحه ويهجو خصومه. وقويت دالة الأخطل على عبد الملك فتدخل في سياسة الخلافة وسخرها لمصلحة قومه؛ حتى لنراه يهدد بني أمية بانصراف تغلب عنهم، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم من الجحاف السلمي الذي أغار على تغلب في معركة البشر⁽¹⁾ التي قتل فيها ابن للأخطل، ووقع هو نفسه أسيراً، غير أنه ضلّل من أسروه، إذ قال لهم إنه عبد، فأطلقوه، وفي ذلك يقول:

لقد أوقع الجحافُ بالبشرِ وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعوّلُ
فسائل بني مروانَ ما بال ذمةٍ وجبلٍ ضعيفٍ لا يزال يُوصّلُ

واستطاع عبد الملك أن يصلح بين الفئتين، فعاد الأخطل إليه وأصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته، ويقول الرواة إنه كان يمثل بين يديه «وفي عنقه سلسلة ذهب، فيها صليب ذهب، تنفض لحيته خمرًا». وحاول عبد الملك أن يدعو الأخطل إلى الإسلام فقال له: لم لا تسلم، يا أخطل؟ فقال: إن أنت أحللت لي الخمر ووضعت عني صوم رمضان أسلمت. فقال عبد الملك: إن أنت أسلمت، ثم قصرت في شيء من الإسلام. ضربت الذي في عنقك. فقال الأخطل:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ يوماً ولستُ بأكلٍ لحمٍ الأضاحي
ولستُ بقائمٍ كالعيرِ يدعو قُبيل الصُّبحِ: حيَّ على الفلاح⁽²⁾
ولكنّي سأشربُها شَمولاً وأسجدُ عند مُنبَلجِ الصُّباحِ⁽³⁾

فجاري عبد الملك شاعره في مزاحه وقال: وما بلغ منك الشراب؟ قال: يا أمير المؤمنين إذا شربتها فانت أهون علي من شمع⁽⁴⁾ نعلي. فقال: قل فيه شعراً، وإلا ضربت عنقك، فقال:

إذا ما ندمني علني ثم علني ثلاثَ رُجَاجاتٍ لهنَّ هديرٌ⁽⁵⁾
خرجتُ أجرُ الدَّيلِ زهواً كأنني عليك أميرُ المؤمنين أميرٌ⁽⁶⁾

(1) نسبة إلى جبل البشر.

(2) العير: الحمار.

(3) الشمول: الخمر.

(4) شمع: سير النعل.

(5) النديم: الذي يجالس على الشرب. علني: سقاني تباعاً.

(6) الأغاني، 8 / 290.

وأيا كان الأمر، فقد شغل الأخطل مركزاً سياسياً إلى جانب مركزه الأدبي، فكان سفير تغلب في بلاط عبد الملك يرعى مصالحها، وكان عبد الملك يرعى شاعره ويُقرّ بأهمية نصارى الشام وتغلب النصرانية على وجه الخصوص.

ولم يلبث أن تضاءل مركز الشاعر في عهد الوليد بن عبد الملك إذ أعرض عنه الخليفة، فقلّت قصائده، وظهر في شعره ألمه النفسي وتشكيّه. وكان الوليد قد قرّب منه شاعراً آخر هو عدي بن الرّفاع، وبذلك انزوى الأخطل عن الساحة السياسية، لكنه ظلّ يُهاجي جريراً إلى أن وافته المنية سنة 92 هـ.

أغراض شعره

تعدّدت أغراض الأخطل الشعرية، وهي في معظمها أغراض تقليدية؛ كالمدح، والهجاء، والفخر، والوصف، والخرميات، إلا أنه لم يوفّق في الرثاء. كما أنّ غزله تقليدي يأتي في مطالع قصائده.

1. المدح

يُعَدُّ عهد عبد الملك العهد الذهبي للأخطل، ونرى مدائحه تمتلئ بقومه وخدماتهم لبني أمية، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته «خفّ القطين»، ومنها بيته المشهور:

شُمسُ العداوة حتى يستقَادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدَرُوا⁽¹⁾

وأسلوبه في مدحه هو الأسلوب القديم مصبوغاً بصبغة السياسة، يمتاز برصانة الألفاظ وجزالتها، ومدائحه في عبد الملك تعدُّ درره الشعرية، وقد جعله عبد الملك شاعر بني أمية، وشهد له بالتفوق، إذ يقول: «كفى بابن النصرانية إذا مدح»⁽²⁾، وكان أسلوبه أجزل وأرصن من جرير، فقد أفاد من المعاني الجاهلية، وكان القدماء يشعرون بذلك، فأبو عبيدة يقول: «إن الأخطل أشبه الثلاثة بالجاهليين»⁽³⁾.

2. الهجاء

هجا الأنصار؛ فنال من النعمان بن بشير، وهجا الزبيريين، وبني كليب قوم جرير، وهجا الجحّاف وزفر بن الحارث لثورتهما على بني أمية، وكان هجاؤه يدور حول التعبير

(1) شُمس: أشدّاء. يستقَادَ لهم: يخضع الناس لقيادتهم. الأحلام: جمع حُلُم، وهو العقل، والمقصود الصبر والأناة.

(2) الأغاني، 8/ 290.

(3) م.ن، 292.

بالبخل، ووصف الهزيمة، وتفضيل قوم على قوم كتفضيل بني دارم قوم الفرزدق على كليب قوم جرير.

كان هجاء الأخطل دفاعياً أكثر منه هجومياً، ومؤملاً من غير فحش، يطعن بالقبلية أكثر مما يطعن بالفرد، وقد لجأ هو وجرير إلى فن النقائض.

3. الفخر

اصطبغ فخر الأخطل بالصِّبغة السياسية، تارة يدخله في المدح لإظهار خدمات قومه لبني أمية، وتارة يدخله للدفاع عن كرم أصله وطيب عنصره. من ذلك قوله لعبد الملك: وقد نُصِرْتَ أميرَ المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطةِ الخَبْرُ⁽¹⁾

4. الوصف

وصف البادية بوحشها وطيرها وفلواتها، وبعض مشاهد الفرات تمخر في عبابه السفن، وأسلوبه هو أسلوب النابغة بما فيه من تصوير حسِّي ودقة. وكان الأخطل يجيد نعت الخمر ودنانها وندامها؛ ويمتاز وصفه للخمر بالدقة والشمول. ولو أتى في قصائد مستقلة لكان الأخطل شاعر الخمرة قبل أبي نواس.

ولعل الأخطل كان أهم رائد لفن الخمريات في العصر الأموي وقد شاكل الأعشى في صوره وتراكيبه، وذكرها كثيراً في شعره من خلال قصائده المدحية، إذ يتشبه بالسكران الذي افتقد وعيه، من مثل قوله:

صريعٌ مُدام يرفع الشُّربُ رأسه ليحيا وقد مائت عظامٌ ومفصِّلُ⁽²⁾
إذا رفعوا عَظْماً تحاملَ صدرُهُ وآخرُ ممانال منها، مُخْبِلُ
ثم ينتقل إلى وصف الخمرة فيقول:

تدبُّ ديباً في العظام كأنه ديبٌ نِمالٍ في نقأ يتهيِّلُ⁽³⁾
فقلتُ: اقتلوها عنكم بمزاجها فأطيبُ بها مقتولةً حين تُقتلُ⁽⁴⁾

(1) الغوطة: موضع بالشام كثير الماء والشجر، وهي غوطة دمشق.

(2) الشرب: جمع الشارب، وهو الذي يشرب الخمرة.

(3) النقا: ما ارتفع من الرمل. يتهيِّل: ينحدر.

(4) قتل الخمرة: مزجها بالماء.

المتخير من شعره

خف القطين⁽¹⁾

خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزَعَجْتَهُمْ نَوَى فِي صَرَفِهَا غَيْرُ⁽²⁾
إِلَى إِمَامٍ تُغَادِينَا فَوَاضِلُهُ أَظْفَرَهُ اللَّهُ فليَهْنِئْ لَهُ الظَّفَرُ
الْخَائِضُ الْعُمَرُ وَالْمِيمُون طَائِرُهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ⁽³⁾
وَمَا الْفِرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ فِي حَافَتَيْهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ الْعُشْرُ⁽⁴⁾
وَزَعَزَعْتُهُ رِيَّاحُ الصَّيْفِ وَاضْطَرَبَتْ فَوْقَ الْجَاجِئِ مِنْ آذِيهِ غُدْرُ⁽⁵⁾
مُسْحَنْفَرٌ مِنْ جِبَالِ الرُّومِ يَسْتُرُهُ مِنْهَا أَكَايِفُ فِيهَا دَوْنُهُ زَوْرُ⁽⁶⁾
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يُجْتَهِرُ⁽⁷⁾
مُقَدَّمٌ مَا تَنِي أَلْفُ لِمَنْزَلِهِ مَا إِنْ رَأَى مِثْلَهُمْ جِنٌّ وَلَا بَشَرُ
يَغْشَى الْقَنَاظِرَ بَيْنِهَا وَيَهْدِمُهَا مُسَوِّمٌ فَوْقَهُ الرَايَاتُ وَالْقَتَرُ⁽⁸⁾
حَتَّى يَكُونَ لَهُ بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ وَبِالْثُوبَةِ لَمْ يُنْبِضْ بِهَا وَئِرُ⁽⁹⁾
فِي ثُبَعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَعَصْبُونَ بِهَا مَا إِنْ يُوَازِي بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ⁽¹⁰⁾
حُشْدٌ عَلَى الْحَقِّ عَيَافُو الْخَنَا أَنْفُ إِذَا أَلَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا⁽¹¹⁾

(1) ديوان الأخطل، ص 98 وما بعدها.

(2) خف: ارتحل. القطين: أهل الدار. راحوا: ذهبوا أو رجعوا عشاء. بكروا: ارتحلوا صباحاً أو مبكرين. الصرف: القلب والمصيبة. غير الدهر: أحداثه.

(3) الغمر: الماء الكثير أو الظلمة الشديدة والمقصود هنا المعارك.

(4) الغوارب: الأمواج. والعشر: شجر.

(5) زعزعت: حركته. الجاجئ: جمع جوجو وهو الصدر. الأذي: الموج. غدر: جمع غدیر.

(6) المسحنفر: السريع. الأكاييف: الجوانب المرتفعة. الزول: الميل.

(7) يجتهر: يستعظم.

(8) المسوم: الذي فيه علامة تميزه. القتر: الغبار.

(9) الطف والثوي: موضعان قرب الكوفة. لم ينبض بها وتر: لم يرم بها نبل، كناية عن التحام الجيشين.

(10) النبع: أجود الشجر صلابة، شبه بني أمية بشجرة النبع الصلبة. يعصبون بها: يلتزمون بها.

(11) حشد: الاجتماع. العياف: شديد الكره. الخنا: الفحش والزيلة. أنف: أبى.

- أعطاهم الله جَدًّا يُنصرون به لا جَدًّا إلا صغيرٌ بعدُ محقَّرٌ⁽¹⁾
شُمسُ العداوة حتى يُستقَادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قَدَرُوا⁽²⁾
بني أمية قد ناضلتُ دونكمُ أبناء قوم همُ آووا وهم نصروا⁽³⁾
بني أمية إنني ناصحٌ لكم فلا يبيتنَّ فيكمُ آمناً زُفرٌ⁽⁴⁾
إنَّ الضَّغينةَ تلقاها وإنَّ قَدَمَتِ كالعرِّ يكمنُ حيناً ثم ينتشرُ⁽⁵⁾
وقد نصرتُ أميرَ المؤمنين بنا لَأُتَاكَ بطنُ الغوطَةِ الخيرُ
وقيسٌ عيلانٌ حتَّى أقبلوا رقصاً فبايعوكَ جهاراً بعدما كفروا⁽⁶⁾
فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم ولا لَعَا لبني ذكوانٍ إذ عثروا⁽⁷⁾
ضَجُّوا من الحرب إذ عضَّتْ غواربهمُ وقيسٌ عيلانٌ من أخلاقها الضَّجَرُ⁽⁸⁾
أما كليبُ بنُ يربوعٍ فليسَ لهمُ عندَ المكارمِ لا وِرْدٌ ولا صَدْرُ⁽⁹⁾
الأكْلونَ خبيثَ الزَّادِ وحدهمُ والسائلونَ بظهرِ الغيبِ: ما الخيرُ؟⁽¹⁰⁾

- (1) جدًا: خطأً (القضاء والقدر). أي أن بني أمية ينفذون قضاء الله ومشيتته في القضاء على أعدائهم.
(2) شُمس: جمع شُموس؛ الرجل الصعب عداوة. استقَاد: خضع ولان.
(3) أبناء قوم: الأنصار (الأوس والخزرج).
(4) زفر: هو زفر بن الحارث الكلابي القيسي.
(5) الضغينة: الحقد. العرّ: الجرب، شبه ذا الأحقاد بالجرب.
(6) قيس عيلان: مجموعة من الأحياء المضرية (هوازن وغطفان وسليم). رقصاً: مسرعين. كفر: جحد.
(7) لا لَعَا: أي لا أقال الله عثرتهم. بنو ذكوان: هو عمير بن الحباب.
(8) ضجوا: التذمر والضجر. الغوارب: جمع غارب، أعلى الكتف. عضّ: ألم.
(9) كليب: قبيلة جرير وهي عدوة لقبيلته.
(10) خبيث الزاد: الطعام الرذول (دلالة على البخل). ما الخير؟: استفهام استنكاري، كناية عن فرط إهمالهم وجهلهم بما يجري حولهم.

إيجاز القصيدة

استهل الأخطل قصيدته بذكر الارتحال والتناهي، ثم انتقل إلى عبد الملك بن مروان، فجعل يمدحه، مبالغاً بفصائله، مستطرداً إلى بني أمية، واصفاً فضائلهم، وفي أبيات أخرى يُعدّد مآثر قبيلته ويهجو القيسيين.

وتعد هذه القصيدة أنموذجاً لشعر الأخطل، وصورة واضحة للشعر السياسي المدافع عن بني أمية. وتقع في أربعة وثمانين بيتاً. وقد لَوّن فيها الشاعر خطابه الشعري، وحشد له الصور الفنية المتنوعة.

بنية القصيدة ومسارها

أ. المطلع:

يقع هذا المطلع، أصلاً في حدود عدّة أبيات يصف فيها الطلل، ويصوّر حاله وهو يشهد رحيل الأحبة بالنشوان الذي صرعه الخمرة وأذهبت عقله. وهو مطلع لا يتلاءم مع وقوفه منشداً في حضرة الخليفة ومن يحضر مجلسه من المسلمين. ويبدو أنه استغلّ صلته القوية بالخليفة الذي اتخذه شاعراً يدافع عن سياسة بني أمية. إلا أن الخليفة لم يكن راضياً عن مطلع القصيدة، وقيل إنه لما أنشده تطيّر منه فقال: لا: بل منك، لا، بل منك، فغيّره الأخطل (فراحوا اليوم).

ب. مدح الخليفة:

استهلّ مديحه لعبد الملك بخلافته على المسلمين وإمامته لهم، وهو يهدف هنا إلى غاية سياسية تدور حول شرعية الخلافة الأموية، وأنها قدر لا مهرب منه بوصفها إرادة الله تعالى؛ فالخليفة منصور من الله تعالى [أظفّر الله، الميمون طائرته، خليفة الله، ويكرر هذا المعنى في البيت الثالث عشر (أعطاهم الله جداً...)].

ويستمد في البيت الثالث معنى أبي طالب المشهور الذي امتدح به الرسول ﷺ:

وأبيضُ يستسقى الغمامُ بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فيقول:

الخائنُ الغمرَ والميمونُ طائرُهُ خليفةُ الله يُستسقى به المطرُ

وانتقل في الأبيات التالية إلى تصوير جوده وكرمه، فاستعار صورة قديمة نجدها عند النابغة الذبياني في مديحه للنعمان بن المنذر في دالتيه التي يقول فيها ⁽¹⁾:

فما الفرات إذا هبّ الرياح له تمري أواذيه العبرين بالزبد ⁽²⁾
 يمدّه كلُّ وادٍ مُترعٍ لجبٍ فيه ركّامٌ من ينبوتٍ والخضد ⁽³⁾
 يظلُّ من خوفه الملاحُ معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والثجد ⁽⁴⁾
 يوماً بأجودَ منه سيبٌ نافلةٍ ولا يحولُ عطاءُ اليوم دون غدٍ

ولكنّ الأخطل حوّر في الصورة، وجدّد فيها، فهو قد نقل هذه الصورة لكرم النعمان وجوده، إذ شبهه بالفرات حين تعلو مياهه، فتجرف كل نبات أو شجر في طريقها، لكنه أضاف إليها طرافة جديدة، وهي طرافة يستمدها أولاً من تفصيل صورة فيضان الفرات. وتعقبه منذ سقوطه من جبال الروم في انحدار شديد، ويستمدها ثانياً من الموازنة نفسها، فالنابغة يكتفي بموازنة الجود بين النعمان والفرات، أما الأخطل فيمد هذه الموازنة إلى الجهارة والروعة، فليس عبد الملك كالفرات في الجود فقط، بل هو مثله في الروعة والجسامة والفخامة.

إن الأخطل، خلال مدحه السياسي، لم يكن مبتكراً، وإنما اتخذ المعاني التي كانت شائعة منذ الجاهلية، لكنه كان يحاول التجديد من خلال تلك الإضافة ومن خلال مواكبته لأجواء عصره وأحداثه.

وبعد هذه المعاني الدينية والخلقية يشرع الأخطل بتصوير الخليفة صورة تخالف الصورة الأولى. في تلك الصورة كان إماماً، يُستسقى بتقواه المطر، ولكنه الآن سيلج به إلى أجواء الملحمية والأسطورة مصوراً شجاعته في الحروب بقوله:

مقدم مائتي ألف لمنزله ما أن رأى مثلها جن ولا بشر

(1) ديوان النابغة، ص 36.

(2) تمري: تحلب. الأواذي: الأمواج. العبرين: الشاطئين.

(3) ينبوت والخضد: ضربان من النباتات.

(4) الخيزرانة: سكان السفينة. الأين الإعياء. النجد: العرة.

هذا البيت ينبري بالقصيدة إلى فلذة ملحمة تتسامى خاصة عندما يصبح جند الخليفة عبد الملك أسمى من الإنس والجن. وهذا المعنى غلو وتصادم من المعنى الذي ألم به النابغة بقوله واصفاً النعمان:

وخَيْسَ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ يَنُونُ تَدْمَرَ بِالصُّفْحِ وَالْعَمَدِ⁽¹⁾
وقد استمرت هذه الصورة في قوله:

يغشى القناطر بينها ويهدمها مُسُومٌ فوقه الرايات والقتر
فالصورة التي مثل بها الخليفة، هادماً، بانياً، عبر الرايات والغبار تمثل معنى البطولة الذي يريد الشاعر أن يرسمه للخليفة.
أما ذروة الملحمة فتظهر في قوله:

حتى يكون له بالطَّفْ ملحمة وبالثوبة لم يُنبض بها وتر
فالملحمة هي المعركة التي تجري بين جيشين وجهاً لوجه وجسداً لجسد، وهي معركة تدل على الاستبسال والشجاعة أكثر من معركة القوس والوتر.
وجمل القول في وصفه لبطولة الخليفة أنه نما إليه الصفة الخارقة التي تدعه متفوقاً لا يقهر.

ج. مدح الأمويين:

نراه يمين على بني أمية، فيذكر فضله وفضل قبيلته تغلب عليهم، من ذلك تصديده للأنصار وهجائه لهم:

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم أووا وهم نصروا
ثم إنه جعل نفسه الناصح والمشير في وجوب إبعاد القيسية عنهم، متكتاً على منزلته هو وقومه في نفوس بني أمية عبد الملك نفسه، وهو يوجه الخطاب إليهم غير مرة.
أراد الأخطل أن يثبت أن بني أمية أجدر الناس بالخلافة، فشبهم بشجرة صلبة عالية. وجعلهم أفضل قریش، وجعل القرشيين أفضل الناس. ثم أراد أن يسوغ شرعية انتقال الخلافة إليهم، فأظهر أنها من الله وأن أمير المؤمنين هو خليفة الله ومن ثم فهي مقدسة. وأما صلابتهم وسطوتهم فشديدتان مجتمعتان إلى العفو عند المقدرة.

(1) خَيْس: ذُلٌّ. تدمر: بلد بالشام. الصُّفْح: حجارة عراض رقاق. العمد: السواري من الرخام.

د. فخر وهجاء:

تحدث الأخطل عن انتصارات تغلب على قيس في حروبهما بالجزيرة، وزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية. ثم انتقل إلى جرير وعشيرته كليب، فأقذع في هجائها إقذاعاً شديداً.

وأياً كان الأمر، فقد عُدَّت هذه القصيدة من أفضل شعر الأخطل وأروعها، وهي مما غلب فيه الأخطل على جرير. وعدّ الخليفة الرشيد البيت الوارد في القصيدة:

شُمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قَدَرُوا
أمدح بيت وأفخره ⁽¹⁾.

(1) الأغاني، 11 / 3851.

المبحث الثاني

الفرزدق (20 - 114هـ)

أبو فراس همّام بن غالب بن صعصعة الدارمي من تميم، لُقّب بالفرزدق لجهامة وجهه وضخامته. شاعر تميمي، وكانت تميم من أكبر القبائل المضريّة، التي امتدت عشائرها من اليمامة إلى الفرات، وتتغلغل في نجد. ولد بكاظمة⁽¹⁾ نحو 641م / 20هـ من أب ذي وجاهة وكرم ينتمي إلى مجاشع بن دارم من تميم. وكان أجداده من أشرف بيوت تميم، فقد عُرف جده صعصعة بأنه محيي الموءودات، وفي ذلك يقول الفرزدق:

ومِنّا الذي منعَ الوائِداتِ وأحيّا الوئيد فلم تُؤادِ

أما أبوه غالب فسيّد بادية تميم⁽²⁾، أتى بالفرزدق يوماً إلى علي بن أبي طالب وقال له: «إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع منه... فقال له: أقرئه القرآن»⁽³⁾، وكان الفرزدق يعظم قبر أبيه «فما جاء أحد واستجار به إلا نهض معه وساعده على بلوغ غرضه»⁽⁴⁾. على نحو ما كان أجداده يجيرون، ولما توفي صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون.

وأُمّ الفرزدق هي لينة بنت قرظة من قبيلة ضبّة. وأخته جعثن، كانت امرأة عفيفة صالحة.

نشأته

نشأ الفرزدق ببادية البصرة، «يرعى غنماً لأهله»⁽⁵⁾، وهو ما يزال غلاماً، وقد لامته أمه ذات يوم على تقصيره، إذ أكل الذئب واحداً من تلك الأغنام فردّ عليها بقوله⁽⁶⁾:
تلوم على أن صَبَحَ الذئبُ ضأنها فالوى بكبشٍ وهو في الرّعي راتع⁽⁷⁾

(1) تسمى حالياً «الجهرة» وهي إحدى ضواحي مدينة الكويت.

(2) الشعراء والشعراء، 1 / 382.

(3) الأغاني، 21 / 283.

(4) معجم الأديباء، 7 / 297.

(5) طبقات فحول الشعراء، 3 / 323.

(6) ديوان الفرزدق، ص 358.

(7) صبح الذئب الغنم: سطا عليها مع الصبح. الوى بكبش: ذهب به وأتلفه.

ولكن الفرزدق وجد أن همته أعظم من الرعي، فقد كان عميق الإحساس بتفوقه وامتيازه، بدا ذلك جلياً حين وفد إلى معاوية وفد تميم، فيهم عم الفرزدق الحتات، فمات في وفادته، وكان معاوية قد أمر له بمال، فردّه إلى بيت المال، ولم يكد يسمع الفرزدق بذلك حتى نظم قصيدته الجريئة في معاوية ومنها:

فما بال ميراث الحتات أكلته وميراث حرب جامد لك ذائبة⁽¹⁾

فلو كان هذا الأمر في جاهلية عِلِمَت من المرء القليل حلاّبة⁽²⁾

فلا يلبث أن يقول معاوية: «رُدُّوا إليه ميراث عمه الحتات»⁽³⁾.

هرية إلى الحجاز

هجا الفرزدق بني فقيم وبني نهشل والأشهب بن رميلة، فاستَعْدُوا زياد ابن أبيه عليه. وكان الفرزدق قد أنهب ماله وألقى ثيابه في المريد، فطلبه زياد في سنة 50هـ، وخافه الفرزدق، فهرب نحو البادية حيث أجاره بعض الشيخ وأعانوه على الفرار، فولّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص، فأمنه وأجاره، وقد مدحه الفرزدق بقوله:

تري الشَّمَّ الجحاجح من قريش إذا ما الأمر في الحدّانِ غالا⁽⁴⁾

قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يُرون به هلالا

وسمعه الخطيئة وهو ينشد هذه القصيدة، فقال: هذا والله الشعر لا ما نعلل به منذ اليوم. وبلغه أنّ زياداً رَقَ له وقال: لو أتاني لأمنّته وأعطيته، فقال في كلمة⁽⁵⁾:

دعاني زياداً للعطاء ولم أكن لأقربه، ما ساق ذو حسب وفرا

أقام الفرزدق بالمدينة، وأخذ يلهو ويعبث وذكر ذلك في شعره بمثل قوله:

إذا شئتُ غَنّاني من العاج قاصفٌ على معصم رِيان لم يتخذد⁽⁶⁾

(1) حرب: جد معاوية.

(2) الحلاّيب: الجماعات وأبناء العم في القبيلة.

(3) الأغاني: 21 / 368.

(4) الديوان، 424. والجحاجح: جمع جحاجح، وهو السيد السَّمح الكريم. الحدّان: الليل والنهار. وحدثا الدهر: نوابه ومصائبه. غال أصاب بشر.

(5) م.ن، 169.

(6) م.ن، 139، أراد بالعاج أساور العاج. رِيان: ممتلئ.

وقوله⁽¹⁾:

هما دلتاني من ثمانين قامَةً كما انقضَّ بازٍ أقتَمَ الریشِ كاسِرَةً
وكان مروان بن الحكم والياً على المدينة، وكانت فيه شدة على أصحاب اللهو،
فطرده، فخرج إلى مكة، وفي طريقه إليها أتاه نعي زياد ابن أبيه سنة 53هـ، ومضى إلى
العراق، حيث وجد ابن عمه مسكيناً الدارمي يتفجع على زياد، فحنق عليه وهجاه بقصيدة
يقول فيها⁽²⁾:

أمسكين! أبكى الله عينك إنما جرى في ضلالٍ دمعها إذ تحذرا
ولم يلبث أن مدح عُبيد الله بن زياد الذي وسَّع له في مجالسه.

ازواجه وأولاده

عُرِف الفرزدق بتعدد زوجاته، فقد تزوج ابنة عمه النوار خدعة، إذ خطبها رجل من
بني دارم فجعلته وليها، وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة سوداء
الخدق، فتزوجته راغمة، لكنها ظلت تكرهه وتحاصمه حتى أجابها إلى طلاقها، وندم على
ذلك فقال:

ندمتُ ندامةَ الكُسعيِّ لما غَدَتُ مني مُطلَّقةً نوار⁽³⁾

ومن زوجاته: أم مكية، ورهيمه النمريه، وحدراء الشيبانية، وطيبة المجاشعية. ولم
يمكث معظمهن معه بسبب خشونته.

رزق الفرزدق أربعة ذكور من النوار، وسماهم أسماء غريبة وهم: لَبْطَةٌ وَسَبْطَةٌ،
وخبْطَةٌ، وركْضَةٌ، وله من غيرها ولد اسمه زمعة، وهي تسميات تدل على غلط نفسه
وخشونة طبعه. وله خمس بنات لم نعرف منهن سوى مكية، وكانت سليطة اللسان⁽⁴⁾.

(1) الديوان، 189.

(2) م.ن، 180.

(3) م.ن، 257. الكسعي: رجل يُضرب به المثل في الندم، يقال إنه كانت له أقواس رمى بها بعض حُمُر
الوحش فأصابها وظنَّ أنه أخطأها، فكسر الأقواس.

(4) انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 2 / 667.

صفاته

كان الفرزدق قبيحاً في صفاته الجسمية وفي صفاته الخلقية: فقد كان قصيراً ضخماً، مجدور الوجه، أصلع دميم الخلقة. وكان فاسقاً ماجناً مجاهرًا بالفسوق، فقد عرف بشربه للخمر التي حرّمها الإسلام، وبأخلاقه الجاهلية التي تنطوي على العصبية والغلظة، وكان انتهازياً متقلباً. قال يوماً لسليمان بن عبد الملك: «نكون مع الرجل ما كان الله معه فإذا تخلّى عنه تخلينا عنه»⁽¹⁾، فهو يمدح آل البيت أولاً ثم نراه يمدح يزيد بن عبد الملك الذي عرف باللهو والمجون.

إلا أن الفرزدق كان بارزاً بأمه، شديد الاعتزاز بأبيه، وفيّاً لرفيق دربه الأخطل. وقد تاب في أواخر عمره وندم على ما اقترف من آثام، ومما يَصَوِّرُ توبته قصيدته التي خاطب بها إبليس، ومنها قوله:

أطعُكَ يا إبليسُ سبعينُ حجَّةً فلما انتهى شبي وتَمَّ ثمامي
رجعتُ إلى ربي وأيقنتُ أنني مُلاق لأيام المنونِ حَمامي⁽²⁾

وروي عن الحسن البصري أنه لقي الفرزدق في جنازة أبي رجاء العطاردي، فقال له: ما أعددت لهذا اليوم؟ فكان جواب الفرزدق ذكياً تداوله الرواة والوعاظ فيما بعد وهو شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثلاثين عاماً⁽³⁾.

ميوله السياسية

كان الفرزدق شاعر تميم، يخدم مصالحها، ويدافع عن حقوقها، وكان يهب قلبه لآل البيت، وقلما كان يجهر بحبه لهم؛ خوفاً من سيوف بني أمية، الذين مدحهم تزلفاً ونفاقاً، وطمعاً في جوائزهم، وكانوا هم كذلك يخشون لسانه، فراحوا يسكتونه بالمال. ظل الفرزدق في منأى عن خلفاء بني أمية لفترة طويلة، واقتصر اتصاله بولاتهم في العراق، فكانت تربطه صداقة ببشر بن مروان، وفيه يقول:

يا بشرُ إنك سيفُ الله صليلَ به على العدوّ وغيثُ يُنبِتُ الشُّجرا

(1) العقد الفريد، 5 / 57.

(2) ديوان الفرزدق، ص 540.

(3) الأغاني، 21 / 392.

حتى إذا توفي رثاء رثاء حاراً.

وإذ ولي الحجاج بن يوسف، وكانت فيه قسوة، خشي بطشه واضطر إلى مدحه، في مثل قوله⁽¹⁾:

إن ابن يوسفَ محمودٌ خلائقُهُ سيّان معروفه في الناس والمطرُ
هو الشّهابُ الذي يُرمى العدوُّ به والمشرقيُّ الذي تُعصى به مُضَرُّ
وأول من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك، فأصبح من شعراء بني أمية.

وفاته

أصيب الفرزدق بذات الجنب، فكانت سبب وفاته⁽²⁾، ومات بالبصرة سنة 114هـ، ودفن بها في مقابر بني تميم، وقد رثاه جرير إذ يقول⁽³⁾:

فُجِعْنَا بِجَمَالِ الدِّيَاتِ ابْنَ غَالِبٍ وَحَامِي تَمِيمٍ عَرْضَهَا وَالْمَرَاكِمِ
فَلَا حَمَلَتْ بَعْدَ ابْنِ لَيْلَى مَهِيرَةً وَلَا شَدَّ أَنْسَاعُ الْمَطِيِّ الرُّوَاسِمِ

فنون شعره

1. الفخر

الفرزدق من أفخر شعراء العرب، فقد اكتملت لديه الأسباب، وهياته الظروف، للتفوق في هذا الفن، فقد نشأ سيداً في تميم، وانتمى إلى بيت من أشرف بيوتها. ومن ثمّ بلغ في الافتخار الغاية القصوى، على شاكلة قوله:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ ضَرْبَنَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادِعُ⁽⁴⁾

كان الفرزدق يمزج الفخر في أهاجيه ومدائحه، ويسير في فخره على نهج الجاهليين، وينسج على منوالهم، فيعدد أيام قومه في الجاهلية، ويصف حياة السلب والنهب واغتصاب السبايا.

(1) ديوان الفرزدق، 301.

(2) الأغاني، 21 / 385. وذات الجنب: التهاب رئوي.

(3) ديوان جرير، 2 / 976.

(4) ديوان الفرزدق، 362، استقامة الأخادع: كناية عن الخضوع والذل.

2. الهجاء

يمزج الفرزدق هجاءه بالفخر بنفسه وقبيلته، فيأتي خصمه دائماً من علٍ ؛ ولهذا قيل: «الفرزدق إذا هجا ارتفع». يرتفع على جرير على وجه الخصوص، وكان جرير من أحقر بيوت تميم، والفرزدق من أشرفها. وهو في هجائه لغير جرير أقل إقذاعاً وفحشاً.

3. المدح

مدح الفرزدق خلفاء بني أمية منذ وفد على سليمان بن عبد الملك. أما ولاية العراق فكان إذا خاف بطشهم مدحهم، فإذا اطمأن هجاهم، وخاصة إذا أظهروا عصبيةً على تميم، بقوله في عمر بن هبيرة مخاطباً يزيد بن عبد الملك:

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ وَالْشَفِيقُ لَسْتُ بِالطَّيْعِ الْحَرِيسِ⁽¹⁾

أَطَعَمْتَ الْعِرَاقَ وَرَأَيْدِيهِ فَزَارِيَا أَحَدُ يَدِ الْقَمِيصِ⁽²⁾

وممن مدحهم بشر بن مروان، والحجاج، والحكم بن أيوب، لكنه كان منافقاً في مدحه. ومدح زين العابدين بقصيدة مطلعها:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِهِ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

ويرى شوقي ضيف أن أبا الفرج الأصفهاني أنكر نسبة القصيدة إليه، وتبعه في ذلك بقوله: «والذي لا شك أنها تخالف نسجه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشيء سوى قبيلته وآبائه»⁽³⁾، والصحيح أن الأصفهاني أشار إلى الاختلاف حول من قيلت فيه القصيدة، ونسب بعض أبياتها لشاعر آخر هو الحزين الكناني. ذلك أن معظم الروايات تتفق في نسبة القصيدة إلى الفرزدق⁽⁴⁾.

ومدح الفرزدق صورة لنزعتة الجاهلية، وبيئته الأموية، ونفسيته الخاصة. فالنزعة الجاهلية تظهر في أسلوب القصيدة، وخشونة الألفاظ، وفي بعض معانيه وأوصافه التقليدية. وأما البيئة فتظهر في عمدوحيه المختلفي النزعات. وأما نفسية الشاعر الخاصة فتظهر في

(1) الديوان، 338، الحريس: المتعنت، الشديد القسوة.

(2) أخذ: مقطوع اليد، يصفه بالسرقة وأنه غير أمين على أموال الأمة.

(3) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 273.

(4) سامي أبو زيد، الفرزدق والنقاد، ص 158.

تناقضها، فهو متقلب في عاطفته وإخلاصه، فضلاً عن أنه كان يسأل مدوحيه أحياناً في إباء، وكان يسألهم أحياناً إلخافاً.

4. الوصف

جاء الوصف قليلاً في ديوانه، لكنه كان بارعاً فيه إذ أبدع في تصوير الصحراء والحيوانات البرية. واستطاع في وصفه للذئب أن يتفوق على الشعراء وبخاصة الذين قلده من بعده كالبحتري والشريف الرضي، كما يمتاز بالتقرب من الحيوان المفترس والعطف عليه، كقوله في ذلك الوحش⁽¹⁾:

وأطلس عسّالٍ، وما كان صاحباً دعوتُ بناري مؤهناً فأتاني⁽²⁾
فلما دنا قلتُ ادنْ دونك إنني وإياك في زادي لمـشـتركان
فبتُ أسوي الزادَ بيني وبينه على ضوءِ نارٍ مرةً ودخان
وهناك فنون لم يبرع فيها الفرزدق، فالرثاء يحتل مكاناً متأخراً في شعره؛ وذلك لجفاء طبعه، وخشونة ألفاظه، وتغلب نزعة الفخر عليه.

وكذلك يحتل الغزل مكاناً متواضعاً في ديوانه؛ لأنه يفتقر إلى الرقة، وله قصيدة غزلية وصف فيها إحدى مغامراته الغرامية، نسجها على منوال امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة، لكنه لم يوفق فيها.

يقول الجاحظ: «وهذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء وكان زير غوان، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسب مذكور، ومع حسده لجرير، وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط، وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً»⁽³⁾.

فنه وقيمه التاريخية

خاض الفرزدق كل أبواب الشعر وأغراضه ولكنه أبدع إبداعاً عظيماً في الفخر. ولم يكن الفرزدق يقول الشعر بسهولة بل كان يتروى ويلقى عناء حتى لقد رووا عنه قوله: «أنا أشعر تميم عند تميم، وربما أنت عليّ ساعة ونزع ضرب أسهل عليّ من قول بيت»⁽⁴⁾، وهذا

(1) الديوان، 628.

(2) الأطلس: الذئب الأغبر المائل الى السواد. العسّال: المضطرب في جريه. الموهن: الليل.

(3) البيان والتبيين، 1 / 208.

(4) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 25.

يفسر قول النقاد: إن جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر. وآية ذلك أنه كان يُنقح شعره ويجوّد ألفاظه حتى شبّه في هذا بزهير بن أبي سلمى.

وقد حافظ شعر الفرزدق على الغريب الجاهلي حتى قال أبو عبيدة: «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة»⁽¹⁾، ولكنه يتجاوز أحياناً قواعد النحو المشهورة، كما يتجاوز قوانين البيان، وكان عبد الله بن أبي إسحاق يتتبع أخطاءه، في مثل قوله:

وعَضُّ زَمَانٍ يَا بَنَ مَرَوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنْ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتًا أَوْ مُجْلَفًا⁽²⁾
فقد عطف مرفوعاً على منصوب.

وكان يقع أحياناً في سوء التأليف، ورويت له أبيات يصعب فهمها بسبب ما فيها من تقديم وتأخير وتداخل كقوله في مدح خال الخليفة هشام:

وما مثله في الناس إلا مُملَكاً أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربُه

وهو بيت أعجب أهل اللغة والنحو بشرحه، منهم سيبويه ومن بعده، ولم يبلغوا منه ما يُقنع ويرضي⁽³⁾. وترتيب ألفاظ البيت: وما مثله (الممدوح) في الناس حي يقاربه إلا مملكاً (هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه؛ أي لا يشبهه أحد من الناس سوى خاله هشام.

ولكن شعر الفرزدق، فضلاً عن قيمته الأدبية، ذو قيمة تاريخية، لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم، وحديثه عن أخبار الدولة وأحداث عصره حتى قالوا: «لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس»⁽⁴⁾.

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 19 / 399.

(2) ديوان الفرزدق، تحقيق علي فاعور، ص 489.

(3) الموشح، ص 167.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، 1 / 321.

المتخير من شعره

الفرزدق يفخر ويهجو

هذه القصيدة للفرزدق يفتخر فيها بدارم بن مجاشع، ويهجو قوم جرير. وقد ردّ عليه جرير بنقيضة أخرى، والمتأمل للنقيضتين يجد تشابهاً بيناً بينهما، فكلتاهما تجري على وزن البحر الكامل، وعلى رويّ اللام، إلا أنّ جريراً نقض عليه معانيه، وكرّر كثيراً من ألفاظه⁽¹⁾.

النص

إن الذي سمك السماء بنى لنا	بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول ⁽²⁾
بيتاً بناه لنا المليك وما بنى	حكّم السماء فإنه لا يُنقل ⁽³⁾
بيتاً زُرارة مُحْتَبٍ بفنائِهِ	ومُجاشعٌ وأبو الفوارس نهشل ⁽⁴⁾
الأكثرون إذا يُعدُّ حصاهُم	والأكرمون إذا يُعدُّ الأول ⁽⁵⁾
لا يُحتبى بفناء بيتك مثلهُم	أبدأ إذا عُدَّ الفَعَال الأفضَلُ
حُلُّ الملوك لبأسنا في أهلنا	والسابغاتُ لدى الوغى نتسربل ⁽⁶⁾
أحلامنا تزنُ الجبال رزانةً	وتخالنا جئاً إذا ما نهجل ⁽⁷⁾
إنّا لنضربُ رأسَ كلِّ قبيلةٍ	وأبوك خلفَ أتانِهِ يتقمّلُ
ضربتُ عليك العنكبوتُ بنسجها	وقضى عليك به الكتابُ المنزلُ
وشغلت عن حَسَبِ الكرامِ وما بنوا	إن اللثيمَ عن المكارمِ يُشغلُ

(1) ديوان الفرزدق، تحقيق علي فاعور، ص 489.

(2) سمك السماء: رفعها. دعائمه: أعمدته. بيتاً: شرفاً ونسباً.

(3) المليك: الله.

(4) احتبى: جلس راكزاً ساقيه أمامه.

(5) حصاهم: عددهم.

(6) السابغات: الدروع.

(7) أحلامنا: عقولنا. نهجل: نسفه ونتنقم.

المضمون

أ. فخر الفرزدق بقبيلته

- إن الله الذي رفع السماء هو الذي بنى مجد قومي ؛ وهو مجد قوي الدعائم، عالي البناء. وهذا الشرف بناه الله، فلا أحد يزحزحه.
- إن بيت قبيلتي يجلس فيه أجدادي الكرام مجاشع ونهشل وزرارة الذين هم أكثر الناس عدداً وأعظمهم كراماً. أما قبيلتك يا جرير فليس فيها أبطال كهؤلاء إذا تذاكر الناس المعروف والفضائل.
- إننا في السلم نلبس حلل الملوك، وفي الحرب نتسربل الدروع السابغة، ثم إننا في حالة حلمنا نكون كالجبال الراسية، أما حين نشور ونجهل فإننا نتحول جنأً.

ب. هجاء جرير وقبيلته

- إن أباك خَلَفَ حماره يلتقط القمل، في وقت تضرب فيه الأبطال ورؤوس القبائل.
- إن قبيلتكم ذات بيت أوهن من بيت العنكبوت.
- إنك مشغول عن بناء المجد، لأن اللثيم يكون دوماً مشغولاً عن بناء الفضائل.

الطبائع الفنية

1. اللفظة المفردة: جاءت بعيدة عن التقعر والوعورة، مع أن الفرزدق معروف بخشونة ألفاظه ووعورتها. وهي ألفاظ فخرية وهجائية وفقاً للموضوع الذي يتصدى له. ويتأثر أحياناً بألفاظ القرآن ومعانيه، فالببيت الأول من قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۖ رَفَعَ سَكَهَا فَسَوَّاهَا ۝﴾ [النازعات: 28]

والبيت التاسع أراد به قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝﴾ [العنكبوت: 41]

2. العبارة: وقد تردد فيها على الصيغ التالية:

- أ. أفعّل التفضيل: أعز وأفضل، الأكثرون والأكرمون، الفعّال الأفضل.
- ب. تكرار بعض الألفاظ: وبخاصة لفظة «بيتاً» ليؤكد قوة قبيلته ومناعتها.

- ج. النعوت غير المباشرة المستخلصة من جمل اسمية أو فعلية، من ذلك: دعائمه أعز وأطول، أبوك خلف أتانته يتكمل...
3. وأياً كان الأمر، فالفرزدق لا يُشَقُّ له غُبار في الفخر؛ لأنه ينتمي إلى ذروة النسب في بني تميم، من مجاشع بن دارم.
4. وقد برع في الهجاء الاجتماعي، ولكنه أقل حظاً في الهجاء الشخصي، ونلاحظ أنه لم يهجُ جريراً إلا بلؤم أهله.

المبحث الثالث

جرير (30 - 114هـ)

نسبه وحياته⁽¹⁾

هو جرير بن عطية بن حذيفة الملقب بالخطفي ويكنى بأبي حزرة؛ وحزرة ابنه الأكبر، من عشيرة كليب اليربوعية التميمية، ولم يكن لأبائه ولا لعشيرته ما لأباء الفرزدق وعشيرته مجاشع من المآثر والأجداد، أما العشيرة فقد كانت ترعى الغنم والحمير، وكانت أمه تسمى أم قيس، وقد ولدت جريراً في بادية اليمامة حوالي سنة 29هـ، في خلافة عثمان بن عفان ويُروى أنها رأت في منامها، وهي حامل به أنها ولدت حبلاً يلتف على أوساط الناس فيقطعها، فلما ولدته سمته جريراً. ونشأ باليمامة بنجد - حيث كانت تقيم قبيلته - نشأة فقيرة يرعى الغنم ويسوق الحمير. وكان أبوه فقيراً بخيلاً، وقومه بنو كليب من البطون الضعيفة في تميم.

تفتحت موهبته الشعرية مبكرة في نحو الخامسة عشرة من عمره، وقد وجد في جده الخطفي خير من يلقيه الشعر. فبدأ ينظم الشعر رجزاً، ثم أخذ يهجو خصومه من أمثال الفرزدق وغسان السليطي. ثم مدح يزيد بن معاوية بقصيدة نال عليها أول جائزة يحرزها، ومدح الحجاج وبشر بن مروان. ولقي لدى الحجاج حظوة كبرى، وطارت مدائحه فيه. ساعده الحجاج في الوصول إلى عبد الملك بن مروان. ولما مثل بين يديه أنشده قصيدته التي يقول فيها⁽²⁾:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحَ
وَاتَّصَلَ بِالْوَلِيدِ وَنَالَ الْحُظُوَّةَ لَدَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَّصِلْ بِسُلَيْمَانَ إِلَّا قَلِيلًا، وَفِي آخِرِ عَهْدِ
الْوَلِيدِ مَاتَ الْحَجَّاجُ فَفَقَدَ جَرِيرٌ مَمُوتَهُ رَكْنًا كَانَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي الْعِرَاقِ.
وعندما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة مدحه جرير ونال جوائزه، مع أن عمر لم يكن يجزل المكافأة للشعراء، إذ قرّبه لما عُرف فيه من عفته وحسن دينه. ولما توفي عمر رثاه جرير، إذ يقول⁽³⁾:

(1) انظر ترجمته في: الشعر والشعراء، ص 304. والأغاني، ج 7، ص 38، وجمهرة أنساب العرب، ص 225. ووفيات الأعيان، 1 / 286.

(2) ديوان جرير، 1 / 89.

(3) ديوان جرير، طبعة الصاوي، 2 / 736..

تنعى النعأة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حُمِلَتْ أُمراً عظيماً فاصطبرت له وقُمت فيه بأمر الله يا عُمرا

ولما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك مدحه الشاعر كما مدح هشام بن عبد الملك.

وكانت وفاة جرير باليمامة سنة 114هـ، بعد وفاة الفرزدق بستة أشهر، وقيل بأربعين يوماً.

أغراضه الشعرية

1. المديح

جرير في مدائحه لبني أمية وولاتهم وعمالهم متكسب يجاهر بطلب العطاء. فقد اتصل بالحكم بن أيوب الثقفي نائب الحجاج على البصرة، ومدحه برجز يقول فيه⁽¹⁾:

خليفة الحجاج غير المتهم في معقد العز وبؤبؤ الكرم

ثم إنه كتب إلى الحجاج يخبره عنه، فطلبه، فقدم إليه، وأخذ يمدحه مدائح رائعة، كقوله⁽²⁾:

من سدّ مطلع النفاق عليكم أم من يصول كصوله الحجاج

أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضي البصرة واضح المنهاج

ماضٍ على العمرات يمضي همّة والليل مختلف الطرائق داجي

منع الرشأ وأراكم سبل الهدى واللص نكله عن الإدلاج

فهو يخلع عليه صفات الوالي الحازم، فيقول إنه سدّ ثغور النفاق، وهو شجاع يحافظ على الذمام. ويصفه بنفاذ البصيرة ووضوح السياسة، يتغلب على الشدائد والحن، ثم يصور عدله في الناس، واستتباب الأمن في عهده، من منع للرشوة، وتنكيل باللصوص وقطاع الطريق. ولم يلبث أن بعث به إلى عبد الملك بن مروان فمدحه بقصيدته التي استهلها بقوله⁽³⁾:

(1) الديوان، 512/1.

(2) م.ن، 136/11.

(3) م.ن، 86.

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشيّة همّ صحبك بالرواح
والشاعر يخاطب نفسه في هذا المطلع، إلا أن عبد الملك ظنّ أنه يخاطبه، فقال له: بل
فؤادك يا ابن المراغة.

ولم يلبث أن أخذ جرير يجاهر بطلب العطاء، فيقول:

أغثني يا فداك أبي وأُمّي بسببٍ منك، إنك ذو ارتياح⁽¹⁾
سأشكرُ إن رَدَدْتَ عليّ ريشتي وأنبتَ القوادِمَ من جناحي
فهو يريق ماء وجهه في غير استحياء، ويقف كالمُتسوّل، ولكنه نجح في انتزاع إعجاب
الخليفة، إذ مضى يمدح الخليفة وأسرته، ويهاجم من ثار عليه، فيقول:

وإنني قد رأيتُ عليّ حقّاً زيارتيَ الخليفةَ وامتداحي
ألستم خيرَ من ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح
أبحتَ حمى تهامةَ بعد نجدٍ وما شيءٌ هميتَ بمستباح
دعوتَ الملّحين أبا خبيبٍ جِماحاً، هل شُفيتَ من الجماح
وإذا أنشدَه قصيدته أعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرّعاة ومحلباً من فضة.

ويتوفى عبد الملك، فيمدح ابنه الوليد، فسلیمان. ثم يمدح عمر بن عبد العزيز،
فيصور عدله وتقواه في مثل قوله:

إن الذي بعث النبيّ محمداً جعل الخلافة في الإمام العادل
وقوله:

أنت المبارك والمهديّ سيرته تعصي الهوى وتقوم الليل بالسور
ويمدح من يعده يزيد بن عبد الملك فأخاه هشام.

وكذلك مدح أبناء الخلفاء وولاتهم، فقد مدح مسلمة بن عبد الملك، وعبد العزيز بن
الوليد وأخاه العباس، وأيوب بن سليمان، ومعاوية بن هاشم، ومن الولاة مدح الحجاج
وصهره الحكم بن أيوب، ومدح خالداً القسري وغيرهم من أشراف قيس وقيم.

(1) سبب: عطاء. ارتياح: كرم.

2. الهجاء

كان جرير ذا مقدرة على التهكم والسخرية، فهو يجعل المهجو من المضحكات، ويصوره تصويراً كاريكاتورياً فهو على حد تعبير مارون عبود -أدرى الناس بفحص الدمن، وتحليلها واكتشاف مضامينها ووصف ما بها-⁽¹⁾.

وأسلوبه يقوم على شدة الإيلام واللذع، إذ يتتبع حياة المهجو وحياة ذويه، وتعداد نقائضه والكشف عن عوراته واحدة فواحدة، ذاكراً تفاصيلها، فقد انتهز في الفرزدق فسوقه، وفي الأخطل نصرانيته.

ومن أشهر قصائده الهجائية بائيته المعروفة بالدماغه ؛ لأنها دمغت خصمه وقضت عليه قضاءً سريعاً، وقد هجا بها راعي الإبل وقومه بني نمر ومطلعها:

أَقْلِي اللوم، عاذلَ والعِتابَا وَقُولِي: إِنْ أَصَبْتُ: لَقَدْ أَصَابَا⁽²⁾

يقول صاحب الأغاني نقلاً عن الأصمعي إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً، ويقول في موضع آخر إنه كان يهاجمه ثمانون شاعراً غلبهم جميعاً. ولم يثبت له سوى الفرزدق والأخطل. ومن أبياته الساخرة:

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مَرْبَعاً أَبْشُرْ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مَرْبَعُ⁽³⁾

3. الضخر

جعل من الفخر وسيلة لتذليل خصمه. وهو يفخر بنفسه وشاعريته وقومه وإسلاميته، لكنه لم يستطع أن يجعل فخره بآبائه موازياً لفخر الفرزدق، وذلك لأن قبيلته لم تكن ذات مآثر وأجناد، فكان يفخر بقومه، وله في ذلك البيت الشهير:

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا

ويفخر على جميع الشعراء بقوة شاعريته، ويتغلبه عليهم، فيقول:

أَعَدَّ اللَّهُ لِلشُّعْرَاءِ مَنِي صَوَاعِقُ يُخَضِّعُونَ لَهَا الرِّقَابَا⁽⁴⁾

(1) انظر: حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، 298.

(2) الديوان، 813/2، عاذل: أصلها عاذلة، حذفت التاء للترخيم. والعاذل والعاذلة: من يلوم المحب على حبه.

(3) م.ن، 916/2، مربع: رواية لشعر جرير، اسمه وعوغة بن سعيد، وهو الذي هدده الفرزدق بالقتل.

(4) صواعق: قصائد شديدة الوقع كالصاعقة التي إن أصابت شيئاً حطمته وأودت به.

وإذا هجا الأخطل فخر بإسلامه ومضرته:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والنبوة فينا
وكان يفخر على الفرزدق ببعض أيام كانت لبني يربوع قومه، كما أعين عليه بأيام
خُذِل فيها بنو دارم قوم الفرزدق.

4. الرثاء

كان رثاء جرير عاطفياً رقيقاً يؤثر في القلب، إذ انطوت نفسه على حزن عميق، صفى
جوهرها، وزاد هذا الصفاء تأثره بالإسلام. وتعدُّ مرثيته في زوجة أم حزرة⁽¹⁾ من أروع مرثياته
إذ يقول⁽²⁾:

لولا الحياء لعادني استعمارٌ ولزرت قبرك والحبيب يزادُ
ولهُت قلبي إذ علتني كبرةٌ وذوو التمام من بنيك صغارُ
ولقد أراك كُسيت أجملَ منظرٍ ومع الجمال سَكينةٌ ووقارُ
صلَّى الملائكة الذين تُخَيِّروا والصالحون عليك والأبرارُ

ولكنه لم يكن موفقاً حين هجا الفرزدق في نهاية هذه القصيدة، مما حمل الفرزدق على
أن يرد عليه بنقيضة مقذعة هجا بها الزوجة المتوفاة.

ورثى الفرزدق وحاول أن يقول فيه كلمة حلوة بعدما قال فيه كلماته المرة سنين
طويلة، ومما قال⁽³⁾:

لتبك عليه الإنسُ والجنُّ إذ ثوى فتى مُضَرٍّ في كلِّ غرب ومشرقِ
فتى عاش يبني المجدَّ تسعين حِجَّةً وكان إلى الخيرات والمجدِّ يرتقي

(1) كانت علاقة جرير بزوجتيه: أم حزرة وأم حكيم، كانت علاقة ودَّ ومحبة. وقد اتخذهن موضوعاً لغزله
الرقيق.

(2) الديوان، 2/ 862.

(3) م، 2/ 938.

5. الغزل

لم يكن غزل جرير فناً مستقلاً في شعره، ولم يخرج فيه عن القديم، ولكنه مزج في غزله بين أسلوب الجاهليين وأسلوب العذريين. وأتاح له صفاء نفسه وانطواؤها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر، على شاكلة قوله⁽¹⁾:

لقد كتمتُ الهوى حتى تهيمني لا أستطيع لهذا الحبّ كتماناً
إنّ العيون التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يُحيين قتلاناً
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهنٌ أضعف خلق الله أركاناً

وهكذا كان غزل جرير غزل العاطفة الصادقة التي تتألم وتنفس في تعبير دقيق لين، يزخر بالألفاظ الموسيقية العذبة. وهو غزل يخلو من البذاءة والقصص الغرامي الفاحش. وكان عمر بن عبد العزيز يعجب بقوله⁽²⁾:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيادة فارجعي بسلام
وأبدع جرير في وصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد -رغم عقوقه لأبيه- على نحو ما يلقانا في أبياته التي يُصوّر فيها حبه لابنه بلال⁽³⁾:

إنّ بلالاً لم تُشِئْهُ أُمُّهُ لم يتناسب خالُهُ وعمُّهُ
يشفي الصداغَ رِيحُهُ وشَمُّهُ ويُذهبُ الهمومَ عني ضَمُّهُ
يُمضي الأمورَ وهو سَامٍ هَمُّهُ بحُرٍّ بحورٍ واسعٍ مَجْمُهُ
يُفرِّجُ الأمرَ ولا يَغْمُهُ فَنَفْسُهُ نَفْسِي وَسَمِّي سَمُّهُ

خصائص جرير الفنية

تميّز شعر جرير بصفات جعلت الجمهور يحب شعره ويفضله على منافسيه، فكانت الألفاظ سهلة نسبياً، فيها رقة، وعذوبة، وحلاوة موسيقى، وفيها غزارة وسلاسة جعلت النقاد يقولون: جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر. أما معانيه فواضحة سهلة

(1) الديوان، 1/ 160.

(2) م.ن، 1/ 197.

(3) م.ن، 2/ 677.

الماخذ، يبدو فيها أثر الإسلام. وأما صورته وأخيلته فبدوية، ونلمس في أهاجيه تصويراً ساخراً.

والحق أن جريراً يتمتع بنفس شعري خصب، يعجب النقاد، فقالوا إنه نظم أحسن بيت في الغزل، وفي المدح، وفي الهجاء، وفي الفخر. وهذه أحكام عامة بعيدة عن النقد الصحيح. وأياً كان الأمر، فهو لا يُباري في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة، وهي موضوعات تتصل بدقة إحساسه ورقة مشاعره. وهو متفوق في الهجاء الشخصي، ولكنه دون الفرزدق في الفخر؛ إلا إذا ارتفع بفخره إلى تميم.

المتخير من شعره

القصيدة الدامغة ⁽¹⁾

أقْلِي اللومَ عاذِلَ والعِتَابَا وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا ⁽²⁾
وَوَجَدِ قَدْ طَوَيْتُ يَكَادُ مِنْهُ ضَمِيرُ الْقَلْبِ يَلْتَهَبُ التَّهَابَا ⁽³⁾
سَأَلْنَاهَا الشِّفَاءَ فَمَا شَفَتْنَا وَمُتَّنَا الْمَوَاعِدُ وَالْخَلَابَا ⁽⁴⁾
سَتَعْلَمُ مَنْ يَصِيرُ أَبَوْهُ قَيْنَا وَمَنْ عُرِفَتْ قِصَائِدُهُ اجْتِلَابَا ⁽⁵⁾
فَلَا وَائِيكَ مَا لَاقَيْتُ حَيًّا كِيرَبُوعٍ إِذَا رَفَعُوا الْعُقَابَا ⁽⁶⁾
وَمَا وَجَدَ الْمُلُوكَ أَعَزُّ مِنَّا وَأَسْرَعَ مِنْ فَوَارِسِنَا اسْتِلَابَا
أَلَا قَبِجَ الْإِلَهِ بَنِي عَقَال وَزَادَهُمْ بَغْدَرُهُمْ ارْتِيَابَا ⁽⁷⁾
لَقَدْ خَزَيَ الْفَرَزْدَقُ فِي مَعَدٍّ فَأَمْسَى جَهْدُ نُصْرَتِهِ اغْتِيَابَا ⁽⁸⁾
فَمَا هَيْتُ الْفَرَزْدَقُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَمَا حَقُّ ابْنِ بَرْوَعٍ أَنْ يُهَابَا ⁽⁹⁾
أَعَدَّ اللَّهُ لِلشَّعْرَاءِ مَنِي صَوَاعِقُ يُخْضِعُونَ لَهَا الرِّقَابَا ⁽¹⁰⁾
قَرَنْتُ الْعَبْدَ عَبْدَ بَنِي ثُمَيْر مَعَ الْقَيْنِينَ إِذْ غَلَبَا وَخَابَا ⁽¹¹⁾

(1) ديوان جرير، الجزء الثاني، ص 813 - 825.

(2) عاذل: أصلها عاذلة، وهي من تلوم الحب على حبه.

(3) الوجد: المرض من شدة الشوق إلى الحبيب.

(4) الخلاب: الكلام اللطيف الذي ينطوي على خداع.

(5) القين: العبد الرقيق.

(6) يربوع: جد من أجداد الفرزدق. العقاب: الراية التي تحملها القبيلة في حربها.

(7) بنو عقال: قوم الفرزدق.

(8) معد: مجموعة من القبائل العدنانية، ومنها قريش.

(9) ابن بروع: هو الراعي النميري، وبروع اسم أمه.

(10) صواعق: قصائد شديدة الوقع كالصاعقة.

(11) عبد بني ثمير: الشاعر المعروف براعي الإبل وهو من بني ثمير. أما القينان الآخران فهما الفرزدق والأخطل، وكان الثلاثة يهجون جريراً، وقيل بل هما البعيث والفرزدق.

أنا البازي المدلّ على ثُمير أُتِخْتُ من السماء لها انصباباً⁽¹⁾
 إذا عَلِقْتُ مَخَالِبُهُ بِقَرْنٍ أَصَابَ القلبَ أو هتكَ الحِجاباً⁽²⁾
 فلا صَلَّى الإلهُ على ثُمير ولا سُقِيتَ قبورهمُ السَّحاباً⁽³⁾
 ولو وُزنتَ حُلومُ بني ثُميرٍ على الميزان ما وَزَّنتَ دُباباً
 فصبراً يا تيسوسَ بني ثُمير فإنَّ الحربَ موقِدةٌ شِهَاباً
 فعُضُّ الطَّرفِ إنك من ثُمير فلا كعباً بَلَّغْتَ ولا كِلاباً
 إذا غَضِبْتَ عليك بنو تميم حَسِيتَ الناسَ كُلَّهُمُ غَضاباً

جو النص

كان الهجاء مشتداً بين جرير والفرزدق، وكان للفرزدق صديق من بني ثُمير اسمه عرادة النميري، استطاع أن يستميل نسيبه الشاعر عبيد بن حصين المعروف براعي الإبل، ويقنعه بتفضيل الفرزدق على جرير، فقال:

يا صاحبيّ دنا الرواح فسيروا غلب الفرزدق في الهجاء جريراً

وثار جرير على الراعي، وغازله أن ينضم إلى الفرزدق، مع أنه يقف في المربد مدافعاً عن قومه (وهم من قيس) مادحاً لهم أمام مناظرات الفرزدق ونقائضه، فقال فيه وفي الفرزدق بائيته المشهورة وكان يسميها الدماغه والمنصورة، وسماها الناس الفاضحة. وكان لها وقع مؤلم على بني ثُمير، إذ خفضت من شأنهم بين القبائل، ووصمتهم بالعار حتى صار الواحد منهم ينتسب إلى غير قبيلته.

(1) البازي: من كواسر الطير يستخدم في صيد الطير والأرانب. المدل على ثُمير: صاحب دالة وسلطة عليهم.

(2) القرن: الخصم في القتال.

(3) ولا سُقِيتَ قبورهم السحاباً: دعاء على بني ثُمير يراد منه ألا تحل بهم رحمة الله.

تعليق

تنتمي هذه القصيدة إلى فنون أدبية ثلاثة، على الأقل، طغا عليها الهجاء، في بعض جوانبها. فهناك فن الغزل وفن الفخر وفن الهجاء، وإذا كان الأول قد ورد كمقدمة، فإن الفنانين الآخرين جاءوا متلازمين متداخلين.

تعدُّ القصيدة من مطولات جرير، وهي بائية من بحر الوافر تقع في 114 بيتاً. استهلها الشاعر بمقدمة غزلية بعد تمهيد يخاطب فيه عاذلة موهومة، لا تزال تردعه عما هو مقيم عليه. ويباشر الغزل بوصف ما يكابده من نار العذاب، فصاحبه لا تواصله، بل إنها تواعده وتحلف الوعد. ثم يفخر بمآثره المتعددة في بني قومه ويهجو الفرزدق بحده القين، واستلاب قصائده من الآخرين، ويعود إلى التفاخر بمجده العالي القباب. فقومه يتصدون للملوك بخيلهم السريعة وفرسانهم الذين ألفوا سلب الأعداء، وكما فخر ببني قومه، فإنه يهجو قوم الفرزدق الموسومين بالغدر والريبة ليعود إلى التنديد بخصمه الفرزدق في خزيه بين القبائل واغتيابه للناس، ويفخر بشجاعته، فهو ينقض على الشعراء بقصائده الصاعقة، وينحدر على بني نمر كالبازي فيجعلهم أشلاء. ويلعن النمريريين أحياء وأمواتاً، ويستخف بعقولهم ويصفهم بالحقاقة، ومن ثمة، بالعار. وينهي القصيدة بيت ماثور في الفخر.

المبحث الرابع

موازنة بين الأخطل والفرزدق وجريـر

أولاً: في الموضوعات الشعرية

يتفوق الأخطل على صاحبيه في المديح، فكان شاعر بني أمية وعبد الملك بن مروان على وجه الخصوص، ويجوّد مدائحه فيهم وينوّع في معانيها، معتمداً على عناصر جاهلية، وكان الأقدمون يشعرون بمدى إفادته من هذه العناصر، فأبو عبيدة يقول: إنّ الأخطل أشبه الثلاثة بالجاهلية⁽¹⁾، فهو يُشبه عبد الملك بالفرات في الجود والعطاء، ويُضفي أجواء الملحمة والأسطورة على بطولته، ويضيف إليها طرافة جديدة، دون أن يغفل بعض العناصر الإسلامية، حين يرى بني أمية أجدر الناس بالخلافة ويسوّغ شرعية انتقالها إليهم. وهو يُعلي من شأن نفسه وقومه في نفوس ممدوحيه ولا يتحرّج من أن يذكر فضل قومه عليهم.

أما جرير فيخلع على ممدوحيه عناصر إسلامية متعددة كإقامة العدل وإقامة الفرائض والحدود، وهو يدافع بحماس عن الأمويين ويؤثرهم على غيرهم، وهو كثيراً ما يريق ماء وجهه في مدائحه، فيجاهر في طلب العطاء في مثل قوله لعبد الملك: أغثني يا فداك أبي وأمي. وأما الفرزدق فهو دونهما منزلة في المديح إذ عُرف بتمرّده وعنجهيته، فكانت مدائحه صورة لنزعة الجاهلية وبيئته الأموية ونفسيته الخاصة.

وإلى جانب تفوق الأخطل في المديح فإنه تقدّم صاحبيه في نعت الخمر ودنانها ونداماها، لكونه نصرانياً أباح لنفسه أن ينفرد فيها، فكان رائداً لهذا الفن في عصره، وقد شاكل الأعشى في صوره وتراكيبه، وذكرها كثيراً في سياق قصائده المدحية.

ويتقدم الفرزدق صاحبيه في فن الفخر، فقد اكتملت لديه الأسباب، وهياته الظروف للتفوق في هذا الفن، والبلوغ فيه الغاية القصوى، فكانت نشأته في تميم بوصفه سيداً، وانتماؤه إلى بيت من أشرف بيوتها، فضلاً عن أن جريراً كان من عشيرة متواضعة، ومن ثم أخذ يشعر بغير قليل من التعالي والغطرسة، من ذلك قوله⁽²⁾:

لنا العزّة الغلباء والعددُ الذي عليه إذا عُدَّ الحصى يُتخلفُ

(1) الأغاني، 8 / 292.

(2) ديوان الفرزدق، 392.

ولا عَزَّ إِلَّا عَزُّنا قاهرٌ له ويسألنا النصفَ الذليلُ فيُنصَفُ
تري الناسَ ما سرنا يسرون خلفنا وإن نحن أوماناً إلى الناسِ وقَّفوا
وهي أبيات تتسم بفخامة الألفاظ التي توحى بمعاني الشموخ والرفعة والإباء، ومن
هذا الطراز قوله⁽¹⁾:

الأكثرُونَ إذا يُعَدُّ حِصاهُمْ والأكرمُونَ إذا يُعَدُّ الأولُ
حُلُّ الملوكِ لباسُنا في أهلنا والسابغاتِ إلى الوغى نتسربلُ
أحلامُنا تَزُنُ الجبالَ رِزانةً وتخالُّنا جِنًّا إذا ما نَجْهَلُ
فادفعْ بكفِّكَ إن أردتَ بِنائِنا ثهلانَ ذا الهضباتِ هل يتحلحلُ

فهو يسرف في هذا الفخر ويتعالى على جرير ويبلغ شأواً بعيداً في غطرسته.
وكان جرير يكتفي بالفخر بنفسه وشاعريته، وإذا افتخر بآبائه لم يكن موازياً للفرزدق،
ولكنه إذا افتخر بتميم بَدَّ الشعراء جميعاً، وله في ذلك البيت المشهور⁽²⁾:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضاباً

وأما الأخطل فقد اصطبغ فخره بالسياسة، فكان يفتخر بقومه الذين قدّموا خدمات
لبنى أمية، في حين كان يفتخر بهم للدفاع عن كرم أصله وطيب عنصره، دون أن يبلغ شأو
الفرزدق في ذلك.

وإذا انتقلنا إلى الهجاء بنوعيه: الشخصي والاجتماعي وقارناً بين الثلاثة وجدنا جريراً
أشدَّ عنفاً من صاحبيه في الهجاء الشخصي فهو «يشبه الطائر الجارح حين ينقض على
فريسته، يريد أن لا يُبقي فيها شيئاً»⁽³⁾، لمقدرته على التهكم والسخرية، إذ يجعل مهجّوه
أضحكة ويصوّره تصويراً كاريكاتيرياً، في مثل قوله⁽⁴⁾:

زعمَ الفرزدقُ أن سيقتلُ مرَبَعاً أبشُرُ بطولِ سلامةٍ يا مرَبَعُ

(1) ديوان الفرزدق، 491.

(2) ديوان جرير، 832/2.

(3) شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 209.

(4) ديوان جرير، 916/2.

وقوله⁽¹⁾:

خدوا كُحلاً ومجمرةً وعطراً فلستم يا فرزدق بالرجال
وكانت أهاجيه تشيع بين الناس وينقلها الرواة إلى كل مكان. وكثيراً ما يلجأ إلى
السباب والشتائم وهتك الأعراض، فكان يُفحش في هجاء «جعثن» أخت الفرزدق، ومن ثم
كان الفرزدق يُنتقع لون وجهه حين يقول له قائل: «إن جريراً أنشد اليوم في المريد
قصيدة»⁽²⁾، ذلك أنه كان يخشى لسانه.

وفي المقابل كان الفرزدق يتفوق عليه في الهجاء الاجتماعي، فكان يهجو بضعة أصله
وأن أباه كان يرعى الحمير في مثل قوله⁽³⁾:

إنا لنضربُ رأسَ كل قبيلةٍ وأبوك خلف أتانِه يتقمّلُ
وشغلت عن حَسَب الكرام وما بنوا إنَّ اللثيمَ عن المكارمِ يُشغلُ
إني ارتفعتُ عليك كل ثنيةٍ وعلوت فوق بني كليبٍ من علٍ
هلاً سألت بني غُدانة ما رأوا حيث الأتانُ إلى عمودك تُرحلُ
ولم يكن الأخطل ندأً لجرير في فن الهجاء، وقد تهاجى الشاعران إثر انخياز الأخطل
للفرزدق، وطلب قوم الفرزدق منه أن يُفضله عليه وأن يسبّه، فقال:

اخسأ إليك كليبُ إنَّ مُجاشعاً وأبا الفوارس نهشلاً أخوانِ
قوم إذ خطرْتُ عليك قرومهم جعلوك بين كلاكلي وجرانِ
وإذا وضعت أباك في ميزانهم رجحوا وشال أبوك في الميزانِ

فقال جرير:

يا ذا العباية إنَّ بشراً قد قضى أن لا تجوزَ حكومة النشوانِ
واستطارَ الهجاء بين الشاعرين، وقد أذكته الخصومات القبلية، فكان الأخطل لسان
قومه تغلب، في حين اتخذت قيس في المريد جريراً لسانها.

(1) ديوان جرير، 2/ 550.

(2) طبقات فحول الشعراء، ص 86.

(3) ديوان الفرزدق، ص 493 و 495.

وإذا تركنا فن الهجاء إلى فن الغزل، ووازناً بين الثلاثة وجدنا جريراً يسبق صاحبيه، وليس ذلك لتفوقه في هذا الفن وإنما لأنهما كانا متخلفين عنه ؛ فالفرزدق كان غليظ الطبع، ولم تكن فيه رقة، وقد أطال النقاد في عيب قوله:

فيا ليتنا كنا بعيرين لا نرد على منهلٍ إلا نُشِلُّ ونُقذفُ
كلانا به عَرٌّ يخافُ قِرافه على الناسِ مطليُّ المساعرِ أخشفُ⁽¹⁾

فابن رشيق يرى ذلك من الأماني غير المقبولة، كلها للحيوان الناطق، لولا أنه ردها إلى نفسه حقيقة⁽²⁾. وبذلك جاء خياله مصنوعاً متكلفاً، لا يستقيم مع الغزل.

واستخف ابن الأثير كثيراً بما تمناه الفرزدق في البيتين السابقين فقال: هذا رجل ذهب عقله حين نظم هذين البيتين. فإن مراده منهما التغزل بمحبوبه، وقد قصر تمنيه على أن يكون هو ومحبوبه كبعيرين أجريين، لا يقربهما أحد ولا يقربان أحداً إلا طردهما، وهذا من الأماني السخيفة⁽³⁾.

وأما الأخطل فكان متكلفاً في غزله، ولما أدركته الشيخوخة أخذ يشكو ضعفه وقلة حيلته، وقعوده حسيراً في درب الغانيات، إذ يقول:

أعرضن لما حنى قوسي مؤثرها وابيض بعد سواد اللمة الشعرُ
ما يرعوين إلى داع لحاجته ولا لهن إلى ذي شية وطَرُ

وأجاد جرير في غزله، فكان أغزل الناس شعراً، واستطاع أن يمزج فيه بين أسلوب الجاهليين وأسلوب العذريين، يُسَعِّفه في ذلك صفاء نفسه وعفتها، ورقة قلبه، وكان غزله صدى النفس الحزينة «لأن الحزن من عادته أن يجلو النفس، ويجلو ما يصدر عنها»⁽⁴⁾. من ذلك أبياته التي أشرنا إليها آنفاً (إن العيون التي في طرفها حور...). وكان الفرزدق يشهد له برقة الشعر، فكان يقول: «ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعري، وأحوجني مع شهواتي إلى رقة شعره»⁽⁵⁾، وتتجلى هذه الرقة المبنية على العفاف في قوله⁽⁶⁾:

(1) العَرَّ: الجراب. القراف: المخالطة. المساعر: أصول الفخذين والإبطين. أخشف: يابس الجلد من الجرب.

(2) ابن رشيق، العمدة، 1 / 126 و 127.

(3) ابن الأثير، المثل السائر، 3 / 180.

(4) التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 211.

(5) الأغاني، 8 / 12.

(6) الديوان، ص 512.

بنفسي مَنْ تَجُبُّهُ عَزِيزٌ عَلَيَّ وَمَنْ زيارثُهُ لِمَامٌ
وَمَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ لَا أَرَاهُ وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَّعَ النِّيَامُ

وتفوق جرير على صاحبيه في الرثاء، وهو فن يصدر عن نفس حزينة، تبكي الميت وتتفجع عليه. فكان من الطبيعي أن يُلَمَّ بهذا الفن، فقد أشربت نفسه الحزن، وصفى جوهرها تأثره العميق بالإسلام. وعدّ مرثيته في زوجه أم حذرة من أروع مرثياته⁽¹⁾، فقد رثاها بقصيدته الجوساء التي تفيض أسى ولوعة، ورثى ابنه سودة رثاء حاراً، إذ يقول⁽²⁾:

قالوا نصيبك من أجرٍ فقلت لهم: كيف العزاء وقد فارقتُ أشبالي
ودعّتي حين كفّ الدّهر من بصري حين صرتُ كعظم الرّمة البالي

أما الفرزدق فلم يكن موفقاً في هذا الفن، فالرثاء يحتل مكاناً متأخراً في شعره، وذلك لجفاء طبعه، وخشونة ألفاظه، وتغلّب نزعة الفخر عليه. ويتنذر الرواة عليه؛ فيقولون إنه حين توفيت زوجته الثّوار لم يجد الناحة شعراً له ينوحون به عليها، فناحوا بشعر جرير الذي رثى به زوجه⁽³⁾.

وكذلك لم يتفوق الأخطل في هذا الفن لافتقاره إلى مقومات الرثاء من وفرة في الشعور وصدق في الإحساس.

وأياً كان الأمر، فقد تميز كل شاعر من الأقطاب الثلاثة بفن من فنون الشعر، فجرير يتفوق في الهجاء الشخصي والغزل والرثاء، والفرزدق يتفوق في الفخر والهجاء الاجتماعي، والأخطل يتفوق في المديح ونعت الخمر.

ثانياً: اللغة

تفاوتت لغة شعراء النقائض، فإنها ترقّ وتسلسل في شعر جرير، وكأنه «يغرف من بحر»، فلا يعتمد إلى صقل شعره وتنقيحه كالأخطل ولا إلى النحت كالفرزدق، ولكنه مثلهما يوغل في البداوة حين يتحدث عن يوم من أيام قبيلته في الجاهلية. وقد عرّضته هذه السهولة في النظم للوقوع في اللحن، في مثل قوله: «حورٌ تغلّلن العبير روادعاً»⁽⁴⁾، فلفظة «تغلّلن»

(1) انظر ترجمة جرير.

(2) الديوان، ص 430.

(3) انظر: المرزباني، الموشح، ص 116.

(4) الزخشي، أساس البلاغة، ص 454.

عامية - كما ورد عن ابن دريد - والصواب: غلاها وغللها. وفي قوله: «كما تقاذف في اليمّ المرازيب»⁽¹⁾، فلفظة «المرازيب» عامية، والصواب «الميازيب». ولكن مثل هذه الأخطاء قليلة في شعره، ذلك أنه ملك ناصية اللغة وأبدع في فصيحها، ولعلّ جانباً من هذه الأخطاء يعود إلى أغاليط الرواة.

لقد كان جرير مدينة الشعر، ونبعاً يتدفق، فكانت إيقاعاته بعيدة عن التعقيد والالتواء، وإنما كانت عذبة قريبة إلى النفوس، وهو ما أدركه خصمه اللدود الفرزدق، فقد وصفه وصفاً دقيقاً، بقوله: «إني وإياه لنغترف من بحرٍ واحدٍ، وتضطرب دلاؤه عند طول النهر»⁽²⁾، فالشعر يستجيب له ولا يتعسر عليه.

وأما الفرزدق فكانت لغته جزلة، وكأنه «ينحت من صخر». وتميّز بمعرفته الدقيقة بألفاظ اللغة، وتمكنه من حشد قدر هائل منها في شعره، مما جعله يحظى بعناية اللغويين والنحاة، ويستلّون منه الشواهد، فقد بعث في شعره كثيراً من الألفاظ الجاهلية التي كادت تندثر، وكذلك تراءت في شعره ألفاظ وصيغ غريبة، أسعفته في جمعها ذاكرة قوية، وقدرة على فهم أسرار اللغة.

وكل من يقرأ شواهد النادر الغريب التي أتى بها علماء اللغة في كتبهم ومعاجهم يشعر أن لغته تمتاز بكثير من هذه الألفاظ الغريبة، من ذلك قوله:

حُوسَاتِ الْعِشَاءِ خُبْعُنَاتِ إِذَا النَّكْبَاءُ رَوَّاحَتِ الشُّمَالَا⁽³⁾

فقد حار علماء اللغة في «حُوسَاتِ»، قال ابن السكّيت: إبل حوس بطيئة التحرك في مرعاها، وإبل حوس كثيرات الأكل⁽⁴⁾. وأما كلمة «الخُبْعُنَاتِ» فهي من شوارد اللغة، مفردتها خُبْعُنَةٌ، والخُبْعُنَةُ الناقة الضخمة⁽⁵⁾.

وقوله⁽⁶⁾:

قَدَمَاتٍ فِي أَسَلَاتِنَا أَوْ عَضُّهُ عَضْبُ بَرُونِقِهِ الْمُلُوكُ تُقْتَلُ

(1) انظر: علي بن حمزة، التنبهات على أغاليط الرواة، ص 263.

(2) طبقات فحول الشعراء، ص 87.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 7 / 362. النكباء: الرّيح بين الرّيحين.

(4) م.ن، 5 / 171.

(5) م.ن، 16 / 294.

(6) الأزهرى، تهذيب اللغة، 13 / 75.

فقد جمع الفرزدق الأسل الرّماح أسلات⁽¹⁾، وهو جمع، والأسل الرماح على التشبيه في اعتداله وطوله.

وامتلات أشعاره بكثير من الشذوذ والالتواء، فقد أورد النحاة بعض الشواذ النحوية من شعره، ووجدوا أنها تخالف القياس والأحكام النحوية الكلية العامة، وعدّوها كلاماً خارجاً على اللسان العربي، ومخالفاً للمألوف عند العرب، وبيته الملتوي المعقد في مديح إبراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك مُداول بين اللغويين، إذ يقول⁽²⁾:

وما مثله في الناس إلا مُملَكاً أبو أمّه حيُّ أبوه يُقاربه

وهو من «أقبح الضرورة، وأهجن الألفاظ، وأبعد المعاني»⁽³⁾، أتعب النحاة «بما أوقع فيه من التقديم والتأخير»⁽⁴⁾، وحاولوا شرحه وتأويله دون «أن يبلغوا منه ما يُقنع ويُرضي»⁽⁵⁾، وترتيبه على الوضع السليم «وما مثله (الممدوح) في الناس حيُّ يُقاربه إلا مُملَكاً أبو أمّه أبوه» يريد إلا ملكاً هو هشام بن عبد الملك الذي يشترك معه في الجَد، فهو ابن أخته.

وكان للدكتور إبراهيم أنيس رأي آخر في هذا البيت، إذ قال: «ألست ترى معي أنّ المعاني قد تزاхت في ذهن الفرزدق، فتزاхت الألفاظ واختلط بعضها ببعض، وقد شغل عنها وتملّكته العاطفة وسيطرت عليه الفكرة، فلم يعبأ بنظام الكلمات على النحو المألوف للناس»⁽⁶⁾. ولكن هذا الانفعال أدّى إلى التعقيد والإبهام والغموض، ولم يُفض إلى إحساس بالجمال، ومن ثمّ «فإنه يبقى فاسداً لنظم غامض المعنى، ثقیل الإيقاع»⁽⁷⁾. والأمثلة في ذلك كثيرة.

(1) الأزهری، تهذیب اللغة، 75/13.

(2) الفارقي، الإفصاح، ص 361.

(3) المبرّد، الكامل، 1 / 28.

(4) م.ن.

(5) المرزباني، الموشح، ص 104.

(6) من أسرار اللغة، ص 347.

(7) أحمد مطلوب، بحوث لغوية، ص 57.

ومن هنا جاءت إيقاعاته صلبة خشنة، وكثيراً ما يجد فيها صعوبة وعتناً والتواء تحول بينه وبين ما يريد، وأقرّ الفرزدق بذلك، إذ يقول: «أنا عند تميم أشعر تميم، ولربما أتت عليّ ساعة، ونزغ ضرسٍ عليّ أسهل من قول بيت»⁽¹⁾.

وأما الأخطل فكانت لغته جزلة مصقولة، فهو لا ينقاد في شعره إلى تدفق الطبع وحده، وإنما يهذب قصيدته ويراجعها، ويُنقح عبارتها. وهو يعد من عبيد الشعر، فقد أخذ عن المدرسة الأوسية طريقة التشبيه، وقد قالوا إنه صنع إحدى قصائده في حول كامل⁽²⁾؛ مما جعل اللغويين يلاحظون أنه أكثر الثلاثة عدد قصائد طوال جيد، ليس فيها فحش ولا سقط⁽³⁾، على نحو ما يلقانا في قصيدته «خفّ القطين» التي تناولناها آنفاً.

وقد أحكمت صناعتها في مثل قوله في بني أمية⁽⁴⁾:

حُشِدَ على الحقِّ عَيَّافو الخنا أنفَ إذا أَلَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإنْ تدجَّتْ على الآفاق مظلمةٌ كان لهم مُخرجٌ منها ومُعْتَصِرُ
أعطاهمُ اللهُ جَدّاً يُنصرون به لا جدّاً إلا صغيرٌ بعدُ مُحْتَقِرُ
شمسُ العدوّةِ حتى يستقاد لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا

وهكذا كانت إيقاعاته شديدة الصلة بالإيقاعات القديمة، فيها الجزالة، ولكن ليس فيها صلابة الفرزدق ولا رقة جرير.

أما من حيث الاستعمال القرآني في شعر الفرزدق فنظفر فيه بما يدل على تأثره بالفاظ القرآن ومعانيه تأثراً أصيلاً، كقوله⁽⁵⁾:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

من قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) ﴿رَفَعَ سَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (٢٨) [النازعات: 27-28].

(1) الشعر والشعراء، ص 19.

(2) الأغاني، 8/ 387.

(3) م. ن، 8/ 311.

(4) ديوان الأخطل، ص 98 وما بعدها.

(5) ديوان الفرزدق، ص 489.

وقوله⁽¹⁾:

ولست بما أخوذ بلغو تقول له إذا لم تعمّد عاقدات العزائم
من قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ
حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 225].

وقوله⁽²⁾:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل
أراد به قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41].
وقوله⁽³⁾:

دعوت الذي سوى السموات أيده والله أدنى من وريدي والطف
فالشر الأول من قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا يَأْتِيهِنَّ﴾ [الذاريات: 47]، والشر الثاني من
قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16].
وقوله⁽⁴⁾:

وكان جريراً على قومه كبكر ثمود لها الأنكد
رغار غوة بمناياهم فصاروا رماداً مع الرمّد
فجرير في شؤمه على قومه يشبه شؤم ناقة ثمود، وهي صورة اقتبسها الفرزدق من
قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَعْتَابَنَا وَعِدْنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ [الأعراف: 77-78].
واقبس جرير كثيراً من الآيات الكريمة، فلا تكاد تخلو قصيدة من الألفاظ والمعاني
القرآنية، ففي قوله⁽⁵⁾:

(1) ديوان الفرزدق، ص 611.

(2) م. ن.، ص 490.

(3) م. ن.، ص 385.

(4) نقائض جرير والفرزدق، 3 / 696.

(5) ديوان جرير، ص 16. والبيّن: الناحية من الأرض.

غدث هوج الرياح مبشرات إلى بين نزلت به السحايا

نظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ (١٦) ﴿[الروم: 46].
وفي قوله (1):

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لِعَزَّةٍ من أعراضنا ما استحلت

نظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (٤) ﴿[النساء: 4].
وفي قوله (2):

وقال الناس: ضلّ ضلالاً ئيم ألم يك فيهم رجل رشيد

نظر إلى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (٧٨) ﴿[هود: 78].
وفي قوله (3):

بنى لهم رواسي شامخات وعالي الله ذروته فطالا

نظر إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ (٢٧) ﴿[المرسلات: 27].
وفي قوله (4):

ومن أزواج فاكهة ونخل يكون بحمله طلع نصيد

نظر إلى قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ وَنَخْلٍ وَكُنُوزٌ مِمَّا يَنْصُدُّ﴾ (١٠) ﴿[الرحمن: 52]، وقوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلُ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ (١٠) ﴿[ق: 10].

ومن التراكيب القرآنية التي أكثر من استعمالها بشكل لافت: «ألم تر أن» في مثل قوله (5):

ألم تر أن الله أخزى مجاشعاً إذا ضم أفواج الحجيج المعرف

إذ نظر إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (١٩) ﴿[إبراهيم: 19].

(1) ديوان جرير، ص 88.

(2) م. ن، ص 164.

(3) م. ن، ص 413.

(4) م. ن، ص 150.

(5) م. ن، ص 376.

وأفاد الأخطل وهو شاعر نصراني من الألفاظ القرآنية، في أبيات معدودة، كقوله (1):

ولما رأى الرحمن أن ليس فيهم رشيداً، ولا ناهٍ أخاه عن العذر

إذ اقتبس من الآية الكريمة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِ مَنْكَرٍ رَجُلٍ رَشِيدٍ﴾ (٧٨) [هود: 78]، فضلاً عن استعماله لفظة «الرحمن» وهي لفظة قرآنية.

ولعل تقصير الأخطل في هذا الجانب يعود إلى كونه نصرانياً، لم تنهياً له ثقافة إسلامية. وكان جرير يتصدى له من هذه الناحية، فالرواة يُحدثون عنه أنه قال: «أعنتُ على الأخطل بكفره» (2).

ثالثاً: سيرورة الشعر

يتميز شعر جرير بالسيرورة بين الرواة والناس، وكان الفرزدق نفسه يشعر بذلك، فيقول: ما أشرد قافيته! (3). وكان الأخطل يشعر شعوره، فقد روى الرواة أنه اجتمع يوماً مع الفرزدق فقال له: إن جريراً أوتي من سير الشعر ما لم نؤته، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه، فقلت:

قوم إذا استنبح الأضيافُ كلبهمُ قالوا لأهمهم بُولي على النار
فلم يرؤهُ إلا حكماء أهل الشعر، وقال هو:

والتغليُّ إذا تنحنحَ للقرى حكَّ استه وتملُّ الأمثالاً
فلم تبق سقاء ولا أمثالها إلا رَوَّه (4). قال الأصمعي: فحكما له بسيرورة الشعر.

وسأل معاوية بن أبي عمرو بن العلاء ابن سلام: أيُّ البيتين عنده أجود: قول جرير:
ألستم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح
أم قول الأخطل:

شُمسُ العدوِّ حتى يستقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا

(1) ديوان الأخطل، ص 221.

(2) الأغاني، 8 / 299.

(3) م. ن، 8 / 11.

(4) م. ن، 8 / 318.

فقال ابن سلام: بيت جرير أحلى وأسّير، وبيت الأخطل أجزل وأوزن، فقال معاوية لابن سلام: صدقت، وهكذا كانا في أنفسهما عند الخاصة والعامة⁽¹⁾.

فشعر جرير كان أكثر ذيوياً بين الناس وأكثر ألفة بينهم لما فيه من حلاوة اللفظ وجمال النغم، ولأنه يخلو من التكلف، فهو وليد الطبع، فضلاً عن ميله إلى الفكاهة والسخرية، في حين تميز شعر الأخطل برصانة الألفاظ وجزالتها، وكذلك الفرزدق عرف بغلظة شعره وخشونته، فكان ذلك يحول دون انتشار شعرهما بين عامة الناس، إلا أنّ الرواة والنقاد كانوا يُعنون بشعرهما، حتى قالوا: «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة»⁽²⁾.

وأياً كان الأمر، فقد سار هؤلاء الشعراء الثلاثة في ظلال النظام القبلي وانتصار كل منهم لقبيلته، دون أن يخلص لمذهب سياسي عام كشعراء الأحزاب، فكان الأخطل شاعر أمير المؤمنين، وعُرف الفرزدق بتقلبه ونفاقه السياسي، في حين تأثر جرير في موقفه السياسي بتدبير لقمة عيشه وبما رتب له الأمويون من عطاء وقد صرف هؤلاء الشعراء طاقاتهم الشعرية في مهاترات شعرية، وتورطوا في الهجاء المقذع في سياق النقائض التي شغلوا بها الناس زهاء خمسة عقود.

(1) الأغاني، 8 / 305.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 19 / 399.

شعر الغزل

تمهيد

المبحث الأول: الغزل الحضري

المبحث الثاني: عمر بن أبي ربيعة

المبحث الثالث: من غزل عمر بن أبي ربيعة

المبحث الرابع: الغزل العذري

المبحث الخامس: جميل بن معمر

المبحث السادس: من غزل جميل بن معمر

الفصل السادس

شعر الغزل

تمهيد

يُعدّ الغزل من الأعراض المهمة في العصر الأموي، إذ تعدّدت ألوانه، واتسعت اتجاهاته، ومن ثمّ انقسم أقساماً ثلاثة: غزل تقليدي، وغزل حضري (قصصي)، وغزل عذري.

أما الغزل التقليدي فكان امتداداً لمذهب المتقدمين من الجاهليين، فهو يقف عند وصف المرأة أو الحنين إليها. وقد شاع هذا الغزل عند كثير من الشعراء كجرير والفرزدق والأخطل وابن قيس الرقيات وذو الرمة وغيرهم. وقد يأتي هذا الغزل في قصائد مستقلة أو في مقدمات قصائد المديح أو الهجاء.

فتلقانا مقطوعة ابن الدمينه عبد الله بن عبيد الله العامري، التي يحنّ فيها إلى نجد، إذ يقول: ⁽¹⁾.

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد؟	لقد زادني مسراك وجداً على وجد
أن هتفت ورقاء في روثق الضحى	على فنن غصن النبات من الرند
بكيّت كما يبكي الوليد ولم تكن	جزوعاً وأبديت الذي لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا	ملأ وأن النأي يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يُشف ما بنا	على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع	إذا كان من تهوؤه ليس بذی ود

فهذه أبيات تفيض رقة وعذوبة، نلمس فيها أنغماً حزينة، وعاطفة إنسانية نبيلة، ذلك أن الشاعر يبكي لفراق أحبائه، ويحنّ إلى دياره في نجد. ومن هذا المنطلق أخذ ينتظر هبوب ريح الصبا من نجد، فإن مسراها يهزّ وجدانه، ويجعله ينتحب ويبكي كما يبكي الوليد، ومما

(1) انظر: حماسة أبي تمام، 2/ 101-102.

أثر في نفسه وأعماق وجدانه تلك الحمامة وهي تهتف على شجرة الرّند⁽¹⁾. وأخيراً يُعبّر الشاعر عن حَيْرته، لكونه أصبح محروماً ممن يحبّ، سواء على البعد أو القرب.

ومن هذا الطراز الذي يُعبّر عن لواعج الشوق قصيدة الصّمّة بن عبد الله القشيري التي يحنّ فيها إلى محبوبته وإلى ديارها، إذ يقول⁽²⁾ :

حَنَنْتَ إِلَى رِيَا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارِكَ مِنْ رِيَا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا
فَمَا حَسَنْ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ طَائِعاً وَتَجْزِعَ أَنْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ أَسْمَعَا
قِفَا وَدَعَا نَجْدَا وَمَنْ حَلَّ بِالْحِمَى وَقُلْ لِنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُودَّعَا
بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضُ مَا أَطْيَبُ الرُّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمَطَافَ وَالْمُتْرَبْعَا

وتلقانا المقدمات الغزلية، ومنها أبيات جرير التي استهلّ بها قصيدته النونية، إذ يقول⁽³⁾ :

بِأَنَّ الْخَلِيطَ وَلَوْ طَوَّعْتَ مَا بَانَا وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانَا
حَيُّ الْمَنَازِلِ إِذْ لَا نَبْتَغِي بَدَلًا بِالْدَارِ دَارًا وَلَا الْجِرَانِ جِرَانَا
إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَاهُ ثُمَّ لَمْ يَحِينَ قَتْلَانَا

وهكذا كان غزل هؤلاء الشعراء هو غزل العاطفة الصادقة، إذ مزجوا فيه بين الغزل الجاهلي والغزل العذري.

وستنقف في دراستنا للغزل في العصر الأموي عند النوعين الثاني والثالث.

(1) الرّند: شجرة تنبت في سواحل بلاد الشام.

(2) انظر : حماسة أبي تمام (باب النسيب).

(3) ديوان جرير ، 1/ 160.

المبحث الأول

الغزل الحضري

نشأ هذا الغزل في حاضرتي الحجاز مكة والمدينة، وقد تعددت تسمياته، فقد سماه طه حسين بهذا الاسم، وعدَّ عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزليين من أهل الحضر، وهو عنده فن جديد نشأ في هذا العصر ولم يكن موجوداً من قبل⁽¹⁾.

وسمَّاه شوقي ضيف الغزل الصريح؛ لأن الشاعر يصف مغامراته مع فتيات نسيلا لا يتعدَّى اللقاء والمتعة بالحديث، وهو في هذا صريح، ولكنها صراحة لا تنتهي إلى إباحية أو إثم⁽²⁾. وسمَّاه آخرون الغزل العمري نسبة إلى زعيمه ابن أبي ربيعة، والغزل القصصي.

وإذ نشأ هذا الغزل في هاتين الحاضرتين المعروفتين بمكانتهما الدينية في العالم الإسلامي، وحرص أهلها على قيم الفضيلة والدين، فقد فرض ذلك ذوقاً على بيئة الحجاز وشعراء الغزل، ينأى بنفسه عن الفحش والرذيلة، وإن تسامحت معهم في بعض ما بُعد من ظرف الكلام وأخيلة الشعراء ومداعباتهم⁽³⁾.

ومع فتنة أهل الحجاز بغزل عمر بن أبي ربيعة الذي يصف فيه جمال المرأة وحُسنها فقد وُجد من يعارض هذا الغزل الصريح، خشية منه على الأخلاق، كابن جُريج الذي يقول: «ما دخل على العواتق في حجالهنَّ شيء أضرَّ عليهنَّ من شعر ابن أبي ربيعة»⁽⁴⁾؛ ذلك أنه سار على خطا أمرئ القيس، واستكمل عناصر الفن القصصي، في لغة عذبة سائغة، حافلة بالحوار والوصف.

وكذلك تضاربت الآراء في تحليل هذا الغزل، فقد رأى طه حسين أن ظهوره يعود لعوامل سياسية واجتماعية؛ فسياسة الدولة الأموية «حالت بين شباب قريش ومُترفي الحجاز وبين الحياة العامة، وقصرتهم على اللهو والترف، فكان شعر عمر بن أبي ربيعة صورة للشباب الذي يجمع حدة الشعور، ورقة الحس، وذكاء القلب»⁽⁵⁾. وهو رأي يحمل جانباً من

(1) حديث الأربعاء، 2 / 95.

(2) العصر الإسلامي، ص 354.

(3) اتجاهات الشعر، ص 412 و 413.

(4) الأغاني، 1 / 61. والعواتق: جمع عاتق، وهي الشابة التي أدركت وبلغت. والحجال: الستر والخدر.

(5) حديث الأربعاء، 1 / 297.

التعليل، وقد فتن أهل الحجاز بهذا الغزل، لكونه على حد قول طه حسين: «لم يخلص من السذاجة البدوية، ولم يبرأ من تأثير الحضارة»⁽¹⁾.

وترى الدكتورة ابتسام الصفار أن شوقي ضيف بالغ في وصف الحياة العامة في الحجاز في العصر الأموي، وأنه انتزع مكة والمدينة من واقعيهما التاريخي، فصورهما وكأنهما غارقتان في الترف واللهو والنعيم والشباب العاقل اللاهي، وكأنهما قد فرغتاً تماماً للغناء. ويصف الحياة الاجتماعية فيهما في موضع آخر بأن مكة والمدينة تحولتا إلى ما يشبه المسارح الكبيرة⁽²⁾. ففي ذلك مغالاة وإساءة فهم.

وأرجع الدكتور عبد المجيد زراقات شيوع الغناء في مكة والمدينة إلى عوامل نفسية، فرأى أن هو أهل الحجاز كان هرباً، ولذتهم تغطية لآلم، وفرحهم خليطاً لحزن، لما أصاب هاتين المدينتين من الوقعات المتكررة؛ وقعة الحسين، وقعة الحرّة، والقضاء على ابن الزبير، ومن ثمّ كثر التّواح في هذه المصائب، وآية ذلك أنّ ابن سريج قبل أن يغني كان نائحاً، فقد بعثت إليه السيدة سُكينة بنت الحسين بشعر أمرته أن يصوغ فيه لحناً يُناح به، فصاغ فيه، وهو الآن -كما يقول الأصفهاني- داخل في أغانيه:

يا أرضُ ويحكِ أكرمي موتاكِ فلقد ظفّرتِ بسادتي وحُماتي
ويُروى أن الغريض قد علّمته الثّريا التّوح على من قتل يزيد في وقعة الحرّة، وذلك بأن تُسمع النساء المغني غريضاً المراثي فيحتذيها، ويُخرج غناءً عليها كالمراثي. ولم يخلُ عمر ابن أبي ربيعة من معاناة هموم عصره، فقد أصيب بالكثير من رجال قومه مما شَيّب لَمَتَه، وجعله يُخفي من الحزن أكثر مما يُظهر⁽³⁾:

فمثلُ الذي عانيتُ شَيَّبَ لَمَتِي ومثلُ الذي أخفي من الحزن تُكرا
فكم فيهمُ من سيّدٍ قد رُزِيته وذِي شِيبةٍ كالبدْرِ أروعُ أزهرِا
أولئك هم قومي وجدك لا أرى لهم شَبهاً فيمن على الأرضِ معشرا
وأيّاً كان الأمر، فقد انكفأ شعراء الغزل على هذا الشعر الذاتي الذي ينأى بنفسه عن السياسة، وهو غزل تشكّل بفعل هذه العوامل معاً، وأشهر هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة (93هـ) والأحوص (105هـ)، والعرجي (120هـ).

(1) م.ن، 1 / 295.

(2) انظر: آفاق الأدب في العصر الأموي، ص 221.

(3) انظر: م.ن، ص 219.

المبحث الثاني

عمر بن أبي ربيعة (23 - 93 هـ)

حياته

1. مولده ونشأته

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة وكان يكنى بأبي الخطاب، من بني مخزوم، ومخزوم من أُمّية قريش وأعظمها جاهاً وثروة في الجاهلية والإسلام. ولد ليلة استشهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة 23 هـ، وقيل في ذلك: أي حق رُفِعَ وأي باطل وضع. كان أبوه بحير - وقد غيّر الرسول صلى الله عليه وسلم اسمه إلى عبد الله - ذا تجارة واسعة، واستعمله عاملاً على ولاية الجند في اليمن، ولم يزل والياً عليها، حتى توفي في أثناء حصار عثمان رضي الله عنه سنة 35 هـ، إذ سقط عن راحلته قرب مكة.

وكانت أمه سبية يمنية اسمها مجد، قامت على تربيته، سواء في حياة أبيه أو بعد مماته، مما كان له أثر عميق في نفسه، إذ نشأ مدلاً، وكان جميلاً فأولعت به، وبالغت في الاعتناء به، وقيل: إن أمه كانت نصرانية. ولقد تزوج عمر من بضع نساء، وكانت كلشم بنت سعد المخزومية إحدى هاته النساء، ولها من عمر ولدان أحدهما اسمه جوان والثاني لا نعرف عنه شيئاً، أما جوان فقد نشأ نشأة صالحة وعرف بحسن السيرة، ومن البنات كان لعمر بنت يقال لها (أمة الواحد) وفيها يقول وقد خرج يطلبها، فضلاً الطريق:

لم تدرِ وليغفر لها ربُّها ما جشمتنا أمةً الواحدِ

ويرى شوقي ضيف أن عمر شاعر مكّي، وليس من أهل المدينة كما ذكر جبرائيل جبور في كتابه «عمر بن أبي ربيعة»: حياته وشعره ⁽¹⁾. إلا أنه كان يختلف إلى هاتين المدينتين.

2. الشباب اللاهبي

نشأ عمر - كما مر بنا آنفاً - على الترف وحوله الجوّاري والأرقاء، يوفرون له أسباب اللهو. وكان المغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن مسجح وابن سريج والغريض، يلزمونه ويغنون أشعاره. وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة فإذا مغنوها ومغنياتها من مثل معبد وجميلة يغنونه في شعره.

(1) انظر شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 350.

ومن ثمّ انصرف إلى الغزل وذكر النساء، ليجد فيه منفذاً لإظهار شخصيته، وبطولاته، وتفردّه، فكان فعلاً كما قال: مولعاً بالجمال يتبعه ⁽¹⁾، فكانت أحبّ الأيام لديه موسم الحج حيث كان يتزين بأحسن الثياب، ويتعطر، ثم يتصدى لكل فتاة جميلة بمكة، وخاصة الثريا بنت علي الأموية، فنسمعه يقول:

يقصدُ الناس للطواف احتساباً ودُنوبي مجموعة في الطوافِ

وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل سكينه بنت الحسين وزينب الجمحية، ومن ثم يصف ترفهن وما كن فيه من نعيم، كقوله:

يرفُلنَ في مطرقاتِ السُّوسِ آونةً وفي العتيق من الدِّياجِ والقَصَبِ ⁽²⁾

تري عليهن حلّي الدرّ متسقاً مع الزبرجد والياقوت كالشهبِ

قال الهيثم بن عدي: قدمت امرأة مكة وكانت من أجل النساء، فبينما عمر بن أبي ربيعة يطوف، إذ نظر إليها ف وقعت في قلبه، فدنا منها فكلمها، فلم تلتفت إليه. فلما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها، فقالت له: إليك عني يا هذا، فإنك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمه، فألحَّ عليها يكلمها حتى خافت أن يشهرها. فلما كان في الليلة الأخرى قالت لأخيها: اخرج معي يا أخي فأرني المناسك، فإني لست أعرفها، فأقبلت وهو معها، فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها، فنظر إلى أخيها معها فعدل عنها، فتمثلت المرأة بقول النابغة:

تعدو الذئاب على من لا كلابَ له وتتقي مريضَ المستنفرِ الحامي ⁽³⁾

توبته ووفاته

انقطع عمر في أواخر حياته عن اللهو والطيش، ونسك، ولكن نفسه ظلت مرحة جذابة محببة إلى الناس، وله أبيات يذكر فيها إعراض النساء عنه منها ⁽⁴⁾:

رأين الغواني الشيبَ لاح بعارضي فأعرضنَ عني بالحدودِ التواضِرِ

وكنَ إذا أبصرني أو سمعني سعينَ فرقعنَ الكوى بالمحاجرِ

(1) الأغاني، 1 / 88.

(2) السوس: مدينة في المغرب.

(3) اللديوان، ص 130. وفي رواية أخرى: وتتقي صولة المستأسد الحامي

(4) انظر: الأغاني، 1 / 61 وما بعدها.

ولعل موته من أخفى ما في تاريخه، والروايات متعددة ومضطربة في ذلك. فقبل نفاه عمر بن عبد العزيز إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر، فغزا بالبحر فأحرقوا سفينته فاحترق. ولا شك أن هذا من انتحال الرواة. وأغلب الظن أنه مات من مرض في اليمن، وكان موته سنة 711م / 93هـ.

عمر بن أبي ربيعة شاعر المرأة

1. محلها في شعره: للمرأة، ولا سيما الشريفة التي من طبقتها، محل واسع في ديوان ابن أبي ربيعة، فقد قصر نفسه على الغزل دون غيره من فنون الشعر. وفي هذا الصدد روى صاحب الأغاني أن سليمان بن عبد الملك قال له: «ما يمنعك من مدحنا؟ فقال: إني لا أمدح الرجال، إنما أمدح النساء»⁽¹⁾.

وفي المقابل كانت المرأة ترغب في هذا المدح فتعرض له وكانت تغضب إذا لم يشب بها. ويرى شوقي ضيف أن هذا الإقبال يرجع إلى عوامل منها وجود الجوّاري الأجنبية في قصرها، ومنها خروج الشباب من وطنهم للغزو والجهاد⁽²⁾.

2. موضوعات وصفه: تناول وصف المرأة من الناحيتين الخارجية والنفسية. فعمد في الناحية الأولى إلى الأوصاف والتشبيهات التقليدية، فوصفه لا يتجاوز القيم الجمالية العامة في الجاهلية، إذ اتخذ مقياساً جمالياً موحداً، فهي ممتلئة الأرداف، نحيلة الخصر، وهي كالصبح أو الشمس أو القمر في البهاء، والكثيب والغضن في الامتلاء والاستقامة والمرونة، والأقحوان المنور حين تبتسم.

ومن قوله: ⁽³⁾

خَوَذَ تَضِيءَ ظِلَامِ الْبَيْتِ صَوْرَتَهَا كَمَا يَضِيءُ ظِلَامَ الْخِنْدَسِ الْقَمَرُ⁽⁴⁾
مَجْدُولَةُ الْخَلْقِ، لَمْ تَوْضِعْ مَنَاقِبَهَا مَلَأَ الْعِنَاقَ، الْوَفَّ، جِيْهَهَا عَطِرُ⁽⁵⁾
مَمْكُورَةُ السَّاقِ، مَقْصُومٌ خَلَاخُلُهَا فَمُشْبَعٌ نُسِبٌ مِنْهَا، وَمُنْكَسِرُ⁽⁶⁾

(1) انظر: الأغاني، 9 / 239 وما بعدها.

(2) انظر: شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 225.

(3) الديوان، ص 134.

(4) خَوَذَ: شَابَّةٌ جَمِيلَةٌ. الْخِنْدَسُ: اللَّيْلُ الْمَظْلَمُ.

(5) مَجْدُولَةُ الْخَلْقِ: مُحْكَمَةُ الْبَنِيَّةِ. لَمْ تَوْضِعْ مَنَاقِبَهَا: لَمْ تَهْبِطْ أَكْتَافَهَا.

(6) مَمْكُورَةُ: مُسْتَدِيرَةٌ. مَقْصُومٌ خَلَاخُلُهَا: أَيِ تَشَقَّ خَلَاخُلُهَا لِسَمَنِ سَاقِهَا.

هيفاء لفاء، مصقول عوارضها تكاذ، من ثقل الأرداف تنبتر
تفتر عن واضح الأناب متسيق عذب المقبل، مصقول، له أشر⁽¹⁾
وعمد في الناحية الثانية إلى نفسية المرأة، فمثل أخلاقها، وأساليبها في الحديث،
وحركاتها في مختلف مواقفها، ولا سيما في مجالس اللهو. على أن المرأة في هذا العصر ظلت
تحتفظ بحجاب من الوقار، لا تضيق فيه بما يقال فيها من غزل، وبذلك نفهم إقبالها على هذا
الغزل.

فنه

لعمر بن أبي ربيعة ديوان ضخم يشتمل على بضعة آلاف بيت من الشعر كلها في
الغزل، إلا أبياتاً متفرقة في الفخر والوصف. أراد عمر بن أبي ربيعة أن يكون شعره رسالة
إلى صاحباته فيها وصف، وقصص، وحوار، ومعابة، أو نشيداً من أناشيد الحب يغني به ابن
سريع والغريض مغنياً الشاعر. وتميز فنه بما يلي:

1. تصوير حب المرأة له

تحدث عمر عن نفسه وعشق المرأة له، فالنساء يُفتنُّ به، ويتصددين له، ويتنهزن كل
فرصة للقاءه، ويُشرن له باليد حيناً، وبالعين حيناً، وهو في كل ذلك لا يُعنى ولا يلتفت دلالاً
وتيهياً، وإعجاباً بنفسه وبجماله. وقد عرف معاصروه ذلك، ففي أخباره أنه أنشد ابن أبي
عتيق قوله:

بينما ينعتنني أبصرني دُون قِيدِ الميلِ يعدو بي الأغر⁽²⁾

قالت الكبرى: أتعرفن الفتى؟ قالت الوسطى: نعم هذا عمر!

قالت الصغرى: وقد تيمّتها: قد عرفناه، وهل يخفى القمر؟!

فقال له ابن أبي عتيق: أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك، كان ينبغي أن تقول:
قلت لها: فقلت لي، فوضعت خدي، فوطئت عليه⁽³⁾.

(1) الأشر: بياض الأسنان وتحريزها.

(2) ينعتنني، يصفني بما فيه من حسن. قيد الميل: مقداره. الأغر: من الخيل ما كان له غرة أي بياض في
جبهته.

(3) الأغاني، 1 / 118.

ووجد شوقي ضيف أنه قد عبّر في هذا الغزل عن تطور جديد في الحياة العربية، ف«كانت المرأة قبل غزل ابن أبي ربيعة هي المعشوقة، أما في غزله فقد تحولت إلى عاشقة، كما تحول عمر نفسه من عاشق إلى معشوق»⁽¹⁾.

وتبعه في ذلك شكري فيصل، وذكر أن الشاعر كان يفخر بذلك، ويتلذذ بذكره في مواطن من شعره، «فهنّ اللواتي يرسلن إليه الرسل، وهنّ اللواتي يخرجن إليه ويغامرن من أجله، ويدعون له بأن يحفظه الله وأن يجيره حاضراً ومسافراً، وأن يرده إليهنّ، وما أكثر ما أشدن بجماله، وأعجبين بشبابه، وتمتّين موافقته في ساعة صفاء...»⁽²⁾.

ويرى عبد القادر القط أن في هذا الكلام تضخيماً، ذلك «أن الحديث عن تلك اللقاءات كان شيئاً مألوفاً، حتى عند العذريين أنفسهم، إذا ما أتيح لهم على هذا النحو، وقد نجد عندهم -على اختلاف في الدرجة- ما نجده عند عمر من إعجاب بنفسه أو تصوير لإعجاب النساء به»⁽³⁾.

من ذلك قول جميل⁽⁴⁾:

إني، عشية رُحْتُ، وهي حزينه تشكو إليّ صباةً، لصبورُ
وتقول: بتْ عندي، فديتك ليلة أشكو إليك، فإنّ ذاك يسيرُ
ويصف إحدى مغامراته فيقول⁽⁵⁾:

ولستُ بناسٍ أهلها حين أقبلوا وجالوا علينا بالسيوف وطوفوا
وقوال: جميلٌ بات في الحيّ عندها وقد جرّدوا أسيافهم، ثم وقفوا
ويتحدث عن لقاء جملة من النساء⁽⁶⁾:

وببيض غريراتٍ يُثني خصوصها إذا قُمن، أعجازٌ ثقالٌ وأسوقُ
غرائرٌ لم يعرفنَ بؤسَ معيشةٍ يُجنُّ بهنّ الناظر المتنوّقُ

(1) التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 250.

(2) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص 389.

(3) في الشعر الإسلامي والأموي، ص 198.

(4) ديوان جميل، ص 60.

(5) م.ن، ص 31.

(6) م.ن، ص 34.

ولا شك في أن جيلاً كان على شاكلة عمر في هذه الناحية، وأنهما كانا يلتقيان في مكة ويتناشدان الأشعار إلا أنه لم يبلغ شأوه سواء في مغامراته أو في إعجابه بنفسه، ومن ثم لا نستطيع أن نعمّم هذه الظاهرة على شعراء الغزل العذري جميعاً. وهو ما ذهب إليه الدكتور طه حسين إذ يقول: «رأينا أن عمر لم يكن عُذرياً، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين، وإنما كان عملياً يلتمس الحب في الأرض لا في السماء، ورأينا كذلك أنه لم يكن يذهب في حبه مذهب أصحاب المجون من شعراء العصر العباسي، فلم يكن يسرف في العبث وإنما كان يقتصد اقتصاداً ويتورّط في حبه تورّطاً، فيعفّ كثيراً ويعبث قليلاً. وكانت ظروف حياته نفسها تكرر على العفة، لأنه لم يدع امرأة شريفة من قريش إلا شَبَّ بها، وما كان له أن يتجاوز العفة في هذا التشبب...»⁽¹⁾.

ونخرج من ذلك كله إلى أن عمر كان مفتوناً بجمال المرأة، وأنه كان يتبعها في كل مكان، يتحرّش بها في مواسم الحج، ويزورها خلصة في غياهب الليل يدفعه إلى ذلك افتنان النساء به، وتنافسهنّ فيه، ورغبتهنّ في أن يتغزل بهن، وإظهار غزله على الملأ. ولكنه في الوقت نفسه كان يباهنّ حباً بحب، وكان يزداد إليهن شوقاً، إذ يقول:

وَقَرَّبَ أَسْبَابَ الْهَوَى لِمَتِّمْ يَمِيس ذِرَاعاً كَلِمَا قِسْنِ إَصْبَعَا

وقد يرثي المرأة في سياق عاطفته اتجاهها، فقد رثى زوجة المختار بن عبيد الثقفي التي قتلها مصعب بن الزبير لأسباب سياسية، ذلك أن المرأة الجميلة لم تُخلق للقتل وإنما كُتِبَ القتل والقتال على الرجال وحدهم، فنسمعه يقول⁽²⁾:

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدِي قَتْلُ حَسَنَاءَ غَادَةٍ عَطْبُولٍ⁽³⁾

قُتِلَتْ بَاطِلاً عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ إِنَّ اللَّهَ دَرَّهَا مِنْ قَتِيلٍ!

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَايَاتِ جَرُّ الدُّيُولِ

ونراه أحياناً يلهج بصبابته وجهه وما يذوق من وجد وألم، على نحو ما نرى في قوله:

يَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى حُبِّي لَكُمْ وَدَمُوعِي شَاهِدٌ لِي وَالْحَزَنُ

قُلْتُ: يَا سَيِّدَتِي عَذَّبْتَنِي قَالَتْ: اللَّهُمَّ عَذِّبْنِي إِذْ

(1) حديث الأربعاء، 1 / 314.

(2) العقد الفريد، 4 / 407. وانظر: ديوان عمر، ص 498.

(3) العطبُول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق.

وكقوله:

لَيْتَ هِنْدًا أَهْجَزْنَا مَا تُعِيدُ وَشَفْتُ أَنْفُسَنَا مِمَّا تُجِيدُ
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ
حَدَّثُونَا أَنَّهُ لِيَ ثَقُفْتُ عُقْدًا يَا حَبِذَا تِلْكَ الْعُقْدُ
كَلَّمَا قُلْتُ مَتَى مِيعَادُنَا ضَحَكَتْ هِنْدٌ وَقَالَتْ بَعْدَ غَدِ

وهي أبيات من دالية مشهورة تُعدُّ من أروع شعره، قالها في هند بنت الحارث المرية. واستطاع أن يبرز عاطفة الحب عند المرأة باستخدام تقنيات السرد والحوار والوصف.

2. تبادل الرسائل بينه وبين محبوباته

وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب، وقد تبعه فيه العباسيون، من ذلك ما كتبه إلى الثريا:

كَتَبْتُ إِلَيْكَ مِنْ بِلَدِي كِتَابَ مُؤَلِّهِ كَمَدِ
يُورِقُهُ لَهَيْبُ الشُّو قَ بَيْنَ السَّخْرِ وَالْكَبَدِ
فِي مِسْكَ قَلْبِهِ يَبِيدُ وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ يَبِيدُ

3. الحوار القصصي

وهذا الحوار معروف في الأدب الجاهلي، إلا أن ابن أبي ربيعة قصد إلى ذلك قصداً وجعله قوام فنه الشعري. ونراه يعمد أحياناً إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحه على نحو ما نعرف في قصيدته الرائية في نغم (الثريا).

4. الموسيقى الشعرية

الموسيقا في شعر عمر كثيرة الأنغام، تتصاعد من حسن اختيار البحور والقوافي، وكان بالقرب منه ابن سريج والغريض يساعدانه بما يترنمان به من شعره إذ ارتبط غزله بالغناء. وهناك مُسَلِّمة شاعت على ألسنة الباحثين، هي أن عمر أكثر من استعمل الأوزان الخفيفة التي لا تحتاج إلى جهد من المغني، وأنه أكثر من المجزوءات وذلك ليهيئ للمغنين فرصة غناء قصائده وتطويعها لألحانهم⁽¹⁾. وقد ناقش عبد القادر القط هذه المسألة وأثبت بطلانها من

(1) شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 60.

خلال الدراسة التطبيقية لشعر عمر المغني، وعلى إحصاء عدد البحور الشائعة في ديوانه، وخلصتها:

أ. وجود قصائد من البحور القديمة نصّ القدماء على ورودها مغناة في ألحان المغنين المعروفين في عصر عمر، مما يدل على أن الخفة والسهولة أمر «يرجع إلى تركيب موسيقا البيت المعتمد على طبيعة العبارة والصورة الشعرية، وتركيب الحروف والأصوات وتتابعها في نسق واحد»⁽¹⁾. لا فرق في ذلك بين الأوزان الخفيفة والأوزان الطويلة.

ب. إن الشاعر استخدم إحدى وأربعين مقطوعة من الأوزان المجزوءة من مجموع مقطوعات الإحصاء وقصائده، وعددها أربعمائة وست وعشرون أي ما لا يكاد يبلغ عشرة في المائة من مجموع شعر الشاعر⁽²⁾، وذلك نقيض قول الدكتور شوقي ضيف «وتكثر هذه المجزوءات في شعر عمر كثرة مفرطة»⁽³⁾.

مثل هذا يدل على أن المغنين كانوا يتخيرون من شعر عمر ما يصلح للغناء والتلحين وما يتناسب مع طبيعة أصواتهم وألحانهم.

أثره وانتشار شعره

1. كان عمر مجدداً في كونه قصر الشعر على الغزل ونظم فيه القصائد المستقلة، ووسع نطاق القصص والحوار بحيث فاق امرأ القيس.
2. أجاد في تصوير عواطف المرأة وإن كان ذلك التصوير لا يسبر الأغوار العميقة، وأجاد في وصف أحوال النساء في بيوتهن، ذلك أنه تغزل في نساء متعدّدات، ولم يكتفِ بالغزل بوحدة.
3. أجاد في تليين الأوزان لتوافق الغناء الجديد.
4. تصوير طبقة من الناس المترفين، وإسراف المرأة في العبث، وميلها إلى الأدب، واستلطافها أن يقال فيها الشعر.

(1) عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، ص 246.

(2) م.ن، ص 252.

(3) التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص 60.

وقصارى القول فإنَّ العرب ما أقرت لقريش بالشعر إلا مع عمر؛ لأنه كان على ما أجمع عليه الأدباء «أغزل الشعراء، وأدخلهم شعراً في النفس، وأسحروهم للنساء»⁽¹⁾، فكان شعره خطراً شديداً على العفاف.

وكذلك كان هشام بن عروة يدرك مدى خطورة شعر عمر على أخلاق الفتيات، إذ يقول: «لا تُرووا فتياتكم شعر عمر بن أبي ربيعة لا يتورطن في الزنا تورطاً»⁽²⁾. وعندما سمع الفرزدق شيئاً من نسيب عمر قال: «هذا والله الذي أرادته الشعراء. فأخطأته، وبكت عليه الديار»⁽³⁾. ومن هذا المنطلق ذهب طه حسين إلى أن عمر بن أبي ربيعة هو «زعيم الغزليين في الأدب العربي كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربي إلى الآن»⁽⁴⁾.

(1) انظر: حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص 263.

(2) انظر: م.ن، 1 / 72 وما بعدها.

(3) م.ن، 1 / 90.

(4) طه حسين، حديث الأربعاء، 2 / 127.

المبحث الثالث

من غزل عمر بن أبي ربيعة

أمن آل ناعم⁽¹⁾

أمن آل ناعم أنت غادٍ فمُبَكَّرُ غداة غد أم رائحٌ فمُهَجَّرُ⁽²⁾
 حاجة نفس لم تقل في جوابها فتبَلَّغْ عذراً والمقالة تُعَذَّرُ⁽³⁾
 تهيمُ إلى ناعم فلا الشملُ جامعٌ ولا الحبُّ موصولٌ ولا القلبُ مُقْصَرُ⁽⁴⁾
 ولا قُربُ ناعمٍ إن دنت لك نافعٌ ولا نأيها يُسلي ولا أنت تصبرُ
 إذا زرت نِعَمًا لم يزل ذو قرابةٍ لها، كلما لاقيتها، يتمرُّ⁽⁵⁾
 عزيزٌ عليه أن أَلَمَ بيتها يُسرُّ لي الشحاء والبُغضَ مظهرُ

وليلةٍ ذي دورانٍ جِشْمَتِي السُّرَى وقد يَجْشَمُ الهولُ الحبُّ المَعْرُ⁽⁶⁾
 فبتُ رقيباً للرفاق على شفا أحاذرُ منهم من يطوفُ، وأنظرُ⁽⁷⁾
 فلما فقدتُ الصوتَ منهم وأطفئتُ مصابيحُ شُبَّتْ بالعِشاءِ وأنورُ⁽⁸⁾
 وغابَ قَمِيرٌ كنت أرجو غيوبه وروحُ رُعيانٍ، ونومٌ سُمُرُ
 وخَفُضَ عني الصوتُ أقبلتُ مشيةً الـ حُبَابِ وشخصي خشيةً الحي أزورُ⁽⁹⁾

(1) قال جرير وقد سمع هذه القصيدة: «ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر»، ابن عبد ربه، العقد الفريد، 5 / 385. وانظر هذه القصيدة وشرحها في الكامل للمبرد ص 381 وما بعدها.

(2) الغادي: السائر صباحاً. الراح: السائر مساءً. المهجر: السائر ظهراً.

(3) تعذر: تبلغ العذر.

(4) الشمل: ما تفرق من الأمر وما اجتمع منه وهنا يقصد المعنى الأول. مقصر: ممتنع.

(5) يتمر: يغضب ويثور متشبهاً بالنمر.

(6) ذو دوران: موضع. جسم: كلف. السرى: السير في الليل. المغرر: الذي يغمر بنفسه، أي يعرضها للهلاك.

(7) الشفا: حرف الشيء وحده، ولعله يعني: شفا المرتفع، وبث على شفا: أي على حذر.

(8) شُبَّتْ: اتقدت. الأنور: النيران.

(9) الحُبَاب: الحية. أزور: مائل.

فحييتُ إذ فاجأتها فتولّهتُ وكادتُ بمكنونِ الثّحيةِ تجهرُ⁽¹⁾

وقالت، وعضّت بالبنان: فضحتني! وأنت امرؤ ميسورُ أمرٍك أعسرُ
فوالله ما أدري أتعجيلُ حاجةٍ سرت بك، أم قد نامَ من كُنتَ تحذرُ
فقلت لها: بل قادني الشوقُ والهوى إليك، وما نفسٌ من الناسِ تُشعرُ
فقالَت، وقد لانت وأفرخَ روعُها: كلاكَ يحفظُ ربُّكَ المتكبرُ⁽²⁾
فأنت، أبا الخطاب، غيرُ مدافعٍ عليّ أميرٌ، ما مكثتَ مؤمراً⁽³⁾
فيالكَ من ليلٍ تقاصرُ طوْلُه وما كان ليلى، قبل ذلك، يقصرُ
ويا لك من ملهىٍ هناك، ومجلسٍ لنا، لم يكدره علينا مُكدرُ

يمحُ ذكيّ المسكِ منها مُقبِلُ نقي الثنايا، ذو غروب، مؤشّر⁽⁴⁾
تراه، إذا ما افترّ عنه كأنه حصي برِدٍ أو أفحوانٌ مُنور⁽⁵⁾
وترنو بعينها إليّ، كما رنا إلى ظبية، وسطَ الخميّلة جُوذر⁽⁶⁾

فلما تقضى الليل إلا أقله وكادت ئوالي نجمه تتغورُ
أشارت بأن الحيّ قد حان منهم هبوبٌ، ولكن موعدَ لك عزور⁽⁷⁾
فما راعي إلا مُنادٍ: ترخلوا!! وقد لاح معروفٌ من الصّبحِ أشقر⁽⁸⁾

(1) تولّعت: حزنت حزناً شديداً وخافت.

(2) أفرخ روعها: ذهب خوفها. وأفرخ روعها: هدا قلبها. كلاك: أي حرسك.

(3) غير مدافع: غير مزاحم. مؤمر: لك الأمر.

(4) يمح: يرمي. المقبل: الفم. الغروب: جمع الغرب، وهو كثرة الريق. المؤشر: الذي حزنت أطرافه أسنانه.

(5) المنور: الذي فيه زهر.

(6) الخميّلة: الشجر الكثيف الملتف. الجُوذر: ولد البقرة الوحشية.

(7) عزور: اسم موضع.

(8) معروف من الصبح: تباشير الصباح.

فلما رأت مَنْ قد تنبّه منهم وأيقاظهم، قالت: أشرُ كيف تأمر؟
 فقلت: أباديهم، فإما أفوئهم وإما ينال السيفُ ثاراً فيثأر⁽¹⁾
 فقالت: اتحققاً لما قال كاشح علينا، وتصديقاً لما كان يؤثر⁽²⁾؟
 فإن كان ما لا بُدَّ منه، فغيره من الأمر أدنى للخفاء وأسترُ
 أقصرُ على أخيَّ بدءَ حديثنا ومالي من أن تعلمَا متأخراً
 لعلهما أن تطلبَا لك مخرجاً وأن ترحبا سرباً بما كنتُ أحصِرُ⁽³⁾
 فقامت كئيهاً، ليس في وجهها دمٌ من الحزن تُذري عبَرةً تتحدّرُ⁽⁴⁾
 فقالت لأختيها: أعيناً على فتى أتى زائراً، والأمرُ للأمرِ يُقدّرُ⁽⁵⁾
 فأقبلتا، فارتاعتا، ثم قالتا: أقلي عليك اللومَ، فالخطبُ أيسرُ⁽⁶⁾
 فقالت لها الصغرى: سأعطيه مطرفي ودرعي، وهذا البردُ، إن كان يحذّرُ⁽⁷⁾
 يقومُ فيمشي بيننا مُتكرراً فلا سرُّنا يفشو، ولا هو يظهرُ
 فكان مجئني دون من كنتُ أثقي ثلاثُ شخوص: كاعبان ومُعصِرُ⁽⁸⁾
 فلما أجزنا ساحةَ الحيّ قلن لي: أما تتقي الأعداءَ والليلُ مُقمرُ
 وقلن: أهذا دأبك الدهرُ سادراً؟ أما تستحي؟ أو ترعوي؟ أو تُفكرُ؟⁽⁹⁾
 إذا جنتَ فامنح طرفَ عينيكَ غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظرُ

- (1) أباديهم: أبارزهم. أفوقهم: أسبقهم.
- (2) الكاشح: العدو الذي يبطن العداوة. يؤثر: يعرف.
- (3) سرباً: صدرأ. أحصر: أضيق.
- (4) ليس في وجهها دم: كناية عن خوفها. تذري: تذرف.
- (5) يقدر: يدبر.
- (6) أقلي عليك اللوم: خففي عنك.
- (7) المطرف: رداء من خز. البرد: ثوب مخطط. الدرع: قميص أو ثوب تلبسه المرأة في بيتها.
- (8) المجن: الترس. الكاعب: الفتاة التي نهذ صدرها. المعصر: المرأة المدركة.
- (9) دأبك: عادتك. السادر: غير المبالي. ترعوي: ترجع وتكف عن الغي والجهل والضلالة.

تحليل القصيدة

تعدّ قصيدة عمر بن أبي ربيعة «أمن آل نعم» من أشهر قصائده التي لاقت اهتماماً ووقف عندها الباحثون والدارسون. وقد سُميت بمغامرة «ذي دوران» وهو الموضع الذي دارت فيه أحداث القصيدة.

والقصيدة طويلة تقع في خمسة وسبعين بيتاً، تتسم بالوحدة الموضوعية لكونها تدور حول زيارة قام بها لإحدى صاحباته، واسمها الثريا بنت علي، واستعار لها اسماً آخر هو «نعم»، وقدمها في إطار قصصي يتسم بالإثارة والتشويق، فاستهلها بمقدمة غنائية في ذكر أمره مع «نعم»، بين إقبال وإدبار، وقرب ونأي، يحول بينهما الأعداء والأقارب، ثم يسرد ما جرى له ليلة ذي دوران، إذ يدلّف إليها بعد أن غاب القمر وأطفئت الأنوار، فتفاجأ بهذه الزيارة، ويتسلل الخوف إليها، ولا تلبث أن تُسلم قيادها له وتقبل عليه، ثم يصفها في أبيات، وأخيراً يعرض لأمر خروجه، فنراه يتدثر رداءً نسائياً، وترافقه شقيقاتها، ليدو الأمر طبيعياً، وكان شيئاً لم يكن.

بنية النص ومساره

• (الأبيات 1-6)

المطلع وجداني، فيه لهفة الحنين والنداء البعيد، يبدأ بالاستفهام متغنياً بـ «نعم» ويُردد اسمها غير مرة، ويتوسّل إليها بكثير من الضمائر التي تعود إليها، معبراً عن شوقه وعذابه مخالفاً ما شاع عنه. ويذكر أنها امرأة مُنعمّة، يُحيط بها ذو قرابة قد يكون أخاً أو ابن عم، يتربّص به ويحقد عليه، وهو إذ يُخفي اسمها، فلأنه يخاف عليها الفضيحة.

• (الأبيات 7-12)

ويروي عمر قصته مع «نعم» في أبيات مشوبة بالشجن، يستهلّها بقوله: «وليلة ذوي دوران». فهو يجدد زمن الزيارة أولاً، ثم يُصوّر فيها جوّ المغامرة، فيتحدث عن الأحوال التي تجشمها، ووقوفه متربّصاً مراقباً ديارها بعد طول رحلته، وينقلنا إلى مشهد الانتظار الذي يتمثل فيه الهدوء الذي يلفّ المكان، حيث هجع الرعيان، وغاب القمر، وأطفئت المصابيح. ومن ثمّ يصور سيره إليها ليشبه حاله بحال الثعبان المنساب، حتى إذا وصل فاجأ «نعماً» بتحيته.

• (الآيات 13-19)

ويبدأ مشهد آخر يرسم لنا فيه ملامح «نعم» مستبطناً نفسيته، فهي إذ رآته أظهرت ولهاً به، ولكنها عضّت على بنانها من هول الموقف وخشية انكشاف أمرها، ولا تلبث أن يزول عنها الخوف، ويجري بينهما حوار، يُعنى فيه بتحليل نفسيته ونفسية صاحبه «نعم»، فتدعو له الله أن يحفظه، وتُصرّح له بحبها، وأنه أمير قلبها. لكن هذا المشهد سرعان ما ينتهي، ويبقى الشاعر وحده على المسرح، لينشدنا غنائية ييوح فيها بوجْد النفس، فيقف ليصفها.

• (الآيات 20-22)

ولم تعد «نعم» سوى امرأة تقليدية من مثيلات ليلي، وهند، وفاطمة، وزينب، وخولة، في عقبها وجمال فمها وثناياها، فهي تتضوّع بالمسك، وتغرّها مفلج تفرّ عنه كالأقحوان المزهري. أما إذا التفتت فهي ترنو بعينين شبيهتين بعيني الجوّذر الذي يلتفت إلى قطع البقر الوحشي. ومن ثم بدت آياته امتداداً للجاهلي القديم في الأموي الجديد، وكأنها بعث لأشياء تكاد تذوي أو تموت. ولا نعدم أن نجد مثل هذا الوصف في أشعار العذريين بعامة وفي وصف جميل لبثينة بخاصّة.

• (الآيات 23-29)

ويلقانا مشهد آخر، تبدأ أحداثه مع انبلاج الفجر، ووقوف الشاعر وصاحبه وجهاً لوجه، فتسأله: ماذا سيفعل؟ ويشير عليها بأن يبرز بسيفه، فلما أن ينجو وإما أن يثأر أهلها منه. أما هي فلم توافقه، خشية الفضيحة، وتختار حلاً آخر لنجاته مستعينة بمشورة أختين لها. وتظهر على المسرح شخصيتان أخريان، إنهما الأختان اللتان لجأت إليهما «نعم»، والدموع في عينيها، فترتاغان أولاً، ثم تقترحان أن يخرج من الحي متنكراً بزيّ إحداهما. ويلفتنا في ختام هذا المشهد قوله على لسان الأختين:

وقلن: أهذا دأبك الدهر سادراً ألا تستحي أو ترعوي أو تُفكّر؟

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يحسبوا أنّ الهوى حيث تنظر

فهما تلومانه على غيّه وضلاله، في حين تحذره صاحبه من الزيارة مرة أخرى لثلا يُفتضح أمرهما، وتنصحه بالآ يتظاهر بالموّدة لها، وإنما أن يمنح طرفه لغيرها، تمويهاً لمن حولهما.

طبائع الأسلوب

يخرج عمر بن أبي ربيعة في هذه القصيدة على النسق الذي عُرف به في أشعاره الغزلية، والتي كان يتحدث فيها عن نفسه بوصفه معشوقاً لا عاشقاً، وأن المرأة هي التي كانت تُفصح له عن مشاعرها إزاءه. أما في هذه القصيدة فيبدو معنياً بإظهار حبه للمرأة على نحو ما نلقاه في الأبيات الأولى، إذ يبدي شغفه بصاحبتة «نعم»، ويتغنى بها، ويذكرها أربع مرات، فضلاً عن توسله إليها بكثير من الضمائر.

والشاعر في هذه القصيدة ليس ظلاً لامرئ القيس، وإنما تلقف منه هذا الفن القصصي، فصور مثله اقتحامه لليل والأهوال في سبيل الوصول إلى المحبوبة، ولكن الاختلاف يقوم بينهما، فامرؤ القيس شاعر مغامر يجري وراء إشباع لذائذه مع نساء متزوجات وغزله معلن في الفحش والمجون، في حين يكتفي عمر بقاء صاحبتة والمتعة بحديثها.

وكذلك تفرغ عمر لفن الغزل، وقلّد فيه وجدّد، فقصيدته الغزلية استقلت بنفسها، وتألّفت أجزاؤها في وحدة موضوعية، كما أن ألفاظه رقت واعذوذبت، وبدأت أبياته مشحونة بالشجن والذهول. ومن هنا فقد رأى عبد القادر القط «أن عمر قد تجاوز صنيع امرئ القيس إلى شكل جديد اتخذ صورة الظاهرة في شعره حتى ليتمكن أن ينسب إليه مهما تكن أصوله الأولى في الجاهلية أو الإسلام»⁽¹⁾.

أساليب التجسيد

وقد ترددت أساليبه على المقومات الآتية:

1. الوصف: وقد ألمّ به في وصف صاحبتة «نعم» على نحو ما أشرنا إليه آنفاً، وفي بعض الأبيات الأخرى، كوصفه لتباشير الصباح في قوله:

فما راعني إلا مُنادٍ: ترخّلوا! وقد لاح معروف من الصُّبح أشقرُ

ووصف شحوبها وحزنها:

فقامت كئيباً، ليس في وجهها دمٌ من الحزن يُذري عبرةً تتحدّرُ

2. السرد: تقوم قصيدة عمر على أسلوب قصصي، الذي ينقل به الأحداث من مشهد لآخر، حبك فيه القصة حبكاً، يبعث على الإثارة والتشويق، حتى تبلغ الأحداث ذروتها،

(1) في الشعر الإسلامي والأموي، ص 237.

ثم ينقلنا إلى الحل. واستهله بقوله: «وليلة ذي دوران» وأقام على ذلك في مشاهد عدة (الأبيات 7-12) وفي الأبيات (24-27) والأبيات الأخيرة.

واستطاع عمر أن يولد الصراع في قصيدته، بدءاً من المشهد الذي يصف فيه جو المغامرة حتى انبلاج الفجر وظهور خيوطه. وتتنامى الأحداث حتى تبلغ الذروة، حين تظهر خيوط الفجر وتتنبه أصوات الحي، وتفزع «نعم» إلى صاحبها وتسأله: ماذا سيفعل؟ ثم يأتي الحل على يدي الأختين.

3. الحوار: وجاء الحوار في سياق أسلوبه القصصي، إذ يسد مكانه ويتولد منه، وقد يُجرّبه مع النفس، أو مع صاحبه، أو مع الأختين وقد توسّل فيه الفعل «فقلت»، «فقلت». بحيث طغت الواقعية على الحوار، فبدأ مألوفاً.

4. الواقعية: وهي كما أشرنا آنفاً تقوم على المقومات السابقة من وصف وسرد وحوار، وتقوم على عنصري المكان والزمان، بحيث تسير الأحداث سيراً طبيعياً، فهو يحدد المكان في قوله:

ولكن موعدك حَزَزَ
فبت رقيقاً على شفاً

وكذلك الزمان في قوله:

وليلة _____ ذي دوران
فلما تقضى الليل

5. الصور البيانية: كالكناية في قوله: الحبل موصول، والتشبيه في مثل قوله: أقبلت مشية الحُباب، كأنه حصى برَدٍ، أو أقحوان منور.

6. الاستفهام: استعمله الشاعر في غير موضع، فقد افتتح به قصيدته إذ جرّد من نفسه شخصاً آخر يخاطبه، ويضعنا في صلب موضوعه الذي يتحدث عنه. وفي قول نعم: أشر كيف تأمر؟ للتدليل على تولّوها به، وفي قول الأختين له: أهذا دأبك الدهر سادراً؟ أما تستحي؟ أو ترعوي؟ أو تفكر؟ ونلمس في هذه الاستفهامات الحدة والانفعال، وقصدتا به اللوم والتعنيف.

7. الموسيقى

- أ. الموسيقى الخارجية (الوزن والقافية): جاءت القصيدة على وزن البحر الطويل، وهو من أكثر البحور دوراناً في ديوان عمر بن أبي ربيعة، وهو من البحور التي يميل إليها المغنون والمغنيات. وجاء الروي على الراء المضمومة.
- ب. الموسيقى الداخلية: تقوم على تألف الحروف، وسهولة الألفاظ وعذوبتها، والعاطفة الصادقة.

المبحث الرابع

الغزل العذري

وهو غزل يُنسب إلى قبيلة عذرة إحدى قبائل قُضاعة التي كانت تنزل في وادي القرى شمالي الحجاز، وصفه ياقوت بأنه «وادي جميل، فيه نخيل، ومياهه جارية»⁽¹⁾. وشاع أيضاً في بوادي نجد والحجاز، حيث اجتمع الحرمان والفقر، وكانت نتيجة ذلك نغمة زهد أو ميل إلى المثل العليا، وكان هذا الميل دينياً من جهة وغزلاً عفيفاً من جهة أخرى. وأشهر أصحابه:

- جميل بن معمر، صاحب بئينة.
- وتوبة بن الحمير، عاشق ليلي الأخيلية.
- وقيس بن الملوّح، صاحب ليلي.
- وقيس بن ذريح، صاحب لبنى.
- وكثير، صاحب عزة.

على أن بواكير هذا الشعر بدأت منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فكان عروة بن حزام وصاحبه عفراء «أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى، ولا يُعرف له شعر إلا في عفراء بنت عمّه»⁽²⁾. وهو عذري من قبيلة عذرة. ومن غزله الذي يتسم باللوعة قوله:

تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْرَاءَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ وَلَا لِلْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ يَدَانِ

كَأَنَّ قَطَاةً عُلِّقَتْ بِجَنَاحِهَا عَلَى كَبْدِي، مِنْ شِدَّةِ الْخَفَقَانِ!

وقد وقف الباحثون عند عوامل نشأة هذا الغزل، من دينية وخلقية، ونفسية، أو سياسية، أو حضارية.

فطه حسين يرى أن السياسة الأموية أدت إلى نشوء هذا الغزل في الحجاز، إذ انطوى الناس على أنفسهم بعد انتقال السلطة إلى الشام، ومن ثمّ «كان أهل مكة والمدينة يائسين،

(1) معجم البلدان، مادة (قرى).

(2) الأغاني، 2 / 152.

ولكنهم كانوا أغنياء فلهوا كما يلهو كل يائس. وكان أهل البادية الحجازية يائسين، ولكنهم كانوا فقراء لم يُتَح لهم اللهو، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية، وقد تأثروا بالإسلام والقرآن خاصة، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص، وليس بالبدوي الخالص، ولكن فيه سذاجة بدوية وفيه رقة إسلامية⁽¹⁾.

أما شوقي ضيف فيفسر الغزل العذري بوصفه ظاهرة عامة، تعود إلى ما أدخله الإسلام في نفوس أهل البادية، فظهر نفوسهم، وبرأها من كل إثم، فكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة، ولا ما ينطوي عليها من هو وعبث، وكانت بداوتها تعصمها مما يشوب الحب من ماذيات، فتسامت نفوسهم بهذا الحب العفيف الذي يصلى المحب بناره ويستقرّ بين أحشائه⁽²⁾.

ويحاول شكري فيصل أن يجمع بين الرأيين السابقين ففي رأيه أن الغزل العذري قد نشأ بدافع من التقوى الإسلامية، وبتأثير من مفهوم الحب في الإسلام وارتباطه بالعفة، إذ يقول: «فالغزل العذري تعبير عن وضع طائفة من المسلمين كانت تتحرّج وتذهب مذهب التقى وتؤثر السلامة على المغامرة والمخاطرة، ولذلك عدلت عن شهواتها، فكانت مثلاً واضحاً للتربية الإسلامية في سموها وتعاليتها»⁽³⁾.

وذهب عمر فروخ في تفسير هذه الظاهرة مذهباً غريباً، فردّها إلى ضعف الشخصية، فالشاعر العذري ناقص الرجولة لا يستطيع أن يكون كالشعراء المغامرين قادراً على التمتع بالحياة الطبيعية تمتعاً تاماً. وهو رأي غير سليم تفنّده الأخبار التاريخية، فقد علمنا أن قبيلة عذرة «كانت في محط الجيوش إذ انتقلت بين الشام والعراق»⁽⁴⁾. ومن يتتبع أحوال هؤلاء الشعراء يجد أن بعضهم قد جمع إلى صدق الحب لوناً من الفروسية، كالذي يروى عن جميل وترصد أهل بئينة له ليقتلوه، إذ يقول:

فليت رجلاً فيك قد نذروا دمي وهموا بقتلي يا بئين، لقوني
إذا ما رأوني طالعاً من ثينة يقولون: من هذا؟ وقد عرفوني

(1) حديث الأربعاء، 1 / 190.

(2) انظر: العصر الإسلامي، ص 359.

(3) انظر: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص 232.

(4) العقد، المجموعة الكاملة، 16 / 292.

فلما عجزوا عن إيقافه عند حدّه، ذهبوا إلى السلطان شاكين، فيهدر دمه إن عاد إلى بيوتهم ثانية، أو تعرّض إلى ابتهم. ولكنه ظل يزورها حتى بعد أن تزوّجت في بيت زوجها حفية فشكوه إلى أمير وادي القرى، فأهدر دمه. إن ألم بأبياتها، فكان يصعد بالليل على قور⁽¹⁾ يتنسم الريح من نحو حي بثينة ويقول:

أيا ريحَ الشّمال، أما تريني أهيمُ، وإنني بادي النّحول!
هي لي نسمةً من ريحِ بَثْنِ ومُنّي بالهبوب على جميل
وقولي يا بثينةُ حسبُ نفسي قليلُك، أو أقلُّ من القليل⁽²⁾

ويرى الدكتور عبد القادر القط أن هذه الظاهرة لا تعود إلى أسباب دينية وخلقية بقدر ما ترجع إلى عوامل ترتبط بتقاليد المجتمع العربي وقيمه حينذاك فيما يتصل بعلاقة الرجل والمرأة⁽³⁾.

وهو رأي تؤيده وقائع هؤلاء الشعراء وأحوالهم، ذلك أنه لم يكن للعوامل الدينية سوى تهذيب النفوس، وغرس التقوى والعفة فيهم، وقد أوجدت المبادئ في نفوسهم أملاً بلقاء المحبوبة في الآخرة، فكانت تمنياتهم تجسد عالم الفرار في هذه النفوس التي ألمها الفراق، وأصابها اليأس من لقاء المحبوبة. وهو ما نلمسه في قول عروة⁽⁴⁾:

وإنني لأهوى الحشر إذ قيل إنني وعفراء يوم الحشر ملتقيان
وهو أثر نلمسه في شعر العباس بن الأحنف الشاعر العباسي الذي يعد امتداداً لشعراء الغزل العذري، إذ يقول⁽⁵⁾:

وأنتِ من الدنيا نصيبي فإن أمتُ فليتك من حور الجنان نصيبي
ولم يقتصر الأثر الإسلامي على لقاء المحبوبة في الآخرة، يوم الحشر، وقد ضمن له ولصاحبه الجنة، وإنما امتدّ إلى معان إسلامية أخرى، كالجهاد، من قبيل الصبر على الحب، في قول جميل بثينة⁽⁶⁾:

(1) قور: جمع قارة، أكمة، مرتفع من الأرض.

(2) الأغاني، 7 / 81.

(3) في الشعر الإسلامي والأموي، 79.

(4) شعر عروة بن حزام، ص 68.

(5) ديوان العباس بن الأحنف، 67.

(6) ديوان جميل بثينة، 68.

يقولون جاهذاً جميلاً بغزوةٍ وأيُّ جهادٍ غيرهنَّ أريدُ
ولورود مثل هذه المعاني في شعر جميل، فقد وُصف بأنه إمام المحبين أو إمام المقصورين
على معشوقة واحدة كما يقول العقاد، تسعفه في ذلك تجربة شعرية «كانت وليدة شاعرية
فذة، وموهبة شعرية أعانها الشاعر بالصقل والتهذيب، والثقافة الشعرية»⁽¹⁾، وليس ذلك
بعجيب في شاعر كان امتداداً لمدرسة أوس بن حجر أستاذ زهير ابن أبي سلمى.

(1) ابتسام الصفار، آفاق الأدب في العصر الأموي، ص 246.

المبحث الخامس

جميل بن مَعْمَر (82هـ - 801م)

هو جميل بن عبد الله بن معمر، ولد في وادي القرى بالحجاز، ونشأ في منازل عذرة. وأخذ يختلف إلى المدينة حيناً، وإلى مكة حيناً آخر، فيلقى ابن أبي ربيعة ويتناشدان الشعر. وينسب جميل إلى مدرسة أوس بن حجر أستاذ زهير المعروفة بمدرسة عبید الشعر، التي تُعنى بتجويد الشعر وصقله.

ويذكر الرواة أبياته الأولى في بُثينة، وقد مرّت به يوماً، فنفرت إبله، فكان بينهما سباب، وملّحت في نظره، وأحبّها، واستدلّوا على ذلك بقوله⁽¹⁾:

وَأَوَّلُ مَا قَادَ الْمَوْدَةَ بَيْنَنَا بَوَادِي بَغِيضٍ يَا بَثِينُ سُبَابُ
وَقُلْتُ لَهَا قَوْلًا فَجَاءَتْ بِمِثْلِهِ لِكُلِّ كَلَامٍ يَا بَثِينُ جَوَابُ

وسواء صحّت هذه الرواية أو كانت من نسج الخيال فإنّ الشاعر هام بها، وعُرف بـ «جميل بثينة» رغم أنه تغزّل بأخريات، بأُمّ الجسير (أخت بثينة)، وليلى، وسُعدى، وأُمّ الجهم، وردت أسماؤهنّ في ديوانه. وقد علمنا أنه انصرف عن التغزل بأُمّ الجسير، ولربما أراد الشاعر أن يُخفي الاسم الحقيقي لمحبوته واختار هذا الأسماء المستعارة على سبيل التعمية على عادة الشعراء العرب من أمثال عمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف. وهو يُصرّح بذلك، فيقول⁽²⁾:

سَأَمْنَحُ طَرَفِي حِينَ الْقَائِكِ غَيْرَكُمْ لَكِي مَا يَرَوْنَ أَنَّ الْهَوَى حَيْثُ أَنْظَرُ
وَأُكْنِي بِأَسْمَاءٍ سِوَاكِ وَأَتَّقِي زِيَارَتَكُمْ وَالْحُبُّ لَا يَتَغَيَّرُ
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا وَاحِدًا بِجَبِيَّةٍ إِذَا خَافَ، يُبْذِي بُغْضَهُ حِينَ يَظْهَرُ

وكانت بثينة تُفصح له عن ضيقها بالواشين والرقباء من أهلها، فكان يلقاها خلصة أو لقاءً خاطفًا، فنسمعه يقول:

أَرَانِي لَا أَلْقَى بَثِينَةَ مَرَّةٍ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا خَائِفًا، أَوْ عَلَى رَحْلِ
أَبَيْتُ مَعَ الْهَلَائِكِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ذُوو فَضْلٍ

(1) ديوان جميل، ص 194.

(2) م.ن، ص 90.

ألا أيها البيتُ الذي حِيلَ دونه بنا أنتَ من بيتٍ! وأهلكَ من أهلٍ
وقالوا: نراها يا جميلُ تبدلتُ وغيرها الواشي، فقلتُ لعلها!
تذكرُ منها القلبُ ما ليس ناسياً ملاحَة قولٍ يومَ قالت، ومعهدا:
فإن كنتَ تهوى أو تريدُ لقاءنا على خلوة، فاضربْ لنا منك موعدا
فقلتُ: ولم أملكُ سوابقَ عبرةٍ أحسنُ من هذي العشيّةِ مقعداً
فقلتُ: أخافُ الكاشحين وأتقي عيوناً من الواشين حوالِيَّ شُهداً
وإذ تمادى الشاعر في هيامه بها، وذاعت أشعاره فيها لم يرضَ عنه أهلها، وهو لا يفتأ يذكرها:

وإني لأرضى من بُثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرتُ بلابلهُ⁽¹⁾
بلا وبأن لا أستطيع وبألّنى وبالأملِ المرجوِّ قد خابَ أملُهُ
وبالنظرة العجلى وبالحولِ تنقضي وأواخرُهُ لا نلتقي وأوائلُهُ

وكانت تلقاه أحياناً في غفلةٍ، وتزرع في نفسه أملاً، ويسعد بها، ولم يلبث أن تقدّم لخطبتها، فردّه أبوها خائباً، لكراهة العرب أن يُزوّجا فتياتهم ممن يتغزلون بهنّ، وزوّجها أبوها من فتى اسمه «بُنية»، ولكنه أخذ يتردّد على بُثينة، ويقول فيها شعراً، فاستعدوا عليه مروان بن الحكم والي المدينة لعهد معاوية، فتوعّده الوالي وأهدر دمه، فاضطر إلى أن يرحل عنها، فذهب إلى اليمن، فالشام، واستقرّ به المقام في مصر حيث مات في حدود سنة 82هـ، إبان ولاية عبد العزيز بن مروان، فبكته بكاءً مرّاً، وقد سمّح زوجها للنساء أن يُعزّينها ويكيّن معها، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن لحقت به.

شعره

عُرف جميل بغزله الذي قاله في بُثينة، وهو غزل عفيف، صادق العاطفة، والشاعر يقيم على حبها برغم الصعوبات التي كانت تواجهه، فيقول:

وأطعت في عواذلاً فهجرتني وعصيتُ فيك، وإن جَهَدُن عواذلي

(1) قرّت: سكنت. البلابل: الوسوس.

وقد أحيا جميل في شعره المشاهد والمواقف المؤثرة، فقد شاع في شعره التفجع والتلهف، وذكر الحزن والدموع والبكاء⁽¹⁾، والخوف من الوشاء والرقباء⁽²⁾. ويكثر الحوار في شعره بينه وبين بثينة.

ويستخدم أساليب إنشائية كالنداء، والتعجب، والاستفهام. أما لغته فتميل إلى الرقة والسهولة، تناسب انسياباً، وتصلح للغناء لما فيها من موسيقا حيّة.

عني الرواة برواية شعره وبخاصة كثير عزة، وتناقل الناس أشعاره، وعُني به مُغنّو مكة والمدينة. ومن هذا المنطلق يمكننا الرد على الدكتور طه حسين الذي شكك في شخصيات شعراء الغزل العذري وفي محبوباتهم وفي أشعارهم، مدللاً على ذلك بما دار حولهم من قصص وأخبار، ومستشهداً بما قاله الجاحظ: «ما ترك الناس شعراً مجهول القائل ذكرت فيه ليلى أو بُنى إلا نسبوه إلى المجنون إلى أو قيس بن ذريح» وبانياً عليه شكّه فيقول: «وتستطيع أن تقول ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر بثينة أو عزة إلا نسبوه إلى جميل أو كثير»⁽³⁾. فهؤلاء الشعراء ليسوا أشباحاً كما توهم الدكتور طه حسين بل لهم جذور في الواقع.

ونراه يوازن بين حاله في شبابه وحاله وقد كبر من خلال الحوار بينه وبين بثينة، فيقول:

وتقولُ بثينةُ لما رأتُ	فنونا من الشعرِ الأحمر ⁽⁴⁾
كبرتَ جميلُ وأودى الشبابُ	فقلتُ: بثينُ ألا فاقصري
أتنسِينِ أيا منّا باللوى	وأيا منّا بذوي الأَجفر ⁽⁵⁾
أما كنتِ أبصرتني مرةً	لياليَ نحنُ بذِي جوهر ⁽⁶⁾
لياليَ أنتم لنا جيرةٌ	ألا تذكرين؟ بلَى فاذكري

(1) انظر: ديوانه، ص 77 و 82.

(2) انظر: م.ن، ص 77 و 82.

(3) انظر: حديث الأربعاء، 1 / 214.

(4) فنونا من الشعر الأحمر: تفاوت لون شعره المصبوغ بالحناء.

(5) اللوى، وذو الأَجفر: اسمان لموضعين.

(6) ذي جوهر: اسم موضع أيضاً.

ولإذ أنا أغيدُ غَضُّ الشبابِ أجرُ الرداءِ مع المئزرِ
ولإذ لَمَّتي كجناحِ الغُرا بِ تطلُّى بالمسكِ والعنبرِ
فغَيَّرَ ذلكَ ما تعلمينَ تغيَّرَ ذا الزمنِ المنكسرِ
وانتِ كلؤلؤةُ المرزبانِ بماءِ شبابكِ لم تُعصري
قريبانِ مربعنا واحداً فكيف كبرتُ ولم تكبري؟!

فهو يقابل صورة بصورة، يبدو في الأولى كبيراً قد أودى شبابه وقد صبغ شعره بالحناء وتراءت منه أفانين. في حين يبدو في الثانية شبابه الغض، تياهاً بهندامه، وقد بان شعره الأسود المضمخ بالمسك والعنبر، وقد شبه شعره بجناح الغراب الأسود إمعاناً في تجميل صورته التي بدت مهتزة في عين بثينة، وكأنه يريد أن يقول لها: إن الزمن قد تغير. أما هي فكانت كلؤلؤة المرزبان، وهي أجمل أنواع اللؤلؤ، وهي صورة ظلت عالقة في ذهنه، وإلا فكيف يكبر هو وتبقى هي على حالها، وكأنه يريد أن يقول لها لقد كبرت أيضاً.

المبحث السادس

من غزل جميل بن معمر

في انتظار بثينة⁽¹⁾

أَلَيْتَ إِيَّامَ الصَّفَاءِ جَدِيدُ وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُثَيْنُ يَعُودُ⁽²⁾
فَنَعْنَى كَمَا كُنَّا نَكُونُ وَأَنْتُمْ صَدِيقٌ، وَإِذَا مَا بُذِلِينَ زَهِيدُ⁽³⁾
وَمَا أُنْسَ مِ الْأَشْيَاءِ لَا أُنْسَ قَوْلَهَا وَقَدْ قَرَّبْتَ نِضْوِي: أَمِصْرَ ثَرِيدُ؟⁽⁴⁾
وَلَا قَوْلَهَا: لَوْلَا الْعَيُونُ الَّتِي تَرَى أَنْتِئِكَ فَاغْدِرْنِي فَدَتِكَ جُدُودُ⁽⁵⁾
خَلِيلِي مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ ظَاهِرُ فَدَمَعِي بِمَا أَخْفَى الْغَدَاةَ شَهِيدُ⁽⁶⁾
أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنَّ رُبَّ عَبْرَةٍ إِذَا الدَّارُ شَطُتْ بَيْنَنَا سَتَرُودُ⁽⁷⁾
إِذَا قُلْتُ: مَا بِي يَا بُثَيْنَةُ قَاتِلِي مِنْ الْوَجْدِ قَالَتْ: ثَابِتٌ وَيَزِيدُ⁽⁸⁾
وَأَنْ قُلْتُ: رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعْشُ بِهِ مَعَ النَّاسِ قَالَتْ: ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ⁽⁹⁾
فَمَا ذَكَرَ الْخُلَّانُ إِلَّا ذَكَرْتُهَا وَلَا الْبُخْلُ إِلَّا قُلْتُ: سَوْفَ تَجُودُ⁽¹⁰⁾

(1) ديوان جميل، ص 61-67، نقلاً عن: نصوص من الأدب الأموي للدكتور حسين عطوان، ص 36 وما بعدها.

(2) الصَّفَاءُ: مُصَافَاةُ الْمَوَدَّةِ، أَي مُصَادَقَتُهَا وَإِمْحَاضُهَا وَإِخْلَاصُهَا. وَتَوَلَّى: أَذْبَرَ وَمَضَى، أَوْ ذَهَبَ وَانْقَضَى.

(3) نَعْنَى: نَعِيشُ. وَبُذِلِينَ: تُعْطِينَ أَوْ تَجُودِينَ. وَزَهِيدٌ: قَلِيلٌ يَسِيرٌ.

(4) قَرَّبْتَ: لَعَلَّهُ يَرِيدُ قَرَّبْتَ إِلَيْهَا، أَي أَذْنَتْ مِنْهَا. وَالنِّضْوُ: الْبَعِيرُ الْمَهْزُولُ. وَيُرْوَى: «وَقَدْ قَرَّبْتَ بُصْرِي» (أُمَالِي الْقَالِي، 1 / 272). وَهُوَ أَجُودُ. وَبُصْرِي: مَوْضِعٌ بِالشَّامِ مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ، وَهِيَ قَصْبَةُ حَوْرَانَ، يَمُرُّ بِهَا السَّائِرُ مِنَ الشَّامِ إِلَى مِصْرَ.

(5) عَذْرَةٌ: قَبْلَ غُلُوبِهِ، وَصَفَحَ عَنْهُ، وَحَقِيقَةُ عَذْرَتٍ: مَحْوَتُ الْإِسَاءَةِ وَطَمَسْتُهَا.

(6) الْوَجْدُ: الْحُزْنُ. وَوَجَدَ بِهِ فِي الْحُبِّ لَا غَيْرَ. وَإِنَّهُ لَيَجِدُ بِفُلَانَةٍ وَجْدًا شَدِيدًا إِذَا كَانَ يَهْوَاهَا وَيُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا.

(7) الْعَبْرَةُ: الدُّنْعَةُ. وَشَطُتْ: بَعُدَتْ. وَتَرُودُ: تَذْهَبُ وَتُجَيِّءُ، أَي تَتَرَدَّدُ وَتَتَحَيَّرُ فِي الْعَيْنِ.

(8) ثَابِتٌ: مَقِيمٌ لَا يَنْتَرِحُ. وَيَزِيدُ: يَنْمُو وَيَكْثُرُ.

(9) بَعِيدٌ: صَعْبٌ غَيْرُ مُمَكِّنٍ.

(10) الْخُلَّانُ: جَمْعُ خَلِيلٍ، وَهُوَ الصَّدِيقُ الْمَخْلَصُ، أَي الَّذِي أَصْنَفَى الْمَوَدَّةَ وَأَصَحَّهَا. وَتَجُودُ: تَبْذُلُ.

- إذا فُكِّرْتُ قالت: قد أدركتُ وُدَّه وما ضَرَّنِي بُخْلٌ، ففَيمَ أجودُ؟⁽¹⁾
 فلا أنا مَرْدودٌ بما جئتُ طالباً ولا حُبُّها فيما يبيدُ⁽²⁾
 جَزْثِكَ الجَوَازِي يا بُئْسَ مَلامَةٌ إذا ما خَلِيلٌ بَانَ وهو حَمِيدُ⁽³⁾
 وقلتُ لها: بَني وَيَيْتَكَ فاعلَمِي مِن الله ميثاقَ لَنَا وعُهودُ⁽⁴⁾
 وَقَدْ كان حُبِّكُمْ طَريفاً وتالِداً وما الحُبُّ إلّا طَارِفٌ وتليدُ⁽⁵⁾
 وإنَّ عَرَوْضَ الوَصْلِ بَني وَيَيْتَها وإن سَهَّلْتَهُ بالْمَنَى لَصَعودُ⁽⁶⁾
 فأفْتَيْتُ عَيْشِي بالتَّظاري نوالِها وأبَلْتُ بِذاك الدَّهْرَ وهو جَدِيدُ⁽⁷⁾
 فَلَيْتَ وُشاةَ النَّاسِ بَني وَيَيْتَها يَذُوفُ لَهم سُمّاً طَماطُمٌ سَوْدُ⁽⁸⁾
 وَلَيْتَ لَهم في كُلِّ مُمَسى وَشارقٍ تُضاعَفُ أَكْبالُ لَهم وقُيودُ⁽⁹⁾
 وَيَحسَبُ نَسوانٌ مِنَ الجَهِلِ أَنِّي إذا جِئتُ، إِيَّاهُنَّ هُنَّ كُنْتُ أريدُ⁽¹⁰⁾

- (1) أدرك الشيء: بلغه وفاز به. والود: الحب. وضره: فعل به ما يكره، أي ساءه وآذاه.
 (2) فلا أنا مردود بما جئت طالباً: يريد أنه يعود خائباً مخذولاً لم يظفر بحاجته. ويبيد: يذهب وينقطع، أي يفتنى.
 (3) جزثك الجوازي: أي أفغالك، أي وجذت جزءاً ما فعلت. وقيل: الجوازي: جمع جازية، مصدر على فاعلة، مثل عافية وراغية وثاغية، بمعنى الجزءاء، أي جريت كما فعلت. والملامة: اللوم، أي العذل. وبان: فارق وارتحل. وحيد: محمود، أي غير مذموم.
 (4) الميثاق: العهد
 (5) الطريف: الجديد الحادث. والتليد: القديم الموروث.
 (6) العروض: الطريق في غرض الجبل في مضييق، ويريد الطريق إلى وصلها. والوصل في الحب: النظر والحديث. وسهلتها: وطأته ومهدته، أي يسرته. والمنى: جمع منية، وهي ما يتمنى الرجل، أي يتشهاه ويريده. وصعود: يشتد صعوده على الراقي، أي يزيقه ويحملة مشقة، يريد أن وصلها صعب عسير.
 (7) أفنيت عيشي: استهلكته حياتي واستنفدتها. والنوال: القبلية واللمسة (انظر ديوان جرير 2: 939، وشرح نقائض جرير والفرزدق 1: 212). وأبلته: جعلته بالياً خلقاً.
 (8) الوشاة: جمع واش، وهو الثمام. ويذوف: يخلط. والسم: السم القاتل، بفتح السين وضمها، والأفصح الضم. والطماطم: جمع طمطم بكسر الطاءين، وهو الأعجم الذي لا يفصح.
 (9) الممسى: المساء. والشارق: وقت شروق الشمس. وتضاعف: تزداد على أصلها، وتجعل مثلية أو أكثر. والأكبال: القيود.
 (10) يحسب: يظن، وهو بكسر السين وفتحها.

- فَأَقْسِمُ طَرْفَ الْعَيْنِ أَنْ يُعْرِفَ الْهَوَىٰ فِي النَّفْسِ بَوْنٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيدٌ⁽¹⁾
 فَأَعْرِضْنِي عَنْ هَوَاكُنَّ مُعْرِضٌ تَمَاحِلَ غِيْطَانٍ بَكْنٌ وَبِيدٌ⁽²⁾
 لِكُلِّ لِقَاءٍ تَلْتَقِيهِ بِشَاشَةٌ وَكُلِّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدٌ⁽³⁾
 عَلِقْتُ الْهَوَىٰ مِنْهَا وَلِيداً فَلَمْ يَزَلْ إِلَى الْيَوْمِ يَنْمِي جُهَاً وَيَزِيدُ⁽⁴⁾
 فَلَوْ تُكْشَفُ الْأَحْشَاءُ صُودِفَ تَحْتَهَا لِيُنْثَةَ حُبِّ طَارِفٍ وَتَلِيدُ⁽⁵⁾
 يُذَكِّرُنِيهَا كُلُّ رِيحٍ مَرِيضَةٍ لَهَا بِالتَّلَاعِ الْقَاوِيَاتِ وَثِيدُ⁽⁶⁾
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِوَادِي الْقُرَى إِنْ لَيْتَ لَسَعِيدُ⁽⁷⁾
 وَهَلْ أَلْقَيْنَ سَعْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً وَمَا رَثَ مِنْ حَبْلِ الصَّفَاءِ جَدِيدُ⁽⁸⁾
 وَقَدْ تَلْتَقِي الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَاسَةٍ وَقَدْ تُطَلَّبُ الْحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ⁽⁹⁾
 وَهَلْ أَزْجُرَنَّ حَرْفاً عَلَاةً شِمْلَةً بِحَرْقِ ثُبَارِهَا سَوَاهِمُ قُودُ⁽¹⁰⁾

- (1) أَقْسِمُ طَرْفَ الْعَيْنِ: أفرقه، أي أصرفه عنها وأنظر إلى غيرها. وَأَنْ يُعْرِفَ الْهَوَى: أي خوف أن يُعْرِفَ الْهَوَى وينكشف أمره. وَالْبَوْنُ: مسافة ما بين الشيتين، أي البُعد بينهما.
 (2) فَأَعْرِضْنِي: أَصْذَنْ وَانْصَرَفْنِي، أي انأينِ وَابْتَعِدْنِي. وَتَمَاحِلَ: بَعْدَ، عَلَى الدُّعَاءِ عَلَيْهِنَّ بِالْبُعْدِ. وَالْغِيْطَانُ: جمع غوطٍ وَغَاظٍ، وَهُوَ الْمُتَسَّعُ مِنَ الْأَرْضِ مَعَ طَمَائِنَةٍ. وَالبِيد: جمع بيدا، وَهِيَ الْفَلَاةُ وَالْمَقَازَةُ لَا شَيْءَ بِهَا.
 (3) الْبَشَاشَةُ: طَلَاةُ الْوَجْهِ. وَالْمَرَادُ التَّلَاقُ الْفَرَحُ بِبَيْئَتِهِ وَالْانْبِسَاطُ إِلَيْهَا وَالْأَنْسُ بِهَا.
 (4) عَلِقْتُ الْهَوَى مِنْهَا: تَعَلَّقْتُ بِهَا، أَي أَحْبَبْتُهَا. وَالْوَلِيدُ: الصَّبِيُّ وَالْغَلَامُ.
 (5) الْأَحْشَاءُ: جمع حشأ، وَهُوَ مَا فِي الْبَطْنِ. وَصُودِفَ: وَجَدَ.
 (6) الرِّيحُ الْمَرِيضَةُ: الضَّعِيفَةُ الْهَبُوبُ. وَالتَّلَاعُ: جمع تلعة، وَهِيَ مَجْرَى الْمَاءِ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي إِلَى بَطْنِ الْأَرْضِ. وَالْقَاوِيَاتِ: الْمُقْفَرَةُ. وَالْوَيْدُ: صَوْتُ الرِّيحِ، وَهُوَ دَوِيُّهَا وَخَفِيفُهَا.
 (7) وَادِي الْقُرَى: هُوَ وَادٍ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ مِنْ أَعْمَالِ الْمَدِينَةِ كَثِيرِ الْقُرَى.
 (8) رَثَ: خَلَقَ وَبَلَّى.
 (9) تَلْتَقِي الْأَهْوَاءُ: تَجْتَمِعُ الْعَوَاطِفُ وَالرَّغَبَاتُ وَتَتَفَقَّقُ. وَالْيَاسَةُ: اسْمُ مَرَّةٍ مِنَ الْيَاسِ، وَهُوَ الْقَنُوطُ وَفَقْدَانُ الرِّجَاءِ.
 (10) زَجَرَ النَّاقَةَ: نَهَزَهَا وَحَثَّهَا عَلَى السَّيْرِ. وَالْحَرْفُ مِنَ الْإِبِلِ: التَّجْبِيَةُ الْمَاضِيَةُ الَّتِي تُضَيِّتُهَا الْأَسْفَارُ، شُبِّهَتْ بِحَرْفِ السَّيْفِ فِي مَضَائِهَا وَنَجَائِهَا وَدَقَّتِهَا. وَقِيلَ هِيَ الضَّامِرَةُ الصَّلْبَةُ، شَبَّهَتْ بِحَرْفِ الْجَبَلِ فِي شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا. وَالْعَلَاةُ: النَّاقَةُ الطَّوِيلَةُ الْجَسِيمَةُ. وَقِيلَ: نَاقَةٌ عَلَاةٌ: مَرْتَفَعَةُ السَّيْرِ لَا تُرَى أَبَدًا إِلَّا أَمَامَ الرِّكَابِ. وَنَاقَةٌ شِمْلَةٌ: خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ مَشْمُورَةٌ. وَالْحَرْقُ: الْفَلَاةُ الْوَاسِعَةُ، سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِانْخِرَاقِ الرِّيحِ فِيهَا.==

- على ظَهَرٍ مَرْهُوبٍ كَأَنَّ نُشُورَهُ إِذَا جَارَ هُلَاكُ الطَّرِيقِ وَفُودُ⁽¹⁾
 سَبْتَنِي بَعِثْنِي جُودِرٍ وَسَطَ رَبِّهِ وَصَدْرٍ كَفَّائِثٍ الرُّخَامِ وَجِيدُ⁽²⁾
 تَزْيِيفُ كَمَا زَافَتْ إِلَى سَلَفَاتِهَا مُبَاهِيَةً طَيِّ الوِشَاحِ مَيُودُ⁽³⁾
 إِذَا جِئْتُهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا تَعْرِضُ مَنَقُوصُ الْيَدَيْنِ صَدُودُ⁽⁴⁾
 يَصْدُ وَيُغْضِي عَنْ هَوَايَ وَيَجْتَنِي عَلَيَّ ذُنُوبًا إِنَّهُ لَعَنُودُ⁽⁵⁾
 فَأَصْرِمُهَا عَمْدًا كَأَنِّي مُجَانِبٌ وَيَغْفُلُ عَنَّا نَارَةٌ فَتَنُودُ⁽⁶⁾
 فَمَنْ يُعْطَى فِي الدُّنْيَا قَرِينًا كَمِثْلِهَا فَذَلِكَ فِي عَيْشِ الْحَيَاةِ رَشِيدُ⁽⁷⁾
 يَمُوتُ الْهَوَى مَنِي إِذَا مَا لَقِيتُهَا وَيَحْيَا إِذَا فَارَقْتُهَا فَيَعُودُ⁽⁸⁾

وئباريها: ثعاريها. وإبل سواهم: غيرها السَّفَر. والسَّاهمة: الناقة الضَّامرة المهزولة. والقُود: الذليلة المنقادة.

(1) ظهر الأرض: ما ارتفع منها واستوى. وقيل ما ارتفع وصلب. والمَرْهُوب: الذي يُرْهَبُ السير فيه. والنشور: جمع نشز، وهو ما ارتفع من الأرض. وجار: ضلَّ. وهلاك الطريق: المنتجعون الذين ضلُّوا الطريق فهلَكوا. والوفود: جمع وفد، وهم القوم يخرجون إلى ملك أو أمير، أو هم القوم يجتمعون فيردون البلاد.

(2) سَبْتَنِي: أَسْرَنِي، أي فَتَنَنِي. والجُودِر: وَلَدُ البقرة. والرُّبْر: القطيع من بقر الوحش. والفائث: الجِوَانُ يتخذ من رخام أو فضة أو ذهب. والجيد: العنق. والسياق: جيد سباني.

(3) زافت المرأة في مشيتها: إِذَا رَأَيْتَهَا كَأَنَّهَا تُسْتَدِيرُ، أي ثَمَائِلَتْ وَتَبَخَّرَتْ واختالت. والسلفات: جمع سَلِيفَة، وهي زوجة أخي الزوج. والمباهية: المفاخرة. وطَيَّ الوشاح: أي ضامرة الْبَطْنِ رقيقة الخصر. والوشاح: حُلِي النِّسَاء، وهو كِرْسَان، أي قِلَاتِدَان، من لَوْلُو وَجْوهٍ منظومان، مُخَالَفٌ بَيْنَهُمَا مُعْطُوفٌ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، تَوَشَّحَ الْمَرْأَةُ بِهِ، أي تَشَدُّهُ عَلَى عَاتِقِهَا وَكَشَحَهَا، أي عَلَى مَا بَيْنَ مَنَكِبَيْهَا وَعَنْقِهَا وَخَصَرِهَا. وميود: تمايلة مثنية مُتَبَخِّرَة.

(4) تعرض: تُصَدَّى. وَمَنَقُوصُ الْيَدَيْنِ: يعني قَلِيلَ الْخَبَرِ بِخِلَافَ الْمَعْرُوف. وَصَدُودٌ: أي يُعْرِضُ بِوَجْهِهِ عَنِّي. (5) يَصْدُ: يُعْرِضُ وَيَتَنَحَّى. وَأَغْضَى عَلَى الشَّيْءِ: سَكَتَ عَنْهُ. وَأَغْضَى عَيْنًا عَلَى قَذَى: صَبَرَ عَلَى أَذَى. وَأَغْضَى عَنْهُ طَرَفَهُ: سَدَّهُ وَصَدَّهُ. وَاجْتَنَى عَلَيْهِ ذَنْبًا: تَجَنَّاهُ عَلَيْهِ، أي ثَقُولَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ، أَوْ أَدْعَاهُ عَلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَفْعَلْهُ. وَالْعَنُودُ: العنيد: أي الْجَائِرُ عَنِ الْقَصْدِ الْبَاغِي الَّذِي يَرُدُّ الْحَقَّ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ.

(6) أَصْرِمُهَا أَهْجَرُهَا وَأَجْفُوها. وعمداً: أي عَنْ قَصْدٍ. وَمُجَانِبٌ: مُتَبَعِدٌ مُتَنَحٍّ مُعْتَزِل. وَيَغْفُلُ: يَسْهُو.

(7) يُعْطَى: يُوهَبُ وَيُمْنَح. والقرين: المصاحب. والرشيد: الرَّاشِد، أي الْمُهْتَدِي الْمَوْفِق.

(8) فارقها: بَايَئْتُهَا وَابْتَعَدْتُ عَنْهَا.

- يَقُولُونَ: جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَعْرُوزَةَ وَأَيُّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أَرِيدُ⁽¹⁾
وَمَنْ كَانَ فِي حُبِّي بُكَيْنَةً يَمْتَرِي فَبِرَقَاءِ ذِي ضَالٍ عَلِيٍّ شَهِيدُ⁽²⁾
لَنْ كَانَ فِي حُبِّ الْحَيِّبِ حَبِيْبُهُ حُدُودٌ لَقَدْ حَلَّتْ عَلَيَّ حُدُودُ⁽³⁾
وَأَحْسَنُ أَيَّامِي وَأَبْهَجُ عَيْشِي إِذَا هَبَّجَ بِي يَوْمًا وَهْنٌ قُعُودُ⁽⁴⁾
أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أُمُّ ذِي الْوَدْعِ أَلْنِي أَضَاحِكُ ذِكْرَاكُمُ وَأَنْتِ صَلُودُ⁽⁵⁾

تحليل القصيدة

المطلع وجداني، يتمنى فيه الشاعر أن يعود إليه شبابه، وأن تعود الأيام الماضية التي كان يلقي فيها بثينة، ويتمنى في البيت الثالث والعشرين متسائلاً في حيرة: هل أعود إلى وادي القرى ثانية، حيث تسكن بثينة، وأبيت فيه، ولو ليلة واحدة، إذأ لنلت السعادة. وهو تمن يُفيد الحسرة.

- (1) جاهد: قَاتِلْ وَحَارِبْ. والغزوة: المرة الواحدة من الغزو، وهو السَّيْرُ إِلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ وَانْتِهَابِهِ.
(2) يَمْتَرِي: يَشْكُ وَيَرْتَاب. وَبِرَقَاءِ ذِي ضَالٍ: هَضْبَةٌ كَانَ جَمِيلٌ يَلْقَى فِيهَا بُكَيْنَةً، رَوَى أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِي: «أَنْ رَهْطَ بَثِينَةَ قَالُوا: إِنَّمَا يَتَّبِعُ جَمِيلٌ أُمَةً لَنَا، فَوَاعَدَ جَمِيلٌ بَثِينَةَ حِينَ لَقِيَهَا بِرَقَاءِ ذِي ضَالٍ، فَتَحَادَثَا لَيْلًا طَوِيلًا حَتَّى اسْتَحَرَّا. ثُمَّ قَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تُرْقِدِي؟ قَالَتْ: مَا شِئْتُ، وَأَنَا خَائِفَةٌ أَنْ نَكُونَ قَدْ أَصْبَحْنَا فَوْسَدَهَا جَانِبَهُ، ثُمَّ اضْطَجَعَا وَنَامَتْ، فَاسْتَوَى وَاسْتَوَى عَلَى رَاحِلَتِهِ فَذَهَبَ، وَأَصْبَحْتُ فِي مَضْجَعِهَا. فَلَمْ يُرَعْ الْحَيُّ إِلَّا بِهَا رَاقِدَةً عِنْدَ مَنَاحِ رَاحِلَةِ جَمِيلٍ». (الأغانى 8: 127). وشهيد: أَي شَاهِدٌ عَلَى بَرَاءَتِي.
(3) «حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى: الْأَشْيَاءُ الَّتِي بَيْنَ تَحْرِيْمِهَا وَتَحْلِيلِهَا، وَأَمَرَ أَنْ لَا يَتَعَدَّى شَيْءٌ، فَيَتَجَاوَزَ إِلَى غَيْرِ مَا أَمَرَ فِيهَا، وَنَهَى عَنْهُ مِنْهَا، وَمَنْعَ مِنْ مُخَالَفَتِهَا، وَاجْتِهَادُ حَدٍّ. وَحَدُّ الْقَاذِفِ وَفُحْوُهُ يَحُدُّهُ حَدًّا: أَقَامَ عَلَيْهِ ذَلِكَ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: فَحُدُودُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ضَرْبَانِ: ضَرْبٌ مِنْهَا حُدُودُ حَدِّهَا لِلنَّاسِ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ وَمَنَاقِحِهِمْ وَغَيْرِهَا، مِمَّا أَحَلَّ وَحَرَّمَ، وَأَمَرَ بِالِانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى عَنْهُ مِنْهَا، أَوْ نَهَى عَنْ تَعْدِيهَا. وَالضَّرْبُ الثَّانِي عَقُوبَاتٌ جَعَلَتْ لِمَنْ رَكِبَ مَا نَهَى عَنْهُ، كَحَدِّ السَّارِقِ، وَهُوَ قَطْعُ يَمِينِهِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا، وَكَحَدِّ الزَّانِي الْبَكْرَ، وَهُوَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَكَحَدِّ الْمُخْصَنِ إِذَا زَنَى، وَهُوَ الرَّجْمُ، وَكَحَدِّ الْقَاذِفِ، وَهُوَ ثَمَانُونَ جَلْدَةً، سُمِّيَتْ حُدُودًا لِأَنَّهَا تَحُدُّ، أَيْ تَمْنَعُ مِنْ إِثْبَانٍ مَا جَعَلَتْ عَقُوبَاتٍ فِيهَا، وَسُمِّيَتْ الْأُولَى حُدُودًا؛ لِأَنَّهَا نِهَازَاتٌ نَهَى اللَّهُ عَنْ تَعْدِيهَا» (اللسان: حدد). وَحَلَّتْ: وَجَبَتْ.
(4) أَبْهَجُ عَيْشِي: أَحْسَنُهَا وَأَنْصَرُّهَا وَأَلْغَمَهَا. هَبَّجَ بِي: أَرْجَعْتُ وَنُقِرْتُ. وَقُعُودٌ: جُلُوسٌ.
(5) «ذُو الْوَدْعِ فِي بَيْتِ جَمِيلٍ: الصَّبِيُّ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ لِلْوَدْعِ مَا دَامَ صَغِيرًا، أَيْ يَوْضَعُ الْوَدْعُ فِي عُنُقِهِ. (اللسان: ودع). وَأَضَاحِكُ: أُنَاجِي وَأُنَاجِي. وَيُرْوَى «أَهْشُ»، أَيْ أَرْتَاحُ وَأَفْرَحُ وَأَخِفُّ. وَامْرَأَةُ صَلُودٍ: قَلِيلَةُ الْخَيْرِ. وَقِيلَ «صَلُودٌ» فِي بَيْتِ جَمِيلٍ: صَلْبَةٌ لَا رَحْمَةً فِي فَوَادِهَا. (اللسان: صلد).

ولعلّه أحسنّ أن ما عاناه من لوعة الفراق قد عانت منه بثينة، فقد سألته وهو يُجهز نفسه للسفر تقريب ناقته: أمصرَ تريد؟ وهو استفهام يفيد الإنكار والتعجب، وُتردّف هذا التساؤل بإبراز عاطفتها نحوه، إذ تتمنى زيارته لولا خوفها من الوشاة

ويعمد إلى لغة الحوار، فهو إذ يُبدي تعلّقه بها تحييه بأنّها تعرف أن حبّه ثابت ويزيد بمرور الأيام، وإذا قال لها يوماً إنّ حبّك قاتلي قالت عسى أن يدوم ويزداد، وإن طلب منها أن تردّ إليه عقله الذي أذهبه حبها، قالت هذه أمنية بعيدة.

ثم إنه يعمد إلى وصف تمنّعها، وبخلها بالوصال وهو ما دأب عليه شعراء الغزل العذري، وهو يكرر ذلك في غير موطن من القصيدة. وهو لا يفتأ يعلّل نفسه بوصالها ولقائها، ولكنها تسد عليه الطريق، بقولها: أبليت بذاك الدهر، إلا أنه يحافظ على جِدّة دهرها، إذ يظل مخلصاً لها، ويبقى حبها محفوراً في قلبه. ويقول إن نار الحب تنطفئ وتشتعل، إنها تموت وتنطفئ إذا التقيا، ثم لا تلبث أن تشتعل حالما افترقا.

وقد جاءت معانيه منتزعة من بيئته البدوية العذرية، وما عُرفت به الفتاة البدوية من ذكاء وعفاف، وهو يردد إلى جانب ذلك معنى الوفاء في غير بيت بوصفه سمة من سمات الغزل العذري، إذ يذكر أنه ثابت على حبها حين تعاهدا معاً على الوفاء (البيت الثالث عشر)، ويعلن أن وُدّه لا يكون إلا لبثينة (الأبيات 18، 19، 20)، وأن هذا الود غما على مدى الزمن منذ كانا وليدين (علقتُ الهوى منها وليداً)، مردّداً بذلك سمة أخرى هي الإخلاص. وتلقانا سمات أخرى في سياق القصيدة منها الحزن واللوعة وصدق العاطفة والعفة.

وأخيراً، يرتد الشاعر إلى أيام الطفولة فيخاطب بثينة بـ «أم الودع» بما تحمله صورة الودع من دلالة صِغر السنّ، وقد ظلت هذه الصورة عالقة في ذهنه لا تفارقه، يضاحكها، ويستأنس بها، في حين تبخل عليه بوصالها.

تشكل قصيدة جميل وحدة عضوية متماسكة تدور حول تجربة شعورية واحدة، بثّ خلالها بعض الخطرات واللفتات الشعوية.

واتسمت لغته بالوضوح والرشاقة، واتصلت ألفاظه بتجربته الشعرية، وهي بهذا تناسب موضوع الغزل والحب العفيف الطاهر، وقد تردد فيها على جملة أساليب كالتمني والاستفهام، واعتمد على أسلوب الحوار في نقل مشاعره مع نفسه أولاً، ومع بثينة أو صويحباتها أو نساء القبيلة ثانياً.

وقد جاءت قصيدته على وزن البحر الطويل، وهو بحر لا ينطوي بذاته على الرقة الغنائية، إلا أن الشاعر طوّعه لها وأفاض عليه من ذاته، فبدأ وزناً وثيداً متمهلاً، وعبرت موسيقاه عما تضرمه التجربة من لوعة وحزن وحرمان، وقام روي القافية على الدال المضمومة المسبوقة بالمد، مما يلائم طبيعة النص في البوح والشكوى.

وتمثلت الموسيقى الداخلية في بساطة الألفاظ ورقتها، وصدق العاطفة والتهابها، وفي الإيقاع الحزين الذي نلحظه في الألفات الممدودة.

كل ذلك جعلنا نعيش مع تجربة الشاعر، ونقف على نفس مُحبة دون تكلف، ترسل شعرها في شيء من البراءة والسذاجة، وتحمل آمالاً كبيرة يثس من تحقيقها، لكنه ظل مخلصاً وفيّاً في حبه لبثينة.

ألوان أخرى من الشعر

المبحث الأول: الحنين إلى الأهل والوطن

المبحث الثاني: شعر الطبيعة

المبحث الثالث: الخمريات

المبحث الرابع: الأراجيز

الفصل السابع ألوان أخرى من الشعر

المبحث الأول الحنين إلى الأهل والوطن

تمهيد

هناك جانب من الشعر في العصر الأموي يدور حول الحروب والفتوحات الإسلامية، ويصور البيئات الجديدة التي شاهدها العرب، وظهر في أثناء ذلك موضوع جديد هو الحنين إلى الوطن، جرى على ألسنة شعراء فارقوا الأهل والوطن، وخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، وكانت هذه النزعة من الحنين تتضاعف في نفس الشاعر حين يصيبه مرض أو يترأى له الموت ماثلاً أمام عينيه.

مالك بن الربيع التميمي يرثي نفسه

مدخل إلى القصيدة

مالك بن الربيع⁽¹⁾ شاعر مقل، وهو من شعراء الإسلام في أوائل العصر الأموي، عُرف بقصيدته التي رثى بها نفسه فضلاً عن مقطوعات شعرية في الوصف والحماسة وردت في كتاب الأغاني. نشأ في بادية بني تميم بالبصرة، وكان شاباً شجاعاً فاتكاً، لا ينام الليل، إلا متوشحاً سيفه، ولكنه كسائر الصعاليك استغلَّ فروسيته في قطع الطريق هو وثلاثة من أصدقائه.

وذاث يوم مرَّ عليه سعيد بن عثمان بن عفان، والي خراسان لعهد معاوية وكان متوجهاً لإخماد تمرد في خراسان، فأغراه بالجهاد في سبيل الله بدلاً من قطع الطريق، فاستجاب مالك لنصح سعيد وذهب معه وأبلى بلاءً حسناً.

(1) انظر ترجمته في جبهة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، تحقيق د. محمد علي الهاشمي، المجلد الثاني، ص 759. والشعر والشعراء، 1 / 353. والأغاني، 22 / 304 وما بعدها.

وفي أثناء عودته إلى وادي الغضا في نجد وهو مسكن أهله، مرض مرضاً شديداً، ويُقال: لدغته أفعى كانت نائمة في نعله، وثمّ نظم هذه القصيدة، وهو يحتضر، يرثي بها نفسه، ومات في خراسان.

(1) النص

ألا ليت شعري هل أبينَ ليلةً بحجب الغضى أُرْجِي القِلاصَ النواجيا⁽²⁾
فليت الغضى لم يقطع الركبَ عرضَه وليت الغضى ماشى الركابَ لياليا⁽³⁾
لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى مزاراً ولكن الغضى ليس دانيا

ألم ترني بعث الضلالة بالهدى وأصبحتُ في جيش ابن عفانَ غازيا
لعمري لئن غالت خراسانُ هامتي لقد كنتُ عن بابي خراسان نائيا!⁽⁴⁾

فلله دَرِي يوم أترك طائعاً بَنِي بأعلى الرَقَمَتَيْنِ وماليا
ودرّ الظباء السامحات عشيّة يُخَبِّرُنَّ أُنِّي هالك مَنْ وراثيا⁽⁵⁾
ودرّ كبيرِي اللذين كلاهما عَلَيَّ شَفِيقٌ ناصح لو نهانيا
ودرّ الهوى من حيث يدعو صحابه ودرّ لجاجاتي ودرّ انتهائيا⁽⁶⁾
تذكرتُ مَنْ يكي عليّ فلم أجذ سوى السيفِ والرمح الرُديني باكيا
وأشقرَ خَنَذيذٍ يجرُ عنانَه إلى الماء لم يترك له الموتُ ساقيا⁽⁷⁾

(1) جمهرة أشعار العرب، ص 957 وما بعدها.

(2) الغضا: شجر ينبت في الرمل. أُرْجِي: أسوق. القلاص: جمع قلوص، وهي الفتية من الإبل. النواجي: السراع.

(3) الركاب: الإبل التي تحمل القوم.

(4) غالت خراسان هامتي: أهلكت هامتي، والهامة: الرأس.

(5) السامحات: أي سَنَحَتْ له الظباء فتطير منها.

(6) لجاجاتي: جمع لجاجة، وهي التماذي.

(7) الخنذيذ: الطويل من الخيل.

ولكن بأطرفِ السُّمَيْتَةِ نسوةٌ عزيزٌ عليهنّ العشيّةُ ما بيا
صريعٌ على أيدي الرجال بقفرةٍ يُسَوُّونَ لحدي حيثُ حُمَ قضايا

ولما تراءتُ عندَ مرورِ مَنِيّتي وحلّ بها جسمي، وحانت وفاتيا
أقول لأصحابي ارفعوني فإني يُقَرُّ بعيني أنْ سُهَيْلٌ بدا ليا
ويا صاحبي رحلي دنا الموتُ فانزلا برايةٍ إلّني مقيمٌ ليا ليا
أقيما عليّ اليوم أو بعضَ ليلةٍ ولا تُعجلاني قد بُيِّنَ ما بيا
وقوما إذا ما سُلَّ روحي فهيئنا لِي السُدْرَ والأكفانَ ثم ابكيا ليا
وخطأ بأطرافِ الأستة مضجعي ورذاً على عيني فَضَلَ ردايا
ولا تحسداني بارك الله فيكما من الأرض ذات العَرَضِ أنْ تُوسِعا ليا
خذاني فجرّاني بثوبي إليكما فقد كنتُ قبلَ اليوم صَعْباً قياديا

وقد كنتُ عطافاً إذا الخيل أدبرتُ سريعاً لدى الهيجا إلى مَنْ دعانيا
وقد كنتُ محموداً لدى الزاد والقري وعن شتمي ابنَ العمّ والجارَ وانيا
وقد كنتُ صباراً على القرنِ في الوغى ثقيلاً على الأعداءِ عضباً لسانيا
فيا ليتَ شعري: هل بكتُ أمْ مالِكُ كما كنتُ لو عَالُوا نَعِيكَ باكيا؟⁽¹⁾
إذا مِتُّ فاعتادي القبورَ وسلّمي على الرّمسِ أسقيتِ السحابَ الغوادي
ثريّ جَدَثاً قد جرّتِ الريحُ فوقه غباراً كلون القسطلاني هاييا⁽²⁾
رهينة أحجارٍ وبئرٍ ضُمَّنتُ قرارئها منّي العظامَ البواليا

فيا راكباً إما عرضتَ فبلّغتُ بني مالك والريبَ ألا تلاقيا

(1) عالوا النعي: أظهروه.

(2) القسطلاني: الغبار. الهابي: السافي.

وأبلغ أخي عمران بُردِي ومُزري
وسلم على شيخِي مَنِي كليهما
وعطل قُلوصِي في الركاب فإنها
أقلبُ طرفي حول رحلي فلا أرى
وبلغ عجوزي اليومَ ألا تلاقيا
كثيراً، وعمِّي وابن عمِّي وخاليا
ستبردُ أكباداً وثبكي بواكيا
به من عيون المؤنساتِ مُراعيَا

وبالرمْل مَنِي نسوةً لو شَهِدْتَنِي
فمنهنَّ أُمِّي وابنتاهَا وخالتي
وما كان عهدُ الرملِ مَنِي وأهلِهِ
ذميماً ولا ودَّعتُ بالرمْل قاليَا

بنية النص ومساره

إن المتأمل في قصيدة مالك بن الريب يشعر بجوٍّ نفسي يتخللها من بدايتها إلى نهايتها، إذ تحققت فيها الوحدة الموضوعية، فانسقت أجزاءها في نسيج متكامل، وهي تنتقل عبر الأزمان الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، التي اتضحت معالمها في القصيدة، ثم امتزجت في خاتمتها.

ونحن إذ نقسم القصيدة إلى شرائح عدة فلغايات الدرس والتحليل. ومن ثم فقد تمحورت القصيدة في سبع شرائح على النحو التالي:

1. الشريحة الأولى: مشاهد من الماضي تُصور حنينه إلى مرابع صباه. (الآيات 1-3)
2. الشريحة الثانية: انطلاقه إلى خراسان. (الآيات 4-5)
3. الشريحة الثالثة: مشاهد الحزن التي ستعقب موته. (الآيات 6-13)
4. الشريحة الرابعة: مشهد الاحتضار في مرو بخراسان. (الآيات 14-21)
5. الشريحة الخامسة: مشاهد من حياة الشاعر ومآثره. (الآيات 22-28)
6. الشريحة السادسة: تساؤلاته ورسائله. (الآيات 29-33)
7. الشريحة السابعة: مشهد النساء الباقيات بعد موته. (الآيات 34-36)

يستهل مالك قصيدته بالحنين عبر شجر الغضا، إلى مرابع صباه في وادي الغضا بنجد. ومالك كان ربيب الفلوات، وكانت حياته مليئة بالمغامرات. فنراه يتمنى أن يعود إلى هذا

الوادي فبييت فيه ليلة، ويُزجي قلاصه. وهكذا يحس أن هذه الليلة التي ينتظر بها عودة الماضي كانت تميل به إلى الفراق الأبدي، إذ يستحيل الشوق إلى موطنه إلى نوع من اليأس الذي يُفصح عن نفسه من تكرار كلمة «الغضا» وهو شجر يرمز به لهذه المراحل إذ يكررها غير مرة، منها ثلاث في البيت الثالث، وهو تكرار جميل يبعث على الأسى والحزن، يصدر عن شاعر يمر بتجربة الموت، يتفجع ويتذكر أهله وموطنه ويمجد نفسه بعيداً غريباً عنهما.

ويُمهّد هذا المطلع لولادة الشريحة الثانية من القصيدة، ذلك أن الشوق إلى منابت الغضا يوجب على الشاعر ذكر السبب الذي جعله يترك هذه المنابت منطلقاً إلى خراسان. والجواب أنه انضم إلى جيش ابن عفان، إذ أغراه سعيد بالجهاد بدلاً من قطع الطريق.

وكان يتتابه إحساس بأنه سيلقى حتفه في خراسان، لكنه لم يندم على قراره بالانضمام إلى هذا الجيش. ثم أخذ يتحدث عن رحلته تلك، فيذكر لنا كيف ترك أهله وماله طائعاً في رحلة الذهاب إليها مفقود، وآية ذلك أن الأطباء السانحات التي مر بها وهو في طريقه إلى خراسان تُبشر بموته، مع أن العرب كانوا يتفاءلون بالسانح من الصيد، بل إن أبويه كانا يدركان أنه سيموت، فينصحانه مُشفقين عليه حيناً، وناهين له حيناً آخر، لكنه يمضي غير نادم على شيء، مُبدئاً إعجابه بهذا المصير على نحو ما كانت تعجبه صباباته وهواه وهو في مُقتبل العمر.

وتأتي الشريحة الثالثة من هذه القصيدة لتكون امتداداً طبيعياً للشريحة السابقة، فالشاعر كان يتوقع الموت، وها هو طيف الموت يزوره، وهذا يمثل لحظة اتصال بين الحلم والواقع، فيتصور أن أشد المفجوعين عليه هم رفاق دربه، أسلحته (السيف والرمح الرديني) وحصانه الأشقر الذي لم يترك له الموت ساقياً، ثم النساء الحبيبات في موطنه اللائي سوف يتحدث عنهن بالتفصيل في الشريحة الأخيرة. وهذا إحساس غريب، كإحساس الحالم بأنه لا يزال حياً وهو ميت.

بعد ذلك يظهر الشاعر على مسرح القصيدة، فتركز الشريحة الرابعة على أمرين أولهما لحظات الاحتضار في مرو بخراسان، حيث يرفعه رفيقه على الأيدي، في وداع لا لقاء بعده، فيرون في هفة إلى السماء صوب سهيل -وهو نجم يماني- فيذكره بأهله ومرايح صباه في نجد، وثانيهما على وصيته لهذين الرفيقين، والتي تضمنت طلباته الأخيرة:

- أن يُقيما لديه بعض الوقت، يوماً أو بعض ليلة.
- أن يحضرا قبره بالأسنة تكريماً له، ويُهيئا له السدر والأكفان.

- ألا يبخل عليه بقبر واسع وهو يُدفن في الصحراء.

هذه القائمة من الطلبات تفتح سداً كان قائماً أمام تيار الانفعال الذاتي، وتنقلنا إلى فضاء الشريحة الخامسة وتتضمن افتخاراً بالصفات التي يفخر بها العرب، على أنه يبدأ الحديث عنها بمقارنة مبكية بين حاله اليوم وهو يُجَرُّ جراً وحالة يوم كان فاتكاً صعب الانقياد. ثم يذكر تلك الصورة المشرقة التي امتلأت بالقيم العربية الأصيلة، ويحشد لها طائفة من المشتقات، في سلسلة أقواله:

- وقد كنت عطافاً سريعاً إلى من دعانيا (من مشاهد الفروسية).
- محموداً لدى الزاد والقرى (من مشاهد الكرم).
- عن شتمي ابن العم والجار وانيا (من مشاهد صلة الرحم).
- وقد كنت صباراً على القرن في الوغى (من مشاهد الصبر).
- ثقيلاً على الأعداء عضباً لسانيا (من مشاهد الصمود).

وتشير الشريحة إلى جملة تساؤلات، وكأنه لا يزال هناك واقفاً يراقب الأحداث، فيتساءل كيف ستسير أحوال الحرب والسلام بعد موته، ويتساءل عن موقف أمه بعد موته، ويطلب منها أن تزور القبور في الصحراء، وتنظر بعين الخيال قبراً بعيداً غطاه الغبار الأحمر السافي.

بعد ذلك يُقدم رسائله الأخيرة، وهي:

- إبلاغ نعيه إلى عشيرته بني مالك.
- أن تُسلم ثيابه إلى أخيه، وأن تبلغ زوجته بوداعه إياها.
- حمل تحياته إلى أبويه وبعض أقاربه.
- أن تُترك ناقته ترعى طليقة، فيشعر الصديق بالأسى لفراقه في حين يشمت به الأعداء.

وتشير الشريحة الأخيرة إلى موطنه الأول «الرمل»، وهو الموطن الذي عبر عنه في الشريحة الأولى بالغضا، فهذا عود على بدء، فضلاً عن أن الشاعر يكرر كلمة «الرمل» ليتلذذ بذكر عهده السعيد.

والشاعر الذي بدأ بذكر «الغضا» وانتهى بذكر «الرمل» ليستعيد صورة الديار التي نشأ فيها، يجد نفسه وحيداً، يُقلب الطرف يائساً دون أن يلقي حبيبة واحدة، ونراه يتخيل النساء وهن يبكينه بعد أن مات، فيزداد وجداً على وجد، وإذ سمى الشاعر أولئك النسوة فإنه ترك

واحدة دون تسمية، كانت أشدهن حزناً، وقد تعتمد الشاعر أن يفعل ذلك، فلا ينبغي أن نتطفل على السر الذي أوصد بابه دوننا⁽¹⁾.

المؤثرات الفنية

1. أول ما يلفت القارئ هو تكرار لفظي الغضا والرمل، فقد وردت لفظة «الغضا» في الشريحة الأولى ست مرات، ووردت لفظة «الرمل» في الشريحة الأخيرة، ثلاث مرات، وذلك لشدة تعلق الشاعر بهذين الموضعين، حتى لنراه يُكرر لفظة «الغضا» ثلاث مرات في بيت واحد هو البيت الثالث. يقول غازي القصيبي: «وأشهد الله أنني لم أعثر في قراءاتي كلها على تكرار جميل يسقيك الأسى جرعةً بعد جرعة كتكرار الغضا في هذه الأبيات»⁽²⁾.

ولعل الإيقاع الناشئ من تكرار صوت (الضاد) في ألفاظ (الغضا، وعرضه، والضلالة)، وهو من الأصوات المفخمة والمجهورة، له علاقة بالحالة النفسية التي يمر بها الشاعر⁽³⁾.

2. تطفئ صيغ المتكلم على القصيدة، ذلك أن الشاعر يقف أمام مشكلة الموت، متحدثاً عن ذكرياته الخاصة، وأيامه الخوالي، مصوراً اللحظات الأخيرة من حياته. كما أنها تجري بصيغة الخطاب، التي يتوجه فيها الكلام إلى غير جهة، وبخاصة رفيقاه اللذان يلح عليهما في الطلب (انزلا - أقيما - لا تُعجلاني - قوماً - هيئا - ابكيا - خطا - رداً - لا تحسداني - خذاني - جراني).

3. تتوزع كلمات القصيدة في أربعة حقول، هي: الإنسان والمكان والحيوان والنبات. والطابع الغالب على هذه الكلمات هو الإنسان «أهل الغضا - ابن عفان - كبير - الرجال - الأصحاب - صاحبي رحلي - أم مالك - ركباً - بني مالك والريب - عمران - عجوزي - شيعي - عمي - ابن عمي - خاليا - الجار - المؤنسات - نسوة - الطيب - أمي - خالتي - باكية أخرى (الزوجة)». ويمكن أن نلحق بعالم الإنسان السيف والرمح وحصانه الأشقر بوصفها ترتبط مباشرةً بالشاعر.

(1) غازي القصيبي، قصائد أعجبتني، ص 104.

(2) م.ن، ص 93.

(3) إبراهيم، خليل، النص الأدبي، ص 90.

وتتردد في القصيدة أسماء الأماكن ذات الصلة بالشاعر وتدخل في حقل المكان، كجنب الغضا، خراسان، الرقمتين، السُمنية، مرو، سُهيل، فُلج، الرمل، وكذلك أسماء الحيوان كالقلاص والظباء والخليل، فضلاً عن أسماء النبات كالغضا والسدر.

4. العاطفة متقدمة في القصيدة، يبدو فيها الشاعر إنساناً رقيق القلب في أوج الصدق والحرارة، وهي عاطفة حزينة فيها بكاء وعويل حين يرثي نفسه، وتفجع وحنين حين يتذكر وطنه وأهله. إذ يجد نفسه بعيداً نائياً، هذا الفارس الذي خاض الملاحم الضارية، لم يمت بضربة سيف أو طعنة رمح، بل من لدغة أفعى كانت نائمة في نعله، يقول الرواة إنه نظم قصيدته وهو يحتضر⁽¹⁾، غير أن المدائني يقول إنه رثى نفسه قبل موته بسنة⁽²⁾.

5. المعاني فيها ابتكار وروعة كحديثه عن سيفه ورمحه وحصانه، وهي تبكي بطولته وفروسيته. وفي وصيته لرفاقه تأثير موجه حقاً، ومن معانيه الطريفة قوله: «خطأ بأطراف الأسنة مضجعي»، ومن أجل معانيه مقارنته بين حاله وهو ميت يسهل على أصحابه أن يجرّوه، وحاله وهو في كامل صحته، حين كان يصعب على الفرسان أن يتمكنوا منه، وفي ذكره لأمه وقربياته وإشارته إلى زوجته، وتصوير شعورهن إبداع ممتاز.

6. الصور والأخيلة الواردة في معظم القصيدة بدوية، ولكن بعضها يُوضح جو الفتوحات الإسلامية. ومن الإشارات البدوية قوله: أزجي القلاص النواجيا، لم أجد سوى السيف والرُمح الرديني باكيا، يا صاحبي رحلي.

7. يرى بعض الرواة أن الشاعر لم ينظم سوى ثلاثة عشر بيتاً، وأن الباقي أضافه شعراء آخرون عبر فترات متعددة⁽³⁾.

8. يؤدي الزمن في القصيدة دوراً مهماً، يمتزج فيها الماضي والحاضر والمستقبل. الماضي: ويتمثل في وادي الغضا والرمل حيث بدأ حياته وعاش أحلامه، والحاضر: ويتمثل في غربته وبعده عن الأهل والوطن، إذ يبدو وحيداً يائساً، وأما المستقبل: فمشهد النساء الباقيات بعد موته. ولقد ذكر الشاعر أسماءهن سوى واحدة لعلها زوجته مكثفاً بالإشارة إلى أن حزنهما هو أعظم حزن.

(1) جمهرة أشعار العرب، 2 / 767.

(2) المرزباني، معجم الشعراء، ص 364.

(3) انظر: الأغاني، 22 / 364.

9. تؤدي الموسيقى دوراً عظيماً في التعبير عن حالة الشاعر النفسية، فالموسيقى الخارجية تبدو في الوزن والقافية، فالقصيدة من بحر الطويل، وهو بحر يتسع لفن الرثاء، وهي قصيدة يائية اتصلت برويها ألف الإطلاق. وأما الموسيقى الداخلية فتبدو في العاطفة المتقدمة وفي تكرار بعض الألفاظ.

وهكذا استطاع الشاعر أن ينقل إلينا مشاعر الأسى والحزن من خلال الإيقاع المنتظم الذي يركز على تتابع ألفات المد في النص.

وأياً كان، فإن جمال هذه القصيدة وروعته لا للغتها ولا لصورها ولكن لأنها تُصور بروعة وأمانة ودقة موقفاً حقيقياً لإنسان حقيقي، يوشك أن يدخل أبواب أعنف التجارب البشرية: الموت، تصور هذا الموقف بكل ما فيه من متناقضات وجزع واضطراب دون حرص على رضا جمهور من المستمعين أو كتيبة من النقاد⁽¹⁾.

(1) غازي القصيبي، قصائد أعجنتني، ص 105.

المبحث الثاني

شعر الطبيعة

سار الشعراء الأمويون -على طريقة الجاهليين- في استلهام الطبيعة، مزاجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة، ومتخذين من الطبيعة أرضية لأحداث الفراق والرحلة والصيد، أو تصويراً لبعض الخلجات النفسية للإنسان أو الحيوان. فكان الشاعر يفتتح مطولته بالوقوف على الأطلال، ويتحدث عن راحلته وهي تقطع الصحراء، فيصف ناقته أو فرسه، وقد يصف في أثناء ذلك ما تقع عليه عينه من طير وحيوان في الأرض ونجوم وكواكب في السماء.

فقد وصف الفرزدق في بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه في طريقه شتاء من نثر الثلج، إذ يقول ⁽¹⁾:

مُسْتَقْبِلِينَ شِمَالِ الشَّامِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَثُورٍ ⁽²⁾
عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلُنَا عَلَى زَوَاحِفٍ تُزْجِيهَا مَحَاسِرٍ ⁽³⁾
ووصف جرير في بعض مدائحه نهيرات شقها هشام بن عبد الملك في نهر الفرات، وما نبت على ضفافها من زروع ومن أشجار، ومن كل الثمرات إذ يقول ⁽⁴⁾:

بِهَا الزَّيْتُونُ فِي غَلَلٍ وَمَالَتْ عَنَايِدُ الْكُرومِ فَهِنَّ سَوْدُ ⁽⁵⁾
فَتَمَّتْ فِي النِّهْيَاءِ جَنَانٌ دَنِيَا فَقَالَ الْحَاسِدُونَ هِيَ الْخُلُودُ ⁽⁶⁾
يَعْضُؤْنَ الْأَنَامِلَ أَنْ رَأَوْهَا بِسَاتِيَا يُوَازِرُهَا الْحَصِيدُ ⁽⁷⁾
وَمِنْ أَزْوَاجٍ فَكَهْمَةٌ وَنَخْلٌ يَكُونُ لِحَمْلِهِ طَلْعٌ نُضِيدُ ⁽⁸⁾

(1) ديوان الفرزدق، ص 262.

(2) شمال الشام: ريح شمالية. الحاصب: ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج. النديف: نثر الثلج والبرد.

(3) نزجيتها: نسوقها وندفعها. محاسر: كيلة.

(4) ديوان جرير، ص 150.

(5) الغلل: الماء الجاري تحت الشجر على وجه الأرض.

(6) النهيء: اسم نهر.

(7) الحصيد: الزروع التي تُحصد ثمارها كالقمح.

(8) الطلع: ثمر النخيل في إبانهِ. نضيد: منظم.

ويلقانا ذو الرُّمَّة بلوحاته الشعرية التي ترسم معالم الحياة في الصحراء، إذ يرصدها بحواسه ووجدانه ويختار أجمل ما فيها، عبر رحلته وهو يمتطي ناقته، يرقب ما فيها من مهأ وظباء حيث يلمُّ به طيف «مي» التي هام بها فتبدو «وكانها شوق مطلق وحنين مُجرَّد يراودان عواطف الشاعر وخياله»⁽¹⁾، فيتابع أظعانها حتى إذا اختفت تابعها بخياله، فنسمعه يقول⁽²⁾:

ذكرتك إذ مرّت بنا أمُّ شادنٍ أمام المطايا، تشرئبُ وتسَنحُ⁽³⁾
من المؤلفات الرَّمْلَ أدماءُ حُرَّة شعاع الضحى في متنها يتوضَّعُ⁽⁴⁾
تغادرُ بالوعاءِ، وعاءٍ مُشرفٍ طلاً، طرفُ عينها حوائيه يُلَمَحُ⁽⁵⁾
رأتنا كأننا قاصدون لعهدنا به، فهي تدنو تارةً وتزحزحُ
هي الشُّبَّة أعطافاً وجيداً ومقلَّة وميَّة أبهى بعدُ منها وأملحُ

ولعلَّ هيام الشاعر بمحبوبته هو الذي جعله يعشق تلك الصحراء، وبالتالي يصف ما فيها من حيوان، من ظباء، وحرباء، ويحملها عواطفه ومشاعره. ويتذكَّر ميَّة من خلال ظبية تعبر أمام المطية، تخطر وتمد عنقها، يتألف شعاع الضحى في متنها، لكن محبوبته تظل أبهى وأملح.

ومن صوره الطريقة صورة الحرباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، إذ يقول:

إذا جعل الحرباء يغبر لونه ويخضرُ من لفح الهجير غباغية⁽⁶⁾
ويشبحُ بالكفين شبحاً كأنه أخو فجرة عالى به الجذع صالية⁽⁷⁾

(1) عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، ص 396.

(2) الديوان، ص 59.

(3) الشادن: ولد الظبية. تشرئبُ: ترفع رأسها. تسنح: تعرض.

(4) المؤلفات الرمل: المقيمة والمستأنسة به.

(5) الطلا: ولد الظبية.

(6) الغباغب: الجلد أسفل الحنك.

(7) يشبح: يمد يديه.

ومن هذا الطراز وصفه مشبوحاً كأنه هندي مصلوب:

كَأَنَّ حَرَبَاءَهَا فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ ذُو شِيَةِ مِنْ رِجَالِ الْهِنْدِ مُصْلُوبٌ

واتجه الراعي (709م / 90هـ)⁽¹⁾ في شعره إلى وصف الإبل وتصوير حياتها في المراعي، حتى قال عنه القدماء كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل، أي أنه لا يحتذي شعر شاعر ولا يعارضه⁽²⁾، على نحو ما نجده في ملحمة اللامية التي مدح بها عبد الملك بن مروان، وشكا من السعاة، وهم الذين يأخذون الزكاة من قبل السلطان، إذ يقول:

حُوزِيَّةٌ طَوِيَتْ عَلَى زَفَرَاتِهَا طَيَّ الْقَنَاطِرِ قَدْ بَزَلْنَ بُزُولاً⁽³⁾

بُنِيَتْ مِرَافِقُهُنَّ فَوْقَ مَزْلَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ بِهَا الْقِرَادُ مَقِيلاً⁽⁴⁾

فِي مَهْمَةٍ، قَلَقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا قَلَقَ الْفُؤُوسِ إِذَا أَرَدَنْتَ نُصُولاً⁽⁵⁾

أَبْلَغَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً تَشْكُو إِلَيْكَ مَظَالِمًا وَعُيُولاً

إِنَّ السَّعَاءَ عَصَوَكَ يَوْمَ أَمْرَتِهِمْ وَأَتَوْا دَوَاهِي لَوْ عَلِمْتَ وَغُولاً⁽⁶⁾

أَنْتَ الْخَلِيفَةُ، عَدْلُهُ وَنَوَالُهُ وَإِذَا أَرَدْتَ لَظَالِمَ تَنْكِيلاً

فَارْفَعْ مَظَالِمَ عِيْلَتِ أَبْنَاءِنَا عَنَّا، وَأَنْقِذْ شِلُونَا الْمَأْكُولاً⁽⁷⁾

وهكذا نجد الراعي يصور رحلة الإبل مجتمعة، مع حاديها، ويصف دقائق هذه الرحلة، ليمهد بذلك إلى غرضه الرئيس، وكثيراً ما كان الراعي يضيف إلى ذلك كثيراً من عادات البدو في إكرام الضيف ونحر الإبل والشجاعة وما إلى ذلك. ومن هنا عرفت قصائده بالراعيويات، وقد شاركه في هذا الفن ذو الرمة.

(1) هو عبيد بن حصين النميري. كان راعي إبل من أهل بادية البصرة. جعله ابن سلام في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، وقرنه بجرير والفرزدق والأخطل.

(2) انظر: حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص 313.

(3) حوزية: منحاظة عن الإبل لا تخالطها. طويت على زفراتها: الجمل إذا زفر وتنفس انتفخ، أي كأنما خلقت منتفخة.

(4) لا يثبت القراد على الإبل لنعومة مرافقها.

(5) اضطربت رؤوس الإبل كما تضطرب الفؤوس في نصابها.

(6) الغول: المهلكة.

(7) عيلت: أفقرت. الشلو: العضو الممزق.

المبحث الثالث

الخمريات

حرّم الإسلام الخمرة وشدد في عقاب شاربها، على نحو ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأبي محجن الثقفي، وقصة صلاة الوليد بن عقبة والي الكوفة لعهد عثمان رضي الله عنه بالناس وهو سكران مشهورة. غير أن مثل هذا الاختراق كان محدوداً في عهد الخلفاء الراشدين ⁽¹⁾.

ونحن لا نغضي في عصر بني أمية حتى نجد أناساً يجاهرون بشربها ويعاقرونها سراً وعلانية، إذ كثر العمران وفاضت الأموال، فأسرفوا في اقتناء الخدم والجواري والقيان متفرغين إلى العبث واللهو.

ولعل الأخطل كان أهم رائد لشعر الخمرة في العصر الأموي، لكثرة ما أدمنها في حياته، ولشدة ترده بذكرها في شعره، وقصة مزاحه مع عبد الملك بن مروان وهو سكران معروفة ⁽²⁾. وأهم شعره فيها ورد من خلال قصائده المدحية، إذ يتشبه بالسكران الذي افتقد وعيه، من مثل قوله:

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحيا، وقد ماتت عظام ومفصل ⁽³⁾
إذا رفعوا عظماً، تحامل صدره وآخر، مما نال منها، مخبل
ثم ينتقل إلى وصف الخمرة، فيقول:

تدبُ ديبياً في العظام كأنه ديبٌ نمل في نقا يتهيّل ⁽⁴⁾
فقلت: اقتلوها عنكم بمزاجها فأطيب بها مقتولة حين تقتل ⁽⁵⁾

حاول الأخطل أن يجدد في شعر الخمرة ولم يتيسر له ذلك، فجعل يمازج المعاني ويعقدها ليوهم بالتجديد. وظلت الخمرة في شعره تقليدية، ترد ضمن قصيدة المدح أو الهجاء وتُعنى بالصورة المادية وتجاري روح الأسلوب القديم.

(1) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 377.

(2) الشرب: جمع الشارب، وهو الذي يشرب الخمرة.

(3) انظر الأغاني، 8/ 292.

(4) النقا: ما ارتفع من الرمل. يتهيل: ينحدر.

(5) قتل الخمرة: مزجها بالماء.

وإذا كان الأخطل هو رائد هذا الفن في عصر بني أمية فإن الوليد بن يزيد (ت 126هـ)⁽¹⁾، هو أستاذ فن الخمريات في هذا العصر، «إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة أو في مقدمتها، بل أصبحت تنظم في مقطوعات، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية، تنبض بالحياة»⁽²⁾، وقد يقبل على الخمرة أحياناً إقبال وصف وشجوة، متغنياً بالخمرة غناء أبي نواس بعده، من ذلك قوله:

اصدغْ نَجِيَّ الهَمِّ بالطَّرِبِ وانعمْ على الدَّهرِ بابنةِ العنْبِ⁽³⁾
واستقبلِ العيشَ في نضارته لا تُقِفْ منه آثارَ مُعْتَقِبِ⁽⁴⁾
من قهوةِ زانها تقاذمها فهني عجوزٌ تعلقو على الحِقَبِ⁽⁵⁾
أشهى إلى الشُّربِ يومَ جلوتِها من الفتاةِ الكريمةِ النَّسَبِ⁽⁶⁾
كانها في رُجاجها قَبَسٌ تزهو ضياءً في عينِ مُرتَقِبِ⁽⁷⁾

وهناك شاعر آخر يعد متمماً للوليد بن يزيد، هو أبو الهندي⁽⁸⁾، إذ رفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخمرية بكل شياتها المعنوية والموسيقية، إلا أنه ذهب مذهب الشعوية فيها. ومع انقطاعه النهائي عن الخمرة بعد أن تقدمت به السن وتاقت نفسه إلى الراحة، فقد تمنى أن يضمها إلى صدره في قبره، فلا تزايله حياً ولا ميتاً، يقول:

اجعلوا -إن مت يوماً- كفني ورق الكرم وقبري معصرة
وادفنوني وادفنوا الراح معي واجعلوا الأقداح حول المقبرة

(1) ولي الخلافة بعد هشام بن عبد الملك سنة 125هـ ثم قتله ابن عمه يزيد بن الوليد لمجونه، توارزه اليمانية ثاراً لخالد القسري وما كان من تعذيبه له وقتله.

(2) شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 382.

(3) يدعوني نديمه أن يزيل ما يعتريه من هموم بالغناء، وأن ينعم أبداً، بمعاقة الخمرة المعتصرة من العنب.

(4) يدعوه إلى أن ينعم بطيب العيش الغض والاي يجري مع الذين يجهلون معنى الحياة.

(5) يصور الخمرة المعتقة بعجوز تجاوزت الأيام والسنين.

(6) إنها تثير رغبة الشاربين بها وتبدو كالفتاة الكريمة الأصل يوم تجلى إلى زوجها.

(7) يمثل ألقها في كأسها بالضوء المتوهج في حديقة الناظر.

(8) هو غالب بن عبد القدوس التميمي، عاش في خراسان ثم سجستان، عرف بالفسق ومعاقة الشراب، مات في خلافة المنصور.

وعلى هذا النحو مضى أبو الهندي في طريق الخسران إلى الأنفاس الأخيرة من حياته،
يصدق بخمرياته، ويتخذ الخمر وحي إلهامه.
وهكذا كانت الخمرية في هذا العصر أدنى إلى التقليد وإن حاولت التحرر من
الوصف الخارجي المغرق في الحسية والعبارة المتجهمّة. ولا نكاد نقع منه على خمرة تضاهي
خمرات الأعشى في الجاهلية وقصائد أبي نواس في العصر العباسي.

المبحث الرابع

الأراجيز

الأرجوزة هي الشعر المنظوم على بحر الرجز، ووزنه التام «مستفعلن، مستفعلن، مستفعلن» في كل شطر، وقد استخدم بكثرة في العصر الجاهلي، وكثر فيه المشطور⁽¹⁾ والمنهوك⁽²⁾، كما أنه لم يطل إذا كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً، وقد عمد إليه العرب في الحداء والاستسقاء على الأبار وحين يجولون في ميادين الحروب، وقيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم في سيرها وسراها، وهياة ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقتترانه بالحركة الدائبة.

وأول من أطاله وجعله كالقصيد هو الأغلب العجلي (ت 21هـ) فقد ذكر ابن قتيبة أنه من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وعمر في الإسلام وقُتل بنهاوند، وأنه أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله، وكان الرجز قبله إنما يقول الرجل منه البيت والبيتين، أو الثلاثة إذا خاصم أو شاتم أو فاخر⁽³⁾، وأبرز الرجاز جميعاً العجاج وابنه روبة اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز، وشركهما في ذلك أبو النجم العجلي، يقول ابن سلام: «إنه أبلغ في النعت من العجاج»⁽⁴⁾، وله أرجوزة مشهورة يستهلها بقوله:

الحمد لله الوهوب المجزل أعطى فلم ييخل ولم ييخل

وفي أخباره أنه قدم على زياد ابن أبيه فرهبه رهبة شديدة، وخرج من عنده، وهو يقول⁽⁵⁾:

أقبلتُ من عند زياد كالخرف تخطُ رجلاي بخط مختلف

تكتبُان في الطريق لام ألف

(1) المشطور ما أسقط منه شطره.

(2) المنهوك: ما ذهب ثلثاه.

(3) الشعر والشعراء، ص 442.

(4) طبقات فحول الشعراء، ص 576.

(5) ابن جني، الخصائص، 3 / 297.

وقد أدى هؤلاء الرجاز جميع الأغراض العشرية إلا أنهم كانوا يقصدون بفنهم التعبير عن غرائب اللغة، ولهذا ظفرت أراجيزهم بإعجاب علماء اللغة، وإن لم تظفر بإعجاب الخلفاء وسواد الناس، كما لم تظفر برضى الفن الشعري الخالص.

ومن الصعب أن نجد في الرجز الأموي أبياتاً سهلة، وقد اخترنا هذه الأبيات لأبي النجم العجلي⁽¹⁾، من رجزه لسهولتها، وهي في وصف فهود عبد الملك بن بشر بن مروان، وهو يستهلها بقوله⁽²⁾:

إننا نزلنا خيرَ مَنَزَلاتٍ بين الحَمِيراتِ المَبَارَكاتِ
في لحمٍ وحشٍ وخَبَارِياتٍ وإن أردنا الصَّيْدَ ذا اللِّذاتِ⁽³⁾
جاء مُطِيعاً لمَطَاوِعَاتٍ عُلْمَنَ أو قد كُنَّ عَالِمَاتِ
فهِيَ ضَوَارٍ مِنْ مُضَرِّيَاتٍ ثُرِيكَ أَمَاقاً مُخَطَّطَاتِ
سُوداً عَلَى الْأَشْدَاقِ سَائِلَاتِ ثُلُوِي بِأَذْنَابٍ مُوقَفَاتِ

وله قصيدة طويلة في وصف فرسه، ذكر ابن سلام أبياتاً منها⁽⁴⁾، واستطاع أن ينافس شعراء القصيدة في فن الوصف، من ذلك أن الخليفة هشام بن عبد الملك سبق يوماً على فرس له أنثى سابقت ابنها فسبقها، وفرح بذلك وقال: عليّ بالشعراء، وطلب منهم أن يصفوا فرسه وابنها، فسألوه أن يمهلهم، وانبرى أبو النجم ليقول:

أَشَاعَ لِلغَرَاءِ فِينَا ذَكَرُهَا قَوَائِمٌ عَوِجٌ أَطْعَمَ أَمْرَهَا
وَمَا نَسِينَا بِالطَّرِيقِ مَهْرَهَا حِينَ نَقِيسُ قَدْرَهُ وَقَدَّرَهَا

(1) هو الفضل بن قدامة، كنيته أبو النجم، يعد من كبار الرجاز في العصر الأموي. أراجيزه ذات موضوعات بدوية، وقد أشاد اللغويون بحسن وصفه للخيل. وصل إلى قمة نجاحه في خلافة هشام بن عبد الملك (ت125هـ). ويبدو أنه توفي عن نيف وسبعين عاماً، قبل سنة 125هـ (انظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص 91، 92).

(2) الشعر والشعراء، ص 437.

(3) حباريات: جمع حبارى، وهو طائر.

(4) طبقات فحول الشعراء، 2 / 752. وعلّق الشيخ محمود محمد شاكر بأنه من رجز طويل ضاع منه كثير.

وكثير من رجزه على هذه الشاكلة، بعيد عن التقعر والإغراب، غير أنه «كان يتوسّع في الكلام ويحمل بعضه على بعض ويشق بعضه من بعض»⁽¹⁾.

ولشعراء الرجز نصيب من المناقضات الشعرية، وقد كانوا يستعدّون لها استعداد شعراء النقائض، من ذلك أن العجاج خرج على ناقة كوماً⁽²⁾، وعليه ثياب حسان، وخرج أبو النجم على جمل مهنوء⁽³⁾، وعليه عباءة، فأنشد العجاج:

قد جَبَرَ الدينَ الإلهُ فانجبرَ

وأنشد أبو النجم:

تذكرَ القلبُ وجهلاً ما ذكرَ

وفيهما يفتخر بقوله:

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرِ شيطانه أنثى وشيطاني ذكرُ

فانصرف الناس وهم ينشدون: «شيطانه أنثى وشيطاني ذكر»⁽⁴⁾، على نحو ما كانوا يصنعون بنقائض جرير والفرزدق.

ولهم أيضاً نصيب في المديح، فلأبي النجم أرجوزة في مدح هشام بن عبد الملك أشرنا إليها في حديثنا عن الشاعر، وللعجاج أرجوزة مشهورة في مديح عمر بن عبّيد الله بن معمر وقد توجّه لحرب الخوارج⁽⁵⁾.

(1) ابن جني، الخصائص، 1 / 230.

(2) ناقة كوماً: سنامها عظيم.

(3) جمل مهنوء: مطليّ بالقطران.

(4) الشعر والشعراء، ص 435.

(5) محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، ص 569 و 570.

الخطابة الأموية

تمهيد

المبحث الأول: خطب البيعة والخلافة

المبحث الثاني: الخطب السياسية

المبحث الثالث: الخطب الدينية

المبحث الرابع: خطب الوفود

المبحث الخامس: أعلام الخطباء

المبحث السادس: سمات الخطابة

الفصل الثامن الخطابة الأموية

تمهيد

ازدهرت الخطابة في العصر الأموي ازدهاراً كبيراً، لعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة، وقد أسهمت عوامل كثيرة في ذلك منها ⁽¹⁾:

1. كثرة الأحزاب السياسية والمذاهب الدينية وتناحر هذه الأحزاب والمذاهب ليثبت كل منها أنه على الحق وأن منافسه على الباطل، يتقدمها الأمويون، وهم الحزب الحاكم، في مقابل سائر الأحزاب من خوارج وشيعة وزبيرية.
 2. ازدهار الوعظ الديني وبروز وعاظ متخصصين في هذا الفن، كانوا ينتهزون كل فرصة للخطابة الدينية، فضلاً عن الخطب المفروضة كخطب الجمع والأعياد ومواسم الحج.
 3. موهبة العرب البلاغية وفصاحتهم الفطرية، فالعرب أمة ذات مواهب مشهود لها في البلاغة حتى لقد فضلها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين على جميع أمم الأرض في فن الخطابة.
 4. كثرة الوفود التي كانت تفد على الخلفاء والأمراء من الأقاليم لتعرض أحوالها ومشكلاتها على المسؤولين وكان ذلك العرض يتم على هيئة خطب.
- وقد ظهرت أنواع مختلفة من الخطب في العصر الأموي، يُمكن تصنيفها وفق موضوعاتها، واختلاف دواعيها إلى الأنواع التالية:
1. خطب البيعة والخلافة.
 2. الخطب السياسية.
 3. الخطب الدينية (الوعظ والقصص).
 4. خطب الوفود.

(1) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، 405 وما بعدها.

المبحث الأول

خطب البيعة والخلافة

وهي خُطب استنّها الخلفاء الراشدون، فقد خطب أبو بكر رضي الله عنه في الناس خطبته بعد مبايعته بالخلافة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وقال:

«أيها الناس! إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني، أطيعوني ما أطعْتُ الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقوامكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له، وأضعفكم عندي القويّ حتى أخذ الحق منه، أقولُ قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم»⁽¹⁾.

وسار على نهجها عمر بن عبد العزيز على وجه الخصوص، الذي يُعدّ تمة لعهد الراشدين، لما عُرف به من تقوى وورع، فقد صعد المنبر عقب دفن الخليفة سليمان بن عبد الملك، وقد اجتمع الناس إليه، فقال:

«أيها الناس! إني قد ابتُلّيت بهذا الأمر على غير رأي مني، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين. وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي، فاخترُوا لأنفسكم».

فصاح الناس صيحةً واحدةً: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك. فلما رأى الأصوات قد هدأت، ورضي الناس بها جميعاً، حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم خطب فيهم، وأوصاهم بتقوى الله وطاعته، والعمل لأجل رضاه، وختم خطبته بقوله:

«أيها الناس! مَنْ أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله، فلا طاعة لي عليكم»⁽²⁾.

فقط طرق المعاني التي طرقها أبو بكر رضي الله عنه في خطبته الأنفة الذكر.

صنو ذلك خطبة يزيد بن الوليد بن عبد الملك التي ألقاها بعد مقتل الوليد بن يزيد، إذ يقول:

«فإن أنا وفيت لكم، فعليكم السمع والطاعة، وحسن المؤازرة، وإن لم أوفِ لكم، فلکم أن تخلعونني».

(1) عيون الأخبار، 2 / 234.

(2) مروج الذهب، 3 / 184، سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص 54.

ونراه يتحدث عن الخليفة المقتول، ويُبَيِّن لهم أن خروجه عليه، ما هو إلا لمصلحة المسلمين:

«أيها الناس! إني والله ما خرجتُ بَطَرًا، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، ما أقول هذا إطرأً لنفسي، وإني لظلم لهما، إن لم يرحمني ربي، ولكن خرجت غضباً لله ولدينه، وداعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه، لما هُدمت معالم الدين، وأطفئ نور الهدى، وظهر الجبار العنيد، المستحلُّ لكل حُرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله يُصدِّق بالكتاب، ولا يؤمن بيوم الحساب، ولا يُصدِّق بالثواب والعقاب، وإنه لابنُ عمِّي في النَّسَب، وكُفِّي في الحسب، فلما رأيتُ ذلك استخرتُ الله في أمره، وسألته أن لا يكلني إلى غيره...»⁽¹⁾.

فهو يُسوِّغ خروجه على الوليد مع أنه ابن عمه، وذلك لفساد سيرته.

وهذا لا يعني أن خلفاء بني أمية احتذوا حذو الخلفاء الراشدين في إعلانهم طلب العدل وطاعة الناس لهم ما داموا على الحق، فكانت خطبة معاوية في أهل المدينة حين قدم إليها تختلف عن خطب الخلفاء الراشدين، فقد قيل إن رجالاً من قريش تلقوه، وقالوا له: الحمد لله الذي أعزَّ نصرَك، وأعلى كُفَّك. فلم يُجيبهم حتى صعد المنبر، وبَيَّن لهم أنه تولَّى الخلافة عنوة، بقوله:

«أما بعد، فإني والله ما وليتها بمحبَّةٍ منكم، ولا مسرَّةً بولائي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة»⁽²⁾.

ويدخل في نطاق خطب البيعة خطب الولاة، إذ يخطب الوالي في أهل البلد الذي يتولى إمرته، فيعلن عن سياسته التي سيتبعها، وغالباً ما تكون لهجته قاسية تهزُّ القلوب، على نحو ما يلقانا في خطبة زياد بن أبيه في أهل البصرة، وقد حفلت بالتهديد والترهيب.

(1) البيان والتبيين، 2 / 115.

(2) العقد الفريد، 4 / 82.

المبحث الثاني

الخطب السياسية

نشطت الخطابة السياسية في العصر الأموي، إذ اتخذتها الأحزاب السياسية وسيلة في بيان برامجها ومواقفها في الحروب والمفاوضات التي تعقبها، وواكبت التطورات السياسية وانتقال السلطات؛ من ذلك ما ذكره الجاحظ حين اجتمع الناس لبيعة يزيد بن معاوية، وأظهر بعضهم الكراهة، فقام رجل من عُذرة يقال له يزيد بن المقنّع، فاخترط سيفه ثم قال: أمير المؤمنين هذا. وأشار بيده إلى معاوية، فإن مات فهذا، وأشار بيده إلى يزيد، فمن أبى فهذا، وأشار بيده إلى السيف، فقال معاوية، أنت سيد الخطباء⁽¹⁾.

وعُرف عبد الملك بن مروان بخطبه البليغة المؤثرة، وقد عدّه الجاحظ خطيباً، وأنّ المنابر قد شيّتته، وتلقانا خطبته في أهل الكوفة بعد قضائه على مصعب بن الزبير⁽²⁾:

«أيها الناس! إنّ الحربَ صعبةٌ مُرة، وإنّ السّلمَ أمنٌ ومُسرة، وقد زيتنا الحربُ وزيتناها، فعرفناها وألفناها فنحن بنوها وهي أمّنا...، لا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين، وأنتم لا تعملون بأعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً، ولن نزداد بعد الأعدار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة، فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة...»⁽³⁾.

وكان الشيعة يستعملون الخطابة في بيان مواقفهم السياسية إزاء الحكم الأموي، من ذلك خطبة الحسين بن علي حين قدم العراق، ورأى تقاعس القوم الذين استدعوه، وحثّوه على القدوم، إذ يقول:

«أما بعدُ، أيها الناس! فإنكم إن تتّقوا، وتعرفوا الحقَّ لأهله يكن أرضى الله، ونحن - أهل البيت - أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعُدوان، وإنّ أنتم كرهتمونا، وجهلتم حقّنا، وكان رأيكم غير ما أتاني، وقدمت به عليّ رُسلكم انصرفت»⁽⁴⁾.

(1) البيان والتبيين، 1 / 300.

(2) الأمالي، 1 / 11. وانظر: في أدب الإسلام، ص 644.

(3) الكامل، 1 / 244.

(4) تاريخ الطبري، 7 / 47 وما بعدها.

واتخذ الخوارج الخطابة وسيلة لإذكاء روح الحماس في نفوس أتباعهم والشباب على وجه الخصوص، ومن أبرز خطبائهم أبو حمزة الشاري، وقطري بن الفجاءة، ونافع بن الأزرق وغيرهم.

وكذلك اتخذ الزبيريون الخطابة وسيلة لدعم سياستهم، فهذا مصعب بن الزبير يخطب في أهل العراق، ليؤيد موقف أخيه عبد الله من بني أمية، بالاستشهاد بالآيات الكريمة، وكان قد استولى على مكة، وأعلن نفسه خليفة، وعيَّنه والياً على البصرة فيشير إلى أهل الشام، ثم يكمل الآية ليبين أن الله سوف ينصر أهل الحجاز.

ويعضي في خطبته فيكملها بآيتين كريمتين، ويشير إلى الحجاز ويتلو قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5]، ويتلو قوله تعالى: ﴿وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 6]، وأشار بيده إلى أهل العراق.

وهو بذلك يبين مقصده باختيار هذه الآيات الكريمة ويدلنا على غرضه وفكرته.

المبحث الثالث

الخطب الدينية (الوعظ والقصص)

وهي الخطب التي تُلقي في المساجد في صلاة الجمعة والعيد، وفي المناسبات الدينية المختلفة للوعظ والإرشاد والحث على الاستمسك بالفضائل الإسلامية. وظلت على ازدهارها في العصر الأموي، فكان الخلفاء والولاة والوعاظ يشاركون فيها، إذ نجد للخليفة عمر بن عبد العزيز خطبة بارعة مأثورة، تعكس سيرته التي بُنيت على التقوى والزهد، وقد قيل إنها آخر خطبة خطبها، إذ يقول⁽¹⁾:

«أيها الناس! إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سُدًى، وإنَّ لكم معاداً يحكم الله بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسَّعتْ كُلَّ شيء، وحُرم الجنة التي عَرَضُها السماوات والأرض.

واعلموا أنَّ الأمانَ غداً لمن خاف الله اليوم، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباقي، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم في أسلاب المالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقيون حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين؟ ثم أنتم في كل يوم تُشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى لحبه وبلغ أجله ثم تُغيبونه في صدع الأرض، ثم تدعونه غير مُوسَّد ولا مَهد، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب، غنياً عما ترك، فقيراً إلى ما قدَّم. وإني والله إني لا أقول لكم هذه المقالة ما أعلم عند أحدٍ منكم من الذنوب أكثر مما عندي، فاستغفر الله لي ولكم».

فهذه خطبة وعظية اشتملت على ثلاثة أجزاء:

1. المقدمة: يُمهّد فيها الخطيب لموضوعه، ويثير فينا الشوق لما بعدها، فيذكرنا بأن الناس لم تُخلق عبثاً، وأنهم سوف يحاسبون على أعمالهم يوم القيامة.
2. العرض: فالخطيب يبسط خطبته ويوضحها لنا، فالمعاد وهو يوم الحساب، بعده جنة أو نار، فالعاصي يُحرم الجنة والمطيع في رحمة الله. أما طريق الخلاص فهي أن يعمل الإنسان لآخرته ولا يلهو في دنياه. وأما المصير فهو القبر الذي يُؤارى فيه الإنسان بعد الموت، حيث تنقطع الدنيا وأسبابها.
3. الخاتمة: ويلخص فيها الخطيب القضية المركزية التي تدور حولها الخطبة، وتركز في أن ينظر المرء إلى ذنوبه، فيستغفر، ويُقلع عن الذنوب.

(1) شرح نهج البلاغة، 1 / 150.

والملاحظ في هذه الخطبة جمال الأسلوب الذي يقوم على التقديم والتأخير أحياناً كما في قوله: «إن لكم معاداً» و«سيخلفكم من بعدكم الباكون»، أو على الترادف المعنوي حيناً آخر في مثل قوله: «لم تُخلقوا عبثاً، ولم تُتركوا سدى» و«خاب وخسر» و«باع قليلاً بكثير، وفانياً بياق» و«قد قضى نحبه وبلغه أجله» أو على السجع العفوي غير المتكلف في مثل قوله: «غير مُوسَد ولا مُمهَّد» و«قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب».

ويعتمد إلى بعض المحسنات البديعية الأخرى في توضيح معانيه وتوكيدها في نفوس السامعين كالطباق والمقابلة في مثل قوله: «قليلاً بكثير، وفانياً بياق» و«الهالكين... والباكون...» و«غادياً ورائحاً» و«غنياً وفقيراً».

وهو لا يغفل عن الصورة في تذكير سامعه بالموت وما يؤول إليه بعده، إذ يُؤارى «في صدع من الأرض» وحين يترك أهله وأحبابه «غير مُوسَد ولا مُمهَّد» وقد خلا من كل شيء دنيوي.

وقد كان للنُّسَّاك والعُبَّاد خطب وعظية، دعوا فيها الناس إلى الالتزام بمبادئ الدين الحنيف، عن طريق الترغيب والترهيب، تسعفهم بلاغتهم الساحرة، وعباراتهم التي تدخل القلوب قبل أن تفرع الأذان. ويذكر الجاحظ نفراً منهم، على رأسهم الحسن البصري وفيه يقول: «أما الخطب (الدينية) فإننا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن فيها»⁽¹⁾.

وكان لخطب الحسن الوعظية تأثير كبير في نفوس السامعين فلما تولى عمر بن هبيرة الفزاري العراق لعهد يزيد بن عبد الملك استدعى الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، والشعبي، وكلهم من الخطباء، فقال لهم: إن يزيد خليفة الله، استخلفه على عباده، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة. وقد ولّاني ما ترون، فكتب إليّ بالأمر من أمره، أعرف في تنفيذه الهلكة، فأخاف إن أطعته غضب الله، وإن عصيته لم آمن سطوته، فما ترون؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية، فلما تكلم الحسن قال واعظاً: يا بُنْ هبيرة، خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله. فلما أكمل خطبته بكى ابن هبيرة بكاءً شديداً⁽²⁾.

(1) البيان والتبيين، 1 / 354.

(2) م.ن، 3 / 132.

ويلقانا واصل بن عطاء بموعظته القصصية التي عُذَّت من خير مواعظ العصر وأبرعها وهو يردد فيها ما كان يجري على ألسنة الوعاظ من دعوة إلى التقوى والحذر من الدنيا، والتزوّد بزاد الآخرة، ويختمها بالحديث عن الدول والأمم الغابرة، لأخذ العبرة، فيقول: (1):
«إين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد، قبضتهم بمحملها (2)، وطحنتهم بكلكلها (3)، وعضّتهم بأنيابها، وعاضتهم من السّعة ضيقاً، ومن العزّة ذلاً، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا ثرى إلا مساكنهم، ولا تجدد إلا معالمهم، ولا تُحسنّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم نبأ».

وقد أشاد الجاحظ ببلاغة واصل، وأنه كان يتخلص في كلامه من حرف الراء، للثغة فيه. وهو ما نلاحظه في خطبته هذه، التي كان يتجنّب فيها حرف الراء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ويمكن أن نورد موعظة للحسن البصري نستقي منها ميزات خطبه خاصة، والخطب الوعظية عامة، وفي هذه الموعظة التي رواها ابن الجوزي في كتابه «سيرة الحسن البصري»، تدور حول صفة المؤمن:

«هيّات هيّات (4)، أهلك الناسَ الأمانى، قولْ بلا عمل، ومعرفةً بغير صبر، وإيماناً بلا يقين، إنما دينُ أحدنا لعةٌ على لسانه، إذا سُئلَ أمؤمنٌ أنتَ بيوم الحساب؟ قال: نعم. كذبٌ ومالكٌ يوم الدين، إنّ من أخلاقِ المؤمنِ قوّةٌ في دين، وحزمٌ في لين، وإيماناً في يقين، وعلماً في حلم، وحِلماً بعلم، وذكاءٌ في رفق، وإنصافاً في استقامة. لا يجيف (5) على مَنْ ييغض، ولا يائثم في مساعدة من يُحبّ، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يلهو ولا يلعب، ولا يتّبع ما ليس له، ولا يجحد الحقّ الذي عليه، ولا يشمت بفجيعة غيره، ولا يُسرّ بمعصية سواه.

المؤمنُ في الصلاة خاشع، وإلى الصالحات مُسارع، قوله شفاء، وصبره ثقي، سكوته فكرة، ونظره عبرة، يخالط العلماء ليعلم، ويسكت بينهم ليسلم، إنّ أحسنَ استبشر، وإن

(1) انظر: أحمد زكي صفوت، جهرة خطب العرب، 2 / 482.

(2) المحمل: شقان على البعير.

(3) الكلكل: الصدر.

(4) هيّات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بُعِد، والمقصود بأنّ من المستبعد أن يكون الإيمان.

(5) يجيف: يظلم ويحور.

أساء استغفر، لا يتعوذ بغير الله، ولا يستعين إلا بالله، وقورّ في الملا⁽¹⁾، شكورّ في الخلا⁽²⁾، حامدٌ على الرّخاء، صابرٌ على البلاء، إن جلس مع الغافلين، كُتب من الذاكرين.

هكذا كان أصحابُ النبي ﷺ، حتى لحقوا بالله ﷻ، وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح، ولما غيّر بنا حين غيرنا. إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له، وما لهم من دونه من وال⁽³⁾.

والملاحظ في هذه الخطبة قصر الفقر وتوازنها، وجمال التقسيم، والاقتباس المباشر من القرآن الكريم، في مثل قوله: إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له، وما لهم من دونه من وال. وهو يربط بين فقره، فقد بدأ موعظته باللائمة على من يدّعي الإيمان باليوم الآخر وأعماله تُخالف أقواله. ثم انتقل إلى ما يتصف به المؤمن من صفات كالصبر واليقين والحزم والحلم والذكاء والرحمة وعفة اللسان وغيرها. وختمها بالعودة إلى سيرة السلف الصالح الذين اتصفوا بهذه الصفات، وخلّص إلى ضرورة التغيير بمراجعة النفس ومحاسبتها.

ولم تخل خطب الولاة من وعظ وتذكير بالموت، على نحو ما يلقانا الحجاج في بعض خطبه الوعظية، وهو المعروف بقسوته وحزمه الزائد، إذ يقول:

«أين الملوك الأولون؟ أين الجبابرة والمتكبرون؟ والصراط منصوب، وجهنّم تزفر وتتوقّد. وأهل الجنة ينعمون، في روضة يُحبرون، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يمحروا عليها صمّاً وعمياناً...»⁽³⁾.

وقد بُهر الحسن البصري بهذه الخطبة وتعجّب من الروح الدينية فيها، حتى لنجده يقول: «ألا تعجبون! هذا الفاجر يرقى عتبات المنبر، فيتكلّم بكلام الأنبياء، وينزل فيفتك فتك الجبارين! يوافق الله في قوله، ويُخالفه في عمله»⁽⁴⁾.

(1) في الملا: في حضور الناس.

(2) في الخلا: وهو خالٍ وحده.

(3) انظر: أثر القرآن في الأدب، ص 210.

(4) البيان والتبيين، 2 / 2804.

المبحث الرابع

خُطَب الوفود

وهي لون من الخطابة عرفه العرب منذ الجاهلية، في منافراتهم ومصاهراتهم، وفي عقد صلح بين عشائرتهم، وفي مخاطبة الملوك والأمراء. فلما جاء الإسلام وتمّ الفتح المبين أخذت وفود القبائل تقدّم على النبي ﷺ يتقدّمهم خطباً وهم، ويدخلون في دين الله أفواجا، فأسلم بنو ثقيف (في الطائف) وبنو أسد (في نجد) وبنو تميم. ثم تالت وفود اليمن وما حولها. ومن الخطباء المشهورين عطار بن حجاب بن زُرارة وكان الخطيب عند النبي ﷺ كما يقول الجاحظ ⁽¹⁾. وكثيراً ما كان الخطباء يخطبون بين أيدي الخلفاء الراشدين.

وفتح معاوية بن أبي سفيان أبوابه لتلك الوفود، بعد إعلانه خليفة، فكانت ترد إليه تبعاً، وكان الخطباء يقفون بين يديه، مؤيدين ومبايعين تارة، وطالبيين العطاء أو عارضين ظُلّامة تارة أخرى. ومن وقف بين يديه سحبان وائل الذي عرف بخطبته الشواء، والأحنف ابن قيس خطيب تميم.

وقد ترد الوفود للتهنئة أو التعزية، فقد دخل عبد الله بن همام السلولي على يزيد بن معاوية حين استخلف والناس مجتمعون على بابه يتهيئون القول، فدخل عليه وقال:

«يا أمير المؤمنين، أجرك الله على الرّزية، وبارك له في العطية، وأعانك على الرّعية، فلقد رُزيت عظيمًا، وأعطيت جسيمًا، فاشكر الله على ما أعطيت، واصبر على ما رُزيت، فقد فقدت خليفة الله، ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلاً، ووهبت جزيلاً» ⁽²⁾.

فكانت أول خطبة جمعت تهنئة وتعزية في كلام واحد، ثم صارت نهجاً بعد ذلك. فتلقانا خطبة غيلان بن سلمة الثقفي، عند وفاة عبد الملك بن مروان، وجلوس ابنه الوليد، ودخل الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يُعزّونه؟، فنسمعه يقول: ⁽³⁾

«يا أمير المؤمنين، أصبحت قد رُزيت خير الآباء، وسُميت خير الأسماء، وأعطيت أفضل الأشياء. فعظّم الله لك على الرّزية الصبر، وأعطاك في ذلك نوافل الأجر، وأعانك على حُسن الولاية والشكر، ثم قضى عبد الملك بحير القضية، وأنزله بأشرف المنازل المرضية، وأعانك من بعده على الرّعية».

(1) البيان والتبيين، 1 / 214.

(2) م.ن، 2 / 191.

(3) العقد الفريد، 4 / 449.

وهكذا كانت الوفود تختار أبرع خطاباتها للوقوف بين يدي الخليفة أو الوالي، لتظفر بالإعجاب.

فكثرت الوفادات على الخلفاء بعامة وعلى عمر بن عبد العزيز بخاصة. فممن ورد عليه خالد بن صفوان، وعبد الله بن الأهتم، ومحمد بن كعب القرظي.

وقد يفد شخص واحد على الخليفة أو الوالي، فقد لاذ الكُميتُ بهشام بن عبد الملك، ووقف بين يديه معترداً، معلناً توبته، فرقاً له هشام وعفا عنه، ومنها⁽¹⁾:

«أما بعد، فإن كنتُ أندهوى في غمرة، وأعوم في بحر غواية، أخنى عليّ خطيئها، واستفزني وهلها، فتحيرت في الضلالة، وتسكّعت في الجهالة، مُهرعاً عن الحق، حائراً عن القصد، أقول الباطل ضلالاً، وأفوه بالبهتان وبالألأ. وهذا مقام العائد، مبصر الهدى، ورافض العماية، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة، واصفح عن الزلّة».

وعُرف الأحنف بن قيس سيّد تميم وخطيبها بجراته، حتى قيل إنه كان إذا غضب، غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب. ومن خير ما يُمثّل ذلك كلمته عقب الوفود التي استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد، فإنه حين جاء دوره في الكلام قال:

«يا أمير المؤمنين، أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلايته، ومدخله ومخرجه. فإن كنت تعلمه لله رضا، ولهذه الأمة فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة»⁽²⁾.

وعُرف أيضاً بقدرته على حوك الكلام ومنطقه الرائع، فحين ادلهم الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية، واصطدمت الأزد بتميم، ووقع بعض القتلى، يتدخل الأحنف ويحقن الدماء بينهما، ويؤدي ديات القتلى من ماله، ونراه يتوجه إلى الأزد بهذه الكلمة:

«يا معشر الأزد وربيعة، أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصُهر، وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو. والله لأزُد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزُد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استشرى⁽³⁾ شنانكم⁽⁴⁾، وأبى حسكُ صدوركم⁽⁵⁾ ففي أموالنا وأحلامنا سعدٌ لنا ولكم».

(1) الأغاني، 16 / 236.

(2) العقد الفريد، 4 / 370.

(3) استشرى: تفاقم.

(4) الشنان: العداوة.

(5) حسك الصدور: الحقد.

المبحث الخامس

أعلام الخطباء

أ. زياد ابن أبيه (ت 673م / 53هـ)

1. حياته

هو أبو المغيرة زياد بن سمية المعروف بزياد ابن أبيه، من أهل الطائف، وقد اختلف المؤرخون في سنة مولده فذهب الكثيرون منهم إلى أنها السنة الأولى للهجرة، وكان مدخول النَّسَب، إذ اختلف الناس في من هو أبوه، ف قيل عُبيد الرومي -وهو غلام للحارث بن كلدة- وقيل أبو سفيان. وكانت أمه سُمَيَّة جارية للحارث بن كلدة الثقفي. فأسلم الغلام في عهد أبي بكر وظهرت عليه النجابة منذ حدثته، فاتخذهُ أبو موسى الأشعري كاتباً له أيام إمرته على البصرة، ثم ولّاه علي بن أبي طالب إمرة فارس فأخذ ثورتها وضبطها؛ ولما توفي علي امتنع زياد على معاوية وتحصن في قلاع فارس، فجذب معاوية في استمالته لما عرف من شدته وحسن إدارته وبعد نظره، واستلحقه بنسبه بعد أن شهد ناس من المسلمين أنه ابن أبي سفيان، وكتب إليه بذلك وأمنه، فسار إليه زياد وسلمه ما لديه من خراج فارس ويقدر بمليون دينار، فولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ثم جمع له الهند والبحرين وعمان، ولم يزل في تلك الولاية حتى توفي سنة 673م / 53هـ وله من العمر ثلاث وخمسون سنة.

وكان العراق في تلك الفترة من الزمن يضطرب بالثورة ويعج بالخوارج، فكان زياد حرباً عليهم، فاشتد على المعارضة حتى اضطرها إلى السكينة والإذعان، وقد لجأ إلى الوسائل الفعالة، وبطش بالمشاغبين والمفسدين بطشاً شديداً، حتى استتب الأمن في البلاد. فكان زياد أبرع شخصية تقلدت الولاية في عهد الأمويين ومن أقوى أهل زمانه بطشاً وشدّة مراس؛ وقد قال الأصمعي: «الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبيهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل كبيرة وصغيرة»⁽¹⁾، وبذلك يُعدّ سياسياً ماهراً بعيد النظر بحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية؛ فقد قام بإصلاحات عدّة، منها: إعادة بناء مسجد الكوفة وتبليط أرضه، ثم إنه حارب العصية القبلية، وجعل جند البصرة أربعة أقسام، وجعل على كل قسم منها قائداً موالياً لبني أمية.

(1) انظر: الأغاني، ص 16 / 3 وما بعدها.

2. آثاره

لزياد خطب سياسية وإدارية متفرقة في كتب الأدب، أشهرها الخطبة المعروفة بالبراء لأنه لم يتدثها بحمد الله كما يفعل الخطباء عادة. وقيل بل حمد الله على إفضاله، فقال: الحمد لله على إفضاله، ونسأله المزيد من نعمه، اللهم كما رزقتنا نعماً، فأهملنا شكراً على نعمتك علينا⁽¹⁾.

ألقاها سنة 665م / 45 هـ حين قدم البصرة والياً من قبل معاوية فوجم لها الناس، فمنهم من أذعن لها خائفاً، ومنهم من أثنى متملقاً، ومنهم من حاول الإنكار، ولكن سياسة زياد العملية لم تلبث أن بيّنت الناس أنه جاد غير هازل في ما أعلن من نذير.

نموذج من خطبه

من الخطبة البراء

أما بعد، فإنّ الجهالة الجاهل⁽²⁾، والضلالة⁽³⁾ العمياء⁽⁴⁾، والغنيّ الموفّي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى⁽⁵⁾ منها الكبير، كأنّ لم تسمعوا بآي الله، ولم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته.

قرّبتم القرابة وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتُعْطُونَ على المختلس، كل امرئ منكم يذبّ عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عقاباً، ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحلّماء، ولقد اتبعت السفهاء، ولم يزل بهم ما ثرون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرّم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كؤوساً في مكائس الرّيب.

حرامّ عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً. إنني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. وإنني أقسم

(1) انظر: البيان والتبيين، 2 / 62.

(2) الجهالة الجاهل: الجهالة الضلالة، والجهلاء توكيد للجهالة.

(3) الضلالة: الباطل والغنيّ.

(4) العمياء: الشديدة.

(5) يتحاشى منها: يتنحّى عنها ويتباعد.

بالله لأخذن الولي بالمولي، والمقيم بالطاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد⁽¹⁾، أو تستقيم لي قناتكم.

ولإيائي وذليج الليل، فإني لا أوتى بمُدليج إلا سفكت دمه، وإيائي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوماً غرقته، ومن حرق قوماً حرقناه، ومن نقب بيتاً⁽²⁾ نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً، فكفوا عني أيديكم وألستكم أكف يدي وأذاي، لا يظهر من أحد منكم، خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.

أيها الناس! إنا أصبحنا لكم سامة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بنبيء الله الذي خوئنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما وُئينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم.

أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله، وإيئ الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي

أجزاء الخطبة

1. توبيخ لأهل البصرة بسبب تعاونهم على الفتنة وتفضيلهم القرابة على الدين، وتقريرهم لأنهم انتبذوا كتاب الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانية على دار الخلود.
2. تهديد للعصاة بأن يؤخذوا بأشد أنواع العقوبات، أو ما يسمى بالأحكام العرفية التي تأخذ الطائعين بذنب العصاة.
3. تحذير من السير ليلاً (وهذا هو منع التجول) ومن دعوى الجاهلية.
4. تنديد بالجرائم التي ابتكرها أهل البصرة وفرض عقوبات تناسبها.
5. خاتمة عنيفة تحذر كل مواطن أن يكون ضحية للفتنة.

(1) مثل سائر أول من قاله ضبة بن أد، وكان له ابنان، يقال لأحدهما سعد، وللآخر سعيد. فنفرت إبل لضبة تحت الليل، فوجّه ابنه في طلبها، ففترقا، فوجدها سعد فردّها، ومضى سعيد في طلبها، فلقيه الحارث بن كعب وكان على الغلام بردان، فسأله الحارث إيّاها، فأبى عليه، فقتله، وأخذ برديه، فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سواداً قال: أسعد أم سعيد؟ فذهب قوله مثلاً. وهو يُضرب في النجاح والخيبة.

(2) نقب بيتاً: ثقب جداره ليسرقه.

القيمة الفنية

لهذه الخطبة قيمة فنية؛ إذ قامت على حسن التأليف وشدة العاطفة وروعة الأسلوب. فالخطبة البتراء حسنة التأليف، مقسمة إلى فقر، وكان لكل فقرة وحدة قائمة بنفسها على غير ما عهدناه في الخطابة القديمة، تتسلسل الأفكار في إيجاز محكم من غير غموض ولا تعسف، في قوة تستمدّها من عاطفة شديدة تعصف بالكلام عصفاً، فيجري على الأساليب المتنوعة متقلّباً بين تحذير وتهديد ووعد ووعد، وضروب من الاستفهام والقسم والتعجب وما إلى ذلك مما يكسب الكلام حياة قوية فيُقي في النفوس أثراً عميقاً.

كل ذلك في صياغة حسنة وعناية باللفظ ظاهرة، وعبارات لا تخلو من التشبيه والاستعارة، وموسيقى شديدة الإيقاع. فلا عجب بعد ذلك كله أن قال الشعبي: «ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا تمنيت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً»⁽¹⁾.

ومن ثم فإن هذه الخطبة تُعد من أبلغ الخطب العربية، وهي تستمد روعتها من الأمور التالية:

1. تدرّجه في معانيه، فهو يعلن خطته في سياستهم بما فيها من تهديد وترهيب: «إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني لأقسم بالله لأخذنّ الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمُدبر».
2. التقسيم الرائع إلى فقر متناسبة متوازية تحدث موسيقى مؤثرة ووقعاً بليغاً.
3. التأثير الواضح بأسلوب الإمام علي من حيث الصراحة والشدة ومن حيث البلاغة والتأثير.
4. التأثير العميق بالألفاظ الإسلامية وخصوصاً في الجزء الأول من الخطبة.
5. السجع غير المتكلف الذي جمل الأسلوب وجعل له رنيناً مؤثراً.
6. تصور الخطبة ما صار إليه أهل البصرة من فساد وانحراف، وقد نجح الخطيب في تجسيم صور الفساد في البصرة.
7. الاستشهاد بالأمثال، ومنها: «انجُ سعدٌ فقد هلك سعيده».

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، 2 / 65.

وأياً كان الأمر، فقد كان زياد والياً يُمثل سياسة معاوية التي تخلط الإدارة باللين، وهو لم يعمد إلى سفك الدماء إلا لضرورة، وكان أقصى ما يريده أن تلتزم الرعية بالطاعة، وقد أخذ الفُسّاق والجنّة بالعنف والشدة، وبذلك أعاد الاستقرار والأمن في البصرة، حتى قالوا إنّ المرأة كانت تبيت وبابها مفتوح لا تخشى لصاً.

ب. الحجاج بن يوسف (41 - 95هـ)

نسبه ونشأته

أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ولد بالطائف نحو سنة 661م / 41هـ. ونشأ نشأة فقيرة، فكان هو وأبوه يعلمون الصبيان. ولكنه كان طموحاً يتطلع إلى المجد، ولذلك ترك التعليم وانتظم في سلك جيش يزيد بن معاوية، وفي عهد عبد الملك بن مروان انضم إلى الشرطة، ثم ولي على جند عبد الملك فضبط أمرهم وجعلهم كالخاتم في إصبع الخليفة، ولما رأى حزمه وشجاعته وجهه لقتال عبد الله بن الزبير بمكة المكرمة فحاصرها ورمى الكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير وقطع رأسه وبعث به إلى الحجاج، ثم صلبه فأوقع الرعب في قلوب أهل الحجاز.

ثم تولى العراق عشرين سنة، فأخذ الناس بالشدة، وأرجع الأمن إلى نصابه. هزم ابن الأشعث بدير الجماجم قرب الكوفة سنة 82هـ وقد توفي الحجاج سنة 714م / 95هـ بعد حياة ملاًها بالأعمال الإصلاحية والإدارية والعمرانية، وتسيير الجيوش لتوسيع رقعة الدولة الإسلامية.

صفات الحجاج

1. كان الحجاج من عظماء الرجال، ذكره ابن خلدون في الوزراء الذين عظمت آثارهم وطفغت على الخلفاء أخبارهم. وكان الحجاج شجاعاً ولم يكن يخلو من السياسة. ولكن عيبه الشديد في قسوته التي تجاوزت الحد، فقد قتل التابعي سعيد بن جبير.
2. كان الحجاج خطيباً بارعاً يفتح ببيانه القلوب المقفلة.
3. كان مصلحاً إدارياً حازماً، بنى مدينة واسط واتخذها مقراً له. ونقل لغة الدواوين من الفارسية إلى العربية، وسك العملة باللغة العربية وكتب على الدراهم لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولَبَّى نداء امرأة سُبيت في الهند، فأنفق سبعة ملايين من الدراهم حتى هزم الأعداء وخلصها.

العوامل التي أثرت في أدبه

1. ثقافته اللغوية والأدبية: فقد نشأ معلماً وتمتع بثقافة واسعة في اللغة والأدب، وكان لا يلحن في جد ولا هزل.
2. حفظه القرآن الكريم وفهمه لكثير من أحكام الدين، مما جعله يستشهد في خطبه بالقرآن.

3. فطرته ومواهبه الأصيلة، فهو من قبيلة ثقيف التي تعد أقوى قبائل الحجاز بعد قريش، ثم إنه ولد بخصائص عقلية ونفسية. ولعل قصره ودمايته وعبور عينه كان لها أثر في شخصيته.

4. الفتن والثورات التي كانت طابع عصر الحجاج هي التي كشفت مواهبه وقدراته.

خطبة الحجاج بن يوسف بالكوفة حين استعمل على العراق⁽¹⁾

خرج الحجاج يريد العراق والياً عليها في اثني عشر ركباً على النجائب، حتى دخل الكوفة فجأة، حين انتشر النهار، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية، فبدأ الحجاج بالمسجد، فدخله ثم صعد المنبر، وهو متلثم بعمامة خزٍ حمراء، فقال: عليّ بالناس، فحسبوه وأصحابه خوارج، فهموا به، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد، قام فكشف عن وجهه، ثم قال⁽²⁾:

أنا ابنُ جَلّا وطلّاعُ الثّيا مَنى أضْعُ العِمامةَ تعرفوني

أما والله إنني لأحتملُ الشرَّ بِجُمْلِهِ⁽³⁾، وأحذوه بنعله⁽⁴⁾، وأجزيه بمثله، وإنني لأرى رؤوساً قد أينعت، وحنّ قِطافُها، وإنني لصاحبها! وإنني لأنظرُ إلى الدماء تَرَقُّقُ بين العمام واللّحي.

إنني والله يا أهلَ العراق، والشّقاق والتّفّاق، ومساوئ الأخلاق، ما أغمز نغماز التّين⁽⁵⁾، ولا يُقعقع لي بالشّنان⁽⁶⁾، ولقد فُرتُ عن ذكاء⁽⁷⁾، وفُتشتُ عن تجربة⁽⁸⁾، وجريتُ إلى الغاية. إنّ أمير المؤمنين نثر كِنانته⁽⁹⁾، ثم عَجَمَ عيدانها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها

(1) انظر البيان والتبيين، 2 / 246.

(2) البيت من قصيدة مشهورة لسُحيم بن وثيل الرياحي. انظر: الأصمعيات، ص 170.

(3) أحتمل الشر بجملة: يقوى على الشر الشديد ويطيقه.

(4) أحذوه بنعله: أردّ عليه بمثله، أخذه من قولهم: «حذو النعل بالنعل» ويضرب في التسوية بين الشئين. (انظر: مجمع الأمثال، 1 / 347).

(5) يعني أنه صلب متين لا يلين على الشدة.

(6) الشّنان: القربة البالية اليابسة، أي لا يُخدع ولا يُروّع.

(7) يريد أنه لا يُبارى ولا يُجارى.

(8) اختبرت فوجدت ذكياً.

(9) الكِنانة: جعبة السهام.

عموداً، فوجهني إليكم⁽¹⁾، فإنكم طالما أوضعتم في الفتن⁽²⁾، واضطجعتم في مراقد الضلال⁽³⁾، وسنتم سنن الغي. أما والله لأخوئكم لأخو العصا، ولأعصبتكم عصب السلّة⁽⁴⁾، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل!⁽⁵⁾

فإنكم لكاهل ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112]، ولاني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق⁽⁶⁾ إلا قرئت⁽⁷⁾. فإياي وهذه الجماعات⁽⁸⁾، وقال وقيل، وما تقول! وفيم أنتم وذلك! أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن منكم شغلاً⁽⁹⁾ في جسده.

ولإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطيائكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة.

ولاني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه، وأنهيت ماله، وهدمت منزله.

ولما فرغ من الخطبة قال لغلامه: يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين. فبدأ يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين. سلام عليكم فسكتوا. فقال الحجاج: اكف يا غلام. والتفت إلى الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين ولا تردون؟ والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب. فلم يبق في المسجد أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام.

(1) يريد أنه اختبر أصحابه فوجدني أمرهم وأصلبهم، فرماكم بي.

(2) أوضعتم في الفتن: أسرعتم إليها.

(3) أي لزمتم الضلال ولم تفارقوه.

(4) السلّة: نوع من الشجر، له شوكة.

(5) مثل يضرب في ردع الظالم عن ظلمه بأشد ما يمكن. انظر: مجمع الأمثال، 2 / 260.

(6) أخلق: أقدر من الخلق، وهو التقدير.

(7) أفري: أقطع.

(8) إياي وهذه الجماعات: نهاهم أن يجتمعوا.

(9) الشغل: الهم والأمر الذي يتعلق به.

التعليق

يُعدُّ الحجاج في الذروة من أهل الخطابة والبيان في العصر الأموي، حتى ليوضع مع زياد ابن أبيه في طبقة واحدة، وإن فضله زياد بحلاوة منطقه فقد كان يمتاز بمجازاة اللفظ وفخامته.

وأسلوب الحجاج في هذه الخطبة له مميزات منها:

1. يعتمد إلى الإغراب لتفخيم الأمور وتهويلها على السامعين، وهو يكثر من الصور المفزعة، والألفاظ الزاجرة، والأشعار الغريبة، في تحبير وتنميق.
2. إيجاز العبارة وجزالتها، وسرعة تدفقها، وشدة موسيقاها، يقع فيها سجع غير متكلف.
3. الاقتباس من القرآن الكريم.
4. تتجلى في معاني الحجاج وألفاظه شخصيته، فيبدو لمن يسمعه فصيحاً فاتكاً داهيةً شجاعاً.

وأياً كان الأمر، فإن هذه الخطبة تدخل في إطار الخطب السياسية، ذلك أن الحجاج كان والياً على العراق، وشهد كثيراً من الفتن والاضطرابات، وخاض الحروب. وواضح ما في هذه الخطبة من مزاجية بين الجمل القصيرة والطويلة، وكثرة الاتكاء على القسم وأدوات التوكيد، وغيرها من المزايا التي أشرنا إليها آنفاً.

ج. أبو حمزة الشاري

اسمه المختار بن عوف الأزدي، وهو من البصرة، يعد من زعماء الخوارج الإباضية، وكانوا يدعون الشراة، لأنهم شروا (باعوا) أنفسهم لله. ومن هذا المنطلق لقب بالشاري.

ثار على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وطلب البيعة لزعيم الشراة عبد الله بن يحيى الكندي في حضرموت. وقد استولى أبو حمزة على مكة والمدينة، ثم هزمه الأمويون بقيادة عبد الملك السعدي، في وادي القرى، ثم لحقه إلى مكة حيث دارت بينهما معركة انتهت بمصرع أبي حمزة سنة 130هـ.

خطبة أبي حمزة الشاري⁽¹⁾

تُعد خطبة أبي حمزة الشاري التي ألقاها في مكة أو في المدينة أنموذجاً لخطب الخوارج التي تبوّأت مكانة مرموقة بين الخطب الإسلامية في بلاغتها وأسلوبها ومعانيها.

وقد ألقاها بعد استيلائه على مكة في أواخر العهد الأموي، إذ بلغه أن الناس يتهايمسون فيما بينهم بأن الشراة ما هم سوى حفنة من الشباب الذين تنقصهم الحكمة والتجربة، وهو يدافع فيها عن الشباب بعامة وعن شباب الخوارج بخاصة.

النص

يا أهل مكة، تُعيرونني بأصحابي، تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً؟ شباب والله مكتهلون⁽²⁾ في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، بطينة عن الباطل أرجلهم، أنضاء⁽³⁾ عبادة، وأطلاح⁽⁴⁾ سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وجباههم⁽⁵⁾. واستقلوا ذلك في جنب الله، حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت⁽⁶⁾، والرّماح قد أشرعت، والسيوف قد انتضيت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعده الله، فمضى

(1) انظر: البيان والتبيين، 2 / 122.

(2) مكتهلون: كبار عقلاء.

(3) أنضاء: جمع نضو، وهو التحيف المهزول.

(4) أطلاح: جمع طلع، وهو التحيف المهزول.

(5) ركبهم وأيديهم وجباههم: مواضع السجود.

(6) فوّقت: وُضع لها فوق أي ريش تمهيداً لإطلاقها.

الشباب منهم قُذِمًا، حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه⁽¹⁾، وخُصِّبَتْ محاسن وجهه بالدماء، وعُفِّرَ جبينه بالثرى، فأسرعت إليه سباع الأرض، والمخْطُطُ عليه طيرُ السماء. فكم من عينٍ في منقار طائرٍ طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كفٍ فارقتْ معصمها اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله. وكم خد عتيق⁽²⁾، وجبين رقيق، فُلِقَ بعمد الحديد! رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان.

دراسة النص

تبرز في هذه الخطبة فكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل الله طلباً للثواب والجنة في أدب الخوارج، بوصفها وسيلة لتحقيق العدالة، إلا أنهم في المقابل سفكوا دماء غيرهم من المسلمين. وأبو حمزة يُوجه خطابه إلى أهل مكة الذين اتهموا الخوارج بالتهوّر، لكونهم من الشباب صغار السن. ثم مضى يصف شباب الشراة الذين قتلوا في الحروب، فوصفهم بصفتين: الورع والتقوى في السلم، والبطولة والتضحية في سبيل الشهادة. ونراه يصف القتلى وما كانوا يتحملونه من آلام ومصاعب؛ ليستدرّ العطف عليهم.

وقد تميزت هذه الخطبة بموضوعها الطريف، وهو الدفاع عن الشباب، وقصر فقرها، ومعانيها المستمدة من القرآن الكريم. ولم تخلُ الخطبة من الإطناب والتفصيل، وذلك لتوضيح فكرته وتوكيدها، في مثل قوله: «أنضاء عبادة وأطلاح سهر» وقوله: «حتى إذا رأوا السهام قد فوّقت، والرماح قد أشرعت، والسيوف قد انتضيت...». وكذلك لم تخلُ من المحسنات البديعية كالطباق والسجع، التي جاءت بعيدة عن التكلف. وأبرز ما في هذه الخطبة هو العاطفة الصادقة الجياشة التي يطغى عليها الأسى والحزن.

(1) تختلف رجلاه على عنق فرسه: يسقط عنها قتيلاً.

(2) عتيق: جميل كريم الأصل.

المبحث السادس

سمات الخطابة في العصر الأموي

1. اتسمت الخطابة في العصر الأموي بجملة خصائص وسمات، تتلخص في ما يأتي:
 1. بدؤها بحمد الله تعالى، وهي سنة سنها الرسول ﷺ وتبعه خطباء العرب فيها. وسموا الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد والتمجيد البتراء، وهي خطبة زياد ابن أبيه في أهل البصرة، وقد قال فيها ابن قتيبة: «وجدت كل خطبة مفتاحها الحمد إلا خطبة العبد فإن مفتاحها التكبير»⁽¹⁾.
2. ختمها بما يناسب المقام من الدعاء للمخاطبين، أو السلام عليهم، أو بتمجيد الله والثناء عليهم. فقد دعا عبد الملك بن مروان لنفسه، ليؤثر في السامعين، بقوله: «اللهم إن ذنوبي قد عظمت، وجلت عن أن تحصى، وهي صغيرة في جنب عفوك، فاعف عني»⁽²⁾. وكانت خاتمة خطبة الحجاج في أهل الكوفة آيات يوحى بها للناس بأن بني أمية قد نصرهم الله، وأنهم عباده الصالحون، غالبون بأمره، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْغَرَسَلِينَ (٧١) إِنَّهُمْ لَمُؤْمِنُونَ (٧٢) وَلَنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (٧٣)﴾ [الصافات: 171-173].
3. حرص الخطيب على الاقتباس من القرآن الكريم، ويذكر الجاحظ أنهم كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع أي من الفرقان، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والركة وسلس الموقع⁽³⁾.
- ولهذا سموا الخطبة التي لم تُزَيَّنْ بآيات من القرآن الكريم شوهاء، وقد اشتهر سحبان وائل بخطبته «الشوهاء» التي خطب بها بين يدي معاوية، وإنما سميت بذلك لحُسْنِها، وإنه حين خطب بها، لم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب⁽⁴⁾.
4. حرص الخطيب على انتقاء الألفاظ الجزلة، والتراكيب القويّة البعيدة عن التكلف والتصنع.

(1) عيون الأخبار، 2 / 231.

(2) الثعالي، الاقتباس من القرآن الكريم، ص 93.

(3) البيان والتبيين، 2 / 118.

(4) م.ن، 1 / 348.

ويذكر ابن طباطبا أن خالد بن صفوان قد عُرف بخطابته البليغة، ويعلل ذلك بقوله: علّمني أبي ألف خطبة ثم قال لي: تناسّها، فتناسيتها، فلم أرد بعد ذلك شيئاً من الكلام إلا سهل عليّ⁽¹⁾.

5. قوة الأسلوب، وجماله، وشدة تأثيره، ووصوله إلى العقول بتسلسل أفكاره، وامتلاكه زمام الوجدان والشعور، باستخدام الأساليب الإنشائية والاستفهام على وجه الخصوص، من ذلك قول أبي حمزة الشاري مخاطباً أهل الحجاز:

«يا أهل الحجاز، أئعيروني بأصحابي؟ وتزعمون أنهم شباب؟ وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً»⁽²⁾.

إلى أن يقول مجيباً عن سؤالهم: شبابٌ والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم.

وخلاصة القول، فإن الخطابة وصلت في هذا العصر إلى مكانة مرموقة، بحيث لم تشهد العربية عصرأ حافلاً بكثرة الخطباء ووفرة الخطب وتنوعها، مثل هذا العصر.

(1) انظر: ابتسام الصفار، آفاق الأدب في العصر الأموي، ص 281.

(2) البيان والتبيين، 2 / 139.

الكتابة في العصر الأموي

المبحث الأول: الكتابة الفنية: عبد الحميد الكاتب

المبحث الثاني: الرسائل السياسية

المبحث الثالث: الرسائل الإخوانية

المبحث الرابع: الرسائل الوعظية

الفصل التاسع الكتابة في العصر الأموي

المبحث الأول

الكتابة الفنية: عبد الحميد الكاتب

تمهيد

تطور فن الكتابة العربية تطوراً كبيراً بفعل العوامل الدينية والاجتماعية والفكرية التي مرّ بها العرب، فقد كانوا في الجاهلية أميين، سوى نفر قليل من أهل الحواضر أموا بالقراءة والكتابة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

فلما جاء الإسلام حتّى على القراءة والكتابة، فبدأ وحي الله تعالى بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]. وأقسم جلّ شأنه بالقلم في قوله: ﴿تَوَالَّفَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1]. وكذلك شجّع الرسول ﷺ عليهما، إذ قبل من بعض أسرى بدر أن يفتدي نفسه من الأسر بتعليم عشرة من فتيان الأنصار القراءة والكتابة، كما أمر زيد بن ثابت أن يتعلم الخط السرياني.

وكان الرسول ﷺ يطلب من كتّاب الوحي أن يسجلوا القرآن الكريم ساعة نزول الوحي، ومن أشهرهم زيد بن ثابت الأنصاري وعبد الله بن الزبير وغيرهما.

وفي عصر صدر الإسلام ازدادت الحاجة إلى الكتابة، لقيام الدولة الإسلامية، فكتبّت العهود والمواثيق، وأرسلت الكتب إلى الملوك والأمراء لدعوتهم إلى الإسلام، ومن ثمّ أنشئت الدواوين منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم جاء عبد الملك فعزّب ديوان الخراج بعد أن كانت وثائقه تكتب بالفارسية.

وكثرت المكاتبات في العصر الأموي، وعُرفت الرسائل بمختلف أنواعها، فكان الخلفاء والولاة وأمراء الأحزاب السياسية يباشرون الكتابة بأنفسهم.

فلما جاء عبد الحميد الكاتب أرسى قواعد الكتابة الفنية ووضع أصولها، فكان امتداداً لمن سبقه، وتجمّعت فيه تجاربهم، «فكان خلاصة التجارب الكتابية لأعلام المترسلين في العصر الأموي»⁽¹⁾.

عبد الحميد بن يحيى الكاتب (132 هـ)

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد الكاتب، وقد سماه الجاحظ عبد الحميد الأكبر⁽²⁾ تمييزاً له من عبد الحميد الأصغر كاتب سليمان بن عبد الملك، ولد حوالي سنة 60 هـ في الأنبار بالعراق، وسكن الرقة، وهو من أصل فارسي أو آرامي.

وقد اشتغل في مستهل حياته معلماً للصبيان، ثم التحق بديوان هشام بن عبد الملك، وتعرّف إلى سالم بن عبد الله كاتب هشام، فأعجب به سالم وأصهر إليه، وخرّجه كاتباً. ولم يلبث أن أصبح كاتب مروان بن محمد وهو ولي للعهد، فلما تولى الخلافة جعله رئيس ديوانه، فدبّج رسائله الرائعة.

ثم لما قامت الدعوة العباسية، وزحفت جيوش العباسيين، وهُزم مروان في معركة الزاب سنة 132 هـ، فرّ هو وكاتبه إلى مصر حيث قتل في بوصير. وقيل إنه اختفى عند ابن المقفع قبل عثور العباسيين عليه، «وهو زعم لا تؤيده الروايات الوثيقة، ومما يدل على أنه قتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم»⁽³⁾.

عُرف عبد الحميد بمجملته صفات وفضائل، فكان ورعاً تقيّاً مشهوداً له بالعفاف والاستقامة. ومن أبرز صفاته الوفاء للصداقة، فقد ظل مُلازماً لمروان بن محمد حتى قتل معه كما أسلفنا.

ومن صفات عبد الحميد إخلاصه في عمله وإخلاصه أيضاً لكل من يحترف الكتابة، فقد وجّه رسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها بإتقان عملهم وحسن أدائهم لما يريده الخلفاء أن يكونوا بمنزلة السمع والبصر لهم، واليد والقوة التي يتحرّكون بها.

(1) ابتسام الصّفّار، آفاق الأدب في العصر الأموي، ص 293.

(2) رسائل الجاحظ، ص 82.

(3) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 473 وما بعدها.

خصائص عبد الحميد الفنية

كان عبد الحميد واسع الثقافة، عميق الفهم للقرآن الكريم، فثقافته تركز على العلوم العربية والدينية، فكثيراً ما كان يستمد من أسلوب القرآن الكريم وما فيه من روائع المعاني والصور، لكنه أَلَم بثقافات عصره، وبخاصة الفارسية، التي تتضح معالمها في رسالته إلى الكتاب التي تحدث فيها عن الإخاء والصدقة، إذ تبدو ثقافته بالأدب الأخلاقي الساساني⁽¹⁾.

وكان إلى ذلك بعيد النظر في شؤون السياسة والحكم، وصاحب خبرة بوسائل تربية الأبناء وولاية العهود، وبلغ منزلة عالية أهلتة أن يتحدث عن أدق المسائل العسكرية، على نحو ما نرى في رسالته الطويلة التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه وولي عهده حين أمره بمحاربة الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي في العراق سنة 128هـ.

وإذا ذكرت الكتابة الفنية في العصر الأموي، فإن المقصود هو الكتابة التي اختطّ منهاهجها وطريقها عبد الحميد. وقد تميّزت على يده بالخصائص الآتية:

1. استهلال الرسائل باسم الله وبحمده وتمجيده والصلاة على نبيه الكريم، متأثراً بتحميدات واصل بن عطاء وغيره من الوعاظ. وكذلك استخدم الأسلوب المعتاد في بدء الرسالة وهو «أما بعد».

2. عُني عبد الحميد بتجويد عباراته وبنائها بناءً هندسياً أنيقاً، معتمداً على حُسن تقسيم الجُمْل وتوازنها وترادف ألفاظها كما في قوله: «فإن الكاتب يحتاج في نفسه، ويحتاج منه صاحبه أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهِمّاً في موضع الفهم، مقدّماً في موضع الإقدام، محجّماً في موضع الإحجام».

ويلاحظ هنا تأنقه في التجانس الصوتي الذي أضفى إيقاعاً بديعاً من العلاقة الاشتقاقية بين الكلمتين اللتين حرص على إيرادهما في الجملة الواحدة: (حليم / الحلم، فهم، الفهم، مقدم، الإقدام).

ولعله متأثر بالتوازن الإيقاعي الذي نجده في كثير من الرسائل، كرسالة الحسن البصري في صفات الإمام العادل التي أسلفنا الحديث عنها.

3. معاني عبد الحميد متسلسلة ممتازة الروابط تسير في نسق منطقي رائع، فهو يرتب موضوعه في فقرٍ مستقلةٍ بمضمونها، متألّفة في عباراتها. وهو يميل إلى استخدام المفعول

(1) انظر: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 475 و 476.

المطلق والمفعول لأجله وبعض الصيغ الدالة على الأسباب، وذلك ليعبر عن فكرته تعبيراً دقيقاً. متأثراً بالترتيب المنطقي الذي نجده في غير رسالة من رسائل العصر الأموي. وهو بذلك يعد أروع كتاب العصر الأموي وأكثرهم دراية بهذا الفن، وقد نصح الجاحظ الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم⁽¹⁾.

وظلت شهرته على مدى بعيد حتى قيل: «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد». وهو كما جاء في قول النديم: «عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموه، وهو الذي سهّل البلاغة في الترسل»⁽²⁾.

4. أطال عبد الحميد الرسائل إطالة لم تكن معهودة من قبل، فرسالته التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه عبد الله حين وجهه لمحاربة الخوارج، امتدت إلى نحو أربعين صفحة، وهو يستهلها بمقدمة يذكر فيها اختياره لمحاربة الضحّاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام، وعاثوا في الأرض فساداً. إذ يقول:

«أما بعد، فإن أمير المؤمنين عندما تحزّم إلى عدوّ الله الجلف الجافي، والأعرابي المتسكّع في خيرة الجهالة، وظلم الفتنة، ومهاوي رعاه الذين عاثوا في أرض الله فساداً، وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً، وبدّلوا نعم الله كفرأ، واستحلّوا دماء أهل سلمه جهلاً، أحبّ أن يعهد إليك في لطائف أمورك، وعوام شؤونك، ودخائل أحوالك، ومصطرف تنقلك، عهداً يُحمّلك فيه أدبه، ويشرع لك به عظته، وإن كنت -والحمد لله- من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد، مختصّاً لك بذلك دون لحمتك وبني أبيك»⁽³⁾.

ثم انتقل إلى العهد الذي كتبه له، فوزّعه على ثلاثة موضوعات، يتناول أولها آداب قائد الجيش وسلوكه، ويتناول الموضوع الثاني سياسته في لقاء العدو، وفي الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش في الحرب. فرأى أنه ينبغي أن لا يسير إلا في مقدّمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة، ويصوّر له كيف يعدّ جيشه حين اللقاء وكيف يقسمه إلى وحدات، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة. وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبتهم ووعدهم بالمنالات والولايات.

(1) رسائل الجاحظ، ص 42.

(2) الفهرست، ص 170.

(3) صبح الأعشى، 10 / 195.

وكان عبد الحميد عميق الفكر، وهي مسألة اختلف الباحثون في تفسيرها، فحاول طه حسين أن يصله بالثقافة اليونانية، معتمداً على ثقافته العسكرية في نظام الجيش على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان، وعلى أنه بالغ في استخدام الحال⁽¹⁾.

وفقد شوقي ضيف هاتين الحجتين بأن عبد الحميد كان يعيش في الشام حيث عرف العرب نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس، وأن استخدام الحال من خواص اللغة العربية، ثم إن طه حسين لم يوضح كيف كانت هذه المسألة خاصة من خصائص اليونانية⁽²⁾.

ورأت ابتسام الصفار أن هذا العمق مردّه إلى ظروف البيئة العربية الإسلامية التي شهدت منازعات واضطرابات استدعت الكثير من الحُجج والنقاش وردّ الفكرة بالفكرة⁽³⁾. والواقع أن عبد الحميد الكاتب هو نتاج ثقافات متعددة، إلا أن ثقافته تشكّلت في البيئة العربية الإسلامية، ومن ثمّ فهي ثقافة ذات طابع إسلامي.

من رسالة عبد الحميد إلى الكُتّاب

«أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفّقكم، وأرشدكم، فإن الله ﷻ جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، صلواته وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرّمين أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصرفهم في صنوف الصناعات، وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم فجعلكم -معشر الكُتّاب- في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية، بكم تنتظم الخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبصنائحكم يصلح الله للمخلوق سلطانهم، وتعمّر بلادهم، لا يستغني الملك عنهم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقعُ اسماعيلهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يُبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فامتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أصفاه من النعمة عليكم.

فنافسوا، معشر الكُتّاب، في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله ﷻ، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حليّة كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها

(1) من حديث الشعر والنثر، ص 40 وما بعدها.

(2) العصر الإسلامي، ص 477.

(3) آفاق الأدب في العصر الإسلامي، ص 285.

وسيرها، فإن ذلك مُعينٌ لكم على ما تسمون إليه بهممكم. ولا يضعفنَ نظركم في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج منكم».

أسلوب عبد الحميد الكاتب

فهذه رسالة يوجهها عبد الحميد الى الكتاب، ومن ينظر في طبيعتها ير أنها تحمل الخصائص الفنية التي تميز بها أسلوبه، فهي تعتمد التقرير أكثر مما تعتمد التصوير، إذ جاءت العبارة موقّعة، مُقسّمة، ومُرّبة ترتيباً منطقياً، فقد استهلها بالأسلوب المعتاد في بدء الرسالة، وهو (أما بعد)، ثم أخذ يوزعها على فقر متماسكة، تحمل كل فقرة منها مضمونها الخاص، في تسلسل وتدرّج، فتحدث بادئ ذي بدء عن صناعة الكتابة ونّبّه إلى أهمية هذه المهنة الشريفة، وتحدّث عن دور الكتاب في تدبير شؤون الحكم، ثم انتقل إلى الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها الكتاب من ثقافة وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية فضلاً عن إتقان الخط والإلمام بعلم الحساب، وبين أهمية هذه العلوم، وحدّد مصادرها، وعلى رأسها القرآن الكريم، فرواية الأشعار، فكتب التاريخ، وسير الملوك؛ لينتفعوا بها في الكتابات السياسية. وهو يمضي على هذا التوزيع حتى تبلغ الرسالة منتهاها. ولعل هذا الحس المنطقي القوي في هذه الرسالة وغيرها من الرسائل هو الذي دفع الدكتور طه حسين إلى أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية، التي كان يجيدها أستاذه سالم مولى هشام بن عبد الملك، حتى ليزعم أن النثر العربي قد تطور في هذا العصر بتأثير تلك الثقافة⁽¹⁾. وتبعه في ذلك زكي مبارك، إذ يقول: «وأول ما ينبغي إثباته من خواص النثر هو عمقه وقوته بفضل تأثره بالآداب الأجنبية التي عرفها العرب، حين انبثوا بفضل الإسلام في الممالك التي فتحوها»⁽²⁾.

وأسلوب عبد الحميد هو أسلوب الترسل البعيد عن التكلف والتقعر، تبرز فيه إيقاعات تتولّد من العبارات المتوازنة التي يتلو بعضها بعضاً، في مثل قوله: «أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وأيديهم التي بها يبطشون» ومن توالي الأفعال بالعطف في مثل قوله: «حفظكم، وحاطكم، ووفقكم، وأرشدكم»، ومن التجانس الصوتي الذي نجده في كلمات تشترك في الأصل الاشتقاقي الصرفي، مع المحافظة على معنى مشترك بينها، ومن أمثلة ذلك قوله: «فإن الكاتب يحتاج في نفسه، ويحتاج منه صاحب أن يكون

(1) من حديث النثر والشعر، ص 37.

(2) النثر الفني، 1 / 570.

حليماً في موضع الحلم، فهيماً في موضع الفهم، مقداماً في موضع الإقدام، محجماً في موضع الإحجام». إذ يظهر اشتقاقه الأنيق من لفظ المصدر ويورده في كل جملة على النحو التالي:

- حليم - الحلم
 - فهيم - الفهم
 - مقدام - الإقدام
 - محجام - الإحجام.
- ولهذا التجانس وظيفة أخرى غير الإيقاع، هي إيضاح معانيه وتعميقها.

المبحث الثاني

الرسائل السياسية

وهي ضرب من الكتابات السياسية التي شاعت في العصر الأموي، وكانت تدور بين الخلفاء وولايتهم، وقد يكتب بها الخليفة إلى أحد مُناوئيه. ومما زاد في شيوعها كثرة الأحزاب السياسية المعارضة للدولة، وكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخراسان، فزياد ابن أبيه يكتب لمعاوية في شأن حُجر بن عديّ الكندي وأصحابه من الشيعة⁽¹⁾:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان. أما بعد، فإنّ الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البلاء، فكاد له عدوّه، وكفاه مؤونة من بغى عليه. إنّ طواغيت من هذه السبئية⁽²⁾، رأسهم حُجر بن عديّ خالفوا أمير المؤمنين، وفارقوا جماعة المسلمين، ونصبوا لنا الحرب⁽³⁾، فأظهرنا الله عليهم، وأمكنتنا منهم. وقد دعوتُ خيار أهل المصر وأشرفهم وذوي السنّ والدّين منهم، فشهدوا عليهم بما رأوا وعلموا. وقد بعثتُ بهم إلى أمير المؤمنين، وكتبت شهادة صلحاء أهل مصر وخيارهم في أسفل كتابي هذا.

وكان عبد الملك بن مروان يُكثر من الكتابة إلى ولاته وإلى الحجاج بن يوسف، على وجه الخصوص، على شاكلة رسالته إليه⁽⁴⁾:

«لا تعرض لمحمد، ولا لأحد من أصحابه».

وكان في كتابه:

«جئني دماء بني أبي طالب⁽⁵⁾، فليس فيها شفاء من الحَرَب⁽⁶⁾، وإنّي رأيتُ بني حربٍ سلبوا ملكهم⁽⁷⁾ لما قتلوا الحسين بن عليّ».

فلم يتعرّض الحجاج لأحد من الطالبيين في أيامه.

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 5 / 272.

(2) السبئية: فرقة من غلاة الشيعة تنسب إلى عبد الله بن سبأ.

(3) نصب له الحرب: أظهرها وأعلنها.

(4) مروج الذهب، 3 / 13.

(5) في الأصل: بني عبد المطلب.

(6) الحَرَب: الغضب.

(7) سلبوا ملكهم: ذهبت دولتهم وزال سلطانهم.

وللحجاج رسالة إلى سليمان بن عبد الملك، وهو لا يزال ولياً للعهد، فيها حدة وانفعال، إذ يقول:

«أنت نقطة من مداد، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما، وإلا فانا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محوتك وإن شئت أثبتك». وكان الحجاج يحاول صرف الولاية عن سليمان، لكن المنية عاجلته قبل أن يُنفذ محاولته.

وكان الحجاج يُكثر من الكتابة إلى قواده، فيردون عليه، من أشهرها الرسائل التي دارت بينه وبين المهلب بن أبي صفرة الذي كان يقود الجيوش ويطارد الخوارج، فكتب إليه يخبره بهزيمة الأزارقة وانتصاره عليهم، إذ يقول:

«وإنا كنّا وعدونا على حالتين، يسرنا منهم أكثر مما يسوونا، ويسوؤهم منا أكثر مما يسرهم. فلم يزل الله تعالى يزيدنا، وينقصهم ويمحضنا، ويمحقهم، حتى بلغ الكتاب أجله، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين»⁽¹⁾.

وواضح أن هذه الرسالة لم تخلُ من الطابع الأدبي، فهو يوازن بين فريقين، منتصر ومنهزم، معتمداً على الطباق بين «يسرنا ويسوونا» و«يسوؤهم ويسرهم» و«يزيدنا وينقصهم» و«يمحضنا ويمحقهم». وختمها بآيتين كريمتين فقله: «فقطع دابر...» من الآية 40 من سورة الأنعام، وقوله: «الحمد لله...» هو الآية الأولى من سورة الفاتحة.

وتلقانا رسائل أخرى للخوارج، ومن ذلك ما كتبه نجدة بن عامر إلى نافع بن الأزرق في تكفيره القعدة من الخوارج، وتحريم التقيّة، وإباحة قتل الأطفال، إذ يقول:

فاكفرت الذين عذّرتهم الله في كتابه من قعد المسلمين وضعفهم، فقال جل ثناؤه، وقوله الحق، ووعدّه الصدق: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُوثُ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 91]. ثم سماهم أحسن الأسماء، فقال: ﴿مَاعَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: 91]. ثم استحللت قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم، وقال الله عزّ ذكره: ﴿الْأَنْزِلُ وَأَنْزِلُ الَّذِينَ يَزِيدُونَ فِي دِينِهِمْ﴾ [النجم: 38]، وقال في القعد خيراً، وفضل الله من جاهد عليهم، ولا يدفع منزلة أكثر الناس عملاً منزلة من هو دونه، أو ما سمعت قوله ﷺ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَوَدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۖ وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۖ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ [النساء: 95]. فجعلهم الله من المؤمنين.

فيكتب إليه نافع بكتاب، ويردّ على ما اتهمه به نجدة، بادئاً بآية من الذكر الحكيم، وأنه لا يرفض ما ورد في الرسالة عناداً:

«وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَني مِنَ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ﴿١٨﴾ [الزمر: 18]، وعبت عليّ ما دنتُ به من إكفار القعدة، وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة؛ فأفسر ذلك إن شاء الله». فيبدأ ردّه بقوله:

«وهؤلاء قد فقهوا في الدين وقرأوا القرآن، والطريقُ لهم نهجٌ واضح، وقد عرفت ما قال الله تَعَالَى فيمن كان مثلهم، إذ قالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿١٧﴾ [النساء: 97]، فقبل لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ ﴿١٧﴾ [النساء: 97]، وقال: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ﴿٨١﴾ [التوبة: 81]، وقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٠﴾ [التوبة: 90]، فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأما أمر الأطفال فإن نبيّ الله نوحاً عليه السلام كان أعلم بالله يا نجدة مني ومنك فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٦١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصِلُونَا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا كَفَّارًا ﴿٦٧﴾ [نوح: 27]، الكفار وهم أطفال، وقبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك في قوم نوح ولا يكون في قومنا، والله يقول: ﴿أَكْفَارًا كَذِبًا مِنْ أَوْلِيكُمْ أَرْكَرُ بَرَاءَةً فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿١٢﴾ [القمر: 43]، هؤلاء كمشركي مكة لا تُقبل منهم جزية.

وواضح هنا انقسام الخوارج إلى فرق مختلفة من أزارقة وصفريّة ونجدات وإباضية، وأنه كان منهم معتدلون ومتطرفون، وقد مضى المتطرفون منهم يُشرعون سيوفهم على المسلمين، حتى مزقوا شمل الأمة. وإذ وقف الأزارقة موقفاً متطرفاً فقد وقف النجدات موقفاً معتدلاً.

ويتضح في الرسالتين ما اشتهر به الخوارج في أدبهم من قدرة على الجدل والنقاش، وهي قدرة تتكئ على ما يحفظونه من آي الذكر الحكيم، واستشهادهم بها للتدليل على

صحة أقوالهم ورُجحان أفكارهم، غير أنهم ضلّوا سواء السبيل، إذ مضوا في مهاتراتهم حتى ضعف حالهم وانقشع خطرهم.

وقد تطفئ الكتابة الأدبية على الكتابة الرسمية، إذ يلجأ كاتبها إلى التفصيل الأدبي، على نحو ما يلقانا الحجاج في رسالة كتب بها لعبد الملك، يصف فيها خصباً بعد جذب ومطراً بعد قحط، ومنها:

«وأرضنا أرضاً سريعاً تغيرها، وشيكاً تنكرها، سيء ظن أهلها عند قحوظ المطر، حتى أرسل الله بالقبول⁽¹⁾ يوم الجمعة، فأنارت زبرجأ⁽²⁾ مُتْقَطَعاً مُتَمَصِّراً⁽³⁾، ثم أعقبته الشمال يوم السبت فطحطحت⁽⁴⁾ عنه جهامه⁽⁵⁾، وألفت مُتْقَطَعَهُ، وجمعت مُتَمَطَّرَهُ، حتى انتضد فاستوى، وطما وطحا...

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمثل قطع القطن، قد ملأ اليباب⁽⁶⁾، وسدّ الشُعاب، وسقى منها كل ساق. فالحمد لله الذي أنزل غيثه، ونشر رحمته من بعد ما قنطوا، وهو الولي الحميد، والسلام».

فالحجاج هنا ينزع إلى التصوير الفني، ويختار الألفاظ الغريبة المتجهمة، ويختتمها بالتحميد والشكر لله، وتعكس هذه الرسالة حرص الحجاج على التألق في تعبيره وهو يخاطب عبد الملك، بجانبه الرسمي والأدبي.

(1) القبول: الريح الشرقية.

(2) الزبرج: السحاب الرقيق.

(3) المتمصّر: المتقطع.

(4) طحطحت: بددت وفرقت.

(5) الجهام: السحاب لا ماء له.

(6) اليباب: الموضع الخلافي لا نبات فيه.

المبحث الثالث

الرسائل الإخوانية (الشخصية)

هي ضرب من الرسائل التي تدور حول موضوعات شخصية اقتضتها بعض الظروف من موت يقتضي التعزية، أو ولاية تقتضي التهنية، أو إبداء مشاعر خاصة من عتاب أو اعتذار أو شرح حال أو شفاعة عند والٍ لقريب أو صديق.

ولم يصلنا منها إلا القليل، ذلك أن أصحابها لم يُعنوا بتسجيلها؛ فمن ذلك رسالة عقال بن شبة إلى خالد القسري في شفاعة، ومما جاء فيها:

«وقد وَجَّهْتُ إِلَيْكَ فَلَاناً، وهو من دنية قرابتي، ثلبسه نعمتك وتصرفه إليّ، وقد أودعني وإياه ما تجده باقياً على النُشر، جيلاً في الغيب»⁽¹⁾.

وواضح ما في هذه الرسالة من دقة في التعبير، وعناية بتخيّر الألفاظ الرشيقة، وقدرة على التأثير في المتلقي.

وتلقانا رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر في العتاب، كتب بها إلى بعض إخوانه، إذ يقول:

«أما بعد، فقد عاقني الشكُّ في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف عن غير خبرة، ثم أعقبني جفاء من غير ذنب، فأطمعني أولك في إخالك، وأيأسني آخرُك من وفائك، فلا أنا في اليوم مُجمعٌ لك أطراحاً، ولا أنا في غدٍ وانتظاره منك على ثقة، فسبحان مَنْ لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك من عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام».

وهي رسالة تشي بقدرة صاحبها على صوغ ألفاظه وابتكار المعاني الطريفة في أسلوب محكم النسيج لم يخل من الصور الجميلة وبعض المحسنات البديعية كالطباق والمقابلة. وتلقانا رسالة عمر بن عبد العزيز في التعزية بابن استشهد لأبي أمامة الحمصي:

«أما بعد، فالحمد لله على آلائه وقضائه. وقد بلغني الذي ساق الله إلى عبد الله بن أبي أمامة من الشهادة، فقد عاش في الدنيا مأموناً، وأفضى إلى الآخرة شهيداً، فقد فاز بما خصَّ الله به الشهداء من الفضيلة والكرامة، فليس شيء نعلمه، وإن عظم خطره وجلُّ ثوابه،

(1) جهرة رسائل العرب، 2 / 416.

أعظم عند الله تبارك وتعالى وعند عباده الذين أوتوا العلم والفهم من الشهادة، فمن خصّه الله بها فقد أفلح وألحج وريح، ووسمه الله سمة الأبرار، فهو في جوار الله وتحت عرشه، قد انقطعت عنه مرارة الدنيا وعلاجها، وصار إلى عيش الآخرة وجورها. نسأل الله الذي بيده نواصي العباد أن يرزقنا وإياكم الشهادة والسعادة بقدرته والسلام⁽¹⁾.

وتلقانا في هذا العصر رسالة لسالم يشكر بها بعض إخوانه على صنيع قدّمه إليه، إذ يقول⁽²⁾:
«أما بعد، فقد أصبحت عظيم الشكر لما سَلَفَ إليّ منك، جسيم الرجاء فيما بقي لي عندك. قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك، وجعل ما سَلَفَ إليّ منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك».

وهي رسالة تتصف بالإيجاز، وفيها شكر ورجاء، فيها دقة في التفكير، ورقة في الشعور، إذ جعل ما سَلَفَ آية على تحقيق رجائه.

ولعبد الحميد الكاتب رسالة إخوانية كتبها إلى أهله، يصف فيها محتته وغربته إبان فراره إلى مصر هو ومروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وهو يُعزيهم عن نفسه⁽³⁾:

«أما بعد، فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكُرْهِ والسرور، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها. فمن درّت⁽⁴⁾ له مجلاوتها، وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ورضي بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعصّته بأنيابها، وتوطّأته بثقلها، قلاها⁽⁵⁾ نافراً عنها، وذمّها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً منها. وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درّها أفاويق⁽⁶⁾ استحليناها، ثم جمحت بنا نافرة، وأعرضت عنا متنكرة، ورمحتنا مولية، فملح عذبها، وأمرّ حلّوها، وخشّنَ لَبِنها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرّقتنا عن الإخوان، فدارنا نازحة⁽⁷⁾، وطيرنا بارحة⁽⁸⁾، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثلما تقرّبت، وأعقبت

(1) المبرد، التعازي والمرثي، ص 59.

(2) جمهرة رسائل العرب، 2 / 431.

(3) الجهشاري، ص 72.

(4) درّت: من الدّر وهو اللبن.

(5) قلاها: كرهها.

(6) الأفاويق: ما يتجمّع في الضرع من اللبن.

(7) نازحة: نائية.

(8) بارحة: كناية عن الشؤم.

بالراحة نَصَبًا، وبالجدَل همًّا، وبالأمن خوفًا، وبالعزَّ ذُلًّا، وبالجدة حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتًا، لا ترحم من استرحمها، سالكة بنا سبيل مَنْ لا أوبةَ له، منفين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء.

والرسالة قُصد بها التأثير في النفوس، إذ لجأ عبد الحميد إلى السجع والازدواج والعبارات القصيرة. وجاءت ألفاظه منتخبة، لا تكلف فيها ولا إغراب وإنما فيها إيقاع شجيّ يوحى بالأسى والحزن لبعده عن وطنه وأهله.

وقد حفلت الرسالة بالمعاني الغزيرة الواضحة الجليّة، واشتملت على جملة أفكار، فالدنيا دار ألم وسرور يطمئن إليها مَنْ ثَقُلَ عليه، ويتذمّر منها من دهمته مصائبها. وقد تنكّرت له الأيام ففرقتَه عن وطنه، وأبعدته عن إخوانه، ولا يلبث أن يبدي يأسه من الدنيا، إذ سلكت به سبيلاً لا لقاء بعده، بل غربة وفراق أبدي.

ولا شكّ في أن هذا الضرب من الرسائل اتضّحت معالمه واتسعت موضوعاته فيما بعد في العصر العباسي في رسائل ابن المقفع، وأبي العيّن، وأبي حيّان التوحّيدي وغيرهم.

المبحث الرابع

الرسائل الوعظية

وهي لون من الكتابات التي تدور حول الوعظ والإرشاد، وقد اشتهر بها الحسن البصري في هذا العصر، فكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الوعاظ بعامة والحسن البصري بخاصة أن يرسلوا إليه بعظاتهم، فلما تولى الخلافة طلب من الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه رسالة طويلة استهلها بقوله⁽¹⁾:

«اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قِوَامَ⁽²⁾ كلِّ مائل، وقصد⁽³⁾ كلِّ جائر، وصلاح كلِّ فاسد، وقوة كلِّ ضعيف، ونصف⁽⁴⁾ كلِّ مظلوم، ومفرج كلِّ ملهوف⁽⁵⁾.

والإمام العدلُ يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتادُ لها أطيبَ المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكئها⁽⁶⁾ من أذى الحرِّ والقر⁽⁷⁾.

والإمام العدلُ يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويُعلمهم كباراً، يكتسبُ لهم في حياته، ويذخر لهم بعد مماته. والإمام العدلُ يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة⁽⁸⁾ الرفيقة بولدها، حملته كُرْهاً⁽⁹⁾، ووضعت كُرْهاً، وربته طفلاً، تسهرُ بسهره، وتسكن بسكونه، تُرضعه تارة، وتقطمه أخرى، وتفرحُ بعافيته، وتغنمُ بشكايته.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدودَ ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاهَا مَنْ يليها؟ وإنَّ الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص⁽¹⁰⁾ لهم!

(1) العقد الفريد، 1/ 34.

(2) قوام الشيء: نظامه وعماده وما استقام به.

(3) القصد: الاستقامة، أي الاعتدال والاستواء.

(4) النصفة: اسم الإنصاف، وهو أن تأخذ الحق وتعطيه.

(5) الملهوف: المظلوم ينادي ويستغيث.

(6) يُكئها: يسترها ويقيها ويحفظها ويصونها.

(7) القر: البرد (مثلث القاف).

(8) البرّة: المشفقة.

(9) الكُرّه: (بالضم) المشقة تحتملها من غير أن تكلفها، (وبالفتح) الإعياء والمشقة، تكلفها فتحتملها.

(10) اقتصَّ له: أقاده، أي قتل قاتله.

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له، ولما بعده من الفزع الأكبر».

فالحسن يُعدّد صفات الإمام العادل ويقدمها بأسلوبه الوعظي الذي يقوم على السجع والازدواج والعبارات القصيرة المؤثرة، معتمداً الصور الجميلة، كتشبيه الإمام العادل بالراعي الشفيق تارة، وبالأب الحاني تارة أخرى، ويصوّر عطفه على الرعية بعطف الأم على وليدها. ولعله أراد أن يُرسّخ هذه الصفات في المتلقّي.

ونراه يلجأ إلى الأسلوب الإنشائي، فيذكر الخليفة بيوم القيامة وينصحه ويعظه، ومن ثم لم يخرج الحسن عن نطاق خطبه الوعظية.

وسار على هذا النهج كثير من الوُعَاظ، أشهرهم غيلان الدمشقي، ويروى أنه كتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة أشاد الجاحظ ببلاغتها، ومنها قوله ⁽¹⁾:

«اعلم يا عمر، أنك أدركت من الإسلام خَلْقاً بالياً⁽²⁾، أو رسماً عافياً⁽³⁾، فيا مَيْتُ بين الأموات، طَفِئَ أمر السُّنَّةِ، وظهرت البدعة، وأخيفَ العالمُ فلا يتكلم، ولا يَفْطَنُ⁽⁴⁾ الجاهل فيسأل».

(1) ابن المرتضى، المنية والأمل، ص 16.

(2) خَلْقاً بالياً: شيئاً فانيّاً.

(3) رسماً عافياً: أثراً مطموساً أو دارساً.

(4) فطن الأمر: فهمه وثقفه.

نصوص من الشعر الإسلامي والأموي

مرثية أبي ذؤيب الهذلي

مرثية مُتَمِّم بن نويرة

ملحمة الفرزدق

ملحمة ذي الرُّمة

قصيدة للعرجي

قصيدة لجريير

قصيدة لليلى الأخيلية

ملحق (1)

نصوص من الشعر الإسلامي والأموي

مرثية أبي ذؤيب الهذلي (*)

مات له سبعة أولاد، أصابهم الوباء في دمشق في عهد عمر رضي الله عنه، فرثاهم:

أَمِنْ الْمَنُونِ، وَرَيْهَآ، تَتَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنْ يَجْزَعُ؟⁽¹⁾
قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِجَسْمِكَ شَاحِبًا مِنْذُ ابْتِذَلْتَ، وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ؟
أَمْ، مَا لِجَنْبِكَ لَا يَلَايِمُ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضُ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ؟
أَوْ ذَى بَنِيٍّ، فَأَعْقِبُونِي حَسْرَةً بَعْدَ الرُّقَادِ، وَعَبْرَةً مَا تُقْلَعُ
سَبَقُوا هَوَايَ، وَأَعْتَقُوا لِهَوَاهُمْ فَتَحْرُمُوا، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
فَعَبُرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشٍ نَاصِبٍ وَإِخَالُ أَنِّي لَاحِقٌ مُسْتَتَبِعُ
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ فَإِذَا الْمَيِّتَةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ
وَإِذَا الْمَيِّتَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تُنْفَعُ
فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنْ جُفُونَهَا سُمِلَتْ بِشَوْكٍ، فَهِيَ عَوْرٌ تُدْمَعُ
وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيهِمْ أَنِّي لِرَيْبِ الذَّهْرِ لَا أَنْضَعُضَعُ
حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ بِصَفَا الْمُشَقَّرِ، كُلَّ يَوْمٍ تُقْرَعُ
لَا بُدَّ مِنْ تَلْفٍ مُقِيمٍ، فَاَنْتَظِرْ أَبَارِضِ قَوْمِكَ، أَمْ بِأُخْرَى الْمَضْجَعُ؟

(*) شاعر فحل مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو أشعر هذيل غير مدافع، عده ابن سلام في الطبقة الثالثة من فحول الجاهلية. وقد وفد على النبي ﷺ وهو في مرض موته، فأدركه وهو مُسَجَّى، وصلى عليه وشهد دفنه.

(1) جمهرة أشعار العرب، 2/ 683-697.

ولَقَدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ سَفَاهَةٌ وَلَسَوْفَ يُوَلِّعُ بِالْبُكَاءِ مَنْ يُفْجَعُ
وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرَّةٌ يُنْكِي عَلَيْكَ مُقْنَعًا، لَا تُسْمَعُ
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تُفْنَعُ
كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشَّمْلِ مُلْتَثِمِ الْهَوَى كَانُوا بِعَيْشِ نَاعِمٍ، فَتَصَدَّعُوا
فَلَيْتَنِي بِهِمْ فَجَّعَ الزَّمَانُ وَرَيْتُهُ إِنِّي بِأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمْفَجَّعُ
وَالدَّهْرُ لَا يَنْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ جَوْنُ السَّرَاةِ، لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ

يعني حمار الوحش: [و«الجدائد»: الأثْن]. إحداها «جدود» وهي: التي لا لبن فيها.

صَخْبُ الشَّوَارِبِ، لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ عَبْدٌ لَأَلِ أَبِي رَيْعَةَ مُسْبَعُ
[«الصَّخْبُ»]: كثير التَّهْيِيقِ. و«الشَّوَارِبُ»: مجاري حَلْقِهِ. والمُسْلَمُ إِلَى الظُّوْرَةِ يُقَالُ لَهُ:
«مُسْبَعٌ».

أَكَلَ الْجَمِيمَ، وَطَاوَعْتُهُ سَمَحَجٌ مِثْلُ الْقَنَاقَةِ، وَأَزَعَلْتُهُ الْأَمْرُغُ
بِقَرَارِ قِيْعَانٍ، سَقَاها صَيِّفٌ وَاهٍ، فَأَتَجَمَّ بَرْهَةً مَا يُفْلَعُ
فَمَكَّنْتَنِي حِينًا يَغْتَلِجُنِي بِرَوْضَةٍ فَيَجِدُ حِينًا فِي الْعِلَاجِ وَيَسْمَعُ
حَتَّى إِذَا جَزَرْتُ مِيَاهَ رُزُونِهِ وَيَأْيُ حِينَ مُلَاوَةٍ يَتَقَطَّعُ

«جَزَرْتُ»: نُضِبْتُ. و«الرُّزُونُ»: الأماكن الغليظة المرتفعة. و«الملاوة»: حين من الدهر.

ذَكَرَ الْوُرُودَ بِهَا وَشَاقَى أَمْرَهُ شَوْمًا وَأَقْبَلَ حَيْنَهُ يَتَّبَعُ
فَأَجَابَهُنَّ مِنَ السَّوَاءِ، وَمَاؤُهُ بَثْرٌ، وَعَائِدُهُ طَرِيقٌ مَهْيَعُ
«بَثْرٌ»: موضع، ولا يثر في هذا المكان: الكثير.

فَكَأَنَّهِنَّ رِبَابَةٌ، وَكَأَنَّهُ يَسِرُّ، يُفِيضُ عَلَى الْقِدَاحِ وَيَصْدَعُ

«الرَّبَابَةُ» جمع القِدَاحِ، وأظنه الجلدة تكون فيها القِدَاحِ.

فَكَأَنَّهَا بِالْجِزْرِ، حِزْرٌ يُنَابِعُ، فَأُولَاتِ ذِي الْعَرْجَاءِ، نَهْبٌ مُجْمَعُ

«ذو العرجاء»: أكمة أو هضبة. و«ينابِعُ»: مقدم موضع.

وَكَأَنَّمَا هُوَ مِدْوَسٌ، مُتَقَلِّبٌ فِي الْكَفِّ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَضْلَعُ

«الْمِدْوَسُ»: الذي يدوس به الصَّيْقِل، أي يصقُل وهو مثل المسنّ، أي الحمار مُدْمَج شديد.
 فَوَرَدَنَ، والعَيَوقُ مجلس رابِعٍ الرُّ قَبَاءٍ، فوق التُّجْمِ، لا يَتَتَلَعُ
 فشرَعْنَ في حَجَرَاتٍ عَذَبٍ باردٍ حَصِبِ البطاح، تُسَيِّخُ فيه الأَكْرَعُ
 فشرَبْنَ، ثُمَّ سَمِعْنَ حَسّاً، دَوْنَهُ شَرَفَ الحِجَابِ، وَرَيْبَ قَرَعٍ يُقَرَعُ
 وهماهِمَا من قَانِصٍ، مُتَلَطِّفٍ، في كَفِّهِ جَشْنَةٌ أَجَشُّ، وَأَفْطَعُ
 فَتَكْرَرَتْهُ، فَتَفَرَّنَ، وَامْتَرَسَتْ بِهِ هَوَجَاءُ هَادِيَةٍ، وَهَادٍ جُرْشَعُ
 فَرَمَى، فَأَنْفَذَ من نَحْوِصٍ عَائِظٍ سَهْمًا، فَخَرَّ، وَرَيْشُهُ مُتَصَمِّعُ
 «عائط»: [التي] اعتاطت رَحْمَهَا فلم [تَحْمِلَ]. «متصمّع» منضَمٌّ كالأذن الصمعاء.

وَبَدَتْ لَهُ أَقْرَابُ هَذَا رَائِعًا عَجَلًا، فَعِيَتْ فِي الْكِنَانَةِ يُزْجَعُ
 فَرَمَى، فَأَلْحَقَ صَاعِدِيًّا مُطَحَّرًا بِالْكَشْحِ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَضْلَعُ
 فَأَبْدَهْنَّ حُتُوفَهُنَّ، فَظَالَعُ بِدَمَائِهِ، أَوْ سَاقِطٌ مُتَجَنِّعُ
 «أبدهنّ»: أعطى كُلَّ واحدة حَتْفَهَا.

يَعْتَرْنَ فِي عَلَقِ التَّجِيعِ، كَأَمَّا كُسِيَتْ بُرُودُ بَنِي يَزِيدَ الْأَذْرُعُ
 وَالذَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ شَبَبٌ، أَفْزَتْهُ الْكِلَابُ، مُرَوِّعُ
 شَعَفَ الضَّوَارِي الدَّاجِنَاتُ فَوَادَهُ فَلِذَا يَرَى الصَّبْحَ الْمَصْدَقُ يَقْرَعُ
 وَيَلُودُ بِالْأَرْطَى إِذَا مَا شَفَّهُ قَطَرٌ، وَرَاحَتُهُ بَلِيلٌ زَعْرَعُ
 يَرْمِي بَعَيْنَيْهِ الْغُيُوبَ، وَطَرْفُهُ مُغْضٍ، يُصَدِّقُ طَرْفُهُ مَا يَسْمَعُ
 فَعَدَا يُشْرِقُ مِثْلَهُ، فَبَدَتْ لَهُ أُولَى سَوَاقِيهَا قَرِيبًا ثَوَزَعُ
 فَانصَاعَ من جَزَعٍ، وَسَدَّ فُرُوجَهُ غُبْسٌ ضَوَارٍ، وَافِيَانٍ وَأَجْدَعُ
 وَيُرَوَّى: «فاهتاج». «غبس»: [يَضْرِبُ لَوْنَهَا] إِلَى الْغُبْرَةِ.

فَمَحَالُهَا بِمَذَلِّقَيْنِ كَأَمَّا بِهِمَا، مِنَ التَّضْحِ الْمَجْدَحِ، أَيْدَعُ
 «الأيدع»: دم الأخوين، وقيل: الزعفران. و«المجدح»: كما يُجَدِّحُ السَّوِيقُ.

يَنْهَشْنَهُ، وَيَذَوْدُهُنَّ، وَيَحْتَمِي غَبْلُ الشَّوَى، بِالطَّرْتِينَ مُوَلَّعُ
 حَتَّى إِذَا انْكَدَرَتْ، وَأَقْصَدَ غُصْبَةً مِنْهَا، وَقَامَ شَرِيدُهَا يَتَضَرَّعُ

«يتضرع»: يتصاغر ويتضاعف.

وكان سَفُودَيْنِ، لَمَّا يُفْتَرَا، عَجَلَالَهُ بِشِوَاءِ شَرْبٍ يُنَزَعُ
وَبَدَا لَهُ رَبُّ الْكِلَابِ، بِكَفِّهِ بِيضٌ، رِقَاقٌ، رِيَشُهُنَّ مُقَزَعُ
فَرَمَى لِيُنْقِذَ فَرَّهَا، فَأَصَابَهُ سَهْمٌ، فَأَنْفَذَ طُرَيْثَهُ الْمُنَزَعُ
فَكَبَا، كَمَا يَكْبُو فَنِيْقُ تَارِزُ بِالْخَبْتِ، إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَبْرَعُ

«تارز»: أي يابس، ميت. «أبرع»: [يريد أن الفينق أعظم من الثور].

وَالدَّهْرُ لَا يَنْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ مُسْتَشْعِرٌ حَلَقَ الْحَدِيدِ، مُقْنَعُ
حَمِيَّتٍ عَلَيْهِ الدَّرْعُ، حَتَّى وَجْهُهُ مِنْ حَرِّهَا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ أَسْفَعُ
تَعْدُو بِهِ عَجْمَاءُ يَفْصِمُ وَتُبْهَا حَلَقَ الْحَدَايِدِ، فَهِيَ رِخْوٌ، ثُمَّزَعُ
قَصَرَ الصَّبُوحَ لَهَا، فَشَرَّحَ لَحْمَهَا بِالنَّيِّ، فَهِيَ تَشُوخُ فِيهَا الْإِصْبَعُ
تَأْبَى بِدِرَّتِهَا إِذَا مَا اسْتَعْضَبَتْ إِلَّا الْحَمِيمَ، فَإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ
مُتَفَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِيْ كَالْقُرْطِ، صَاوٍ، غُبْرُهُ لَا يُرْضَعُ

«قاني»: أحر، يعني ضرعها. و«صاوٍ» يابس. و«الغبر»: البقية.

بَيْنَا نَعَائِقِهِ الْكُمَاءَ وَرَوْغِهِ يَوْمًا أُتِيحَ لَهُ جَرِيءٌ سَلْفَعُ
يَعْدُو بِهِ غَوْجُ اللَّبَانِ، كَأَنَّهُ صَدَعٌ، سَلِيمٌ عَطْفُهُ، لَا يَظْلَعُ
فَتَنَازَعَا، وَتَوَافَقَتْ خَيْلَاهُمَا وَكِلاهُمَا بَطْلُ اللَّقَاءِ، مُشِيعُ
يَتَحَامِيَانِ الْمَجْدَ، كُلٌّ وَائِقُ بِلَايِهِ، وَالْيَوْمُ يَوْمٌ أَشْنَعُ
وَكِلاهُمَا مُتَوَشَّحٌ ذَا رَوْقٍ عَضْبًا، إِذَا مَسَّ الْإِيَابِسَ يَقْطَعُ
فَكِلَاهُمَا فِي كَفِّهِ يَزْنِيَّةٌ فِيهَا سِنَانٌ، كَالْمَنَارَةِ، يَلْمَعُ
وَعَلَيْهِمَا مَادِيَّتَانِ، قِضَاهُمَا دَاوُدُ، أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ ثُبُعُ
فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِتَوَافِذٍ كَنَوَافِذِ الْعُبْطِ الَّتِي لَا تُرْقَعُ
وَكِلاهُمَا قَدْ عَاشَ عَيْشَةً مَاجِدٍ وَحَمَى الْعُلَى، لَوْ أَنَّ شَيْئًا يَنْفَعُ
فَعَفَتْ ذُبُولُ الرِّيحِ بَعْدَ عَلَيْهِمَا وَالدَّهْرُ يَخْصُدُ رِيْبَهُ مَا يُزْرَعُ

مرثية مُتَمِّم بن نَويرة اليربوعي^(*)

هذه القصيدة من عيون المراثي في الأدب العربي، يرثي فيها مُتَمِّم أخاه مالكا، وكان مالك بن نوية رجلاً شجاعاً شريفاً جواداً، قدم على النبي ﷺ فأسلم فولّاه صدقة قومه. ثم كان ممن منع الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ، وجيء به على خالد بن الوليد الذي تولى قتال المرتدين بأمر أبي بكر، وفهم خالد منه أنه ما زال مُصِرّاً على الرّدّة، فأمر ضرار بن الأزور الأسدي بقتله، فقتله فيمن قتل من مانعي الزكاة المرتدين.

وكان متمم كثير الانقطاع في بيته، فلما بلغه مقتل أخيه جزع جزعاً شديداً، وقد استنشدته عمر رضي الله عنه أبياتاً من هذه القصيدة، فقال: هذا والله التّأين، ولوددت أنني أحسن الشعر فأرثي أخي زيدا، وكان زيد قد استشهد باليمامة. فقال متمم: لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته. فقال: ما عزاني أحد عن أخي بمثل ما عزاني به متمم.

لعمري، وما دهري بتأين هالكٍ ولا جزعاً مما أصاب فأوجعا⁽¹⁾
لقد غيَّبَ المنهالُ تحتِ ردائه فتى، غيرَ مبطان العشيّات، أروعا
ولا برَماً، تهدي النساءُ لعرسه إذا القشعُ من غيم الشتاء تقععا
«البرم»: الذي لا يشتري اللحم.

ليب، أعان اللبّ منه سماحةً خصب، إذا ما راكبُ الجذب أوضعا
أغر، كنصل السيف، يهتزُّ للندى إذا لم تجد عند امرئ السوء مطمعا
إذا اجتزأ القومُ القِداح، وأوقدت لهم نارُ أيسار، كفى من تضجعا
ويوماً إذا ما كذك الخضمُ إن يكن نصيرك منهم، لا تكن أنت أضرعا
بمثنى الأيادي، ثم لم ثلف مالكا لدى الفرث يحمي اللحم أن يتمزعا
أعيني هلا تبكيان لمالكٍ إذا أذرت الريحُ الكنيفَ المربععا
وللشرب فابكي مالكا، ولُبْهمة شديداً نواحيها على من تشجعا
وللضيف، إن أرغى طروقاً بعيره وعان، ثوى في القيد، حتى تكتعا

(*) شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم وحسن إسلامه، وقد عدّه ابن سلام في مقدمة أصحاب المراثي مع الخنساء، وأعشى باهلة، وكعب بن سعد.

(1) جمهرة أشعار العرب، ص 747.

وأرملية، تسعى بأشعث، محتل،
فتى، كان مجذاماً إلى الرّوع ركضه
ولا كان وقافاً، إذا الخيل أحجمت،
ولا بكهّام بزّه عن عدوه
«بزه»: سلاحه. وبزه: سيفه.

إذا ضرّس الغزو الرجال رأيته
وإن تلقه في الشرب لا تلق فاحشاً
أبى الصبر آيات أراها وأنني
وأنني متى أدع باسمك لا تجب
أقول، وقد طار السنا في ربابه
«السنا»: البرق. و«الرباب»: السحاب. و«تريع»: تردد.

سقى الله أرضاً، حلّها قبر مالك
فمنخرق الأجزاء من حول شارع
وآثر سيل الواديين بديمة
تحيّته مني، وإن كان نائياً،
فإن تكن الأيام فرّقن بيننا
وعشنا بخير في الحياة، وقبلنا
وكنّا كندمانى جذيمة حقبه
فلما تفرقنا كآني ومالكاً
فتى، كان أحيا من فتاة حيية،
تقول ابنة العمري مالك بعدما
فقلت لها طول الأسى إن سألتني
وفقدي بني أم تولّوا فلم يكن

ذهاب الغواصي المدجنات، فأمرعا
فروى جبال القريتين فضلفعا
ثرثش وسمياً من النبت خروعا
وأمسى تراباً، فوقه الأرض بلقعا
فقد بان محموداً أخي يوم ودعا
أصاب المنايا رهط كسرى، وثبعا
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
وأشجع من ليث إذا ما تمثعا
أراك قديماً ناعم الوجه أفرعا
ولوعة حزن ترك الوجه أسفعا
خلافهم أن أستكين وأجزعا

ولكنني أمضي على الهول مُقدماً
 قعيدك ألا تسمعيني ملامة
 وحسبك أني قد جهدت فلم أجد
 وما وجد أظار ثلاث روائم
 يُذكرن ذا الشجو الحزين بشجوه
 إذا شارف منهن حئت، فرجعت
 بأوجد مني يوم فارقت مالكا
 وإني، وإن هزلتني، قد أصابي
 ولست إذا ما الدهر أحدث نكبة
 ولا فرحاً، إن كنت يوماً بغبطة
 وقد غالي ما غال قيساً ومالكا
 وما غال ندماني يزيد، وليتني
 ولو أن ما ألقى أصاب متالعا
 إذا بعض من يلقى الخطوب تضععا
 ولا تنكثي قرح الفؤاد فييجعا
 بكفي عنه للمنيّة مدفعا
 وجدن مجراً من حوار ومصرعا
 إذا حئت الأولى سجعن لها معا
 من الليل، بكى شجوها البرك أجمعا
 وقام به الناعي الرفيع فأسمعا
 من الرّزء ما يُكي الحزين المفجعا
 بالوث، زوار القرائب، أخضعا
 ولا جزعاً، إن ناب دهر، فاضلعا
 وعمراً وجوناً بالمشقر المعاعا
 تملئهم بالأهل والمال أجمعا
 أو الركن من سلمى إذا لتصدعا

ملحمة الفرزدق⁽¹⁾

عزفت بأعشاشي، وما كدت تعزفُ وأنكرت من حدراء ما كنت تعرفُ
 «عزفت»: تركت، والعازف عن الشيء: التارك له. و«أعشاش»: موضع. و«حدراء»: بنت زيق بن بسطام، امرأة كانت له.

ولج بك الهجران حتى كأنما ترى الموت في البيت الذي كنت تألفُ
 لاجئة صرم، ليس بالوصل، إنما أخو الوصل من يدنو، ومن يتلطفُ
 ومستنفرات للقلوب، كأنها مهأ حول متوجاته يتصرفُ
 «مستنفرات»: محركات. «المها»: البقر الوحشية.

تراهن من فرط الحياء كأنها مراض سلال، أو هوالك نُزفُ
 ويبدلن بعد اليأس من غير ريبة أحاديث، تشفي المدنفين، وتشفعُ
 إذا هن ساقطن الحديث حسبته جنى النحل، أو أبكار كرم، يُقطفُ
 موانع للأسرار إلا لأهلها ويخلفن ما ظن الغيور المشفشفُ
 إذا القنبضات السود طوفن بالضحي رقدن عليهن الحجال المسجفُ
 «القنبضات» الواحدة قنبضة: القصار من النساء.

وإن نهتهن الولائد بعدما تصعد يوم الصيف، أو كاد ينصفُ
 دعون بقضبان الأراك التي جئى لها الركب من نعمان أيام عرفوا
 فمخن به عذب الثنايا، رضابه رقاق، وأعلى حيث ركن أعجفُ
 وإن بُهت حدراء من نومة الضحى دعت، وعليها ثوب خز، ومطرفُ
 بأخضر من نعمان ثم جلّت به عذاب الثنايا طيباً يترشفُ
 لبسن الفريد الخسرواني، تحته مشاعر خزّي العراق، المقوفُ
 فكيف بمحبوس، دعاني، ودونه دروب، وأبواب، وقصر مشرفُ
 وصهب لحاهم راكزون رماحهم لهم درق تحت العوالي، مُصففُ

(1) جمهرة أشعار العرب، 2/ 873-893، والقصيد في مديح عبد الملك والفخر بقومه وهجاء جرير.

وضارية، ما مرّ إلا اقتسمنه
يُبلغنا عنها بغير كلامها
دعوتُ الذي سوى السماء بأيده
ليشغل عني بعلها بزمانة
بما في فؤادينا من الهمّ والهوى
فأرسل في عينيه ماءً علاهما
فداويته حولين، وهي قريبة،
سُلالة جفن، خالطتها تريكة
«التريكة»: البيضة. و«المسوف»: المشموم.

ألا ليتنا كنا بغيرين، لم نرد
كلانا به عرّ، يُخاف قرافه
بأرضٍ خلاءٍ وحدنا، وثيابنا
ولا زاد إلا فضلتان، سُلالة
وأشلاء لحم من حُبّارى، يصيدها،
لنا ما تمنينا من العيش ما دعا
إليك، أمير المؤمنين، رمت بنا
وعضّ زمان، يا بن مروان، لم يدع
«المسحت»: المستأصل. و«مجلّف»: ذهب بعض وبقي بعض.

ومائرة الأعضاء، صُهب، كأنما
«الآين»: الإعياء. و«الجساد»: ما جسد بالجلد من الطيب، والجساد: الزعفران.
«المدوف»: المسحوق.

نهضن بنا من سيف رملي كهيلة
وفيها بقايا من مَراح، وعجرف
فما بلغت حتى تواكل نهزها
وبادت ذراها والمناسيم رُعِف

وحتى مشى الحادي البطيء، يسوقها
 وحتى قتلنا الجهل منها، وغودرت
 إذا ما أئخت، قاتلت عن ظهورها
 إذا ما أريناها الأزمنة، أقبلت
 ذرعن بنا ما بين يبرين عرضه
 فأفنى مراح الداعرية خوضها
 إذا احمر آفاق السماء، وهتكت
 «الخرجف»: الريح الباردة. «كسور»: جوانب.
 وجاء قريع الشول قبل إفاها
 وهتكت الأطناب كل ذفرة
 وباشر راعيها الصلى بلبانه
 وقاتل كلب الحي عن نار أهله
 وأصبح مبيض الصقيع كأنه
 وجدت الثرى فينا لمن طلب الثرى
 لنا العزة القعساء، والعدد الذي
 ولو شرب الكلبى المراض دماءنا
 لنا حيث آفاق البرية تلتقي
 ومنا الذي لا ينطق الناس عنده
 تراهم قعوداً عنده، وعيونهم
 وبيتان: بيت الله، نحن ولائه،
 ترى الناس، ما سرنا يسرون خلفنا،
 ولا عز إلا عزنا قاهر له
 ألوف ألوف من رجال، ومن قناً،
 لها بخص دام، ودأي مجفف
 إذا ما أئخت، والمدامع ذرف
 حراجيج أمثال الأهلة، شسف
 إلينا بحرات الوجوه، تصدف
 إلى الشام، يلقاها رعان، وصفصف
 بنا الليل، إذ نام الدثور، الملقف
 كسور بيوت الحي حمراء، حرجف
 يزف وجاءت خلفه وهي زفف
 لها تامك من عاتق النى، أعرف
 وكفيه حر النار ما يتحرف
 ليربض فيها، والصلى متكفف
 على سروات البيت قطن مندف
 ومن هو يرجو فضله التضيّف
 عليه إذا غد الحصى يتخلف
 شفتها، وذو الخبل الذي هو دنف
 عديد الحصى، والقسوري المخندف
 ولكن هو المستاذن، المتنصف
 مكسرة أبصارها، ما نصرف
 وبيت بأعلى إيلياء، مشرف
 وإن نحن أوماناً إلى الناس، وقفوا
 ويسألنا التصف الذليل، فننصف
 وخيل كريعان الجراد، وحرشف

وإن فُتِنُوا يوماً ضربنا رؤوسهم
إذا ما احتبت لي دارم عند غاية
كلنا له قوم، فهم يُحلبونه
إلى أمدٍ، حتى يُفَرِّقَ بيننا،
فإنك إن تسعى لتدرك دارماً
أطلب مَنْ عندَ النجوم مكانه
عظفتُ عليك الحرب، إني، إذا وئى
أبى لجرير رهطُ سوءٍ، أذلةً،
وجدتَ الثرى فينا إذا طُلبَ الثرى
ترى جارنا فينا يُجير وإن جئى،
ويمنع مولانا، وإن كان نائياً،
وكنا إذا نامت كليب عن القرى
وقد علم الجيران أن قدورنا
تُفَرِّغُ في شيزى، كأن جفائهما
ترى حولهن المعتفين، كأنهم
قعوداً، وفوق القاعدين شطورهم
«جوس»: أي جوامد. والجامس الجامد. و«نطف»: تقطر ودكاً.

وما حُلَّ من جهل حبا حلماثنا
وما قام منا قائم في ندينا
وإننا لمن قوم، بهم يُتقى القرى
وأضياف ليل، قد نقلنا قراهم
قريناهم الماثورة البيض قبلها
ومسروحة، مثل الجراد، يمرها
ولا قائل المعروف فينا يُعُتَّفُ
فينطق إلا بالتي هي أعرف
ورأب الثأى، والجانب المتخوف
إليهم، فأتلفنا المنايا، وأتلفوا
يُبيحُ العروق الأيزنى المثقف
ممر قواها، والسراء المعطف

«السراء»: شجر تعمل منه القسي. و«المسروحة» هنا: النبل.

فأصبح في حيث التقينا، شريدهم: قتيل، ومكتوف اليدين، ومُعرفُ
ولا نستجم الخيل حتى نعيدها فيعرفها أعداؤنا، وهي عطفُ
كذلك كانت خيلنا، مرة تُرى حساناً، وأحياناً ثقاد فتعجفُ
عليهن منا الناقمون دُخولهم فهنَّ بأعباء المنيّة كُتِفُ
وقدر، فثأنا عليها بعدما غلت وأخرى، حششنا بالعوالي ثؤفُ
وكلُّ قري الأضيافَ نقري من القنا ومُعبط، منه السنّام المُسدّفُ
وجدنا أعزَّ الناس أكثرهم حصى وأكرمهم مَنْ بالمكارم يُعرفُ
وكلتاها فينا لنا حين تلتقي عصائبُ لاقى بينهما المُعرّفُ
منازيلُ عن ظهر القليل كثيرنا إذا ما دعا ذو الثروة المتردّفُ

يقول لا يحمِلنا ماء قليل ولا كلاً. «الثروة»: العدد. «المتردّف»: الذي تتبعه الأمداد.

فلقنا الحصى عنه الذي فوق ظهره بأحلام جهال، إذا ما تعطفوا
وجهلٍ بحلم، قد دفعنا جنوئه وما كان لولا عزنا يتزحلفُ
رجحنا بهم حتى استثابوا خلومهم بنا بعدما كاد القنا يتقصّفُ
ومدّت بأيديها النساء، فلم يكن لذي حَسَبٍ عن قومه متخلفُ
فما أحدٌ في الناس يعدلُ دارماً بعز، ولا عزُّ له حين يجنّفُ

«يجنّف»: يميل، ومنه: جنف، يجنّف.

ثناقلُ أركانٍ عليه ثقلته كاركان سلمى، أو أعزُّ، وأكشفُ
وأمُّ أقرّت من عطية رَحْمُها بالألم ما كانت له الرّحمُ تنشفُ
إذا وضعت عنها أمانة درعها وأعجبها رابٍ إلى البطن مُهدِفُ
قصير، كأن الثّرك فيه وجوههم خنوق، لأعناق الجرادين، أكشفُ
تقول، وصكّت حُرَّ وجه مغيظة على الزوج حرّى، ما تزالُ تلهّفُ
أما من كلبي إذا لم يكن له أتانان يستغني ولا يتعقّفُ

إذا ذهبت مني بزوجي حمارةً
على ريح عبدٍ، ما أتى مثلَ ما أتى
تُبَكِّي على سعدٍ، وسعدٌ مقيمةٌ
ولو أن سعداً أقبلت من بلادها
وسعدٌ كاهل الرّدمِ، لو فُضَّ عنهم
همٌ يعدلون الأرض، لولا هم التقت
ووالله لولا أن يُقالَ تظاهرت
لَمَّا تركوا كفّاً تشيرُ بأصبعٍ

فليس على ريح الكليبيّ مأسفُ
مُصلٍ، ولا من أهل ميسانٍ أqlفُ
ببيرين، قد كادت على الناس تُضعِفُ
لجاءت بسبيرينَ الليالي تَزَحَفُ
لماجوا، كما ماج الجرادُ، وطوفوا
على الناس، أو كادت تميدُ، فتنسِفُ
علينا تميمٌ ظالمينَ وأسرفوا
ولا تركوا عيناً على الأرض تطرِفُ

ملحمة ذي الرُّمَّة (1)

ما بال عينك منها الماء ينسكب
 وفراء، غربية، أنأى خوارزها،
 استحدثت الركب عن أشياهم خبراً
 من دمنة، نسفت عنا الصبا سفعاً
 سيلاً من الدَّعِص، أغشته معارفها
 لا، بل هو الشوق من دار، تحوئها
 ببرقة الثور، لم تطمس معالمها
 يبدو لعينك منها، وهي مزمنة
 إلى لوائح من أطلال أحوية
 دار، لمية، إذ ميئ تساعفنا
 عجزاء، ممكورة، خمصانة، قلق
 زين الثياب، وإن أثوابها استلبت
 برأقة الجيد واللُّبَات، واضحة
 بين النهار وبين الليل من عقيد
 لمياء، في شفيتها حوة لَعَس
 كحلأ في دَعَج، صفراء في بَرَج
 تريك غرة وجه، غير مقرفة
 تزداد في العين، إبهاجاً إذا سَفرت
 والقرط في حرة الدفري معلقه
 إذا أخول لذة الدنيا تبطنها
 كأنه من كلَى مفرية سرب؟
 مُشَلِّش، ضيَّعته بينها الكتب
 أم راجع القلب من أطرابه طرب؟
 كما تُنْشَرُ بعد الطية الكتب
 نكبأ، تسحب أعلاه، فينسحب
 مر السحاب، ومر بارح ترب
 دوارج المور، والأمطار، والحب
 ئوي، ومستوقد بال ومحتطب
 كأنها خلل موشية قشب
 ولا يرى مثلها، عجم ولا عرب
 عنها الوشاح، وتم الجسم والقصب
 على الحشية يوماً، زانها السلب
 كأنها ظبية، أنضى بها لب
 على جوانبه الأغصان والهذب
 وفي اللثات، وفي أنيابها شنب
 كأنها فضة، قد شابها ذهب
 ملساء، ليس بها خال، ولا ندب
 وتخرج العين فيها حين تتقب
 تباعد الجبل منه، فهو يضطرب
 والبيت فوقهما بالليل محتجب

(1) جهرة أشعار العرب، 2/ 941-968. وذو الرُّمَّة شاعر أموي، عده ابن سلام من فحول شعراء الإسلام. وقد توفي في خلافة هشام بن عبد الملك، وله أربعون سنة كما في الأغاني.

سافت بطيئة العرنين، مارئها
 تلك الفتاة التي غلقتها عَرَضاً
 ليالي، الدهر يطبيني، فاتبعه
 لا أحسب الدهر يُبلي جده أبدأ
 زار الخيال لمي هاجعاً، لعبت
 مُعرساً، في بياض الصبح وقَعته،
 أخت تنائف، أعفى عند ساهمة
 تشكو الخشاش، ومجرى التسعين كما
 كأنها جلّ وهَم، وما بقيت
 لا تُشكى سقطة منها، وقد رقصت
 كأن صاحبها يهوي بمنخرقٍ
 والعيس من عاسج أو واسج خبيأ
 تخدي بمنخرق السربال، مُنصلت
 تُصغي إذا شدّها بالكور جانحة
 وثبّ المسجّع من عانات معقّلة
 يتلو نحائص أشباهاً مُملجة
 له عليهنّ بالخلصاء، مرتعّه،
 حتى إذا معمعان الصيف هبّ له
 فأدرك المتبقي من ثميلته
 وصوّح البقل نأج تجيء به
 تنصبّ حوله يوماً ثراقبه
 حتى إذا اصفرّ قرن الشمس، أو كربت
 والهَم عين ألال، ما يُنازعه

بالمسك والعنبر الهندي مُختضب
 إن الكريم، وذو الإسلام يُحتلب
 كأنني ضارب في غمرة، لعب
 ولا تُقسّم شعباً واحداً شعب
 به التنائف، والمهرية النجب
 وسائر الليل، إلا ذاك، مُجذب
 بأخلق الدف من تصديرها جُلّب
 يشكو المريض إلى عَواده الوصب
 إلا النحيزة، والألواح، والعصب
 بها المعاطش، حتى ظهرها حَدِب
 من الجنوب، إذا ما ركبها نصبا
 يُنحزن من حافتيها، وهي تُنسلب
 مثل الحُسام، إذا ما صحبه شحبوا
 حتى إذا ما استوى في غرزها تثب
 كأنه مستبان الشك، أو جنب
 صُحَم السرايل في أحشائها قَبب
 فالقودحات، فجنّبي واحف، صَحَب
 بأجة، نشء عنها الماء، والرطب
 ومن ثائلها، واستنشع الغرب
 هيف، يمانية، في وقعها نكب
 قود، سماحيج، في ألوانها خطب
 أمسى، وقد جدّ في حوائثه القرب
 في نفسه لسواها مورداً أرب

فراح مُصلتاً يحدو حلائله
 كأنه مُعولٌ، يشكو بلائله
 يغشى الحزون بها عمداً، ويتبعها
 كأنهنَّ خوافي أجدلٍ قَرم
 كأنها إبلٌ، ينجو بها نفرٌ
 كأنه، كلما ارفضتْ حزيقتها
 فغلست، وعمودُ الصبح مُصدعٌ
 عيناً، مُطحلبةُ الأرجاء، طاميةٌ،
 يستلها جدولٌ، كالسيف، مُصلتٌ
 وبالشمال من جِلانٍ مُقتنصٌ
 يسعى بُزرقٍ، هدّتْ قُضباً مُصدرةً
 كانت إذا وقعت أمثالهنَّ له
 حتى إذا الحُقبُ في أهضامٍ موردها
 فعرضتْ طَلْقاً أعناقها فَرَقاً
 فأقبل الحُقب، والأكبأُ ناشزةً
 حتى إذا زلجت عن كل حنجرةٍ
 رمى فأخطأ، والأقدارُ غالبَةٌ
 يَقَعْنَ بالسفح مما قد رأين به
 أذاك، أم نَمَشٌ بالوشى أكرعُه
 تقيظُ الرملُ حتى هزَّ خلفه
 ربلاً، وأرطى، نفّتْ عنه ذوائبه
 أمسى بوهبين، مُجتازاً لمرتعه
 حتى إذا جعلته بين أظهرها

أدنى تقاؤفه التّريبُ، والحَبُّ
 إذا تنكّبَ عن أجوازها نكّبُ
 شبه الضّرارِ، فما يُزري بها التعبُ
 ولّى ليسبقه بالأمعز الحَرَبُ
 من آخرين، أغاروا غارةً، جَلَبُ
 بالصُّلب من نهشه أكفأها، كَلَبُ
 عنها، وسائرُه بالليل مُحْتَجِبُ
 فيها الضفادعُ والحيتانُ تصطخبُ
 بين الأشياء، تسامى حوله العُسْبُ
 رثُ الثياب، خفيّ الشخص، مُنزربُ
 مُلَسَ البطون، حواها الريشُ والعَقَبُ
 فبعضهنَّ عن الألاف مُنشعبُ
 تغيّت، رابها من خيفة ريبُ
 ثم أطباها خريراً الماء، ينسكبُ
 فوق الشراسيف في أحشائها تُجِبُ
 إلى الغليل، ولم يقصعنه، نُعْبُ
 فانصغن، والويلُ هجيراه، والحَرَبُ
 وقعاً، يكاد حصى المعزاء يلتهبُ
 مُسْفَعُ الوجه، غادٍ، ناشطٌ، شَبُّ
 تروُحُ البرد، ما في عيشه رَئِبُ
 كواكبُ القِيظ، حتى ماتتِ الشُّهبُ
 من ذي الفوارس، يدعو أنفه الرِّيبُ
 من عجمة الرمل أثباجٌ، لها خَبُّ

ضمّ الظلام على الوحشيّ شملته
فبات ضيفاً إلى أرطاة مُرتكم
ميلاءً، من معدن الصّيران، قاصية
وحائلٍ، من سفير الحول، جائله
كانها بيت عطّار، تضمته
كائناً نقضَ الأحمال، ذاويةً،
إذا استهلّت عليه غيبةً، أريجَت
تجلو البوارق عن مُجرّمْزٍ، لهقٍ
والوذقُ يستنُّ عن أعلى طريقته
يغشى الكناسَ بروقيه، ويهدمه
إذا أراد انكراًساً فيه، عنّ له،
وقد توجّسَ ركزاً مقفراً ندسّ
فبات يُشترّهُ ثأذ ويُسهره
حتى إذا ما جلا عن وجهه فلقّ
أغباشَ ليلٍ تمام، كان طارقه
غداً، كأن به جنأ، تذاءبه،
حتى إذا ما لها في الجذر، واتخذت
ولاح أزهر، معروفةً بنقبتيه
هاجت له جوعٌ، عوجٌ، مُحصرةٌ
جرّد، مُهرّئةُ الأشداق، ضاريةً،
ومطعمُ الصيد، هبالٌ لبغيته،
مقزّع، أطلسُ الأطمار، ليس له
فانصاع جانبُه الوحشيّ، وانكدرت

ورائحٌ من نِشاص الدلو مُنسكب
من الكتيب، لها دفءٌ ومُحتجب
أبعارهنّ على أهدافها كُتب
حول الجرائيم، في ألوانه شهب
لطائم المسك، يحويها، وينتهب
على جوانبها الفِرصاد، والعنب
مرايضُ العين، حتى يارجَ الخشب
كأنه مثقبي يلمّق عَزَب
حول الجُمان، جرّت في سلكه الثقب
من هائل الرمل مُنقاص، ومُتعب
دون الآرومة من أطنابها، طُنّب
بنبأة الصوت، ما في سمعه كذب
تذاؤبُ الريح، والوسواسُ، والهَضَب
هاديه في أخريات الليل مُتصب
تطخّطُخُ الغيم، حتى ماله جُوب
من كل أقطاره يخشى ويرتقب
شمسُ الذرور شُعاعاً، بينه طَبَب
كأنه، حين يعلو عاقراً، لهب
شواذب، لاحها التقريب، والخب
مثلُ السراحين، في أعناقها العذب
ألفى أباه لذاك الكسب يكتسب
إلا الضّراء، وإلا صيدها، نَشَب
يلحبن، لا يأتلي المطلوب، والطلب

حتى إذا دوّمت في الأرض راجعَهُ
 خزايةً، أدركته بعد جولته
 فكفّ من غربه، والغُضفُ، يسمعها
 حتى إذا أدركته وهو مُنْخَرِقٌ
 فكراً يمشقُ طعنًا في جواشنها
 بَلَتْ به غير طياشٍ، ولا رَعِشٍ
 فتارةً يَخْضُ الأعناقَ عن عُرْضٍ
 يُنحي لها حدّ مدريّ، يَجُوفُ به
 حتى إذا كُنْ، محجوزاً بنافذةٍ
 ولّى، يهْذُ انهزاماً وَسْطَها، زِعْلاً
 كأنه كوكبٌ، في إثر عَفْرِيةٍ
 وهُنَّ من واطيٍ، يثني حَوَيْته
 اذاك، أم خاضِبٌ، بالسيّ مرتعهُ
 شخْتُ الجزيرة، مثل البيت سائره
 «الشخت»: الدقيق. «الجزارة»: العنق. «خذب»: عظيم. «شوقب»: طويل.

كان رجليه مسمّاكان من عَشْرٍ
 [الهاء آء، وتثووم، وعُقبته
 فظل مختضعا، يبدو فتتكبرهُ
 كأنه حبشيّ في خمائله،
 هجئع، راح في سوداءٍ مُخْمَلَةٍ
 أو مُقَحَّم، أضعف الإبطان حادجُهُ
 عليه زاد، وأهدام، وأخفية،
 أضلَّهُ راعياً كليليةً غَفْلاً
 صقبان، لم يتقشّر عنهما التَّجَبُّ
 من لائح المرو، والمرعى له عُقْبُ
 حيناً، ويسطعُ أحياناً، فيتسبُّ
 أو من معاشر، في آذانها الخُرْبُ
 من القطائف، أعلى ثوبه الَهْدَبُ
 بالأمس، واستأخر العدلان والقَتْبُ
 قد كاد يجترّها عن ظهره الحَقَبُ
 عن صادر، مُطْلَب، قطعائه عُصَبُ

فأصبح البكرُ فرداً من صواحيه يرتاد أحليّة، أعجازها شَدَبُ
كلّ، من المنظر الأعلى، له شَبّة هذا، وهذان، قدّ الجسم، والثّقْبُ
حتى إذا الهَيْقُ أمسى، شام أفرخه وهنّ: لا مُؤيسَ نايأ، ولا كُكْبُ
يرقدُ في ظل عَراضٍ، ويسحقه حفيفُ نافجة، عُثُونها حَصِبُ
«ارقد»: أسرع.

تبري له صَعلة، أدماء، خاضعة فالخرق، بين بنات البَيض، مُنتَهَبُ
كانه دلو بئر، جدّ ماتحها حتى إذا ما رآها، خانها الكَرَبُ
فروحاً روحة، والريحُ مُعَصِفة، والغيثُ مُرتجِز، والليلُ مُقْتَرَبُ
لا يذخران من الإيغال باقية حتى تكاد تفرى عنهما الأُهبُ
فكل ما هبطا في شأو شوطهما من الأماكن، مفعولٌ به العجبُ
لا يآمنان سباع الليل، أو برداً، إن أظلما دون أطفالٍ لها لَجَبُ
كأنما فُلِقَتْ عنها بيلقعة جهاجم، يبسّ، أو حنظلٌ خَرِبُ
مما تُقَيِّضُ عن عُوجٍ، مُعْطَفة كأنها شاملٌ أبشارها جَرَبُ
جاءت من البيض زُعرأ، لا لباسَ لها إلا الدّهاسُ، وأمّ برّة، وأبُ
أشداقها كصدوع النبل في قُللٍ مثل الدحاريج، لم يبت لها زَغَبُ
في نسخة: «كصدوع النبع».

كان أعناقها كُراتٍ سائفة طارت لفائفه، أو هيشرٌ سُلْبُ

قصيدة للعرجي⁽¹⁾

قال العرجي: عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي:

- حورٌ بعثن رسولاً في ملاطفةٍ ثقفاً إذا أسقطَ النساءُ الوهم⁽²⁾
إليَّ أن إيتنا هدهأ إذا غفلتُ أحراسنا، افتضحنا إن هم علموا⁽³⁾
فجئتُ أمشي على هولٍ أجشمه تجشُّمُ المرء هولاً في الهوى كرم⁽⁴⁾
إذا تخوفتُ من شيءٍ أقولُ له: قد جفَّ - فامض - بما قد قدَّرَ القلم⁽⁵⁾
أمشي كما حرَّكتُ ريحَ يمانيةٍ غصناً من البان رطباً طله الرهم⁽⁶⁾
في حلَّةٍ من طراز السوس مُشربةٍ تعفو بهذابها ما تُندبُ القدم⁽⁷⁾
وهنَّ في مجلسٍ خالٍ وليس به عينٌ عليهن أخشاها ولا برم⁽⁸⁾
لما بلغتُ إزاء الباب مكتماً وطالبُ الحاج تحت الليل مكتم⁽⁹⁾

- (1) ديوان العرجي، ص 30. نقلاً عن: نصوص من الأدب الأموي للدكتور حسين عطوان ص 25-29.
(2) الحور: جمع حوراء، وهي المرأة عيناها ناصعة البياض والسواد، وأصله من الحور، وهو شدة بياض العين وشدة سوادها، يكون في البقر والظباء ثم يستعار للناس. والملاطفة: المجاملة والرفق في المعاملة. والثقف: الحاذق الفهم. وأسقط في كلامه: أخطأ. والنساء: الكثير النسيان. والوهم: كثير الغلط والسهو.
(3) الهدء: ابتداء سكون الليل، يقال: أتانا بعد هدهء من الليل: أي بعد هزيع من الليل، أو بعد طائفة ذهبته منه. وغفلت: سعت. والأحراس: جمع حرس، وهو الذي يحرس المرأة، أي يحفظها ويحميها. وافتضح: انكشف أمكره واشتهر.
(4) الهول: الخوف والأمر الشديد. وأجشمه: أتكلفه على مشقة. والتجشم: فعل الأمر على كره ومشقة.
(5) جف بما قد قدر القلم: أي كتب وفرض. وامض: تقدم واذهب.
(6) الريح اليمانية: التي تهب من الجنوب إلى الشمال. والبانة: شجرة لها ثمرة تربب بأفاويه الطيب، أي تطيب وتجاد وتغذي بالياسمين أو بعض الرياحين، ثم يعتصر دهناً طيباً، وجمعها البان، ولاستواء نباتها ونبات أفنانها وطولها ونعمتها شبه بها الشعراء الجارية الناعمة الطويلة القمة. والرطب: الناعم اللين. طله: مطره، من الطل، وهو أخف المطر وأضعفه. والرهم: جمع رهمة، وهي المطر الخفيف الدائم الصغير القطر.
(7) الحلّة: رداء وقميص، ولا يقال لها حلّة حتى تكون من ثوبين. والطراز: الشكل. والسوس: بدلة في خوزستان معروفة بطراز الخزوز الثمينة. والأشراب: اللون يختلط به لون آخر. وتعفو: تمسح وتزيل. والمراد تشفي وتبرئ. والهداب: ما استرسل من حواشي الثوب. وتندب: مضارع أندبه، إذا جعل فيه أثراً، وأصله من الندبة، وهي أثر الجرح إذا لم يترفع عن الجلد، استعارة لأثر القدم في الأرض.
(8) العين: الرقيب. والبرم: اللثيم.
(9) المكتتم: المستتر المتخفي. والحاج: جمع حاجة، وهي الطلبة والإربة.

- سددن لي أعيناً نجلاً كما نظرت أدم هيجاناً أتاها مُصعبٌ قَطَمٌ⁽¹⁾
 قالت كلابة: من هذا؟ فقلتُ لها: أنا الذي أنت من أعدائه زعموا!⁽²⁾
 إنني امرؤٌ لجُ بي حُبٌّ فأحرضني حتى بليتٌ وحتى شفني السَّقَمُ⁽³⁾
 لا تذكريني لأعداءٍ لو أنهم من بغضنا أطعموا الحمى إذا طَعَمُوا⁽⁴⁾
 فأنعمي نعمةً تجزي بأحسنها فرمما مسني من أهلك النعمُ⁽⁵⁾
 سِترُ المحبين في الدنيا لعلهم أن يُحدثوا توبةً فيها إذا أئثموا⁽⁶⁾
 إذا أناسٌ من الأناس جاورهم تذموا باصطلاح بعدما حُرِّموا⁽⁷⁾
 هذي يميني رهيناً بالوفاء لكم فإرضي بها، ولأنفِ الكاشحِ الرِّغَمُ⁽⁸⁾
 قالت: رضيتُ، ولكن جئتُ في قَمَرٍ هلاً تلبثت حتى تدخل الظُّلُمُ؟⁽⁹⁾
 خلَّتْ سبيلي كما خلَّيتُ ذا عُدُرٍ إذا رآته إناك الخيلُ تنتجِمُ⁽¹⁰⁾

- (1) سددن: صوبن. والنجل: الواسعة. والأدم الهجان: النوق البيض تعلوهم غبرة. والمصعب: الفحل من الإبل يودع من الركوب والحمل ويترك للفحلة. والقطم: المشتبه للضراب.
 (2) كلابة: مولاة لثقيف كانت عند عبد الله بن القاسم العبلي، وكانت تندد بالعرجي وتتوعده أن تسود وجهه إن لقيته، فكاد لها العرجي وفضحها عند مولاها. (انظر الأغاني 1: 387).
 (3) لج بي الحب: ابتليت به، أو استبد بي وتمادى علي. وأحرضه المرض: أسقمه وأشفى على الهلاك. وأحرضه الحب: أفسده. وبيت: ذبت وفنيت. وشفني السقم: رقق جسمي، أي أضمره وهزله.
 (4) البغض: الكره والعداوة. والحمى: جمع حمة، وهي سم العقرب. وطعموا: أكلوا ولم يعافوا.
 (5) أنعمي: أحسني أو جودي وإبدلي. والنعمة: اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنة وما أنعم به عليك. وتجزي: تكافيني وتثابي. ومسني: أصابني.
 (6) الستر: الإخفاء والصون. والتوبة: الرجوع من الذنب. وأئثموا: أذنبوا.
 (7) الأناس: جمع إنسي. وتذموا: حفظوا الدمام، وهو الحق والحرمة. والاصطلاح: التصالح، أي المسالمة. وحرموا: منعوا.
 (8) يميني: حلفي وقسمي. ورهين: موثق لا يستطيع التخلص منه، أي ملزم. والكاشح: المتولي عنك بوجهه. وقيل: الذي يضمرك العداوة. والرغم يسكون الغين وقد حرك في الشعر للضرورة: الذل والقسر، وأصله أن يلتصق أنفه بالرغام، وهو التراب.
 (9) تلبثت: انتظرت.
 (10) خلَّتْ سبيلي: تركتني. وذا عذر: الفرس. والعذر: جمع عذار، وهو السير الذي يعلق باللجام وسيل على خد الفرس. وتنتحم: تخرج النحيم، وهو صوت يخرج من جوف الفرس.

- حتى أويتُ إلى بيضٍ تراثبها من زِيها الحلي والحِناء والكَتَمُ⁽¹⁾
 فبتُ أسقى بأكوابٍ أعلُ بها أصنافُ شتى فطاب الطَّعمُ والنَّسَمُ⁽²⁾
 يجعلني بعد تسويقٍ وتفديةٍ بحيث يثبتُ غرضُ الضامرِ الوَلَمُ⁽³⁾
 حتى بدا ساطعٌ ملفجرٍ يحسُّهُ سَنَا حريقٍ بليلى حين يضطرمُ⁽⁴⁾
 كغرةِ الأزهر المنسوب قد حسرتُ عنه الجلالَ تلالاً وهو مُصطخِمُ⁽⁵⁾
 ودَعَتْهُنَّ ولا شيءٌ يُراجعي إلا البنانُ وإلا الأعينُ السُّجُمُ⁽⁶⁾
 إذا أردن كلامي عنده اعترضتُ من دونه عَبراتٌ فانشئ الكَلِمُ⁽⁷⁾
 لَمَّا تبينهُ، والوجدُ يعطِفُني لحبهنَّ، وهنَّ الولهُ الرُّومُ⁽⁸⁾

- (1) أويت: نزلت وحللت. والتراثب: جمع تريبة، وهو موضع القلادة من الصدر. والكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.
- (2) في الأصل أكواس. ولعله محرف عن أكواب. وأعل: أسقى مرة بعد مرة. والنسم والنسيم: الريح الطيبة.
- (3) التسويق: التمليك، من سوفت الرحل إذا ملكته. وتفدية: مصدر فداه يفديه إذا قال له: جعلت فداك. وفي الأصل «تغذية» بالغين. والضامر من الإبل: اللطيف الجسم. والغرض: جمع غرضة بالضم، أي التصدير، وهو للرحل بمنزلة الحزام للسرّج، والغرضة كالغرض، وهو جبل الرحل، وأراد بالغرض الحبال التي يشد بها الرحل في صدر البعير ويطنه، وهي الأغراض والأحقاب. والولم: الرحل. ومحل ثبوته: الصدور والبطون، وهو كناية عن العناق.
- (4) الساطع: ضوء الفجر المنتشر المرتفع. وملفجر: من الفجر. وفي الأغاني 1: 390: «للفجر». ومحسبوا: يظنوا، وهو بكسر السين وفتحها، والكسر أجود اللغتين. والسنا: الضوء. ويضطرم: يشتعل ويلتهب.
- (5) الغرة: البياض في جبهة الفرس. والأزهر: الجواد الصافي اللون. والمنسوب: المعلوم نسبه من كرائم الخيل. وحسرت: نزعت. والجلال: جمع جل، وهو ما يوضع على ظهر الدابة لتصان به. وتلالاً: لعله يريد مرتبطاً، من تل الدابة إذا ارتبطها. والمصطخم: المنتصب القائم الساكت كأنه غضبان.
- (6) السجُم: جمع سجوم، وهي من العيون الكثيرة سيلان الدمع. والبنان: الأصابع.
- (7) اعترضت من دونه: حالت ومنعت. وانشئ الكلم: ارتد بعضه على بعض فلم يكن منه شيء.
- (8) الوجد: الحزن، وفلان يجد بفلانة: إذا كان يهواها ويحبها حباً شديداً. ويعطفي: يردني ويشيني. والوله: جمع وله، وهي المرأة التي فقدت ولدها. والرؤم: جمع رؤوم، وهي الناقة التي تعطف على ولدها وتلزمه من فرط حبها له.

- ثمَّيل التين يجري تحته نَهْرٌ يَغْطِي، وترفعُ من أفنانه النَّسَمُ⁽¹⁾
 تكاذُ ما رُمِنَ نهضاً للقيام معاً أعجازُهنَّ من الأقطان تنقصمُ⁽²⁾
 يخونُها فوقها مهضومةٌ طُويتْ كما تخون عكومُ المئجل الخضمُ⁽³⁾
 مستشزراتٌ وقد مالت سوافُها إلى الولائد لا غير الهوى ألمُ⁽⁴⁾
 لما رأيتُ الذي يلقيَن من كمدٍ وأنَّ آخرَ ليلي سوف ينصرمُ⁽⁵⁾
 لبست ساجي على بُردِي منطلقاً تحت الشمال ومنها قِطْقَطٌ شَبِمُ⁽⁶⁾
 لا مُسرِعَ المشي من خوفٍ ولا بَطْأ كالليث أبرزه تحت الدجى الرهمُ⁽⁷⁾
 حتى أويت إلى طرفٍ برايبَةٍ كأنه مُعرضاً من ساعةٍ عَلمُ⁽⁸⁾

- (1) تميل التين: أي يتميلن كما تتميل أغصان شجرة التين. يريد يتشبن ويتهادين في مشيتهن لنعموتهن ورقتهن. وغطى النهر يغطي: ارتفع ماؤه. والنهر والنهر بتسكين الهاء وتحريكها: مجرى الماء. والنسم: ابتداء كل ربح قبل أن تقوى.
- (2) رمن: طلبن وأردن. والأعجاز: جمع عجز، وهي مؤخرة المرأة، أي ردفها وكفلها. والأقطان: جمع قطن، وهو أسفل الظهر. وأراد الخصور. وتنقصم: تنكسر حتى تبين.
- (3) فوقها: فوق أعجازها. والمهضومة: الضامرة البطن. وانطواؤها: ضمورها. والعكوم: جمع عكم، وهو العدل والجمل الثقيل يشبه به أعجازها. والمئجل: الناقة التي فيها ثعل، وهو أسنان زائدة متداخلة بين أسنانها، فلا يمكنها أن تأكل قضمًا بأسنانها الأمامية فإن حاولت الأكل وهي موقرة مدت أعناقها مطاطنة لتتمكن من الخضم، وهو الأكل بأقصى الأضراس، ولذلك لا تكاد أحمالها تثبت على ظهورها. يشبه هذا نهوض أولئك النساء للقيام فتنوء بأعجازها الثقيلة.
- (4) مستشزرات: أي غداثرهن مفتولات إلى فوق. وفي الأصل: «مستنشدات». والسوالف: جمع سالفة وهي صفحة العنق عند معلق القرط. والولائد: جمع وليدة، وهي الجارية التي لم تبلغ الحلم.
- (5) يلقيَن: يجدن. والكمد: أشد الحزن. وينصرم: ينقطع، أي ينقضي.
- (6) الساج: الطيلسان الواسع الممدود. والشمال: الريح الباردة. والقطقط: المطر الخفيف. والشبم: البارد.
- (7) الشبم: الثقيل في مشيه، المترث المتباطئ. والرهم: جمع رهمة، وهي المطر الخفيف الدائم الصغير القطر.
- (8) أويت: عدت. والطرف: الكريم الطرفين من الخيل، أي الأب والأم. والرايبة: المرتفع من الأرض. والمعرض: المشرف. والعلم: الجبل أو قمته. يشبه به فرسه فوق الرايبة.

لا يكسرُ الطرفَ، نظارٌ يقال: به من حدة الطرف لاستيناسه لَمَمٌ⁽¹⁾
 كأنما قَرصُ ناييه شكيمته قَرشُ المدى ينتحيها الجازر الخِذْمُ⁽²⁾
 ضافي السيب تقدُّ الغرض زفرته نهْدٌ، وتقصرُ عن أضلاعه الخُزْمُ⁽³⁾
 فذاك حصنُ الفتى مثلي، إذا جعلتُ بالمُحصنين قصورُ الشيد تنهْدُمُ⁽⁴⁾

- (1) النظار: شديد التطلع حديد الفؤاد. ويقال به: يظن به. والاستيناس: إرهاف الأذن للتسمع مع إطالة النظر. واللمم: الطائف من الجن أو طرف من الجنون.
- (2) الشكيمة: الحديدية المعترضة في فم الفرس من اللجام، وقرصها: أن يعلكها بناييه. والمدى: جمع مدية، وهي الشفرة، وقرشها: أن يصكها الجزار بأخرى ليسنها ويشحذها للذبح. وانتحي الشيء: قصده. والخِذْم: السريع القطع.
- (3) الضافي: السايغ، والسيب: شعر الذنب والعرف والناصية. وتقدر: تقطع، والغرض: جمع غرضة، وهي ههنا حزام السرج. والنهد: الجسيم المشرف.
- (4) الحصن: المكان المنيع، والشيد: ما يطل به الحائط من جص أو بلاط. والقصر المشيد: المرفوع، أو المبني بالشيد.

(1) قصيدة لجريير

قال جريير بن عطية يمدح هشام بن عبد الملك، ويُقال: إنها آخر شعره، أرسل بها إلى هشام مع ابنه عكرمة:

أَصْبَحَ وَصَلَ حَبْلَكُمْ رِيَامَا وَمَا عَهْدُ كَعْدِكُ يَا أَمَامَا (2)
 إِذَا سَفَرْتُ فَمَسْفُرَهَا جَمِيلٌ وَيُرِضِي الْعَيْنَ مَرْجِعُهَا اللَّثَامَا (3)
 تُرِي صَدْيَانِ مَشْرَعَةً شَفَاءَ فَحَامٌ وَلَيْسَ وَارِدُهَا وَحَامَا (4)
 أُمِّيَتِ الْمَنَى وَخَلْبَتِ حَتَّى تَرَكْتَ ضَمِيرَ قَلْبِي مُسْتَهَامَا (5)
 سَقَى الْأَدْمَى بِمُسْبَلَةِ الْغَوَادِي وَسُلَمَانِينَ مُرْتَجِزًا رُكَامَا (6)
 سَمِعْتَ حَمَامَةً طَرَبَتْ بِنَجْدٍ فَمَا هَجَّتِ الْعَشِيَّةُ يَا حَمَامَا (7)
 مَطْوَقَةً تَرْتُمُ فَوْقَ غَصَنِ إِذَا مَا قَلْتُ مَالُهَا اسْتَقَامَا (8)

- (1) ديوان جريير، 1/ 221. نقلا عن نصوص من الأدب الأموي للدكتور حسين عطوان، ص 77-84.
- (2) روى عمارة: «أصبح؟». وهو أجود على الحرم. ووصل حبلكم: أي حبكم ومواصلتكم. والريام: الأخلاق، واحدها رمة. والعهد: الزمان.
- (3) سفرت المرأة: ألفت نقابها، أو كشفت النقاب عن وجهها. والمسفر: واحد مسافر الوجه، وهي ما يظهر منه. ومرجعها: رجعها، أي ردها. واللثام: ما كان على الفم من النقاب، أي القناع على مارن الأنف، أي طرفه. يريد أنها حسنة سافراً ومتقبة.
- (4) الصديان: العطشان الظمآن. والمشرعة: الموضع الذي ينحدر إلى الماء منه، أي مورد الشاربة. والشفاء: الارتواء من الماء، أي ما يذهب العطش وينقع الغلة. وحام: طاف حولها. وليس واردها: أي لا يقدر على ورودها، أو لا يستطيع أن يشرب منها.
- (5) مناه الشيء: جعله يريده ويرغب فيه، أي أطمعه فيه. وخلبت: أخلفت، من الخلب، وهو السحاب يومض برقه حتى يرجى مطره، ثم يخلف وينقشع. والخلاية: الخداع بالقول اللطيف. والضمير: السر وداخل الخاطر، أي الشيء الذي تضرره في قلبك وتخفيه. وقلب مستهام: أي هائم، وهو مستاهم الفؤاد: أي مذهبه، من هام إذا ذهب على وجهه من العشق.
- (6) الأدمى: من بلاد بني سعد، وهو جبل فيه قرية باليمامة. والمسبلة: الهاطلة الغزيرة. والغوادي: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ صباحاً. وسلمانين: وإد يصب على الدهناء شمالي حفر الرباب ناحية اليمامة بموضع يقال له: الهرار. وغيث مرتجج: فيه رعد. والركام: السحاب المتراكم المتراكب.
- (7) طربت: هدلت وغنت.
- (8) المطوقة: الحمامة التي في عنقها طوق. وترتم: تتطرب وترجع صوتها. ومال بها: اهتز وتحرك. واستقام: استوى واعتدل.

- سقى الله البشام وكل أرض من الغورين أنبت البشاما⁽¹⁾
أحب الدور من هضبات غول ولا أنسى ضربة والرجاما⁽²⁾
كانك لم تسر بمنسوب قو ولم تعرف بناظرة الخياما⁽³⁾
عرفت منازلًا بمجماد قو فأسبلت الدموع بها سجاما⁽⁴⁾
وسُفعا في المنازل خالدات وقد ترك الوقود بهن شاما⁽⁵⁾
وقفت على الديار فذكرتني عهداً من جعادة أو قطاما⁽⁶⁾
أطاعة جعادة لم تُودع أحب الظاعنين ومن أقاما⁽⁷⁾
فقلت لصحبي وهم عجال بذى بقر ألا عوجوا السلاما⁽⁸⁾

- (1) البشام: شجر طيب الريح والطعم يستاك به، أي هو ضرب من الأراك. والغورين: أرض. والغورة (الغرابة والحبل: من نواحي اليمامة، فلعله ذكر الغورة وثناها ببعض ما حولها.
- (2) الهضبات: جمع هضبة، وهي الراية، وقيل: الجبل المنبسط على وجه الأرض. وغول والرجام: جبلان بقارعة الطريق شرقي حمى ضرية. وضرية: قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد.
- (3) قو: واد بين اليمامة وهجر. وناظرة: جبل في أعلى الشقيق. وقيل: ماء لعيس. والخيام: جمع خيمة، وهي بيت تبنيه الأعراب من عيدان الشجر، يلقي عليه الثمام ويستظل به في الحر.
- (4) الجماد: جمع جمد بتسكين الميم وضمها؛ وهو مكان صلب مرتفع. وأسبلت الدموع: هطلت وتتابعت. والسجام: قطران الدمع وسيلانه قليلاً كان أو كثيراً، يقال: سجم الدمع سجوماً وسجاماً، أي سال وانسجم.
- (5) السفع: الأثافي التي أوقدت بينها النار فسودت صفاحها التي تلي النار. وخالدات: باقيات مقيمات، وقيل لأثافي الصخور خوالد، لبقائها بعد دروس الأطلال. وترك: أبقى وخلف، أو جعل. والشام: جمع شامة، وهي السواد والعلامة.
- (6) وقفت على الديار: عرجت وعجت. وجعادة وقظام: اسم امرأتين، ونصب قظام على الحاجة إليه، أي للضرورة، وأهل الحجاز يبنونه على الكسر في كل حال، وأهل نجد يجرونه مجرى ما لا ينصرف.
- (7) طاعة: مرتحلة متحولة.
- (8) الصحبة: جمع صاحب. وقيل اسم للجمع. وعجال: سراع. وذو بقر: واد بين أخيلة الحمى حمى الربذة. وعاج بالمكان: عطف عليه وأقام. والسلام: جبل بالحجاز في ديار كنانة. وسلام: موضع عند قصر مقاتل بين عين التمر والشام.

- صَلُّوا كَنَفِي الْغَدَاةَ وَشَيِّعُونِي فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنِّي ذِمًّا⁽¹⁾
 فَقَالُوا مَا تَعُوجُ بِنَا لَشَيْءٍ إِذَا لَمْ تَلْقَهُمْ إِلَّا لِمَامًا⁽²⁾
 مِنَ الْأَذْمَى أَتَيْنَكَ مُنْعَلَاتٍ يُقَطِّعْنَ السَّرَائِحَ وَالْحُدَامَا⁽³⁾
 فَلَيْتَ الْعَيْسَ قَدْ قَطَعْتَ بَرَكَبٍ وَعَالَا أَوْ قَطَّعْنَ بِنَا صَوَامَا⁽⁴⁾
 كَأَنَّ حُدَاتِنَا الزَّجْلِينَ هَاجُوا بِجَبَّتٍ أَوْ سَمَاوَتِهِ نَعَامَا⁽⁵⁾
 تَخَاطَرُ بِالْأَدْلَةِ أُمٌّ وَحَشٍ إِذَا جَازَوْا تَسْوِمُهُمُ الظَّلَامَا⁽⁶⁾
 مُخَفِّقَةٌ تُشَابُهُ حِينَ يَجْرِي حَبَابُ الْمَاءِ وَارْتَدَّتِ الْقِتَامَا⁽⁷⁾
 نَرَى رَكَبَ الْفَلَاةِ إِذْ عَلَوْهَا عَلَى عَجَلٍ وَسِيرِهِمْ اقْتِحَامَا⁽⁸⁾

- (1) وصل كنفه: بره ولم يعقه. وشيعة: خرج معه عند رحيله ليودعه ويبلغه منزله. والذمام: الحق والحرمة.
 (2) اللمام: اللقاء اليسير، واحدها لمة.
 (3) أنعل البعير ونعله: جعل خلفه نعلًا من الجلد، أي حذاء، يقيه الحجارة لئلا يحفى. والسرائح: نعال الإبل. وقيل: سيور نعالها تشد إلى الخدم. والخدم والحدام: جمع خدمة، وهي سير غليظ محكم مثل الحلقة يشد في رسغ البعير، ثم يشد إليها سرائح نعله، فإذا انفضت الخدمة انحلت السرائح وسقطت النعل. والرسغ: مفصل ما بين الساعد والكف، والساق والقدم.
 (4) العيس: الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة، واحدها أعيس، والأنثى عيساء، وهي كرائم الإبل. وقطعت: اجتازت وخلّفت. والركب: ركاب الإبل. ووعال: جبل بسماوة كلب بين الكوفة والشام. وصوام: لكلب في ناحية الشام.
 (5) الحداة: جمع حاذٍ، وهو الذي يسوق الإبل ويغني لها. والزجلون: جمع زجل، وهو الذي يرفع صوته بالحداء. وهاجوا: أثاروا. والخبث: ما اطمأن من الأرض واتسع. وسماوته: ما غلظ منه وارتفع.
 (6) تخاطر بالأدلة: الأدلة: جمع دليل، وهو هادي القوم، أي تعرضهم للهلكة. وأم وحش: أراد البرية ليس بها إلا الوحش. وجازوا: مروا. وتسومهم: تجشمهم وتكلفهم. يقول: هذه الفلاة إذا جازتها الأدلة أهلكتهم. والظلام: من الظلم، جعل إهلاكها إياهم ظلمًا لهم.
 (7) مخففة: تلمع بالسراب. وتشابه: يشبه بعضها بعضًا فلا يميز منه. وحباب الماء: أراد السراب، شبهه باطراد الماء، أي بطرائقه وموجه الذي يتبع بعضه بعضًا. وارتدت: تلفعت واكتست. والغبار.
 (8) الفلاة: القفر من الأرض. وقيل: الصحراء الواسعة لا ماء بها ولا أنيس. وعلوها: ركبوها، أي سلكوها وساروا فيها. والاقترحام: أن تسير منقلتين في منقلة، أي تقطع مرحلتين في مرحلة.

- إذا نَشَرَ المخارِمُ في ضُحَاها حَسَبَتْ رِعَائُهَا حُصْنًا قِيَامًا⁽¹⁾
 أَيْتُ اللَّيْلَ أَرْقَبُ كُلِّ نَجْمٍ مُكَابِدَةٌ لَهْمِي وَاحْتِمَامًا⁽²⁾
 لِمَرْسِنِينَ قَدْ لَبَسْتُ شِبَابِي وَأَبْلَتْ بَعْدَ جِدَّتِهَا الْعِظَامَا⁽³⁾
 مَشَيْتُ عَلَى الْعِصَا وَحَنَوْنَ ظَهْرِي وَوَدَّعْتُ الْمَوَارِكَ وَالزَّمَامَا⁽⁴⁾
 وَكَيْفَ وَلَا أَشَدُّ جِبَالِ رَحْلِ أَرُومُ إِلَى زِيَارَتِكَ الْمَرَامَا⁽⁵⁾
 مِنْ الْعَيْدِيِّ فِي نَسَبِ الْمَهَارَى تُظْيِرُ عَلَى أَخِشَّتِهَا اللَّغَامَا⁽⁶⁾
 وَتَعْرِفُ عَتَقَهُنَّ عَلَى نُحُولٍ وَقَدْ لَحِقْتُ ثَمَائِلُهَا انْضِمَامَا⁽⁷⁾
 كَأَنَّ عَلَى مَنَاخِرِهِنَّ قَطْنًا يَطْيِرُ وَيَعْتَمِنُ بِهِ اعْتِمَامَا⁽⁸⁾

- (1) نَشَرَ: ارتفع. والمخارم: الطرق في الجبال وأفواه الفجاج، واحدها مخرم بكسر الراء. وضحاها: يعني في الهاجرة عند اشتداد الحر. والرعان: جمع رعن، وهو الأنف العظيم من الجبل تراه متقدماً. والحصن: جمع حصان وهو الفحل من الخيل. شبه الجبال إذا اغتمست في السراب وهزها بجبل قيام.
- (2) رَقَبَ النجم وراقبته: رعاها وانتظر مغيبه. ومكابدة لهمي: أي معاناة لما عزمت عليه في نفسي ومقاساة لمشقتها وشدته. والاحتمام: الاهتمام إلا أن المحتم لا ينالم.
- (3) مر السنين: كرّها ومضييها. ولبست شبابي: أخلقته وذهبت به، أو أتت عليه وأهلكته. وأبلت العظام بعد جدتها: أضعفتها وأوهنتها بعد قوتها.
- (4) مشيت على العصا: أي أصبحت شيخاً هرمًا أتوكأ على العصا. وحنون ظهري: حنوت: لغة في حنيت. يريد قوست السنين ظهري وثنيته فاحدودب. وودعت: تركت. والموارك: جمع مورك، وهي حيث يضع الراكب رجله وسط الرجل، وإنما يفعل ذلك للراحة. وقيل: الموارك: جمع مروي وموركة، وهو الموضع الذي يثني الراكب رجله عليه قدام واسطة الرحل إذا ملّ من الركوب. والزمام: الخيط الذي يشد في البرة أو في الخشاش، ثم يشد في طرفه المقود، وقد يسمى المقود زمامًا.
- (5) أروم: أطلب. والمرام: المطلب.
- (6) بنو العيد: حي تنسب إليه النوق العديدة. وقيل: العديدة نوق من كرام النجائب منسوبة إلى فحل منجب يقال له: عيد. وتظير: تنشر. والأخشة: جمع خشاش، وهو عود يجعل في أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع لانقياده. ولغام البعير: بزده. يريد أنها لاجتهادها في سيرها تنفث الزبد من أفواهها فينتشر على أخشيتها.
- (7) العتق: الكرم والنجابة. والنحول: الضمور. ولحقت: ضمرت. والثمائل: جمع ثميلة، وهي البقية تبقى من العلف والشراب في بطن البعير. والانضمام: الضمور، يقال أصبح منضمًا، أي ضامراً كأنما ضم بعضه إلى بعض. يريد لم يبق في بطونها شيء فضمرت ونحلت.
- (8) القطن: يريد الزبد. ويظير: ينتشر. ويعتمن به: أي يصير كالعمائم على مناخرهن، أي يكتنفها ويحيط بها.

- أمير المؤمنين قضى بعدلٍ أحلّ الحِلَّ واجتنبَ الحراما⁽¹⁾
 أتمَّ الله نعمته عليكم وزاد الله ملككمُ تمامًا⁽²⁾
 وبارك في مسيركمُ مسيراً وبارك في مقامكم مقامًا⁽³⁾
 بحق المستجير يخاف روعاً إذا أمسى مجلّك أن ينما⁽⁴⁾
 فيا ربّ البرية أعطِ شكرأ وعافيةً وأبق لنا هشاما⁽⁵⁾
 وثقنا بالنجاح إذا بلغنا إمام العدل والملك الهماما⁽⁶⁾
 عطاء الله ملكك النصارى ومن صلّى لقبلكه وصاما⁽⁷⁾
 تُعافي السامعين إذا أطاعوا ولكنّ العصاة لقُوا غراما⁽⁸⁾
 وكان أبوك قد علمت معذ يُفرج عنهم الكرب العظاما⁽⁹⁾

- (1) قضى: حكم. والعدل: الحكم بالحق. والحل: الحلال. واجتنب الحرام: ابتعد عنه.
 (2) أتم: أسبغ. والنعمة: البذ البيضاء الصالحة والصنيعة والمنة. ونعمة الله: نصره وهدايته. وزاد: مَدَّ. والملك: السلطان. والتمام: الكمال.
 (3) بارك الله الشيء، وبارك فيه وعليه: وضع فيه البركة، وهي النماء والزيادة واليمن والكثرة في كل خير. وفي مسيركم ومقامكم: أي في حلّكم وترحالكم.
 (4) الحق: العهد والذمام والحرمة. والمستجير: الذي يسألك أن تحجّره، أي تمنعه، أو تؤمنه وتنصره. والروع: الفزع. والحبل: العهد والذمة والأمان، وهو مثل الجوار. وحبل الخليفة: عهده وأمانه الذي يؤمنه من الخوف.
 (5) البرية: الخلق. وأعطى: وهب. وشكر الله لعباده: مغفرته لهم. والعافية: أن يعافيه الله تعالى من سقم أو بلية، وهي الصحة ضد المرض. والعافية: دفاع الله عن العبد، يقال: عافاه الله عافية، وهو اسم يوضع موضع المصدر الحقيقي، وهو المعافاة. وأبقاه الله: حفظه وكلاه، أي متعه.
 (6) وثق بالأمر: اطمأن إليه وتيقن منه. والنجاح: الظفر بالأمنية والخير، أي الفوز. وبلغنا: وصلنا وانتهينا. وإمام العدل: الذي يحكم بالحق. والهمام: الملك العظيم الهمة، أي العزيمة.
 (7) عطاء الله: هبته، يعني أن الله قلده الخلافة. وملكه الشيء: خوله إياه. يعني أن الله فوض إليه أمر المسلمين والنصارى.
 (8) يقال: عافاه الله وأعفاه، أي وهب له العافية من العلل والبلايا. وتعافي السامعين: أي تمنح النجاة والسلامة لمن أجاب أمرك وقبله، من السمع، وهو الإجابة والقبول. وأطاعوا: انقادوا ولم يخالفوا. والعصاة: الخارجون عن طاعة السلطان. ولقوا الغرام: أي أصابهم العذاب الملح الدائم الملازم.
 (9) يفرج عنهم: يكشف ويذهب. والكرب: جمع كربة، وهي الغمة والشدة. والعظام: الجسام الشداد.

- وقد وجدوك أكرمهم جُوداً إذا تُسبوا وأثبتهم مقاماً⁽¹⁾
 وثحرز حين تضربُ بالمعلَى من الحسب الكواهلَ والسناما⁽²⁾
 إلى المهديّ نفزعُ إن فزعنا ونستسقي بُغرَّتِه العَماما⁽³⁾
 وما جعل الكواكبَ أو سُهيلاً كضوءِ البدر يجتابُ الظلاما⁽⁴⁾
 وجبلُ الله تعصمكم قُواه فلا نخشى لُغوته انفصاما⁽⁵⁾
 ويحسُرُ من تركتَ فلم تكلم ويُغبِطُ من تُراجعه الكلاما⁽⁶⁾
 رضينا بالخليفة حين كُنّا له بُعباً وكان لنا إماما⁽⁷⁾
 تباشرتِ البلادُ لكم بحكم أقام لنا الفرائضَ واستقاما⁽⁸⁾

- (1) أكرمهم جوداً: أشرفهم نسباً. ونسبوا: ذكرت أنسابهم. وأثبتهم مقاماً: أربطهم جاشاً وأفلجهم حجة، أو لا يزل في خصام أو قتال.
- (2) تحرز: تحوز وتظفر. والمعلَى: قدح وهو سابع سهام الميسر، وله سبعة أنصباء عند الفوز، وعليه سبعة إن لم يفز. والحسب: الشرف الثابت في الآباء، وهو: ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه مثل الشجاعة والجلود وحسن الخلق والوفاء. والكواهل: جمع كاهل، وهو مقدم ظهر البعير، وهو الذي يكون عليه الحمل. والسنام: أعلى ظهر البعير. وهذا مثل، أي تفوز بأعلى المجد وأسنى الشرف، لأن الكاهل هو الثلث الأعلى من مقدم ظهير البعير، والسنام هو خيار ما في البعير.
- (3) المهدي: الذي قد هداه الله إلى الحق. وفزع إليه: لجأ إليه من الفزع، أي الفرق والذعر. وفزع: استغاث واستنصر. ونستسقي: نطلب السقيا، أي إنزال الغيث على البلاد والعباد، أي نستمطر. والغرة: بياض الوجه، يريد بياض الوجه بنور الإيمان، لا بياض اللون. وإذا قالت العرب: فلان أبيض وفلانة بياض، فالمنى نقاء العرض من الدنس والعيوب، وهذا كثير في شعرهم.
- (4) الكواكب: النجوم، واحداها كوكب وكوكبة. وسهيل: نجم يمان. ويجتاب: يشق.
- (5) جبل الله: ترك الفرقه واتباع القرآن. وتعصمكم: تمنعكم وتحميكم. وقواه: طاقاته، أي فرائضه. وعراه: حدوده وأحكامه وأوامره ونواهي. والانفصام: الانقطاع.
- (6) يحسر: تشتد ندامته، أو يذهب نفسه حسرة، أي يهلكها. وتركته: أهملته واطرحته، أو وكلته إلى نفسه وخذلته. وغبطت الرجل: إذا اشتبهت أن يكون لك مثل ما له، وأن لا يزول عنه ما هو فيه. وتراجعه الكلام: تجاوره وتجاوبه.
- (7) رضي بالشيء: أحبه وقبله وقنع به. والتبع: يكون اسماً لجمع تابع، ويكون مصدرأ، أي ذوي تبع، ويجمع على أتباع. وتبع الرجل: شيعته وأنصاره. وإمام الرعية: الخليفة.
- (8) تباشرت البلاد: بشر بعضها بعضاً. وأقام الفرائض: أي اتبع حدود الله التي أمر بها ونهى عنها.

- وريشي منكم وهواي فيكم وإن كانت زيارتكم لِمَا (1)
 وُقِيتَ الحَتَفَ من عَرَضِ المنايا ولُقِيتَ التحيةَ والسلاما (2)
 لقد علمَ البريةَ من قریش ومن قيسٍ مَضارِبُهُ الكراما (3)
 نَمَّاكَ الحارثان وعبدُ شمسٍ إلى العُلَيَّا فعزُّكَ لن يُراما (4)
 وسيفُ بني المغيرة لم يُقصرَ سيوفُ الله دَوَّخَتِ الأناما (5)
 سيوفُ الخالدين صَدَعْنَ بَيضاً على الأعداءِ في لَجَبٍ وهاما (6)
 رأيتُ المنجنيقَ إذا أصابتُ بناءَ الكُفْرِ هَدُمَتِ الرخاما (7)

- (1) الريش والرياش: الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر، وراش المملق: كساه وأعانه، وأصله من الريش، كأن الفقير المملق لا نهوض به كالمقصود من الجناح. وهواي: نيتي وهمتي وعزمي. وزاره لماماً: غباً، أي في الأحيان.
- (2) وقاه: صانه وحماه وحفظه. والحتف: الموت. وعرض المنايا: المنايا: جمع منية، وهي الموت، أي ما يعرض للإنسان من الموت. ولقيت: استقبلت.
- (3) مضاربه الكرام: المضارب: جمع مضرب، وهو الضريبة، أي الطبيعة والخلقة، يعني حسن طباعه وطيب خلأقه، وهو كقولهم: هو صحيح البني، كريم النحائر.
- (4) نَمَّاكَ: رفعك. والحارثان: الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر المخزومي، وكان شريفاً مذكوراً. (انظر نسب قریش ص: 302). ويجوز أن يكون ثناء بأحد إخوته. وأم هشام بن عبد الملك عاتشة بنت هشام بن إسماعيل ابن هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. (انظر تاريخ الرسل والملوك 7: 25). وعبد شمس: هو عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن مالك ابن فهر. والعليا: اسمٌ للمكان العالي. والعز في الأصل: القوة والشدة والغلبة، والعز والعزة: الرفعة والامتناع. ويرام: يطلب ويدرك. يريد سما به إلى ذروة المجد أنه جمع كرم النسب من جهة أبيه وأمه، فشأوه في الشرف صعب المثال.
- (5) سيف بني المغيرة: خالد بن الوليد بن المغيرة. ولم يقصر: أي لم يطلب القليل والحظ الخسيس، بل سمت به همته إلى معالي الأمور. ودوخ الرجل: ذلّه. ودوخ البلاد والناس: قهرهم واستولى عليهم. والأنام: ما على ظهر الأرض من الخلق.
- (6) صدعن: شققن وفلقن. والبيضة: واحدة البيض من الحديد، وهي الخوذة. واللجب: ارتفاع الأصوات واختلاطها، وجيشٌ لَجِبٌ وذو لَجِب: وهو كثرة أصوات الأبطال وصهيل الخيل. والهام: جمع هامة، وهي الرأس. وبيضاً: مفعول به لصدعن، وهاماً معطوف على بيض.
- (7) المنجنيق: القذاف التي ترمى بها الحجارة. وأصابت: نزلت ووقعت. وبناء الكفر: بيوته، ولعله يريد كنائس الروم. وهدمت: دمرت.

قصيدة لليلي الأخيلية⁽¹⁾

في رثاء محبوبها توبة بن الحمير العُقيلي، إذ قتله بنو عوف بن عامر بن عُقيل برجل
منهم كان توبة قد قتله:

نظرتُ وركنٌ من ذِقاتينِ دُوئه مفاورٌ حَوْصَى أيَ نظرةٍ ناظرٍ⁽²⁾
لأونسٍ إن لم يقصرُ الطرفُ عنهم فلم تقصرُ الأخبارُ والطرفُ قاصري⁽³⁾
فوارسٍ أجلى شأوها عن عقيرةٍ لعاقرها فيها عقيرةٌ عاقرٍ⁽⁴⁾

(1) الأغاني، 11/ 224، والكامل، 4/ 43، نقلًا عن: نصوص من الأدب الأموي للدكتور حسين عطوان، ص 139-147.

(2) الركن: الناحية والجانب. وذقانان: جبلان في بلاد بني كعب بن أبي بكر بن كلاب. والمفاوز: جمع مفازة، وهي البرية القفر. وقيل: الصحراء لا ماء فيها. وحوصى نجد: من منازل بني عقيل، وفيه حجارة صلبة ليس بنجد حجارة أصلب منها. وحوصى: اسم ماء لبني طهمان بن عمرو بن سلمة بن سكن بن قريظ ابن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب إلى كنب جبل في ناحية الرمل. وقولها: «أي نظرة ناظر»: يصلح فيه الرفع، والنصب على قوله: نظرت أي نظرة، وأية نظرة، أيما نظرة، كما تقول: مررت برجل أيما رجل، وتأويله مررت برجل كامل، فأما في موضع كامل. وتقول: مررت بزيد أيما رجل، على الحال، ومن قال: «أي نظرة ناظر» فعلى القطع والابتداء، والمخرج مخرج استفهام، وتقديره: أي نظرة هي! كما تقول: سبحان الله، أي رجل زيد! (الكامل للمبرد 4: 43). ويرى:

نظرتُ وركنٌ من بوانة بيننا وأركان حسمى أي نظرة ناظر

(الكامل للمبرد 4: 43). وبوانة: من مياه بني عقيل. وحسمى: أرض ببادية الشام، بينها وبين وادي القرى ليلتان، وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم وفي شرقيهم ضروري. وحسمى لجذام، هي جبال وأرض بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة، وبين أرض بني عذرة من ظهر حرة نهيا، فذلك كله حسمى.

(3) أونس: أبصر. ولم يقصر الطرف عنهم: أي لم يعجز البصر عن رؤيتهم. ولم تقصر الأخبار: أي وصلت وبلغت. والطرف قاصري: أي مقصر بي عما أريد.

(4) الفوارس: جمع فارس، وهو العالم بركوب الخيل وركضها، الثابت عليها الحاذق بأمرها. وأجلى: انفرج، ويقال للقوم إذا كانوا مقبلين على شيء محققين به ثم انكشفوا عنه: قد أفرجوا عنه وأجلوا عنه. وشأوها: طلقها، وشوطها، أو غايتها وأمدّها. والعقيرة: الرجل الشريف يقتل. تعني توبة. ولعاقرها: تعني لعاقر توبة، تريد يزيد بن ربيعة. وهذا هو الوجه الأول لمعنى قولها: «لعاقرها فيها عقيرة عاقر». وهو كقولهم: «نار منيم»، وهو الذي إذا أصابته المثر هدا واستقر، لأنه أصاب كفتاً. (الكامل للمبرد ==

- فَأَنْسَتْ خَيْلاً بِالرَّقِيِّ مَغِيرَةً سَوَابِقُهَا مِثْلُ الْقَطَا الْمُتَوَاتِرِ⁽¹⁾
 قَتِيلُ بَنِي عَوْفٍ وَأَيْصُرُ دُونِهِ قَتِيلُ بَنِي عَوْفٍ قَتِيلٌ لِعَامِرِ⁽²⁾
 تَوَارَدَهُ أَسْيَافُهُمْ فَكَأَنَّمَا تُصَادِرُنَّ عَنْ أَقْطَاعٍ أَبْيَضَ بَاتِرِ⁽³⁾
 مِنَ الْهِنْدِ وَأَنْيَاتٍ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ دَمٌ زَلٌّ عَنْ أَثَرٍ مِنَ السَّيْفِ ظَاهِرِ⁽⁴⁾
 أَتَتْهُ الْمَنَائِيَا دُونَ زَغْفٍ حَصِينَةٍ وَأَسْمَرَ خَطِيٍّ وَخَوْصَاءَ ضَامِرِ⁽⁵⁾
 عَلَى كُلِّ جَرْدَاءٍ السَّرَاةِ وَسَابِحٍ دِرَانٌ بِشَبَاكِ الْحَدِيدِ زَوَافِرِ⁽⁶⁾

==

- 44:4). والوجه الثاني مدح، أي عقيرة كريمة لعاقرها، «أي قد أصابوا عقيرة نفيسة»، كقول القائل: «نعم غنيمة المغنم». (الكامل للمبرد 3: 44). ووجه ثالث أي فيها الهلاك لعاقرها.
- (1) الرقي: موضع بعينه. والمغيرة: التي اشتد عدوها وأسرع في الغارة. وسوابقها: أوائلها وهواذيبها وطليعتها ومتقدماتها. والمتواتر: المتتابع، أي الذي يجيء بعضه في إثر بعض.
- (2) قتييل بني عوف: تعني بني عوف بن عامر بن عقيل. وأيصر: موضع في بلاد بني عقيل. وعامر: تعني عامر ابن عقيل. وفي الأصل «قتيل يحابر». ولا وجه له، لأن «يحابر» من اليمن. ويرى «الجابر».
- (3) توارده: تغشاه وتنضب عليه. وتصادرن عنه: خرجن منه وارتفعن عنه. والأقطاع: جمع قطع، وهو النصل القصير؛ لأنه مقطوع من الحديد. والأبيض الباتر: السيف القاطع.
- (4) سيفٌ مهند وهندي وهندواني: أي عمل ببلاد الهند وأحمد عمله. وزل: انزلق وانساب. وأثر السيف: فرنده ورونقه وتسلسله وديباجته. والظاهر البراق المتلألئ.
- (5) أتته المنايا: أصابته وأدركته. والمنايا: جمع منية، وهي الموت. والزغف: الدرع المحكمة الصغيرة الحلق. والحصينة من الدروع: الأمانة المتدانية الحلق التي لا يحيك فيها السلاح. والأسمر: الرمح في لونه سمرة، وهي من علامات الجودة في الرماح، وقناة سمراء: جيدة صلبة. والخطي: الرمح المنسوب إلى الخط، خط البحرين، أو خط هجر، لأن الرماح تحمل إليه من بلاد الهند فتقوم به. والأخوص: الغائر العين، والأنثى خوصاء. والضامر: الضعيف المهزول يقال: جميل ضامر، وناقه ضامر أيضاً بغير هاء، وضامرة. تعني فرساً غائرة العينين ضامرة البطن.
- (6) فرس أجرد: قصير الشعر، وذلك من علامات العتق والكرم. وقيل: الأجرد الذي رق شعره وقصر، وهو مدح. والسراة: أعلى متن الفرس. وفرسٌ سابح: أي حسن المد اليدين في الجري. ودران: اندفعن. وشباك الحديد: تعني الحوادث المعترضة في أفواه الخيل من اللجم. والزوافر: التي تعترق النفس للشدة. تعني العظيمة الأجواف الشديدة الضلوع.

- عوابسُ تعدو الثعلبية ضُمرًا⁽¹⁾ وهنَّ شواحٍ بالشكيم الشواجر⁽¹⁾
 فلا يُبعدنك الله يا توبَ إنما⁽²⁾ لقاء المنايا دارعاً مثلُ حاسر⁽²⁾
 فإلا تكُ القتلى بواءَ فلنكم⁽³⁾ ستلقون يوماً ورده غيرُ صادر⁽³⁾
 وإنَّ السليلَ إذ يُباوي قتيلكم⁽⁴⁾ كمرحومةٍ من عركها غيرِ طاهر⁽⁴⁾
 فلنَ تكنِ القتلى بواءَ فلنكم⁽⁵⁾ فتى ما قتلتم آلَ عوفٍ بن عامر⁽⁵⁾
 فتى لا تخطاه الرفاق ولا يرى⁽⁶⁾ لقدِرَ عيالاً دون جَارٍ مجاور⁽⁶⁾

(1) العوابس: الكوالح، وصفتها بالعبوس في الحرب لكثرة ما ترددت فيها وجربت من مكارهاها. (انظر ديوان النابغة الذبياني ص 43)، أو الكريهات المنظر لما هن فيه من الحرب والجهد. (انظر المفضليات ص: 347، والأصمعيات ص: 142). والعبوس: الكلوح عن غضب، ويكنى بغضب الخيل على اللجم == عن عضها عليها، كانها إنما تعضها لذلك، أو من مرحها وشدة نشاطها. والثعلبية: أن يعدو الفرس عدو الكلب. والضمير: اللاتي أعددن للغزو والقتال، أو للسباق والركض. والشواحي: الفواغر، أي الفاتحات أفواهها. والشكيم والشكيمة من اللجام: الحديدة المعترضة في فم الفرس. والشواجر: المشتبكة. (2) لا يبعدنك الله: لا يهلكنك. يقال: بعد يبعد بعداً في الموت والهلاك، وبعد يبعد بعداً في المكان والنأي. (تاج العروس: بعد). وقال المرزوقي: «معنى لا يبعد الله: لا يهلك الله، يقال: بع الرجال إذا هلك، وجرت العادة في استعمال هذه اللفظة عند المصائب. وليس فيه طلب ولا سؤال، وإنما هو تنبيه على شدة الحاجة إلى المفقود، وتناهي الجزع في الفجع به»، (شرح ديوان الحماسة 2: 892، وانظر 1: 192، 2: 905، 913، 946، 1007، 3: 1046). وقولها: «لقاء المنايا دارعاً مثل حاسر»: أي لقاء المنايا دارعاً مثل لقاءها حاسراً. تعني أن الموت واحد. والدارع: اللابس الدرع. والحاسر: الذي لا درع عليه ولا بيضة على رأسه.

(3) البواء: السواء والتكافؤ، ويقال: هم بواء في هذا الأمر، أي أكفاء نظراء، ويقال: دم فلان بواء لدم فلان، إذا كان كفتاً له. وقولها: «ستلقون يوماً ورده غير صادر»: أي لا مخرج منه، أي شديد مهلك.

(4) يباوي: مخفف يباوي بالهمز، أي يساوي. تريد إذ يقتل بقتيلكم. والمرحومة: التي بها داء في الرحم، يقال: رحمت المرأة بضم الحاء وكسرهما، إذ أخذها داء في رحمها فهي تشتكي منه. والعرك: الحيض، يقال: عركت المرأة، إذا حاضت. والطاهر: التي انقطع عنها الحيض. تقول: إن السليل الذي قتلناه منكم لا يباوي قتيلكم الذي قتلتموه منا، فهو مثل المرأة العارك. والشعراء تشبه أرذال الرجال وأنذالهم بالنساء العوارك. (اللسان: عرك).

(5) الفتى: ليس بمعنى الشاب والحدث، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال. وقيل: الفتى في قولها الكريم. (اللسان: فتا). وما: تفيد التوكيد.

(6) تخطاه الرفاق: تتخطاه، أي تركبه وتجاوزه. تريد تعلوه بالفضل والشرف. وعيال الرجال: الذي يتكفل بهم ويعولهم. تريد أهلاً. والجار: الذي أجرته من أن يظلمه ظالم، أي منعه. والمجاور: المساكن لك النازل معك. تريد أنه يشرك جاره في طعامه، وينزله بمنزلة أهله.

- ولا تأخذ الكومُ الجلاذُ رماحها لتوبةً في نحسِ الشتاء الصُنابر⁽¹⁾
 إذا ما رآته قائماً بسلّاحه ثَقَّتهُ الخِفافُ بالثقالِ البهازر⁽²⁾
 إذا لم يجد منها برسلٍ فقصره دُرَى المرهقات والقلاصِ التواجر⁽³⁾

(1) الكوم: جمع كوما، وهي الناقة الضخمة السنام، أي مشرفة السنام عاليته. والجلاذ من الإبل: الغزيرات اللبن، وهي المجالد. وقيل: الجلد بالتسكين: واحدة الجلاذ، وهي أديم الإبل لبناً. وأخذت الإبل رماحها: حسنت في عين صاحبها فامتنع لذلك من نحرها. ويقال للناقة إذا سمت: ذات رمح، والنوق السمان: ذوات رمح، وذلك أن صاحبها إذا أراد نحرها، نظر إلى سمتها، فامتنع من نحرها نفاسةً بها، لما يروقه من أسمنتها، ومنه قول الفرزدق:

فمكنت سيفي من ذوات رماحها غشاشاً ولم أحفل بكاء رعائيا

يقول: نحرتها وأطعمتها الأضياف، ولم يعني ما عليها من الشحوم عن نحرها نفاسةً بها. (اللسان: رمح). وغشاشاً: أي عند الغروب، أو على عجلة. والنحس: الغبار. وقيل: الريح ذات الغبار. وصنابر الشتاء: شدة برده. تريد أنه كان ينحر إبله لأضيافه في الجذب والشدة. والعرب تسمي القحط شتاءً، لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد. (اللسان: شتا).

(2) قائماً بسلّاحه: أي شاهراً سيفه. وثقته: اتقته، أي حذرت وخافته وتجنبته. والخفاف: السراع، واحدها خفيف. والثقال: البطء، واحدها ثقل. والبهارز: العظام الجسام الضخام، واحدها بهزرة بضم الباء والزاي.

(3) جاد بالشيء: بذله وأعطاه وقدمه. والرسل: اللبن، يقال: كثر الرسل العام، أي اللبن. وقصره: مثل قصاره وقصاراه، أي جهده وغايته وآخر أمره وما اقتصر عليه. والذرى: الأسمة، واحدها ذروة بكسر الذال وضمها. وقيل الذروة أعلى سنام البعير. والمرهقات: المعجلات، يقال: أرهقه، أي أعجله. وفي الأصل «المرهقات» بالفاء، أي الرقيقات الدقيقات. والقلاص: جمع قلوص، وهي الفتية من الإبل بمنزلة الجارية والفتاة من النساء، وربما سموا الناقة الطويلة القوائم قلوصاً. وناقة تاجرة: نافقة في التجارة والسوق. وقيل: ناقة تاجرة إذا كانت تنفق إذا عرضت على البيع لنجاتها، والجمع تواجر. وكأنها استلهمت هذا المعنى من قول زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان، والحرث بن عوف:

إذا السنةُ الشهباءُ بالناسِ أجحفت ونال كرام المال في الجحرة الأكل

الشهباء: البيضاء لكثرة الثلج وعدم النبات. وأجحفت: أضرت بهم وأهلكت أموالهم. ونال كرام المال: يريد كرائم الإبل. يعني أنها تنحر وتؤكل، لأنهم لا يجدون لبناً يغنيهم عن أكلها. والجحرة: السنة الشديدة التي تجحر الناس في البيوت. (اللسان: شهب).

- قَرى سيفه منها مُشاساً وضيْفَه سنامَ المهاريس السباطِ المشافر⁽¹⁾
وتوبهُ أحياء من فتاة حَيَّية وأجرأ من ليثٍ بخفان خادر⁽²⁾
وينعم الفتى إن كان توبهُ فاجرأ وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر⁽³⁾
فتى ينهل الحاجات ثم يُعلِّها فيطلقها عنه ثانيا المصادِر⁽⁴⁾
كأن فتى الفتیان توبهُ لم يُنخ قلائصَ يفحصنَ الحصى بالكرارِ⁽⁵⁾

(1) قرى سيفه: أطعمه وأحمه. تريد عرقبها بسيفه ونحرها. والمشاش: رؤوس العظام اللينة التي يمكن مضغها، واحدها مشاشة. والمهاريس: من الإبل: الشديد. وقيل الجسام الثقال، واحدها مهراس. وسباط المشافر: ليناتها منبسطاتها مسترسلاتها، واحدها سبط، والمشافر: جمع مشفر، وهو للبعير كالشفة للإنسان.
(2) أحياء: أشد استحياء، أي خشية من العيب والعار. والحَيَّية: الخفرة. وخفان: موضع قرب الكوفة، وهو مأسدة. والخادر: الأسد المقيم في عربته.

(3) الفاجر: المتخرق في الكرم، أي المتسع فيه، من الفجر، بفتح الفاء وتحريك الجيم، وهو العطاء والكرم والجود والمعروف. وقيل: الجود الواسع والكرم من التفجر في الخير. ويقال: هو من أهل الفجر لا من أهل الفجور.

(4) ينهل الحاجات ثم يعلِّها: يقضيها مرتين، أو يؤديها ضعفين، من النهل، وهو الشرب الأول، والعلل، وهو الشرب الثاني، يقال: نهلت الإبل، أي شربت في أول الورد، وأنهلها صاحبها، أي أسقاها. وعلت الإبل، أي شربت في آخر الورد، وأعلها: أسقاها ثانية. ويطلقها عنه: يخليها ويتركها ويرسلها. تريد ينفذها وينجزها وينجحها، من الطلق، وهو أن يكون بين الإبل والماء يومان، فالיום الأول الطلق، والثاني: القرب. وقد أطلقها صاحبها إطلاقاً. وإذا خلَّى وجه الإبل إلى الماء، وتركها في ذلك ترعى ليلتذ، فهي ليلة الطلق، وإن كانت الليلة الثانية، فهي ليلة القرب، وهو السوق الشديد. والثنايا: جمع ثني بالكسر والقصر، وهو الأمر يعاد مرتين، وأن يفعل الشيء مرتين. والثني في الصدقة أن تؤخذ في العام مرتين، ويروى عن النبي ﷺ، أنه قال: «لا ثني في الصدقة». يعني لا تؤخذ الصدقة في السنة مرتين، أو لا تؤخذ ناقتان في الصدقة مكان ناقة. (اللسان: ثنى). والمصادر: جمع مصدر، وهو الصدر، أي الرجوع. تعني أنه يقضي الحاجات أضعافاً مضاعفة، أي أنه يعطي العفاة وطلاب المعروف فوق بغيتهم ويزيد عليها، فيعودون من عنده بخير كثير وغنم كبير.

(5) فتى الفتیان: أسخاهم وأكرمهم، يقال: فتى بين الفتوة، وهي الحرية والكرم. ولم ينخ قلائص: لم يبركها، أي بعد طول السير ومشقته وشدته. وقالت ليلي الأخيلية في قصيدة أخرى تروى توبة بن الحميز:

كأن فتى الفتیان توبه لم ينخ بنجد ولم يطلع مع المتغور

(الكامل للمبرد 4: 41). والنجد: ما أشرف من الأرض. والغور: ما انخفاض من الأرض. ويطلع: يمضي ويقدم. والمتغور: الذي يأتي الغور. وفي الأغاني 11: 232: «لم يسر بنجد». ويفحصن الحصى بالكرار: أي ينحن بعضه عن بعض. والكرار: جمع كركرة بالكسر، وهي زور البعير الذي إذا برك أصاب الأرض، وهي ناتئة عن جسمه كالقرصة.

- ولم يبن أبراداً عتاقاً لفتية كرام ويرحل قبل فيء الهواجر⁽¹⁾
 ولم يتجل الصبح عنه وبطئه لطيف كطي السب ليس بمحادر⁽²⁾
 فتى كان للمولى سناء ورفعة وللطارق الساري قرى غير باسر⁽³⁾
 ولم يُدع يوماً للحفاظ وللندی وللحرب يرمي نازها بالشرائر⁽⁴⁾
 وللبازل الكوماء يرغو حوارها وبالخيل تعدو بالكُمة المساعر⁽⁵⁾

(1) لم يبن: لم ينصب ولم يقم. والأبراد: الخيام، الواحدة برد. والعتاق: الكرام الجياد، أو النفائس الروائع، الواحد عتيق. وفي الكامل للمبرد 4: 43: «أبراداً رفاقاً». والمعنى واحد. وقبل فيء الهواجر: قبل أن تنزل الشمس عن كبد السماء وتميل إلى الغرب، أي نصف النهار عند اشتداد الحر، قال المبرد: «تريد أنه متيقظ ظعاًن». (الكامل 4: 46).

(2) تجلى الصبح عنه: تكشف، أي أصبح. وبطئه لطيف: أي ضامر. والسب: شقة كتان رقيقة. والحادر: الممتلئ لحماً وشحمًا مع طراوة، أي سمن وبضاضة. وقيل الحادر السمين الغليظ. تصفه بالهضم، وهو خصص البطون ولطف الكشح، يقال: رجل أهضم الكشحين، أي منضمهما، وهو ما يمدح في الرجل، قال زياد بن منقذ يصف أصحاباً له كان يصحبهم مسروراً:

كم فيهم من فتى خلو شمائله جم الرماد إذا ما أخذ البرم
 يغدو أمامهم في كل مرباة طلاع أنجدة في كشح هضم
 (اللسان: نجد).

(3) المولى ههنا: ابن العم. والسناء: المجد والشرف. والرفعة: العزة وعلو القدر والمنزلة. والطارق: الآتي بالليل. والساري: السائر بالليل. والقرى: الضيافة. تريد أنه كان ينزل الطارق ويطعمه ويحسن إليه. والباسر: العابس المتجه المقطب الوجه. تريد أن وجهه كان يتهلل فرحاً إذا رأى الطارق، أي يشرق ويستنير وتظهر عليه أمارات السرور.

(4) يدعى: يندب. والحافظ: الذب عن المحارم والمنع لها عند الحروب. والندی: السخاء والكرم. وقولها: «وللحرب يرمي نازها بالشرائر»: أي يهيجها ويذكئها. والشرائر: جمع شرارة، وهي ما تطاير من النار. تريد القبس أو الشعلة.

(5) البازل: البعير إذ استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة وفطر نابيه، أي انشق، فهو حينئذ بازل، وكذلك الأثنى بغير هاء. ويرغو حوارها: يصوت ويضح، لأنه فرق بينه وبين أمه بنحر أو هبة. والحوار: ولد الناقة من حيث يرضع إلى أن يفطم ويفصل. ورغاؤه: كناية عن الكرم. والكُمة: جمع كمي، وهو الشجاع المتكفي في سلاحه، لأنه كمي نفسه، أي سترها بالدرع والبيضة. والمساعر: جمع مسعر، وهو الذي يوقد الحرب ويؤرثها، أي يحمي به الحرب. تريد أنه كان يشن الغارة على أعدائه ويغزوهم في عقر دارهم بفرسانه المدججين في السلاح.

- كَأَنَّكَ لَمْ تَقْطَعْ فَلَائَةً وَلَمْ تُنْخِ قِلاصاً لَدَى فَأْوٍ مِنَ الْأَرْضِ غَائِرٍ⁽¹⁾
 وَتَصْبِغُ بِمِوَاةٍ كَأَنَّ صَرِيفَهَا صَرِيفُ خَطَاطِيفِ الصَّرَى فِي الْمَحَاوِرِ⁽²⁾
 طَوْتُ نَفْعِهَا عَنَا كِلَابٌ وَأَسَدَتْ بَنَّا أَجْهَلِيهَا بَيْنَ غَاوٍ وَشَاعِرٍ⁽³⁾
 وَقَدْ كَانَ حَقّاً أَنْ تَقُولَ سَرَائِهِمْ لَعاً لِأَخِينَا عَالِياً غَيْرَ عَائِرٍ⁽⁴⁾
 وَدَوِيَّةٍ قَفَرٍ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا تَخْطِئُهَا بِالنَّاعِجَاتِ الضَّوَامِرِ⁽⁵⁾
 فَاللَّهُ تَبْنِي بِبَيْتِهَا أُمٌّ عَامِرٍ عَلَى مِثْلِهِ أُخْرَى اللَّيَالِي الْغَوَابِرِ⁽⁶⁾

- (1) قطع الفلاة: اجتازها واجتباها. والفلاة: القفر من الأرض لا ماء بها ولا أنيس. والفأو: الصدع في الجبل، أو ما بين الجبلين، وهو أيضاً بين الحرتين، والدارة من الرمل، وكله من الانشقاق والانفراج. والغائر: العميق البعيد القعر.
- (2) المِوَاة: المفازة الواسعة الملساء. وقيل: الفلاة لا ماء بها ولا أنيس. والصريف: صوت الأنياب والأبواب ونحوها. والصريف ههنا: صرير الرياح، أي صوت هبوبها. وصريف الخطاطيف: صوتها عند الاستقاء. والخطاطيف: جمع خطاف، وهو حديدة حجناء تعقل بها البكرة من جانبيها وفيها المحور. والصرى بفتح الصاد وكسرها: الماء الذي طال استنقاؤه. وقيل: إذا طال مكثه وتغير. والمحاور: جمع محور، وهو الحديد التي تجمع بين الخطاف والبكرة، وهو أيضاً الخشبة التي تجمع المحالة، أي البكرة العظيمة التي تستقي بها الإبل.
- (3) طوت نفعها عنا: أي أمسكتها وقطعته ومنعته. والنفع: الجداء والغناء، أي الخير. وأسدت: هيئت وأغرث. والأجهلان: الأحمقان. والغاوي: الضال.
- (4) السراة: عليّة القوم وأشرفهم، الواحد سري. وقيل: السراة اسم للجمع، من السرو، وهو السخاء في مروءة. ولعاً: كلمة يدعى بها للعائر، معناها الارتفاع والانتعاش، يقال للعائر إذا دعي له بأن ينتعش: لعاً لك عالياً، وإذا دعي عليه قيل: لا لعاً لك، أي لا أقامك الله.
- (5) الدوية: الفلاة المستوية الواسعة البعيدة الأطراف. والقفر: الخلاء من الأرض. وقيل: المفازة لا نبات بها ولا ماء. ويحار بها القطا: أي مجهولة لا أعلام بها ولا جبال، فلا يهتدى فيها. والعرب تضرب المثل بهداية القطا في الجاهل، فتقول: «أهدى من قطا». (انظر الحيوان 5: 573، وثمار القلوب ص: 482، وجمع الأمثال 3: 510). وتخطئها: تجاوزتها. والناعجات والنواعج من الإبل: البيض الكرام الحسان الألوان. وقيل: الخفاف السراع، يقال: جمل ناعج، وناقّة ناعجة. والضوامر: التي ذهب السير بسمها وأفنى شحمها ولحمها، يقال: جمل ضامر، وناقّة ضامرٌ بغير هاء أيضاً، وضامرة.
- (6) فتالله تبني: أي لا تبني. وحذف «لا» في مثل هذا كثير. وبنى على أهله: دخل عليها. وأصله أن المعرس كان يبني على أهله خباء. وقالوا: بنى بأهله، كقولهم: أعرس بها. واستبني فلان وابتنى: إذ أعرس (أساس البلاغة: بنى). وقيل: وكان الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قبة ليلة دخوله،==

- فليس شهابُ الحرب توبةً بعدها بغازٍ ولا غادٍ بركبٍ مسافرٍ⁽¹⁾
وقد كان طلاعُ النجاد وبينَ الـ لسانٍ ومدلاجٍ السرى غيرَ فاترٍ⁽²⁾
وقد كان قبل الحادثات إذا انتحى وسائقٌ أو معبوبةٌ لم يغادرٍ⁽³⁾

ليدخل بها فيها، فيقال: بنى الرجل على أهله، فقبل لكل داخل بأهله: بان، وقد ورد بنى بأهله. (اللسان: بنى). وأم عامر: الضبع. وأخرى الليالي الغواير: أي آخر الدهر. الغواير: جمع غابر، وهو الباقي. ومن أمثالهم: «خامري أم عامر»، خامري: أي استتري. وأم عامر، وأم عمرو، وأم عويمر: الضبع. يشبه بها الأحق، وهي كما زعموا من أحق الدواب، لأنهم إذا أرادوا صيداً رموا في جحرها بحجر، فتحسبه شيئاً تصيده، فتخرج لتأخذه، فتصاد عند ذلك. ويقال لها: أبشري بجراد عظام، وكمر رجال، فلا يزال يقال لها حتى يدخل عليها رجل فيربط يديها ورجليها، ثم يجرها. والجراد العظام: الذي يركب بعضه بعضاً كثرة، وأصل العظام سفاذ السباع. وقوله: «وكمر رجال»: يزعمون أن الضبع إذا وجدت قتيلاً قد انتفخ جردانه، ألقتة على قفاه، ثم ركبته، قال العباس ابن مرداس السلمي:

ولو مات منهم من جرحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقمتين عرائساً

(مجمع الأمثال 1: 422، وانظر اللسان: عمر). تعني أنه لن يقتل أحد مثله فتغرس به الضبع أبد الأبد. وفي الأصل: «أم عاصم». وشرح محققو الأغاني البيت على هذه الرواية، فقالوا: «تقول: إن هذه المرأة لن يشتمل بيتها على مثله آخر الدهر، فإن الدهر بمثله بخيل». والتصحیح من منتهى الطلب، كما ورد في حواشي الأغاني 11: 230.

(1) شهاب حرب: أي ماضٍ فيها على التشبيه بالكوكب في مضيه. والغازي: السائر إلى قتال العدو وانتهابه. والغادي: المبكر، أي السائر في أول النهار. والركب: ركاب الإبل. والمسافر: الخارج إلى السفر، أي الارتحال، وسمي المسافر مسافراً لكشفه قناع الكن عن وجهه، ومنازل الحضر عن مكانه، ومنزل الخفض عن نفسه، وبروزه إلى الأرض الفضاء.

(2) يقال: فلانٌ طلاع أنجد وأنجد، إذا كان سامياً لمعالي الأمور، أو ركاباً لصعاب الأمور، أو ضابطاً للأمور غالباً لها. وقيل: إذا كان يعلو الأمور فيقهرها بمعرفته وتجاربه وجودة رأيه. والأنجد والنجاد: جمع أنجد، وهو الطريق المرتفع، أو الطريق في الجبل. والبين من الرجال: السمع اللسان الفصيح الظريف العالي الكلام القليل الرتج. ومدلاج السرى: أي كثير السير بالليل من أوله إلى آخره. يقال: أدلج القوم، إذا ساروا الليل كله، فهم مدلجون. والفاتر: الضعيف المنكسر.

(3) الحادثات: جمع حادثة، وهي النازلة والمصيبة والفاجعة. وانتحى: قصد. والوسائق: جمع وسيقة، وهي الطريقة، أي القطيع من الإبل يطردها الشلال، أي الطارد، وسميت وسيقة، لأن طاردها يجمعها ولا يدعها تنتشر عليه، فيلقحها الطلب فيردها. والمعبوة: الناقة إذا نحرت من غير داء ولا كسر، وهي سمينة فتية. وغادر الشيء: تركه. تريد أنه إذا قصد إبلاً مغصوبة أو معبوبة لم يتركها تغلت منه.

- وكنْتَ إذا مولاكَ خاف ظُلامَةً دِعاكَ ولم يهتَفْ سواكَ بناصِرٍ⁽¹⁾
 فإن يَكُ عبدُ اللَّهِ آسى ابنَ أمِّهِ وآبَ بأسلابِ الكميِّ المغاورِ⁽²⁾
 وكان كذات البَوِّ تضربُ عنده سباعاً وقد ألقينه في الجراجِرِ⁽³⁾
 فإنكَ قد فارقتَهُ لك عاذراً وآسى لحَيِّ عذرُ مَنْ في المقابرِ⁽⁴⁾
 فأقسمتُ أبكي بعد توبة هالكاً وأحفلُ من نالت صُروفُ المقادرِ⁽⁵⁾
 على مثل همّامٍ ولابنٍ مُطَرِّفٍ لتبكِ البواكي أو لبشرِ بن عامرٍ
 غلامان كانا استوردا كل سَورةٍ من المجد ثم استوثقا في المصادرِ⁽⁶⁾

(1) الظلامه والظليمة والمظلمة: ما تطلبه عند الظالم، وهي اسم ما أخذ منك. ودعاك: استغاث بك. وهتف به: صاح به وناداه. وفي الكامل للمبرد 4: 43: «ولم يقنع». أي لم يرض. والناصر: المعين للمظلوم، يقال: نصره، إذا أعانه على عدوه وشد منه.

(2) عبد الله: تعني عبد الله بن الحمير، وهو أخو توبة لأمه وأبيه. (الأغاني 11: 222). وآسى ابن أمه: ذب عنه وحامى ودافع. من المواساة، وهي المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق، وأصلها الهمزة، فقلبت واواً تخفيفاً. وآب: رجع. والأسلاب: جمع سلب، وهو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة. والمغاور: مثل المغوار، وهو المقاتل الكثير الغارات على أعدائه.

(3) البو: ولد الناقة. تضرب عندها سباعاً: تدفعها وتذودها وتطردها. والسبع: يقع على ما له ناب من السباع، ويعدو على الناس والدواب فيفترسها مثل الأسد والذئب والنمر والفهد ونحوها. وألقته في الجراجر: أي التهمته. والجراجر بالضم: الجوف. والجراجر بالفتح: الخلق لما يسمع لها من صوت وقع الماء فيها، الواحدة جرجرة.

(4) فارقه: باينه وزايله. والعاذر: العذير، وهو النصير، يقال: من عذيري من فلان؟ أي من نصيري. والعذر: النجاح، يقال في الحرب: لمن العذر؟ أي النجاح والغلبة، أي النصر. تعني أن توبة كان ينصر أخاه عبد الله في حياته، فكيف لعبد الله أن ينصره في مماته؟

(5) أقسمت أبكي: أي لا أبكي. وأبكي: أحزن وأذرف الدمع. والهالك: الميت. وأحفل: أي لا أحفل، يقال: ما حفل، وما حفل به، وما احتفل به، أي ما بالى به. ونالت: أصابت وأدركت. والصروف: جمع صرف، وهو حدثان الدهر ونوابه. والمقادر: مخفف المقادير، جمع مقدار، وهو الموت، وقيل: اسم القدر، إذا بلغ العبد المقدار مات.

(6) الغلام: ليس بمعنى الصبي الطار الشارب، إنما هو بمعنى الكهل، وهو الرجل إذا وخطه الشيب ورأيت له بهالة، والعرب يقولون للكهل: غلام نجيب، وهو فاش في كلامهم. واستورد الماء وغيره: ورده، أي أشرف عليه دخله أو لم يدخله، أي بلغه. تريد ضرباً المجد، أي كسباً وطلباً، أو جمعاً وحازاه. ==

ربيعي حياً كانا يفيضُ نداهما على كلِّ مغمورٍ نداءه وغامرٍ⁽¹⁾
كان سنا نارِيهما كلُّ شتوةٍ سنا البرقِ يبدو للعيون النواظرِ⁽²⁾

==
والسورة: الرفعة، وسورة المجد: أثره وعلامته وارتفاعه. واستوثقا في المصادر: أي أخذها في أمرهما بالوثيقة، وهي الأحكام، أي كانا حازمين ضابطين لأمرهما لم يضيعا منه شيئاً. والمصادر: جمع مصدر، وهو الصدر، أي الرجوع عن الماء.

(1) الربيع: الكلأ والعشب. والحيا: المطر والخصب. ويفيض: أي يتدفق. والندى: السخاء والكرم. ومغمور الندى: قليله مجهوله، كأنه لقلته قد غمر وغطي. وغامر الندى: كثيره واسعه. تعني أنهما فاقا كل أحد وفضلاه في الكرم والجود.

(2) السنا: ضوء النار والبرق. وكل شتوة: أي كل جذب وشدة. ويبدو: يظهر ويلوح ويلمع. والعيون النواظر: المتبصرة المتأملة المتفرسة. تعني أنهما كانا يشبان نارهما ويرفعانها في كل قحط ومجاعة حتى يراها الفقراء ويقصدوها. وهو كناية عن سخائهما وكثرة خيرهما ومعروفهما.

نصوص من النثر الأموي

خطبة لمعاوية بن أبي سفيان في وفود العرب

خطبة يزيد بن معاوية بعد موت أبيه

خطبة لعبد الملك بن مروان في أهل مكة

خطبة لعمر بن عبد العزيز

رسالة عبد الملك بن مروان إلى الحجاج

رسالة عبد الله بن الزبير إلى عبد الله بن عباس

رسالة الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز

رسالة غيلان الدمشقي إلى بعض إخوانه

رسالة عبد الحميد بن يحيى في الطاعة

ملحق (2)

نصوص من النثر الأموي

خطبة لمعاوية بن أبي سفيان في وفود العرب^(*)

قَدِمَتْ وَفُودُ الْعَرَبِ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، فَقَضَى حَوَائِجَهُمْ، وَأَحْسَنَ جَوَائِزَهُمْ. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ لِيَشْكُرُوهُ سَبَقَهُمْ إِلَى الشُّكْرِ، فَقَالَ:

«جَزَاكُمُ اللَّهُ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَنْ قُرَيْشٍ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ بِتَقْدِيمِكُمْ إِلَيْهِمْ فِي الْحَرْبِ، وَتَقْدِيمِكُمْ لَهُمْ فِي السَّلَامِ، وَحَقْنِكُمْ دِمَاءَهُمْ⁽¹⁾ بِسَفْكِهَا⁽²⁾ مِنْكُمْ. أَمَّا وَاللَّهِ لَا يُؤْيِرُكُمْ⁽³⁾ عَلَى غَيْرِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا حَازِمٌ كَرِيمٌ، وَلَا يَرْغَبُ⁽⁴⁾ عَنْكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا عَاجِزٌ لَثِيمٌ، شَجَرَةٌ قَامَتْ عَلَى سَاقٍ فَتَفَرَّغَ أَعْلَاهَا وَاجْتَمَعَ أَصْلُهَا، عَضَّدَ اللَّهُ⁽⁵⁾ مِنْ عَضِّهَا. فَيَالِهَا كَلِمَةً لَوْ اجْتَمَعَتْ، وَأَيْدِيًا لَوْ اتَّصَلَتْ، وَلَكِنْ كَيْفَ بِإِصْلَاحِ مَا يُرِيدُ اللَّهُ إِفْسَادَهُ».

(*) العقد الفريد، 3/ 323. نقلًا عن: نصوص من الأدب الأموي للدكتور حسين عطوان، ص 437.

(1) حَقَّنَ دَمَهُ: مَتَّعَهُ أَنْ لَا يُسْفِكَ، أَوْ حَلَّ بِهِ الْقَتْلَ فَأَنْقَذَهُ.

(2) سَفَكَ دَمَهُ: أَرَاقَهُ وَأَجْرَاهُ، أَيْ قَتَلَهُ.

(3) يُؤْيِرُهُ عَلَى غَيْرِهِ: فَضَّلَهُ عَلَيْهِ وَقَدَّمَهُ.

(4) رَغِبَ عَنْهُ: تَرَكَهُ مُتَعَمِّدًا وَزَهَدَ فِيهِ وَلَمْ يُرِدْهُ.

(5) أَحْصَدَ الزَّرْعَ: وَاسْتَحْصَدَ: حَانَ لَهُ أَنْ يُحْصَدَ.

خطبة يزيد بن معاوية بعد موت أبيه(*)

العقد 4: 89، 375

وعيون الأخبار 2: 238

وأنساب الأشراف 5: 162

ومروج الذهب 3: 75

وتاريخ مدينة دمشق المصور 16: 757

والبداية والنهاية في التاريخ 8: 143

كَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ حِينَ مَاتَ أَبُوهُ بِحَوَارِينَ، فَقَدِمَ وَقَدْ دُفِنَ أَبُوهُ عِنْدَ الْبَابِ الصَّغِيرِ بِدِمَشْقَ، فَأَتَى قَبْرَهُ فَدَعَا لَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَخَطَبَ، فَقَالَ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَا شَاءَ صَنَعَ، وَمَنْ شَاءَ أَعْطَى وَمَنْ شَاءَ مَنَعَ، وَمَنْ شَاءَ خَفَضَ وَمَنْ شَاءَ رَفَعَ. إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ حَبْلًا مِنْ حِبَالِ اللَّهِ، مَدَّةً مَا شَاءَ أَنْ يَمُدَّهُ، ثُمَّ قَطَعَهُ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَقْطَعَهُ. وَكَانَ دُونَ مَنْ قَبْلَهُ، وَخَيْرًا مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَهُ، وَلَا أَزْكِيهِ⁽¹⁾ عِنْدَ رَبِّهِ، وَقَدْ صَارَ إِلَيْهِ، فَإِنْ يَغْفُ عَنْهُ فَبِرَحْمَتِهِ، وَإِنْ يُعَاقِبُهُ فَبِإِذْنِهِ. وَقَدْ وَلَّيْتُ بَعْدَهُ الْأَمْرَ، وَلَسْتُ أَعْتَذِرُ مِنْ جَهْلٍ⁽²⁾، وَلَا أَتِي عَنْ طَلَبِ عِلْمٍ⁽³⁾. وَعَلَى رِسَالِكُمْ⁽⁴⁾، إِذَا كَرِهَ اللَّهُ شَيْئًا غَيْرَهُ، وَإِذَا أَحَبَّ شَيْئًا يَسْرُهُ». وَقَالَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ:

البداية والنهاية في التاريخ 8: 143

«وَأَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يُغْزِيكُمْ فِي الْبَحْرِ، وَإِنِّي لَسْتُ حَامِلًا أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَحْرِ، وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يُشْتِكِيكُمْ بِأَرْضِ الرُّومِ⁽⁵⁾، وَلَسْتُ مُشْتِيًّا أَحَدًا بِأَرْضِ الرُّومِ، وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يُخْرِجُ لَكُمْ الْعَطَاءَ⁽⁶⁾ أَثْلَاثًا، وَأَنَا أَجْمَعُهُ لَكُمْ كُلَّهُ».

(*) نقلًا عن كتاب: نصوص من الأدب الأموي، للدكتور حسين عطوان، ص 438.

(1) زَكَّاهُ: مَدَحَهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ.

(2) لَسْتُ أَعْتَذِرُ مِنْ جَهْلٍ: أَي لَا اِحْتِجُّ لَهُ وَلَا أَدْفَعُ عَنْهُ.

(3) لَا إِنِّي عَنْ طَلَبِ عِلْمٍ: أَي لَا أَقْصُرُ فِي طَلَبِهِ وَلَا أَفْتُرُ فِيهِ.

(4) عَلَى رِسَالِكُمْ: اتَّبِعُوا وَلَا تَعْجَلُوا.

(5) كَانَ يُشْتِكِيكُمْ بِأَرْضِ الرُّومِ: أَي كَانَ يَجْعَلُكُمْ تُصِلُونَ الشِّتَاءَ بِالصَّيْفِ فِي غَزْوِ الرُّومِ، وَلَا يَأْذَنُ لَكُمْ فِي الْقُقُولِ إِلَى أَهْلِيكُمْ. قَالَ الزَّخَشَرِيُّ: «قِيلَ لَغَزْوَةِ الرُّومِ الصَّائِفَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُونَهُمْ صَيْفًا». وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: «سُمِّيَتْ غَزْوَةُ الرُّومِ الصَّائِفَةِ، لِأَنَّ سُنَّتَهُمْ أَنْ يَغْزُوا صَيْفًا، وَيُقْفَلُ عَنْهُمْ قَبْلَ الشِّتَاءِ، لِمَكَانِ الْبَرْدِ وَالثَّلْجِ». (اللسان: صيف).

(6) الْعَطَاءُ: الْمُرْتَبُ مِنَ الدَّنَانِيرِ وَالْذَّرَاهِمِ.

خُطْبَةُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي أَهْلِ مَكَّةَ (*)

أنساب الأشراف 212:7، 213

وتاريخ خليفة بن خياط 348:1

وكتاب الأوائل ص: 202

والكامل في التاريخ 391:4

وفوات الوفيات 403:2

والبداية والنهاية في التاريخ 64:9

وتاريخ الخلفاء ص: 218

قَدِمَ عَبْدُ الْمَلِكِ حَاجاً فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ، فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ ذَلِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ:

«فَلَسْتُ بِالْخَلِيفَةِ الْمُسْتَضْعِفِ⁽¹⁾ وَلَا بِالْخَلِيفَةِ⁽²⁾ الْمُدَاهِنِ⁽³⁾، وَلَا بِالْخَلِيفَةِ⁽⁴⁾ الْمَافُونِ⁽⁵⁾. أَلَا وَإِنْ مِنْ قَبْلِي مِنَ الْوَلَاةِ كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيُؤْكَلُونَ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدَاوِيكُمْ إِلَّا بِالسَّيْفِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْدِيَ صَفْحَتَهُ⁽⁶⁾ فَلْيَفْعَلْ! فَلَا تُكَلِّفُونَا أَعْمَالَ الْمُهَاجِرِينَ، وَلَسْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَهُمْ، فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُمْ تَزْدَادُونَ اسْتِجْرَاحاً⁽⁷⁾، وَنَزْدَادُ لَكُمْ عَقُوبَةً، حَتَّى التَّقَيْنَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عِنْدَ

(*) نقلاً عن كتاب: نصوص من الأدب الأموي، للدكتور حسين عطوان، ص 445-446.

(1) يعني عثمان بن عفان.

(2) يعني معاوية بن أبي سفيان.

(3) المداهن: المصانع المداري المجامل.

(4) يعني يزيد بن معاوية.

(5) المافون: ضعيف العقل والراي.

(6) ابْدَى لَهُ صَفْحَتَهُ: كَاشَفَهُ وَأَظْهَرَ لَهُ فِعْلَهُ الَّذِي كَانَ يُخْفِيهِ.

(7) قال الزخشري: «اسْتِجْرَحَ فَلَانٌ: اسْتَحَقَّ أَنْ يُجْرَحَ، وَعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ: «وَعَظَّمْتُكُمْ فَلَمْ تَزْدَادُوا عَلَى الْمَوْعِظَةِ إِلَّا اسْتِجْرَاحاً». (أساس البلاغة: جرح). وقال ابن منظور: «يقال: جَرَحَ الحاكم الشاهد إذا عَثَرَ مِنْهُ عَلَى مَا تُسْقَطُ بِهِ عَدَالَتُهُ مِنْ كَذِبٍ وَغَيْرِهِ. وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الْحَاكِمِ، فَقِيلَ: جَرَحَ الرَّجُلُ: عَضَّ شَهَادَتَهُ، وَقَدْ اسْتِجْرَحَ الشَّاهِدُ، وَالِاسْتِجْرَاحُ: النِّقْصَانُ وَالْعَيْبُ وَالْفُسَادُ، وَهُوَ مِنْهُ، حَكَاهُ أَبُو عُبَيْدَةَ، قَالَ: وَفِي خُطْبَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ: «وَعَظَّمْتُكُمْ فَلَمْ تَزْدَادُوا عَلَى الْمَوْعِظَةِ إِلَّا اسْتِجْرَاحاً». أَيِ فُسَاداً. وَقِيلَ مَعْنَاهُ إِلَّا مَا يُكْسِبُكُمْ الْجَرَحَ وَالطَّعْنَ عَلَيْكُمْ». (اللسان: جرح).

السُّيُوفِ، هَذَا عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ قَالَ بِرَأْسِهِ كَذَا، فَقُلْنَا بِسَيْفِنَا كَذَا. أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ إِنَّهُ لَيْسَتْ مِنْ لُغْبَةٍ⁽¹⁾ إِلَّا وَنَحْنُ نَحْتَمِلُهَا، مَا لَمْ يُبَلِّغْ أَنْ تُكُونَ صُعُودَ مَنِيرٍ أَوْ نَصَبَ رَايَةٍ، أَلَا وَإِنَّ جَامِعَةً⁽²⁾ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ الَّتِي جَعَلْنَاهَا فِي عُنُقِهِ عِنْدَنَا، وَإِنِّي أُعْطِي اللَّهَ عَهْدًا أَنْ لَا أَجْعَلَهَا فِي عُنُقِ أَحَدٍ فَأُخْرِجَهَا مِنْهُ إِلَّا صَعْدًا⁽³⁾. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ!».

خُطْبَةُ لَعْمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(*)

سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص: 40

خُطِبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ النَّاسَ، فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ،

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَلَا يَطْلُوَنَّ عَلَيْكُمُ الْآمَدُ، وَلَا يَنْعُدَنَّ عَلَيْكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ مِنْ زَاغَتْ⁽⁴⁾ بِهِ مَنِيَّتُهُ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ، لَا يَسْتَعْتَبُ⁽⁵⁾ مِنْ شَيْءٍ، وَلَا يَزِيدُ فِي حَسَنِ. أَلَا لَا سَلَامَةَ لِمَرِيٍّ فِي خِلَافِ السُّنَّةِ، وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ تَعْدُونَ الْهَارِبَ مِنْ ظُلْمِ إِمَامِهِ غَاصِيًا. أَلَا وَإِنَّ أَوْلَاهُمَا بِالْمَعْصِيَةِ الْإِمَامُ الظَّالِمُ. أَلَا وَإِنِّي أَعَالِجُ أَمْرًا لَا يُعِينُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، قَدْ فَتَنِي عَلَيْهِ الْكَبِيرُ، وَكَبِيرَ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ، وَفَضَحَ عَلَيْهِ الْأَعْجَمِيُّ، وَهَاجَرَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ⁽⁶⁾، حَتَّى حَسِبُوهُ دِينًا لَا يَرَوْنَ الْحَقَّ غَيْرَهُ. إِنَّهُ لَحَيِّبٌ إِلَيَّ أَنْ أُوقِرَ أَمْوَالَكُمْ⁽⁷⁾ وَأَغْرَاضَكُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

(1) لُغْبٌ عَلَى الْقَوْمِ: أَفْسَدَ عَلَيْهِمْ، وَكَلَامٌ لُغْبٌ: فَاسِدٌ لَا صَائِبٌ وَلَا قَاصِدٌ.

(2) الْجَامِعَةُ: الْغُلُّ وَالْقَيْدُ.

(3) الصَّعْدُ: الصُّعْبُ الشَّاقُّ.

(*) نَقْلًا عَنْ كِتَاب: نصوص من الأدب الأموي، للدكتور حسين عطوان، ص 449.

(4) زَاغَتْ: أَسْرَعَتْ.

(5) اسْتَعْتَبَ: رَجَعَ عَنِ الْإِسَاءَةِ وَطَلَبَ الرُّضَا.

(6) هَاجَرَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ: أَيِ خَرَجَ مِنْ بَادِيَتِهِ إِلَى الْمَدَنِ. يَرِيدُ: لَمْ يُخْلِصِ الْمُهَاجِرَةَ لِلَّهِ، أَيِ يَنْقَطِعُ بِنَفْسِهِ إِلَى مُهَاجِرَةِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بِهِ أَهْلٌ وَلَا مَالٌ طَلِبًا لِلْجَنَّةِ.

(7) وَفَرَهُ مَالَهُ وَوَفَرَهُ: جَعَلَهُ وَافِرًا، أَيِ كَثِيرًا لَمْ يُنْقَصْ مِنْهُ شَيْءٌ. وَوَفَرَهُ عِرْضَهُ، وَوَفَرَهُ لَهُ: لَمْ يَشْتَمِهِ، كَانَهُ أَبْقَاهُ لَهُ كَثِيرًا طَيِّبًا لَمْ يَنْقُصْهُ بِشَيْءٍ. وَأَعْطَى «أَوْفَرَ» مَعْنَى «لَا أَنْقُصُ»، وَلِذَلِكَ قَالَ: «إِلَّا بِحَقِّهَا» بِالْقَصْرِ.

رسالة عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف^(*)

مروج الذهب 141:3

وكتاب الفتوح 164:7

وآدب الكتاب للصولي ص: 236

وتهذيب تاريخ ابن عساكر 70:4

والبداية والنهاية في التاريخ 127:9

لما أسرف الحجاج بن يوسف في قتل أسارى دير الجماجم، وإعطائه الأموال، بلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فكتب إليه:

«أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك⁽¹⁾ في الدماء⁽²⁾، وتبذيرك⁽³⁾ في الأموال، ولا يحتمل⁽⁴⁾ أمير المؤمنين هاتين الخصلتين⁽⁵⁾ لأحد من الناس. وقد حكم⁽⁶⁾ عليك أمير المؤمنين في الدماء في الخطأ⁽⁷⁾ الدية، وفي العمد⁽⁸⁾ القود⁽⁹⁾، وفي الأموال ردّها إلى مواضعها، ثم العمل فيها برأيه، فإنما أمير المؤمنين أمين الله⁽¹⁰⁾، وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل، فإن كنت أرذت الناس له فما أغناهم عنك، وإن كنت أرذتهم لنفسك فما أغناك عنهم. وسيأتيك من أمير المؤمنين امران: لين وشدة، فلا يؤنسك⁽¹¹⁾ إلا الطاعة، ولا يوحشك⁽¹²⁾ إلا المعصية،

(*) نقلاً عن كتاب: نصوص من الأدب الأموي، للدكتور حسين عطوان، ص 557-558.

(1) السرف والإسراف: مجاوزة القصد.

(2) في الدماء: أي في القتل.

(3) التبذير: إثلاف المال وإنفاقه في غير طاعة الله، أي في المعاصي.

(4) لا يحتمل: لا يسع ولا يطيق.

(5) الخصلة: الخلة.

(6) حكم: أمر وقضى.

(7) في الخطأ: أي في القتل غير العمد.

(8) العمد: القصد والإضرار، وهو ضد الخطأ في القتل وسائر الجنايات.

(9) القود: القصاص.

(10) أمين الله: الحافظ المؤمن على عياده.

(11) آنسه: سره وفرحه.

(12) أوحشه: أقلقته وأخافه.

وظنُّ بأمير المؤمنين كلَّ شيءٍ إلاَّ احتمالَكَ على الخطأ، وإذا أعطاك الظفر⁽¹⁾ على قوم فلا تقتلن⁽²⁾ جانحاً ولا أسيراً. وكتبَ في أسفل كتابه:

إذا أنت لم تتركْ أموراً كرهتها وتطلب⁽³⁾ رضائي بالذي أنا طالبه
وتخشى الذي يخشاه مثلك هارباً⁽⁴⁾ إلى الله منه ضيع⁽⁵⁾ الدرَّ⁽⁶⁾ حاليه
فإن ترمي غفلة⁽⁷⁾ قرشيّة فيا ربّما قد غص⁽⁸⁾ بالماء شاربته
وإن ترمي وثبة⁽⁹⁾ أمويّة فهذا وهذا كلُّ ذا أنا صاحبه
فلا تلمني والحوادث⁽¹⁰⁾ جمّة فإنك مجزي⁽¹¹⁾ بما أنت كاسيه⁽¹²⁾

(1) الظفر: الفوز والغلبة.

(2) الجانح: الأثم والجانح والمجرم.

(3) طلب رضاه: أراحه وابتغاه.

(4) هرب إلى الله: فرّ إليه ولجأ.

(5) ضيع: أهلك.

(6) الدرّ: اللبّ.

(7) الغفلة: السهو والنسيان.

(8) غص بالماء: شرب به، أو وقّف في خلقه فلم يكذّب يسيعه، وفي المثل: «لو بيغبر الماء غصصت». قال الميداني: يضرب لمن يؤتق به، ثم يؤتى الواثق من قبله، ومن هذا قول عدي بن زيد:

لو بيغبر الماء خلقني شرق كنت كالغصان بالماء اغتصاري

أي لو شرق خلقي بشيء غير الماء لاعتصرت بالماء. وأقام اسم الفاعل مقام الفعل، لاجتماعهما في أن كلّاً منهما مُحتمل للحال والاستقبال. (مجمع الأمثال 3: 101). والاعتصار: أن يغص الإنسان بالطعام فيعتصر بالماء، وهو أن يشربه قليلاً قليلاً ليسيعه.

(9) الوثبة: السورة والصولة والسطوة.

(10) حوادث الدهر: ثوبه وما يحدث منه، واجدها حادث.

(11) جزاء: كافأه.

(12) الكاسيب: العايل، يقال: كسب الأمر، أي أتاه وفعله.

ولا تُعَدُّ ما⁽¹⁾ يَأْتِيكَ مِنِّي، وَإِنْ تُعَدُّ⁽²⁾ يَقُومُ بِهَا يَوْمًا عَلَيْكَ نَوَادِبُهُ⁽³⁾

ولا تُنْقِصَنَّ لِلنَّاسِ حَقًّا عِلْمَتُهُ ولا تُعْطِينَ ما لَيْسَ لِلَّهِ جَانِبُهُ⁽⁴⁾

فلما قرأ الحجاجُ كتابَهُ كتب:

أما بعد، فقد أُناني كتابُ أميرِ المؤمنينَ يَذْكُرُ فيه سَرَفِي في الدِّماءِ، وتُبْذِيري في الأموالِ. وَلَعَمْرِي ما بَلَغْتُ⁽⁵⁾ في عُقُوبَةِ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ ما هُمْ أَهْلُهُ، وما قَضَيْتُ⁽⁶⁾ حَقَّ أَهْلِ الطَّاعَةِ بما اسْتَحَقُّوهُ، فَإِنْ كانَ قَتْلِي أولئكَ الْعُصَاةَ سَرَفًا، وإِعْطائي أولئكَ الْمُطِيعِينَ بُبْذِيرًا فَلْيَسْوَغْنِي⁽⁷⁾ أميرُ المؤمنينَ ما سَلَفُ⁽⁸⁾، وَلْيَحْدِ⁽⁹⁾ لِي فيه حَدًّا أَنْتَهِيَ إِلَيْهِ⁽¹⁰⁾ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وَاللَّهُ ما عَلَيَّ مِنْ عَقْلٍ⁽¹¹⁾ ولا قَوْدٍ: ما أَصَبْتُ⁽¹²⁾ الْقَوْمَ خَطَأً فَادِيَهُمْ⁽¹³⁾، ولا ظَلَمْتُهُمْ فَأَقَادَ⁽¹⁴⁾ بِهِمْ، ولا أَعْطَيْتُهُمْ إِلَّا لَكَ⁽¹⁵⁾، ولا قَتَلْتُ إِلَّا فِيكَ⁽¹⁶⁾. وأما ما أنا مُتَنْظِرُهُ من

(1) عَدَا الشَّيْءَ: تَجَاوَزَهُ.

(2) عَاذَ: رَجَعَ.

(3) النَوَادِبُ: جَمْعُ نَادِبَةٍ، وَهِيَ الْمَرَأَةُ الَّتِي تَبْكِي عَلَى الْمَيِّتِ وَتُعَدُّ مَحَاسِنَهُ.

(4) جَنَّبَ اللَّهُ وَجَانِبُهُ: قُرْبُهُ وَجِوَارُهُ وَحَقُّهُ.

(5) بَلَغْتُ: أَيِ قَارَبْتُ وَشَارَفْتُ وَأَوْفَيْتُ.

(6) قَضَى الْحَقَّ: أَدَاهُ.

(7) سَوَّغَ لَهُ مَا فَعَلَ: جَوَّزَهُ لَهُ وَأَنْفَذَهُ وَأَمَضَّاهُ.

(8) سَلَفٌ: تَقَدَّمَ.

(9) حَدَّ وَحَدَّدَ: عَيَّنَ وَمَيَّزَ، وَالْحَدُّ: مُتَنَهَى كُلِّ شَيْءٍ، لِأَنَّهُ يَرُدُّهُ وَيَمْنَعُهُ عَنِ التَّمَادِي.

(10) أَنْتَهِيَ إِلَيْهِ: أَقْبَفَ عِنْدَهُ وَلَا تَجَاوَزَهُ.

(11) الْعَقْلُ: الدِّيَّةُ.

(12) أَصَابَهُ: فَجَعَهُ، وَأَصَابَهُمُ الدَّهْرُ بِنُفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ: جَاحَهُمْ فِيهَا، أَيِ اسْتَأْصَلَهُمْ، فَجَعَهُمْ. وَالْمُرَادُ قَتْلَهُمْ.

(13) وَدَاهُ: أَعْطَى دِيَّتَهُ، وَهِيَ حَقُّ الْقَتِيلِ.

(14) أَقَادَ بِهِمْ: أَقْتَلُ بِهِمْ، يُقَالُ: أَقَدْتُ الْقَاتِلَ بِالْقَتِيلِ، أَيِ قَتَلْتُهُ بِهِ.

(15) إِلَّا لَكَ: أَيِ لِحُبِّكَ وَطَاعَتِكَ.

(16) إِلَّا فِيكَ: أَيِ فِي عِدَاوَتِكَ وَمُناهُضَتِكَ.

أَمْرِيكَ فَالْيَنَّهُمَا عُدَّةٌ⁽¹⁾، وَأَعْظَمُهُمَا مِخَنَةٌ⁽²⁾، فَقَدْ عَبَّاتُ⁽³⁾ لِلْعُدَّةِ الْجِلَادِ⁽⁴⁾، وَلِلْمِخَنَةِ الصَّبْرَ. وَكَتَبَ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ:

إِذَا أَنَا لَمْ أَتَّبِعْ⁽⁵⁾ رِضَاكَ وَأَتَّقِي⁽⁶⁾ أَذَاكَ فَيَوْمِي لَا تَزُولُ كَوَاكِبُهُ⁽⁷⁾
وَمَا لَامَرِي بَعْدَ الْخَلِيفَةِ جُنَّةٌ⁽⁸⁾
أَسَالِمُ مَنْ سَالَتَ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ
إِذَا قَارَفَ⁽⁹⁾ الْحُجَّاجُ مِنْكَ خَطِيئَةً
إِذَا أَنَا لَمْ أَذُنِ⁽¹⁰⁾ الشَّقِيقَ⁽¹¹⁾ لِنُصْحِهِ⁽¹²⁾
وَأَقْصِرَ⁽¹³⁾ الَّذِي تُسْرِي⁽¹⁴⁾ إِلَيَّ عَقَارِيهِ⁽¹⁵⁾

(1) العُدَّة: ما أعددتُه لحوادثِ الدهرِ من المالِ والسُّلَاحِ.

(2) المِخَنَةُ: البليَّةُ.

(3) عَبَّأٌ لِلأمر: هَيَأُ لَهُ وَاعَدُ.

(4) الْجِلَادُ والمُجَالِدَةُ: الضَّرْبُ بالسَّيْفِ فِي الْقِتَالِ.

(5) اتَّبَعَ رِضَاهُ: طَلَبَهُ وَلَزِمَهُ.

(6) اتَّقَى الأذى: تَحَبَّبَهُ وَبَعُدَ عَنْهُ وَحَذَرَهُ وَتَحَرَّزَ مِنْهُ.

(7) يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ: إِذَا وَصِفَ بِالشَّدَّةِ، كَأَنَّهُ أَظْلَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الشَّدَائِدِ، حَتَّى رِيثَتْ كَوَاكِبُ السَّمَاءِ، أَيْ ظَهَرَتْ. (اللسان: كوكب). وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْيَوْمِ الَّذِي تُلْقَى فِيهِ شِدَّةٌ: يَوْمٌ مُظْلِمٌ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ: يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ، أَيْ اسْتَدْبَتْ طُلُمُتُهُ حَتَّى صَارَ كَاللَّيْلِ. (اللسان: ظلم).

(8) الْجُنَّةُ: الدَّرْعُ، وَكُلُّ مَا وَقَاكَ جُنَّةٌ.

(9) قَارَفَ الذَّنْبَ: ذَانَاهُ وَلَاصَقَهُ. وَأَقْرَفَهُ: أَثَاءَ وَفَعَلَهُ.

(10) أَذْنَاهُ: قَرَبَهُ.

(11) الشَّقِيقُ: النَّاصِحُ الْحَرِيصُ عَلَى صَلَاحِ الْمُنْصُوحِ.

(12) النَّصْحُ: إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِلْمُنْصُوحِ لَهُ.

(13) أَقْصَا: أَبْعَدَهُ وَنَحَا.

(14) تُسْرِي: تُدْبِ.

(15) الْعَقَارِبُ: الثَّمَامُ. وَيَقَالُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَقْتَرِضُ أَغْرَاضَ النَّاسِ، أَيْ يَقْطَعُهُمْ بِالْغِيَةِ وَالطَّغْنِ عَلَيْهِمُ وَالنَّيْلِ مِنْهُمْ: إِنَّهُ لَتُدْبُ عَقَارِيَهُ.

فمن ذا الذي يَرْجُو نَوَالِي⁽¹⁾ وَيَتَّقِي مُصَاوِلِي⁽²⁾، والدَّهْرُ جَمُّ نَوَائِبِهِ⁽³⁾؟
 فَقِفْ بي على حَدِّ الرُّضَا لَا أَجُوزُهُ مَدَى الدَّهْرِ حَتَّى يَرْجِعَ⁽⁴⁾ الدَّرُّ حَالِيَهُ
 وَإِلَّا فَدَغْنِي⁽⁵⁾ وَالْأُمُورَ فَإِنِّي شَفِيقٌ رَفِيقٌ⁽⁶⁾ أَحْكَمْتَنِي⁽⁷⁾ تَجَارِبُهُ
 فلما انْتَهَى كِتَابُهُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ: خَافَ أَبُو مُحَمَّدٍ صَوْلَتِي، وَلَنْ يَعُودَ لِشَيْءٍ أَكْرَهُهُ.

(1) النَّوَال: العطاء.

(2) المصاولة: الموائبة. يقال: صال فلان على فلان صولة منكراً إذا وثب عليه واستطال وقهره.

(3) النوائب: جمع نائبة، وهي ما يتوب الإنسان، أي ينزل به من المهمات والحوادث. والنائبة: المصيبة والنازلة.

(4) يرجع: يُعيد ويرد. أراد التأييد، أي التخليد.

(5) دغني والأمور: أي اتركني أندبرها وأباشيرها بنفسي.

(6) الرفيق: اللين الجانب اللطيف الفاعل.

(7) أحكمته التجارب: جعلته حكيماً، أي متقناً للأمور.

رِسَالَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ^(*)

شرح نهج البلاغة 125:20

كُتِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَجْلِسُ بِالطَّائِفِ الْعَصْرَيْنِ⁽¹⁾، فَتَفْتِيهِمْ⁽²⁾ بِالْجَهْلِ، تُعِيبُ أَهْلَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ. وَإِنَّ حِلْمِي⁽³⁾ عَلَيْكَ، وَاسْتِدْأَمَتِي⁽⁴⁾ فَيْتُكَ⁽⁵⁾ جَرَّأَكَ⁽⁶⁾ عَلَيَّ، فَانْكَفَفْتُ⁽⁷⁾، لَا أَبَا لِعُزْرِكَ⁽⁸⁾ - مِنْ غَرْبِكَ، وَأَرْبَعَ⁽⁹⁾ عَلَى ظَلْعِكَ، وَاعْقِلْ⁽¹⁰⁾ إِنْ كَانَ لَكَ مَعْقُولٌ⁽¹¹⁾، وَأَكْرَمُ⁽¹²⁾ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَهَنَّا تَجِدُهَا عَلَى النَّاسِ أَعْظَمَ هَوَانًا، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

فَنَفْسَكَ أَكْرَمَهَا فَإِنَّكَ إِنْ تَهَنَ عَلَيْكَ فَلَنْ تُلْقَى لَهَا - الدَّهْرَ - مُكْرَمًا

(*) نَقْلًا عَنْ كِتَاب: نصوص من الأدب الأموي، للدكتور حسين عطوان، ص 656-657.

(1) الْعَصْرَانِ: الْغَدَاةُ وَالْعَشِيَّةُ.

(2) أَفْتَاهُ فِي الْمَسْأَلَةِ: أَجَابَهُ عَنْهَا.

(3) الْحِلْمُ: الْأَنَاءَةُ وَالْتَوَدُّ وَالرَّفْقُ وَالتَّيَبُّتُ فِي الْأُمُورِ.

(4) اسْتِدْأَمَ الْأَمْرَ: تَأَلَّى فِيهِ وَانْتَظَرَ وَتَرَقَّبَ.

(5) الْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحْمِ: الْعَطْفُ عَلَيْهِ وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ بِالْبِرِّ.

(6) جَرَّأَهُ عَلَيْهِ: زَادَ فِي جُرْأَتِهِ عَلَيْهِ، أَيِ شَجَعَهُ.

(7) انْكَفَفْتُ مِنْ غَرْبِكَ: أَيِ مِنْ جِدَّتِكَ.

(8) لَا أُمَّ لَكَ: فِي مَذْهَبٍ لَيْسَ لَكَ أُمٌّ حُرَّةٌ، وَهَذَا السَّبُّ الصَّرِيحُ، وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي الْإِمَاءِ عِنْدَ الْعَرَبِ مَذْمُومُونَ، لَا يُلْحَقُونَ بِبَنِي الْحَرَاثِرِ، وَلَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ: «لَا أُمَّ لَكَ» إِلَّا فِي غَضَبِهِ عَلَيْهِ مُقْصِرًا بِهِ، شَائِمًا لَهُ. وَأَمَّا إِذَا قَالَ: «لَا أَبَا لَكَ» فَلَمْ يتركْ لَهُ مِنَ الشِّتْمَةِ شَيْئًا. وَقِيلَ: مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «لَا أُمَّ لَكَ» أَنْتَ لَقِيطٌ لَا تُعْرِفُ لَكَ أُمَّ. (اللسان: أمم، ومجمع الأمثال 3:205).

(9) أَرْبَعَ عَلَى ظَلْعِكَ: الْعَرَجُ، أَيِ أَرْفَقَ عَلَى نَفْسِكَ فِيمَا تُحَاوِلُهُ.

(10) عَقَّلَ الشَّيْءَ: فَهَّمَهُ.

(11) الْمَعْقُولُ: الْعَقْلُ، وَهُوَ أَحَدُ الْمَصَادِرِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى مَفْعُولٍ.

(12) أَكْرَمَ نَفْسَهُ: نَزَّهَهَا وَصَانَهَا وَرَفَعَهَا عَمَّا يَشِيشُهَا.

وإني أقسم بالله لئن لم تنته⁽¹⁾ عما بلغني عنك لتجدن جانبي خسيناً⁽²⁾، ولتجدني إلى ما يزدعك⁽³⁾ عني عجباً، فرأيتك، فإن أشفى⁽⁴⁾ بك شقاؤك⁽⁵⁾ على الردى⁽⁶⁾ فلا تلم إلا نفسك.

فكتب إليه ابن عباس:

«أما بعد، فقد بلغني كتابك، قلت: إنني أفني الناس بالجهل، وإنما يفني بالجهل من لم يعرف من العلم شيئاً، وقد آتاني الله من العلم ما لم يؤت بك. وذكرت أن حلمك عني، واستدامتك فيني جرأتي عليك، ثم قلت: اكفف من غربك، واربع على ظلمك، وضربت⁽⁷⁾ لي الأمثال، أحاديث الضبع⁽⁸⁾! متى رأيتني لغرامك⁽⁹⁾ هائياً⁽¹⁰⁾، ومن حدك⁽¹¹⁾ ناكلاً⁽¹²⁾! وقلت: لئن لم تكفف لتجدن جانبي خسيناً، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا أزعى⁽¹³⁾ عليك إن أزعيت! فوالله أنتهي عن قول الحق، وصفة أهل العدل والفضل، وذم الأخسرين⁽¹⁴⁾ أعمالاً، الذين ضل⁽¹⁵⁾ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. والسلام».

(1) انتهى عن الأمر: كف عنه.

(2) خسين الجانب: صعب لا يُطاق.

(3) رذعه عنه: كفه وصده وصرفه.

(4) أشفى به على الأمر: أشرف به عليه.

(5) الشقاء: الشدة والعسرة.

(6) الردى: الهلاك.

(7) ضرب الأمثال: ذكرها.

(8) الضبع بضم الباء وسكونها مؤنثة: وهي سبع كالذئب. وأحاديث الضبع: يعني تخوفاً بها.

(9) الغرام: الشدة والقوة والثروة والجهل والشر والأذى.

(10) الهائب: الخائف.

(11) حد الرجل: بأسه ونفاذه في نجدته.

(12) الناكل: الجبان الضعيف، والناكص المُحجِم.

(13) أزعى عليه: أبغى عليه ورجمه.

(14) الأخسرون: جمع الأخسر، وهو الأضل والأهلك.

(15) ضل سعيه: بطل وضاع.

رِسَالَةُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ إِلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(*)

العقد 3: 152

كَتَبَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: اجْمَعْ لِي أَمْرَ الدُّنْيَا، وَصِفْ لِي أَمْرَ
الْآخِرَةِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

«إِنَّمَا الدُّنْيَا حُلْمٌ⁽¹⁾، وَالْآخِرَةُ يَقْظَةٌ⁽²⁾، وَالْمَوْتُ مُتَوَسِّطٌ؛ وَنَحْنُ فِي أَضْغَاثِ⁽³⁾ أَخْلَامٍ،
مَنْ حَاسِبٌ⁽⁴⁾ نَفْسَهُ رَبِيعٌ⁽⁵⁾، وَمَنْ غَفَلٌ⁽⁶⁾ عَنْهَا خَسِرٌ⁽⁷⁾، وَمَنْ نَظَرَ⁽⁸⁾ فِي الْعَوَاقِبِ نَجَا⁽⁹⁾،
وَمَنْ أَطَاعَ⁽¹⁰⁾ هَوَاهُ ضَلَّ⁽¹¹⁾، وَمَنْ حَلَّمَ⁽¹²⁾ غَنِمَ⁽¹³⁾، وَمَنْ خَافَ سَلِمَ⁽¹⁴⁾، وَمَنْ اعْتَبَرَ⁽¹⁵⁾
أَبْصَرَ⁽¹⁶⁾، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ⁽¹⁷⁾، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ⁽¹⁸⁾، وَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ. فَلِذَا زَلَلْتُ⁽¹⁹⁾

(*) نقلًا عن كتاب: نصوص من الأدب الأموي، للدكتور حسين عطوان، ص 683-684.

(1) الْحُلْمُ: ما يراه النَّائم في نَوْمِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، أَيِ الرُّؤْيَا.

(2) الْيَقْظَةُ: الْإِنْتِبَاهُ.

(3) أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ: أَيِ مُخْتَلِطَةٍ دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَلَيْسَتْ كَالصُّحُوحِ، وَهِيَ مَا لَا تَأْوِيلَ لَهُ.

(4) حَاسِبٌ نَفْسَهُ: عَدَّ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ.

(5) رَبِيعٌ: غَنِمَ. وَالْمَرَادُ أَثَابَهُ اللَّهُ.

(6) غَفَلٌ عَنْ نَفْسِهِ: تَرَكَهَا وَسَهَا عَنْهَا، أَيِ لَمْ يُرَاقِبْهَا وَلَمْ يُحَاسِبْهَا.

(7) خَسِرَ: غَرِمَ. وَالْمَرَادُ عَاقِبَةُ اللَّهِ.

(8) نَظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ: فَكَّرَ فِيهَا وَتَدَبَّرَهَا.

(9) نَجَا: سَلِمَ وَخَلَصَ.

(10) أَطَاعَ هَوَاهُ: انْقَادَ لِرَغْبَتِهِ وَشَهْوَتِهِ وَاتَّبَعَهَا، أَوْ اخْتَارَ ذُلِّيَّاهُ عَلَى آخِرَتِهِ.

(11) ضَلَّ: غَوَى وَجَارَ عَنِ الْقَصْدِ.

(12) حَلَّمَ: تَأَلَّى وَتَرَيَّثَ وَتَثَبَّتَ فِي الْأُمُورِ.

(13) غَنِمَ: فَازَ.

(14) سَلِمَ: نَجَا وَخَلَصَ.

(15) اعْتَبَرَ: اسْتَدَلَّ بِالشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، أَيِ اتَّعَظَ.

(16) أَبْصَرَ: رَشِدَ وَاهْتَدَى.

(17) فَهِمَ: عَقَلَ وَعَرَفَ.

(18) عَلِمَ: فَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَعَرَفَ أَوَامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيَهُ.

(19) زَلَّ: أَخْطَأَ.

فَارْجِعْ⁽¹⁾، وَإِذَا نَدِمْتَ⁽²⁾ فَاقْلَعْ⁽³⁾، وَإِذَا جَهَلْتَ فَاسْأَلْ، وَإِذَا غَضِبْتَ⁽⁴⁾ فَاْمْسِكْ⁽⁵⁾، وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ⁽⁶⁾ النَّفْسُ عَلَيْهِ.

رِسَالَةُ غِيلَانَ الدَّمَشَقِيِّ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ^(*)

فضل الاعتزال ص: 231

كُتِبَ أَحَدُ إِخْوَانِ غِيلَانَ الدَّمَشَقِيِّ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي سِجْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ يُوَأْسِيهِ وَيَرْبِطُ عَلَى قَلْبِهِ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ غِيلَانُ:

«أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَيَاةٌ مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ، وَنَجَاةٌ⁽⁷⁾ مَنْ يُرِيدُ النُّجَاةَ، فَكَيْفَ نَتْرُكُ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ! نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنا وَإِيَّاكَ مِنَ الْمُتَّقِينَ. كُتِبَتْ تَذَكُّرُ فَضِيلَةٍ⁽⁸⁾ الْمُتَّقِينَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لِشِدَّةِ بَلَائِهِمْ⁽⁹⁾ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ عَلَى الْمُتَّقِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ، تَقُولُ: وَمَنْ يَبْلُغُ فَضَائِلَهُمْ وَمَنْ يُصِيبُهُ مِنَ الْبَلَاءِ مِثْلُ الَّذِي أَصَابَهُمْ. وَسَائِبُ لَكَ فِيمَا بَيْنَ الزَّمَانَيْنِ مَا لَا تُنْكِرُهُ⁽¹⁰⁾ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَاعْرِفْهُ، ثُمَّ أَحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهِ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ابْتَلَى⁽¹¹⁾ الْعِبَادَ فِي زَمَنِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَكَانَ ذَلِكَ بَلَاءٌ عِلْمٌ لَيْسَ مَعَهُ جَهْلٌ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ⁽¹²⁾، وَابْتَلَاهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَلَاءَ رَحْمَةٍ مَعَ الْقُرْآنِ، وَيُعَلِّمُهُمْ مَعَ عِلْمِ الْقُرْآنِ،

(1) رَجَعَ: أي رجع عن الخطأ إلى الصواب.

(2) نَدِمَ: أَسَفَ.

(3) أَقْلَعَ: عما كان عليه: كَفَّ عَنْهُ وَتَرَكَهُ.

(4) غَضِبَ: هَاجَ وَتَارَ، أَوْ أَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَالْأَنْفَقَةُ.

(5) أَمْسَكَ: كَظَمَ غَيْظَهُ، أَيْ رَدَّهُ وَحَبَسَهُ، وَاحْتَمَلَ سَبَبَهُ وَصَبَرَ عَلَيْهِ.

(6) أَكْرَهَ عَلَى الشَّيْءِ: أَرِيدَ عَلَيْهِ، أَيْ حَمَلَ عَلَيْهِ.

(*) نقلاً عن كتاب: نصوص من الأدب الأموي، للدكتور حسين عطوان، ص 687-688.

(7) النجاة: الخلاص والسَّلامة.

(8) الفضيلة: الدرجة الرَّفِيعَةُ فِي الْفَضْلِ.

(9) البلاء: الاختبار والامتحان.

(10) أَنْكَرَ الشَّيْءَ: جَهِلَهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ.

(11) ابْتَلَاهُ: اخْتَبَرَهُ وَامْتَحَنَهُ.

(12) المنافق: المرائي، وهو الذي يُظْهِرُ غَيْرَ مَا يُبْطِنُ.

وَيُبَيِّنُ لَهُمْ مَعَ بَيَانِ الْقُرْآنِ، فَكَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ بِلَاءَ عِلْمٍ، وَبِلَاءَ تَوْبَةٍ⁽¹⁾ وَعَقْفٍ⁽²⁾ مِنَ الرَّحْمَنِ...،
وَابْتِلَاهُمْ بِذَلِكَ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: 42]. وَإِنَّكَ
وَنَحْوُكَ خُلِقْتَ فِي زَمَنِ ابْتَلَى اللَّهُ الْعِبَادَ فِيهِ بِجَهْلٍ لَا عِلْمَ مَعَهُ، وَضَلَالَةٍ⁽³⁾ لَا هُدًى⁽⁴⁾ مَعَهَا،
وَلَبْسٍ⁽⁵⁾ لَا بَيَانَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، فَاجْتَمَعَ الْعِبَادُ عَلَى الْهَلَكَةِ⁽⁶⁾.
وَقَعَدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ⁽⁷⁾ يُوعِدُونَ⁽⁸⁾ وَيَصُدُّونَ⁽⁹⁾ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ وَيَبْغُونَهَا⁽¹⁰⁾
عَوَجًا⁽¹¹⁾، وَسَمَّوُا الدِّينَ وَأَهْلَ الدِّينِ بِغَيْرِ أَسْمَائِهِمْ، وَاجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ، فَلَيْسَ
يَلْتَفِتُ⁽¹²⁾ مُلْتَفِتٌ إِلَّا إِلَى ضَالٍّ⁽¹³⁾ مُضِلٍّ⁽¹⁴⁾، إِلَّا فِرْقَةً يَسِيرَةً، وَمَعَ ذَلِكَ فَحُجَّجَهُ⁽¹⁵⁾ عَلَى أَهْلِ
الْبَاطِلِ⁽¹⁶⁾ ظَاهِرَةً، وَلَهُمُ الْوَيْلُ⁽¹⁷⁾ الطَّوِيلُ. وَعَزَّيْتَنِي⁽¹⁸⁾ وَقَدْ أَصَبْتَ لَوْ كُنْتَ تُهْنِنُنِي، لِأَنِّي كَلِمَا

(1) التَّوْبَةُ: الرَّجُوعُ عَنِ الذَّنْبِ.

(2) الْعَقْفُ: التَّجَاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وَتَرْكُ الْعِقَابِ عَلَيْهِ.

(3) الضَّلَالَةُ: الْغَوَايَةُ.

(4) الْهُدًى: الرَّشَادُ.

(5) اللَّبْسُ: الْخَلْطُ، يُقَالُ: لَبَسْتُ الْأَمْرَ إِذَا خَلَطْتُ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ.

(6) الْهَلَكَةُ: الْهَلَاكُ، أَيِ الْعَطْبُ وَالتَّلَفُ.

(7) الصِّرَاطُ: الطَّرِيقُ.

(8) يُوعِدُونَ: يَتَّهَدُّونَ.

(9) يَصُدُّونَ: يَمْتَنِعُونَ وَيَصْرِفُونَ.

(10) يَبْغُونَ: يَطْلُبُونَ.

(11) عَوَجُ الدِّينِ وَالْخَلْقِ: فَسَادُهُ وَمِثْلُهُ، وَهُوَ يُرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عَوَجًا﴾ [آل عمران: 99]. سَبِيلُ اللَّهِ: دِينُ اللَّهِ وَطَرِيقُ شَرْعِهِ. وَالْهَاءُ فِي «تَبْغُونَهَا» عَائِدَةٌ

عَلَى السَّبِيلِ، أَيْ وَيَطْلُبُونَ لَهَا عَوَجًا جَاءَ. (البحر المحيط 3: 14، وانظر 5: 212).

(12) التَّفَتَّ إِلَيْهِ: صَرَفَ وَجْهَهُ إِلَيْهِ وَاشْتَغَلَ بِهِ.

(13) الضَّالُّ: الْغَاوِي.

(14) الْمُضِلُّ: الْمُخْوِي، أَيْ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَى الضَّلَالِ وَالْدُخُولِ فِيهِ.

(15) الْحُجَّجُ: جَمْعُ حُجَّةٍ، وَهِيَ الْبَيِّنَةُ وَالْبُرْهَانُ وَالذَّلِيلُ.

(16) الْبَاطِلُ: الضَّلَالُ وَالْكَذِبُ.

(17) الْوَيْلُ: كَلِمَةُ عَذَابٍ. وَالْوَيْلُ: الْهَلَاكُ يُدْعَى بِهِ لِمَنْ وَقَعَ فِي هَلَكَةٍ يَسْتَحِقُّهَا، تَقُولُ: وَيْلٌ لَزَيْدٍ، وَيْلًا

لَزَيْدٍ، فَالرَّفْعُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَالتَّصْبُّ عَلَى إِضْمَارِ الْفِعْلِ أَوْ عَلَى الْمَصْدَرِ، هَذَا إِذَا لَمْ تُضِفْهُ، فَإِذَا أُضِفَتْ

فَلَيْسَ إِلَّا التَّصْبُّ، لِأَنَّهُ لَوْ رَفَعْتَهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَبَرٌ. (اللسان: ويل).

(18) عَزَّاهُ: آسَأَهُ وَصَبَّرَهُ.

عَارِضَنِي⁽¹⁾ من ضيقِ البلاءِ غُصَّةً⁽²⁾، فَرَجَّهَا⁽³⁾ عني ما كنتُ فيه من السَّعةِ⁽⁴⁾ والرَّحمةِ، فكان الذين هم في سَكْرَتِهِمْ⁽⁵⁾ يَغْمَهُونَ⁽⁶⁾ لو عَايَنُوا⁽⁷⁾ سبيلهم، لَعَرَفُوا ما جَهِلُوا، ﴿إِذَا تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(م) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرُءُ فَنَتَّبِعَ لِمِثْلِهِ مَا كُنَّا مِنَ الْمَدِينَةِ مُبْتَغِينَ ﴿فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ [البقرة: 166-167].

(1) عَارِضَنِي: عَرَضَ لِي، أي أصابني.

(2) الْغُصَّةُ: الشُّجَا، أو ما غَصِصَتْ به، يقال: غَصِصْتُ بالماء، أي شَرِقْتُ به أو وقفَ في حَلْقِكَ فلم تَكُذْ تُسِيغُهُ.

(3) فَرَجَّهَا: كَشَفَهَا.

(4) السَّعة: الغنى والرِّفاهية.

(5) السَّكْرَةُ: الضَّلَالَةُ والغَفْلَةُ.

(6) يَغْمَهُونَ: يَتَحَيَّرُونَ، وفي التنزيل العزيز: ﴿لَمَّا لَبِثُوا فِي سَكْرَتِهِمْ يَغْمَهُونَ﴾^(٧٢) [الحجر: 72]. أي ضلالهم وجَهِلهم يَتَرَدَّدُونَ. (البحر المحيط 462:5).

(7) عَايَنُوا سَبِيلَهُمْ: شَاهَدُواها.

رِسَالَةُ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى فِي الطَّاعَةِ (*)

التذكرة الحمدونية: الورقة 105

وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ص: 210

كُتِبَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَصِفُ الطَّاعَةَ:

«أما بعد، فإن الله تبارك⁽¹⁾ وتعالى - تباركت أسماؤه، وجل ثناؤه، وتعالى ذكره⁽²⁾ - اختار لنفسه من الأديان والملل⁽³⁾ كلها الإسلام، ثم جعل أهلته الذين أكرمهم⁽⁴⁾ به، واصطفاهم⁽⁵⁾ له، خيرته⁽⁶⁾ من عبادِهِ وأهل صفوته، وبعث به إليهم نبيه ﷺ، وسماهم المسلمين، وهو الذي شرع⁽⁷⁾ لساكن سماواته من ملائكته، ولأهل الأرض من أنبيائه، ثم بعثهم به، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: 13] إلى آخر الآية، فبلغ⁽⁸⁾ رسول الله ﷺ، رسالات ربه، ونصح⁽⁹⁾ لأمره، ومضى⁽¹⁰⁾ لأمره، وجاهد⁽¹¹⁾ على حقه من خالفه⁽¹²⁾.

(*) نقلاً عن كتاب: نصوص من الأدب الأموي، للدكتور حسين عطوان، ص 689-697.

- (1) تبارك الله: تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وتعالى وتُعَظَّم.
- (2) الذكر: الصلاة لله والدعاء إليه والثناء عليه، وقد تكرر ذكر الذكر في الحديث، ويراد به تمجيد الله وتقديسه وتسيبته وتهليله والثناء عليه بجميع محامده (اللسان: ذكر).
- (3) الملل: جمع ملة، وهي الدين كشريعة الإسلام والنصرانية واليهودية. وقيل: هي معظم الدين وجملته ما يحيى به الرسل.
- (4) أكرمهم: أعزّه وأعظمه.
- (5) اصطفاه: اختاره.
- (6) الخيرة والخيرة كالعينة، والأخيرة أعرف: وهي الاسم من قولك: اختاره الله تعالى، أي اصطفاه وانتقاء، وفي الحديث: «محمد ﷺ، خيرة الله من خلقه وخيرة الله من خلقه». أي صفوته. (اللسان: خير).
- (7) شرع الدين: سنّه وأظهره وبَيَّنّه وأوضحه.
- (8) بلغ الرسالة: أداها وأوصلها.
- (9) نصح له: أراد له الخير.
- (10) مضى في الأمر وعلى الأمر: تقدّم وتم عليه، أي استمر عليه.
- (11) جاهد على حق الله: قاتل على طاعته والعمل بأمره.
- (12) خالفه: فارقه.

وَعَادَاهُ⁽¹⁾ وَابْتَغَى⁽²⁾ سَبِيلًا⁽³⁾ غَيْرَ سَبِيلِهِ⁽⁴⁾، ثُمَّ آمَنَ بِهِ⁽⁵⁾ وَصَدَّقَهُ وَعَزَّرَهُ⁽⁶⁾ وَنَصَرَهُ⁽⁷⁾، وَابْتِغَى⁽⁸⁾ النَّوْرَ⁽⁹⁾ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلُونَ مُسْتَضْعَفُونَ⁽¹⁰⁾ فِي الْأَرْضِ، يَخَافُونَ أَنْ تَخْطِفَهُمْ⁽¹¹⁾ النَّاسُ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، أَمْرًا رَضِيَهُ⁽¹²⁾ لِنَفْسِهِ وَنَبِيِّهِ، ابْتِغَاءً لَهُ حَتَّى أَتَى اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَكَمَّلَهُ⁽¹³⁾ وَفَضَّلَهُ⁽¹⁴⁾، وَجَعَلَ دِينَهُ، وَأَعْلَمَ حَقَّهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ إِلَهُهُمْ وَرَبُّهُمْ، أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَالْإِعْتِصَامِ⁽¹⁵⁾ بِحَبْلِهِ⁽¹⁶⁾، وَالتَّمَسُّكِ

(1) عاداه: أَبْغَضَهُ وَحَارَبَهُ.

(2) ابْتَغَى: طَلَّبَ.

(3) السَّبِيلُ: الطَّرِيقُ.

(4) سَبِيلُ اللَّهِ: طَرِيقُ الْهُدَى الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ.

(5) آمَنَ بِهِ: صَدَّقَ بِهِ.

(6) عَزَّرَهُ: أَعَانَهُ وَقَوَّاهُ وَنَصَرَهُ.

(7) نَصَرَهُ: أَعَانَهُ وَظَهَّرَهُ.

(8) ابْتِغَى الْقُرْآنَ: ابْتِغَى بِهِ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ.

(9) النَّوْرُ: الضِّيَاءُ. وَالْمُرَادُ الْهُدَى، وَهُوَ الْقُرْآنُ أَوْ التَّوْحِيدُ وَبَيَانُ الْفَرَائِضِ.

(10) اسْتَضْعَفَهُ وَتَضَعَّفَهُ: وَجَدَهُ ضَعِيفًا فَرَكِبَهُ بِسُوءٍ. وَالْمُسْتَضْعَفُ: الَّذِي يَتَضَعَّفُهُ النَّاسُ، أَيْ يُعْجِزُونَهُ وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا لِلْفَقْرِ وَرِثَاةِ الْحَالِ.

(11) اخْتَطَفَهُ وَتَخَطَّفَهُ: اسْتَلَبَهُ وَأَخَذَهُ بِسُرْعَةٍ.

(12) رَضِيَهُ: اخْتَارَهُ وَأَرَادَهُ.

(13) أَكْمَلَ الشَّيْءَ وَاسْتَكْمَلَهُ وَكَمَّلَهُ: أَتَمَّهُ وَأَجْمَلَهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: 3].

(14) كَمَّلَهُ: أَكْمَلَ الدِّينَ: أَظْهَرَهُ وَاسْتَبْعَابَ عَظَمَ فَرَائِضِهِ وَتَحْلِيلَهُ وَتَحْرِيمَهُ. (البحر المحيط 426:3). وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْآنَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ الدِّينَ بِأَنْ كَفَيْتَكُمْ خَوْفَ عَدُوِّكُمْ وَأَظْهَرْتُكُمْ عَلَيْهِمْ، أَوْ أَكْمَلْتُ لَكُمْ فَوْقَ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي دِينِكُمْ. (اللسان: كمل).

(15) فَضَّلَهُ: مَيَّزَهُ، أَوْ حَكَمَ لَهُ بِالْفَضْلِ عَلَى غَيْرِهِ، أَوْ صَيَّرَهُ كَذَلِكَ.

(16) الْإِعْتِصَامُ: الْاسْتِمْسَاكُ وَالتَّحَصُّنُ.

(17) حَبْلُ اللَّهِ: الْعَهْدُ، أَوْ الْقُرْآنُ، أَوْ الدِّينُ أَوْ الطَّاعَةُ، أَوْ إِخْلَاصُ التَّوْبَةِ، أَوْ الْجَمَاعَةُ، أَوْ إِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ، أَوْ الْإِسْلَامُ، أَوْ أَلْوَالٍ لِلسَّلَفِ يَقْرَبُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. (البحر المحيط 17:3). وَقِيلَ: حَبْلُ اللَّهِ: كِتَابُ اللَّهِ وَتَرْكُ الْفِرْقَةِ.

بِعَهْدِهِ، ثُمَّ تَوَكَّلْ⁽¹⁾ لَهُم بِالْحِفْظِ⁽²⁾ وَالِدَفْعِ⁽³⁾ وَالنَّصْرِ⁽⁴⁾ وَالْقَهْرِ⁽⁵⁾، وَالظُّهُورِ⁽⁶⁾ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، وَابْتَعَى غَيْرَ سَبِيلِهِمْ، مَا حَفِظُوا أَمْرَهُ، وَتَمَسَّكُوا بِطَاعَتِهِ، وَوَفَوْا بِعَهْدِهِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ⁽⁷⁾ الْإِسْلَامِ وَالنَّاصِرُ لَهُ عَلَى عَدُوِّهِ، وَوَلِيُّ⁽⁸⁾ إِعْزَازِهِ⁽⁹⁾ وَإِظْهَارِهِ⁽⁹⁾ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، قَضَاءُ⁽¹⁰⁾ مِنْهُ لَا مَرَدَّ⁽¹¹⁾ لَهُ، وَمَوْعِدًا⁽¹²⁾ لَا خُلْفَ لَهُ⁽¹³⁾، وَسُنَّةُ⁽¹⁴⁾ مَاضِيَةٍ⁽¹⁵⁾ فِي الَّذِينَ خَلَوْا⁽¹⁶⁾ مِنْ قَبْلُ ﴿وَلَنْ يَجْدَلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١٦) [الأحزاب: 62]، فَإِنَّ اللَّهَ بِعَهْدِهِ⁽¹⁷⁾ وَنِعْمَتِهِ⁽¹⁸⁾ لَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ⁽¹⁹⁾ لِهَذَا الدِّينِ، وَيَغْلِبُ لَهُ بِالْفِئَةِ الْقَلِيلَةِ مِنْ أَهْلِهِ الْفِئَةُ الْكَثِيرَةُ مِنْ

(1) تَوَكَّلْ لَهُ بِالْأَمْرِ: تَكْفَّلَ بِهِ.

(2) الحفظ: الحراسة والحماية.

(3) الدفع: الذبُّ والمنع.

(4) النصْر: الإعانة والمؤازرة.

(5) القَهْر: الغلبة والأخذ من فوق.

(6) الظهور على من خَالَفَهُمْ: الظَّفَرُ بِهِ وَالْغَلْبَةُ عَلَيْهِ.

(7) وَلِيُّ الْإِسْلَامِ: النَّاصِرُ لَهُ الْقَائِمُ بِهِ.

(8) الإِعْزَازُ: التَّقْوِيَةُ وَالتَّشْدِيدُ، يُقَالُ: عَزَّزْتُ الْقَوْمَ وَأَعَزَّزْتُهُمْ، أَيِ قَوَّيْتُهُمْ وَشَدَّدْتُهُمْ.

(9) الإِظْهَارُ: الإِعْلَاءُ أَوْ الإِطْلَاعُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزُ: ﴿يُظَاهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: 33]. الدِّينُ هُنَا جِنْسٌ، أَيِ لِيُغْلِبَهُ عَلَى أَهْلِ الْأَدْيَانِ كُلِّهِمْ، فَهُوَ عَلَى حَذَفٍ مُضَافٍ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى يُطْلِعُهُ عَلَى شَرَائِعِ الدِّينِ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ. (البحر المحيط 33:5).

(10) الْقَضَاءُ: الْحُكْمُ وَالْحُتْمُ وَالْأَمْرُ.

(11) الْمَرَدُّ كَالرَّدِّ: وَهُوَ الصَّرْفُ وَالرَّجْعُ.

(12) الْمَوْعِدُ: وَقْتُ الْعِدَّةِ، أَيِ إِجْزَائِهَا.

(13) الْخُلْفُ: عَدَمُ الْوَفَاءِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ». أَيِ لَمْ يَفِ بِعَهْدِهِ وَلَمْ يَصْدُقْ، وَالْإِسْمُ الْخُلْفُ. (اللسان: خلف).

(14) السُّنَّةُ: الْحُكْمُ.

(15) الْمَاضِيَةُ: النَّافِذَةُ.

(16) خَلَوْا: مَضَوْا وَذَهَبُوا.

(17) عَهْدُ اللَّهِ: ذِمَّتُهُ وَمُنَّةٌ وَمِيثَاقُهُ.

(18) نِعْمَةُ اللَّهِ: عَطْفُهُ وَرَحْمَتُهُ وَرِزْقُهُ.

(19) يَصْنَعُ لَهُ: يَحْسُنُ إِلَيْهِ.

عَدُوّه قَضَاءٌ مِنْهُ أَوْجَبَهُ⁽¹⁾ عَلَى نَفْسِهِ، لَمْ يَجْعَلْ فِيهِ مَثْنُوِيَّةً⁽²⁾، تُصْنَعِي⁽³⁾ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ أَهْلِ الرِّيْبَةِ⁽⁴⁾ وَالشُّكِّ⁽⁵⁾ فِي أَمْرِهِ، وَلَكِنْ حَتَمَهُ⁽⁶⁾ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَوْجَبَهُ لَهُمْ فِي كِتَابِهِ، وَأَعْلَمَهُمْ فِيهِ مَعَالِمَ⁽⁷⁾ طَاعَتِهِ⁽⁸⁾، وَمَسَالِكَ⁽⁹⁾ مَغْصِيَتِهِ⁽¹⁰⁾، لِيَهْلِكَ⁽¹¹⁾ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ⁽¹²⁾، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ⁽¹³⁾ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ. فَدَيْنُ اللَّهِ الَّذِي بِهِ خَصَّ⁽¹⁴⁾ أَوْلِيَاءَهُ⁽¹⁵⁾ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ تَأَمُّ عَلَى مَا بُعِثَ بِهِ نَبِيُّهُ ﷺ، فَإِنَّ اللَّهَ حَتَمَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ، وَفَقَّى⁽¹⁶⁾ بِهِ الرُّسُلَ، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(1) أَوْجَبَهُ: فَرَضَهُ.

(2) الْمَثْنُوِيَّةُ: الْإِسْتِثْنَاءُ.

(3) صَغَوْتُ إِلَى الشَّيْءِ أَصْنَعِي صَغِيًّا، وَصَغَوْتُ إِلَيْهِ أَصْغُو صَغَوًّا: مِلْتُ إِلَيْهِ، وَأَصْغَيْتُ إِلَى فُلَانٍ: مِلْتُ بِسَمْعِكَ نَحْوَهُ، وَأَصْنَعِي إِلَيْهِ رَأْسَهُ وَسَمْعَهُ: أَمَالَهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَلَا تَصْغَى إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]. أَي لِيَتَمِيلَ. (اللسان: صغا).

(4) الرِّيْبَةُ: الظَّنُّ وَالثُّمَّةُ.

(5) الشُّكُّ: الظَّنُّ وَالرَّيْبُ.

(6) حَتَمَهُ: أَوْجَبَهُ.

(7) الْمَعَالِمُ: جَمْعُ مَعْلَمٍ، وَهُوَ الْأَثَرُ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى الطَّرِيقِ، أَي الْمَنَارِ.

(8) الطَّاعَةُ: الْإِتْقَادُ لِلَّهِ وَالْعَمَلُ بِأَمْرِهِ.

(9) الْمَسَالِكُ: جَمْعُ مَسَلَكٍ، وَهُوَ الطَّرِيقُ.

(10) الْمَغْصِيَةُ: مُخَالَفَةُ أَمْرِ اللَّهِ وَعَدَمُ طَاعَتِهِ.

(11) يَهْلِكُ: يَمُوتُ.

(12) الْبَيِّنَةُ: الْحُجَّةُ.

(13) يُقَالُ: يَقَالُ أَحْيَاءُ اللَّهِ فَحْيٍ وَحَيٌّ أَيْضًا، وَالْإِدْغَامُ أَكْثَرُ، لِأَنَّ الْحَرَكَةَ لَازِمَةً، أَي حَرَكَةُ الْيَاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْمَاضِي،

وَهِيَ حَرَكَةُ بِنَاءٍ، فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَرَكَةُ لَازِمَةً لَمْ تُدْغَمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية 42] يَعْنِي فِي الْمَضَارِعِ.

(14) خَصَّهُ بِالشَّيْءِ: أَفْرَدَهُ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ.

(15) الْأَوْلِيَاءُ: جَمْعُ وَلِيٍّ، وَهُوَ النَّصِيرُ.

(16) فَقَّى عَلَى أَثَرِهِ بِفُلَانٍ: أَتْبَعَهُ إِيَّاهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿ثُمَّ فَقَّيْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ رَسُولَنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحديد: 27]. أَي أَتْبَعْنَا نُوْحًا وَإِبْرَاهِيمَ رَسُولًا بَعْدَهُمْ. (اللسان: قفا).

لِلنَّاسِ يَأْمُرُونَ الْمَعْرُوفَ⁽¹⁾، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ⁽²⁾. وَجَعَلَ اللَّهُ نِظَامَ⁽³⁾ الدِّينِ الَّذِي اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ، وَشَرَعَهُ لِمَنْ أَكْرَمَ مِنْ خَلْقِهِ، وَارْتَضَى⁽⁴⁾ لِتَنْزِيلِ وَحْيِهِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَتُبْلِيغِ رِسَالَاتِهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، إِلَى عِبَادِهِ، وَقَوَامُهُ⁽⁵⁾ وَعِصْمَتُهُ⁽⁶⁾ الطَّاعَةُ الَّتِي جَمَعَ اللَّهُ فِيهَا شُعَبَ⁽⁷⁾ الْخَيْرِ، وَأَنْوَاعَ الْبِرِّ⁽⁸⁾، وَمَنَاقِبَ⁽⁹⁾ الْفَضْلِ⁽¹⁰⁾، وَجَعَلَهَا وَاصِلَةً بِالْإِسْلَامِ سَبِيلاً⁽¹¹⁾ إِلَى كُلِّ هُدًى⁽¹²⁾ وَفَضِيلَةٍ⁽¹³⁾، وَاخْتِياراً لِكُلِّ سَعَادَةٍ⁽¹⁴⁾ وَكَرَامَةٍ⁽¹⁵⁾ فِي عَاجِلٍ وَأَجَلٍ، مَعَ مَا تَوَكَّلَ بِهِ مِنْ حِفْظِهَا وَمَنْعِهَا⁽¹⁶⁾، وَالذَّبِّ⁽¹⁷⁾ عَنْ خُرْمَتِهَا⁽¹⁸⁾، وَالنَّصْرِ لِمَنْ جَاهَدَ عَلَيْهَا، وَالْإِعْلَاءَ⁽¹⁹⁾ لِمَنْ أَوْجَبَهَا لَهُ مِنْ وِلَاةِ الْحَقِّ وَأَنْصَارِ الدِّينِ، وَالْإِظْهَارِ لَهُمْ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، وَنَكَبَ⁽²⁰⁾ عَنْ سَبِيلِهِمْ، وَأَرَادَ

(1) الْمَعْرُوفُ: كُلُّ مَا تُعْرِفُهُ النَّفْسُ مِنَ الْخَيْرِ وَتَأْسُ بِهِ وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ.

(2) الْمُنْكَرُ: كُلُّ مَا قُبْحُهُ الشَّرْعُ وَحُرْمَتُهُ وَكَرْهُهُ.

(3) نِظَامُ الدِّينِ: مَلَائِكَةُ وَقَوَامُهُ.

(4) ارْتِضَاؤُهُ: رَأَاهُ أَهْلًا لَهُ.

(5) قَوَامُ الْأَمْرِ: نِظَامُهُ وَعِمَادُهُ، أَيْ مَا يَسْتَقِيمُ بِهِ.

(6) الْعِصْمَةُ: الْمَنَعَةُ وَالْحِفْظُ وَالْوَقَايَةُ.

(7) الشُّعَبُ: جَمْعُ شُعْبَةٍ، وَهِيَ الْفِرْقَةُ وَالطَّائِفَةُ وَالْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ.

(8) الْبِرُّ: الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ وَالصَّدَقُ.

(9) الْمَنَاقِبُ: جَمْعُ مَنْقِبَةٍ، وَهِيَ كَرَمُ الْفِعْلِ، أَيْ الْمَحْمَدَةُ وَالْمَكْرُمَةُ وَالْمَائِثَةُ.

(10) الْفَضْلُ: الْكَمَالُ وَالتَّمْيِيزُ فِي الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ.

(11) السَّبَبُ: السَّبَبُ وَالصَّلَّةُ وَالذَّرِيعَةُ.

(12) الْهُدَى: الرُّشَادُ.

(13) الْفَضِيلَةُ: الدَّرَجَةُ الرَّفِيعَةُ فِي الْفَضْلِ.

(14) السَّعَادَةُ: الْإِعَانَةُ وَالتَّوْفِيقُ، يُقَالُ: أَسْعَدَهُ اللَّهُ، أَيْ أَعَانَهُ وَوَفَّقَهُ لِمَا يُرْضِيهِ عَنْهُ.

(15) الْكَرَامَةُ: الْعِزَازَةُ، وَهِيَ الْأَسْمُ مِنَ التَّكْرِيمِ وَالْإِكْرَامِ، أَيْ الْإِعْزَازُ وَالْإِعْظَامُ.

(16) الْمَنْعُ: الْحِيَاطَةُ وَالْحِمَايَةُ وَالتَّصْنُرَةُ.

(17) الذَّبُّ: الدَّفْعُ وَالْمَنْعُ.

(18) الْحُرْمَةُ: الذِّمَّةُ وَمَا لَا يَحِلُّ لَكَ انْتِهَاقُهَا.

(19) الْإِعْلَاءُ: الْإِظْهَارُ، أَوْ التَّشْرِيفُ وَالرَّفْعَةُ، يُقَالُ: غَلَّاهُ وَغَلَّاهُ وَغَلَّاهُ، إِذَا جَعَلَهُ عَالِيًا، أَيْ شَرَفَهُ وَرَفَعَهُ.

(20) نَكَبَ عَنِ الشَّيْءِ وَعَنِ الطَّرِيقِ وَعَنِ الصُّوَابِ: عَدَلَ عَنْهُ، وَنَكَبَهُ وَنَكَبَ عَنْهُ: عَدَلَ عَنْهُ وَاعْتَزَلَهُ، وَنَكَبَ فَلَانٌ عَنْهُ: مَالَ عَنْهُ، وَنَكَبَ عَنْهُ: تَجَنَّبَهُ.

المفارقة⁽¹⁾ لحَقِّهم، إلى ما كانَ أعدُّ⁽²⁾ لِجِزْبِها⁽³⁾ وأولياتها الذين نَصَرَهُمُ اللهُ، وأحلَّهُمُ⁽⁴⁾ بما لَزِمُوا⁽⁵⁾ منها، وحدُّبُوا⁽⁶⁾ عليها من التَّمَسُّكِ بها في رِضْوَانِ⁽⁷⁾ الله والتَّعْيِيمِ المَقِيمِ⁽⁸⁾ الذي لا تُغْيِرُ⁽⁹⁾ له، ولا انْقِطَاعُ⁽¹⁰⁾، ولا زَوَالُ⁽¹¹⁾، عطاء من رَبِّكَ غيرَ مَجْدُوذٍ⁽¹²⁾. وجَعَلَ المَغْصِيَةَ شِقَاءً⁽¹³⁾ وخساراً⁽¹⁴⁾ وتباراً⁽¹⁵⁾، وَسَبَباً لِكُلِّ نَقْصٍ⁽¹⁶⁾ وأزَلٍ⁽¹⁷⁾ وهوانٍ⁽¹⁸⁾ وحَسْرَةٍ⁽¹⁹⁾، فمن اعْتَصَمَ بها، وأقامَ⁽²⁰⁾ عليها، ودَعَا إليها، كانَ مِنْ إِخْوَانِها وَالْغَوَاةِ⁽²¹⁾ فِيها، مَعَ ما يُرِيهِمُ اللهُ

(1) المفارقة: المَبَايَنَةُ والمُخَالَفَةُ.

(2) أعدُّ: هَيَّأَ.

(3) الجِزْبُ: جماعة الناس، وجِزْبُ الرجل: أصحابُه وجُنْدُه الذين على رأيه. والمنافقون والكافرون: جِزْبُ الشيطان، وجِزْبُ الطاعة: المؤمنون.

(4) أحلَّهُم: أنزلهم.

(5) لزم الطاعة: ثَبَّتَ عليها وتَمَسَّكَ بها.

(6) حَدَبٌ على الشيء: تَعَلَّقَ به ولازَمَهُ.

(7) رضوان الله: مَحَبَّةٌ وتَقَبُّلٌ.

(8) المقيم: الدائم الذي لا ينقطع.

(9) التَّغْيِيرُ: التَّبْدِيلُ.

(10) الانْقِطَاعُ: الفَنَاءُ والنَّفَادُ.

(11) الزوال: الدَّهَابُ والاستحالة والاضْمِحْلالُ.

(12) غير مَجْدُوذٍ: غير مَقْطُوعٍ، أي دائمٌ مُتَّصِلٌ.

(13) الشقاء: الشَّدَّةُ والعُسْرَةُ.

(14) الخسار: الضَّلَالُ والهِلاكُ.

(15) التَّبار: الهلاك.

(16) النَقْصُ: الخُسْرانُ في الحِطِّ.

(17) الأزل: الضيق والشَّدَّةُ.

(18) الهوان: الدُّلُّ والضَّعْفُ والحِسَّةُ.

(19) الحسرة: أَشَدُّ التَّندَمِ.

(20) أقام على الأمر: ثَبَّتَ وذَامَ.

(21) الغواة: جمع غاوٍ، وهو الضَّالُّ المُنْهَمِكُ في الضَّلَالِ.

في أمرهم: من إذحاض⁽¹⁾ حُجَّتْهُمْ، وسوء مصارعهم⁽²⁾، وقطع⁽³⁾ مددِهم، وتفریق⁽⁴⁾ نظامهم، وإزهاق⁽⁵⁾ باطلهم، وإظهار أهل الطاعة عليهم، وإمكانه⁽⁶⁾ منهم في كل مجمع يجمع الله منهم جماعة، إلى ما أعد الله لهم من اليم⁽⁷⁾ العقاب⁽⁸⁾، وسوء الحساب⁽⁹⁾، وشديد العذاب⁽¹⁰⁾، ﴿لَا يُفَرِّقُهُمْ فِيهِمْ مَيْسُونٌ﴾^(١١) [الزخرف: 75]. فمن أراد الله إسناده⁽¹²⁾ وتوفيقه⁽¹³⁾ وتبصيره⁽¹⁴⁾ حظه⁽¹⁵⁾ لزِم الطاعة، وعرف حَقَّها وما جعل الله فيها من السعة والعصمة والمخرج⁽¹⁶⁾، فأثرها⁽¹⁷⁾، وواظب⁽¹⁸⁾ عليها، وكان من أهلها، وأدى⁽¹⁹⁾ الحق الذي أوجبه الله

(1) إذحاض حُجَّتْهُمْ: إبطالها.

(2) المصارع: جمع مصرع، وهو المكان الذي يصنع فيه الإنسان، أي يقتل.

(3) قطع الله مددهم: قطع أعمارهم، أي أهلكهم واستأصلهم، يقال: قطع الله عمره على المثل بقطع الشيء: أي إبانته من جرمه وفصله عنه، وهو نقيض قولهم: مد الله في عمرك، أي جعل لعمرك مدة طويلة.

(4) تفریق نظامهم: تشنيت جمعهم وتبديد شملهم.

(5) إزهاق باطلهم: إبطال ضلالهم.

(6) إمكانه منهم: إظفاره بهم.

(7) الأليم: المؤلم الموضع.

(8) العقاب والمعاقبة: أن تجزي الرجل بما فعل سوءاً، والاسم العقوبة، وعاقبه ببدله: أخذه به.

(9) الحساب: المجازاة، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَحَاسَبُنَهَا حِسابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق: 8]. الحساب الشديد: هو الاستقصاء والمناقشة، فلم تُغْفَرْ لهم زلة، بل أخذوا بالدقائق من الذنوب. (البحر المحيط 286:8، وانظر 431:3).

(10) العذاب: النكال والعقوبة.

(11) لا يُفَرِّقُهُمْ: أي لا يخفف ولا يُنْقِصُ، من قولهم: فترت عنه الحمى، إذا سكنت قليلاً ونقص حرها. والمبليس: الساكت اليأس من الخير. (البحر المحيط 27:8).

(12) الإسعاد والمساعدة: متابعة العبد أمر ربه ورضاه.

(13) التوفيق: الهداية والإرشاد والتسديد.

(14) التبصير: التعريف والإيضاح.

(15) الحظ: النصيب.

(16) المخرج: المصنر. والمراد النجاة والخلاص والسلامة.

(17) أثر الأمر: فضله وقدمه.

(18) واطب على الشيء: لازمه وداوم عليه وثابر.

(19) أدى الحق: قضاه.

عليه، لَوْلِيَّهَا إِلَيْهِ، فَأَحْزَرَ⁽¹⁾ بِذَلِكَ نَفْسَهُ، وَسَلَّم⁽²⁾ بِهِ دِينَهُ، وَاسْتَكْمَلَ بِهِ أَفْضَلَ مَا يَرْغَبُ⁽³⁾ بِهِ مِنْ ثَوَابِ رَبِّهِ، وَلَمْ يَكُنْ مُتَخَوِّفًا⁽⁴⁾ لِلْغَيْرِ⁽⁵⁾ فِي دُنْيَاهُ، مُتَوَقِّعًا⁽⁶⁾ لِلنِّقَمِ⁽⁷⁾، مُتَوَكِّفًا⁽⁸⁾ لِلْقَوَارِعِ⁽⁹⁾ أَجَلَّتْ بِأَهْلِلِ الْمَعْصِيَةِ وَالْخِلَافِ⁽¹⁰⁾ وَالْمُفَارَقَةِ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي أَمْنٍ⁽¹¹⁾ وَنَجَاةٍ⁽¹²⁾ وَسَلَامَةٍ⁽¹³⁾ وَعَافِيَةٍ. وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ ضَمِيرِهِ⁽¹⁴⁾ وَدَفِينِهِ⁽¹⁵⁾، تُخْلَى⁽¹⁶⁾ مِنْهُ، وَأَسْلَمَهُ⁽¹⁷⁾ إِلَى قَرِينِهِ⁽¹⁸⁾ وَمَا يُسْأَلُ⁽¹⁹⁾ لَهُ مِنْ غُرُورِهِ⁽²⁰⁾، وَيُمْنِيهِ⁽²¹⁾ مِنْ

(1) أَحْزَرَ نَفْسَهُ: حَفِظَهَا وَحَصَّنَهَا وَقَاَهَا وَصَانَهَا.

(2) سَلَّمَ دِينَهُ: خَلَّصَهُ وَنَجَّاهُ وَأَنْقَذَهُ وَحَمَاهُ.

(3) رَغِبَ فِي الشَّيْءِ: أَرَادَهُ.

(4) الْمُتَخَوِّفُ كَالْخَائِفِ: وَهُوَ الْحَذَرُ الْمُتَحَرِّزُ الْمُشْفِقُ.

(5) الْغَيْرُ: تَغْيِيرُ الْحَالِ وَانْتِقَالُهَا مِنَ الصَّلَاحِ إِلَى الْفَسَادِ، وَغَيْرُ الدَّهْرِ: أَحْوَالُهُ الْمُتَغْيِرَةُ، وَهِيَ قَرِيبٌ مِنْ صَرْفِ الدَّهْرِ، أَيْ حِذَانُهُ وَنَوَائِبُهُ.

(6) الْمُتَوَقِّعُ: الْمُتَنَظِّرُ الْمُتَخَوِّفُ.

(7) النَّقْمُ: جَمْعُ نَقَمَةٍ، وَهِيَ الْعُقُوبَةُ.

(8) الْمُتَوَكِّفُ: الْمُسْتَقْطَرُ، الْمُسْتَدِيرُ.

(9) الْقَوَارِعُ: جَمْعُ قَارِعَةٍ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ الْمُهْلِكَةُ.

(10) الْخِلَافُ: الشَّقَاقُ وَالْعِدَاوَةُ.

(11) الْأَمْنُ: الْأَطْمِنَانُ وَالسُّكُونُ.

(12) النِّجَاةُ: الْخِلَاصُ.

(13) السَّلَامَةُ: الصِّحَّةُ وَالْعَافِيَةُ.

(14) الضَّمِيرُ: السِّرُّ وَدَاخِلُ الْخَاطِرِ، أَيْ الشَّيْءِ الَّذِي تُضْمِرُهُ فِي قَلْبِكَ.

(15) الدَّفِينُ: السِّرُّ، أَيْ الْأَمْرُ الْمَسْتُورُ.

(16) تُخْلَى مِنْهُ وَعَنْهُ: تَرَكَهُ.

(17) أَسْلَمَهُ: أَلْقَاهُ فِي الْهَلَكَةِ وَلَمْ يَخْهِمْ مِنْ عَذَابِهِ.

(18) الْقَرِينُ: الْمَصَاحِبُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ. وَالْمُرَادُ الشَّيْطَانُ.

(19) سَوَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ: أَغْوَاهُ، وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْأَمْرَ: زَيَّنَتْهُ لَهُ.

(20) الْغُرُورُ: الْبَاطِلُ، أَوِ الْبَاطِلُ كَأَنَّهَا جَمْعُ غَارٍ، مِثْلُ شَاهِدٍ وَشُهُودٍ، وَقَاعِدٍ وَقُعُودٍ.

(21) مَنَاهُ: غَرَّهُ وَخَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بِالْأَبَاطِيلِ.

أباطيله⁽¹⁾، فاستشعروا⁽²⁾ [المغصية]⁽³⁾ وركبوا⁽⁴⁾، ودخلوا⁽⁵⁾ مع العواة فيها ودعوا⁽⁶⁾ إليها، فكاثوا خائفين ولائذين⁽⁷⁾ مترقبين⁽⁸⁾ للتي يخافون أن تحل بهم، وتأتي⁽⁹⁾ عليهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿٣١﴾ [القارة: 31].

-
- (1) الأباطيل: الأضاليل والأكاذيب والأمانى.
(2) استشعر الثوب: لبسه، واستشعر الخوف: أضمره، وهو مأخوذ من الشعار، وهو ما ولي شعرا جسدا الإنسان دون ما سواه من الثياب. والمراد خالطوا أو داخلوا.
(3) زيادة يتم بها المعنى ويستقيم.
(4) ركبوا المغصية: أثروها، أي اقترفوها واكتسبوها.
(5) دخل معه في الأمر: شركه فيه.
(6) دعا إلى الشيء: رغب فيه وأغرى به.
(7) اللأئذ: الملتجئ العائد، يقال: لاذ به، أي لجأ إليه وعاذ به.
(8) المترقب: المنتظر المتوقع.
(9) أتى عليه: أهلكه.

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُهُ أَنْ يُلْهِمَهُ ⁽¹⁾ الرَّأْفَةَ ⁽²⁾ وَالرَّحْمَةَ ⁽³⁾ بِرَعِيَّتِهِ، وَالْإِصْلَاحَ ⁽⁴⁾ إِلَيْهِمْ، وَالْمُعْدَلَةَ ⁽⁵⁾ فِيهِمْ، وَأَنْ يُلْهِمَ رَعِيَّتَهُ الطَّاعَةَ وَالْوَفَاءَ ⁽⁶⁾ وَالْمُنَاصَحَةَ ⁽⁷⁾، وَيَزِيدَ الْمُحْسِنِينَ ⁽⁸⁾ مِنْهُمْ إِحْسَانًا، وَيَقْبَلَ ⁽⁹⁾ تَوْبَةَ ⁽¹⁰⁾ الثَّائِبِ ⁽¹¹⁾، وَيُرَاجِعَ ⁽¹²⁾ الْمُسِيءَ ⁽¹³⁾ إِلَى مَحَبَّتِهِ ⁽¹⁴⁾، وَأَنْ يُلْهِمَهُ وَإِيَّاكُمْ خَالِصَ الشُّكْرِ ⁽¹⁵⁾ وَصَالِحَ الْعَمَلِ.

- (1) أَلْهِمَهُ اللَّهُ خَيْرًا: لَقَّنَهُ إِيَّاهُ، أَوْ أَلْقَى فِي نَفْسِهِ أَمْرًا يَنْبَغُهُ عَلَى الْفِعْلِ أَوْ التَّرْكِ، أَيْ أَوْحَى إِلَيْهِ.
- (2) الرَّأْفَةُ: أَرْقُ مِنْ الرَّحْمَةِ، وَلَا تَكَادُ تَقَعُ فِي الْكِرَاهَةِ، وَالرَّحْمَةُ تَقَعُ فِي الْكِرَاهَةِ لِلْمُصْلَحَةِ.
- (3) الرَّحْمَةُ: الرُّقَّةُ وَالْتِعْطُفُ.
- (4) الْإِصْلَاحُ: الْإِحْسَانُ.
- (5) الْمُعْدَلَةُ: الْعَدْلُ، وَهُوَ الْحُكْمُ بِالْحَقِّ.
- (6) الْوَفَاءُ: الصَّدْقُ وَعَدَمُ الْغَدْرِ.
- (7) الْمُنَاصَحَةُ: إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ.
- (8) الْمُحْسِنِينَ: الَّذِي أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: الْمُحْسِنُ: الْمُخْلِصُ الْقَائِمُ بِالْأَوَامِرِ الْمُتَنَاهِي عَنِ الْمُنَاهِي (البحر المحيط 1:352).
- (9) قَبِلَ الشَّيْءَ وَتَقَبَّلَهُ: أَخَذَهُ. وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ الْأَعْمَالَ مِنْ عِبَادِهِ وَعَنْهُمْ وَيَتَقَبَّلُهَا: أَيْ يَأْخُذُهَا وَيَرْضَاهَا.
- (10) التَّوْبَةُ: الرَّجُوعُ مِنَ الذُّلْبِ.
- (11) الثَّائِبُ: الْمُتَيْبُ الرَّاجِعُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ.
- (12) يُرَاجِعُ: بِمَعْنَى يَرْجِعُ، أَيْ يُعِيدُ وَيَزِدُّ، يُقَالُ: ارْتَجَعَ الْمَرْأَةُ وَرَاجَعَهَا مُرَاجَعَةً وَرِجَاعًا، إِذَا رَدَّهَا إِلَى نَفْسِهِ بَعْدَ الطَّلَاقِ.
- (13) الْمُسِيءُ: الْمُخْطِئُ.
- (14) مَحَبَّةُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ وَمَرْضَاؤُهُ.
- (15) الشُّكْرُ: مِثْلُ الْحَمْدِ إِلَّا أَنَّ الْحَمْدَ أَعْمُ مِنْهُ، فَإِنَّكَ تُحَمِّدُ الْإِنْسَانَ عَلَى صِفَاتِهِ الْجَمِيلَةِ وَمَعْرُوفِهِ، وَلَا تُشْكِرُهُ إِلَّا عَلَى مَعْرُوفِهِ دُونَ صِفَاتِهِ. وَالشُّكْرُ مُقَابَلَةُ النِّعْمَةِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالنِّيَّةِ فَيُشْنَى عَلَى الْمُحْسِنِ بِلِسَانِهِ وَيُذَيَّبُ نَفْسُهُ فِي طَاعَتِهِ، وَيَعْتَقَدُ أَنَّهُ مُوَلِّيهَا.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1. ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد (637هـ / 1239م). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة، طبع نهضة مصر، الطبعة الأولى، 1959 - 1962م.
2. ابن الأثير، علي بن محمد (630هـ / 1233م)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الفكر، 1978م.
3. الأخطل، غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو (90هـ / 708م)، ديوانه، شرح وتقديم محمد ناصر الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1986م.
4. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (370هـ / 980م)، تهذيب اللغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.
5. البغدادي، عبد القادر بن عمر (1093هـ / 1682م)، خزانة الأدب ولب لباب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1967م.
6. الثعالبي، عبد الملك بن منصور (429هـ / 1038م)، الاقتباس من القرآن الكريم، تحقيق ابتسام مرهون الصفار، دار الحرية، بغداد، 1975م.
7. الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (255هـ / 869م)،
أ. البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية.
ب. رسائل الجاحظ، بيروت، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، 2000م.
8. جرير بن عطية الخطفي (114هـ / 732م)،
أ. ديوانه، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.
ب. ديوانه، تحقيق نعمان محمد أمين طه، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1976م.
9. جميل بن معمر (82هـ / 801م)، ديوانه، جمع وتحقيق حسين نصار، طبع مكتبة مصر، د.ت.
10. ابن أبي الحديد، أبو حامد بن هبة الله بن محمد (656هـ / 1228م)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر 1965م.

11. ابن حزم، أبو محمد، علي بن سعيد (456هـ / 1073م)، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، 1962م.
12. حسان بن ثابت (54هـ / 674م)، **ديوانه**، بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، 1961م.
13. الخطيئة، جرول بن أوس بن مالك العبسي (45هـ / 665م)، **ديوانه**، شرح يوسف عيد، بيروت، دار الجليل، الطبعة الأولى، 1992م.
14. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (808هـ / 1386م)، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، 1960م.
15. الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد (24هـ / 645م)، **الديوان**، تحقيق أنور أبو سويلم، عمان، دار عمار، الديوان، الطبعة الأولى، 1988م.
16. الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد (748هـ / 1348م) **سير أعلام النبلاء**، تحقيق مأمون الصاغرجي وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1981م.
17. ذو الرمة، غيلان بن عقبة (117هـ / 736م)، **ديوانه**، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1974م.
18. ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي (456هـ / 1064م)، **العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده**، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجبل، الطبعة الخامسة، 1981م.
19. ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج (283هـ / 896م)، **ديوانه**، تحقيق حسين نصار، القاهرة، وزارة الثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة دار الكتب، 1973م - 1981م.
20. الزمخشري، جاد الله محمود بن عمر (538هـ / 1143م)، **أساس البلاغة**، بيروت، دار صادر ودار بيروت، 1965م.
21. أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب (المتوفى أوائل القرن الرابع الهجري)، **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، تحقيق محمد علي الهاشمي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، 1986م.
22. ابن سلام، محمد الجمحي (232هـ / 846م)، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1974م.
23. سيويو، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (180هـ / 796م)، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1983م.

24. الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي (436هـ / 1044م)، **الأمالي** (غرر الفرائد ودرر القلائد)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، 1967م.
25. الشهرستاني، أبو الفتح، محمد بن عبد الكريم (548هـ / 1154م)، **الملل والنحل**، تحقيق محمد سيد الكيلاني، طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1976م.
26. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ / 922م)، **تاريخ الطبري** (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1960م - 1968م.
27. أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي (351هـ / 962م)، **مراتب النحويين**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، طبع نهضة مصر، د.ت.
28. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (463هـ / 1071م)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر.
29. ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (328هـ / 940م)، **العقد الفريد**، تحقيق محمد سعيد العريان، بيروت، دار الفكر، 1954م.
30. أبو عبيدة، معمر بن المثنى (209هـ / 824م)، **نقااض جرير والفرزدق**، تحقيق بيفان، ليدن، 1905م - 1912م، أعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد طبعة بالأوفست.
31. علي بن حمزة، أبو القاسم اللغوي البصري (375هـ / 985م)، **التبیهات على أغاليط الرواة** (ضمن المنقوص والممدود للفرءاء)، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الأولى، 1967م.
32. ابن فارس، أبو الحسين أحمد (395هـ / 1004م)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، 1981م.
33. الفارقي، أبو نصر الحسن بن أسد (487هـ / 1094م)، **الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب**، تحقيق سعيد الأفغاني، دمشق، مطبعة الجامعة السورية، الطبعة الأولى، 1958م.
34. الفرزدق، همام بن غالب (114هـ / 732م)، **ديوانه**، تحقيق علي فاعور، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1987م.
35. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (276هـ / 889م)،
 أ. **الشعر والشعراء**، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الرابعة، 1980م.
 ب. **عيون الأخبار**، القاهرة، دار الكتب، 1925م.

36. القلقشندي، أحمد بن عبد الله (821هـ / 1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، دار الكتب المصرية، د.ت.
37. كعب بن زهير (24هـ / 622م)، شرح ديوان كعب بن زهير، السكري، بيروت، دار الكتب، 1965م.
38. المبرد، محمد بن يزيد، (286هـ / 899م) التعازي والمراثي، تحقيق محمد الديباجي، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، الطبعة الأولى، 1976م.
39. ابن المرتضى، أحمد بن يحيى (774هـ / 1372م)، المنية والأمل في شرح الملل والنحل، دار الندى للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1990م.
40. المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران (384هـ / 994م)، الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبها، الطبعة الثانية، 1385م.
41. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (346هـ / 957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، لا. طب، د.ت.
42. الفضل الضبي، محمد بن يعلى (178هـ / 794م)، المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، 1964م.
43. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (711هـ / 1311م)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت.
44. النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، ديوانه، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، د.ت.
45. النديم، محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق أبو الفرج (438هـ / 1047م)، الفهرست، نشر فلوجل، طبعة ليزبيج، 1972م.
46. ابن هشام، أبو محمد، عبد الملك (218هـ / 834م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا ورفيقه، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
47. ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله (626هـ / 1228م)،
 أ. معجم الأدباء، القاهرة، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1938م.
 ب. معجم البلدان، بيروت، دار بيروت، 1980م.

ثانياً: المراجع

1. الأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1974م.
2. أنيس، إبراهيم، من أسرار اللغة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، 2010م.
3. حسين، طه،
أ. حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر، د.ت.
ب. من حديث الشعر والنثر، دار المعارف بمصر، 1961م.
4. حسين، محمد محمد، الهجاء والهجاءون في الجاهلية، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، 1970م.
5. خفاجي، عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثالثة، 1984م.
6. خليل، إبراهيم، النص الأدبي: تحليله وبناءؤه، عمان، دار الكرمل، الطبعة الأولى، 1995م.
7. الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ أدب العرب، بيروت، مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى، 1997.
8. أبو زيد، سامي، الفرزدق والنقاد، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة القديس يوسف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بيروت، 1990م - 1991م.
9. الصابوني، ظافر، صفوة التفاسير، بيروت، دار القرآن الكريم، الطبعة الثانية، 1981م.
10. الصفار، ابتسام:
أ. آفاق الأدب في العصر الأموي، عمان، دار حنين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2005م.
ب. أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري، بغداد، دار الرسالة، 1974م.
ج. الأمالي في الأدب الإسلامي، عمان، دار المناهج، 2000م.
11. صفوت، أحمد زكي، جهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، 1937م.

12. ضيف، شوقي،

أ. التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة، د.ت.

ب. تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة عشرة، د.ت.

13. عباس، إحسان، شعر الخوارج، بيروت، دار الفكر، د.ت.

14. عتيق، عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، 1972م.

15. علي، محمد عثمان، في أدب الإسلام، بيروت، دار الأوزاعي، د.ت.

16. العلوي، جعفر بن السيد، مواسم الأدب وآثار العجم والعرب، الطائف، مكتبة المعارف، د.ت.

17. فيصل، شكري، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، بيروت، دار العلم للملايين.

18. القاضي، النعمان عبد المتعال، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، دار المعارف بمصر، د.ت.

19. القصبي، غازي، قصائد أعجبتني، الرياض، دار ثقيف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1992م.

20. القط، عبد القادر، في الشعر الإسلامي والأموي، بيروت، دار النهضة العربية، 1987م.

21. مطلوب، أحمد، بحوث لغوية، عمان، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1987م.

22. هذارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م.

